

تَعْلَمُوا التَّيَّاسَةَ

# ظهور وسقوط جمهورية قايما

مأساة التخطيط  
في اتخاذ المواقف

جمال البنا

0092462





جمال البنا

# ظهور وسقوط جمهورية قايما

---

مأساة التخطيط  
في اتخاذ المواقف

---

مطبعة حسان  
٢٢٤ شارع الجيش - ت ٨٣٣٥١٠ القاهرة





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة

تتكون قصة جمهورية فايمار منذ ظهورها في سنة ١٩١٨ حتى تحللها سنة ١٩٣٣ من ثلاثة فصول أساسية .

**الفصل الاول :** تحديد المسار وهذا الفصل على قصره — إذ قد بت فيه قبل نهاية العام الثاني للثورة ، وعلى ظلم البعض له وجهالة الآخرين به ، يستحق الأهمية العظمى إذ يتوقف عليه المستقبل ويمكن لانحراف قد لا يكون محسوسا في البداية أن ينتهى به من أقصى الشمال إلى أقصى اليمين ، وعندما لا يكون واضحا ومحددا فقد يوقع البلاد في دوامة ، أو متاهة ، أو حلقة مفرغة ، أو طريق مسدود . . .

وبالنسبة لجمهورية فايمار ، فإن هذا الفصل خضع لعدد كبير من للفارقات أوجدت تجاذبا حادا بين اليسار الثورى واليمين الاصلاحى ، وظهرت آثارها من البداية ، أى من اعلان الجمهورية في نوفمبر سنة ١٩١٨ حتى اجتماع الجمعية الوطنية سنة ١٩١٩ واتخاذها النظام البرلمانى الكلاسيكى ، وليس نظام المندوبين أساسا للحكم .

**الفصل الثانى :** المسيرة المتعثرة وهذا الفصل يبدأ من النهاية الدرامية للفصل الأول وانسحاب آثاره مما جعل مسيرة الجمهورية الناشئة متعثرة حافلة

— ٤ —

بالأخاديد والمعوقات والمضاعفات بحيث لم تكن لتخرج من مأزق إلا لتقع في مأزق آخر ...

الفصل الثالث : النهاية المحتومة التي لم يعد مناص عنها عندما ترا كمت الأخطاء وظهر جلياً عجز النظام وعقمه وتمزقه .. بحيث انفسح المجال لظهور قوة جديدة باطشه تبرا تماماً من آثار المفارقات التي تحكم في حياة الجمهورية منذ ميلادها . . وكانت أشبه بلعنة أوصلتها إلى قبرها ولما تبلغ الخامسة عشر ربعا .

\* \* \*

وقصة قائمار هي في جوهرها مأساة التخبط في تحديد المواقف واتخاذ القرارات السليمة ، وهي تصور كما لو كانت مأساة رومانتيكية التعارض بين العواطف والوقائع ، تعقيد الأوضاع وتبسيط الأفراد ، فقد أخذت المانيا النائرة بسحر الفكر الماركسي الذي تبدى لها في أبهى ما يمكن أن يتبدى فيه فكر محكم ، فتورطت معه كما تتورط الفتاة الغريبة في عشق بطل اسطوري ولم تكن هذه العلاقة من زاوية النكافؤ أو الدوام أمرا سليما . ولكنها حدثت بالفعل ورزقت مساعدة عوامل طارئة بحيث وصلت إلى غايتها عندما أعلنت الجمهورية وظهرت مجالس العمال والجنود ، وعندئذ فحسب ، تنبّهت ألمانيا إلى خطئها التاريخي ، وتبينت أن علاقتها تلك كانت سفاحا مذهيباً ، وليست زواجا شرعياً . . فما أن أحست بشمرة هذه العلاقة تتقلب بين جنبيها ، وأن هذا الوليد الخوف يتسكون في رحمها حتى أسرع باجهاضه ، وتم ذلك بطرق عنيفة حتى سقط مضرجا بالدماء ( مقتل روزا لوكسمبرج ) ولكن آثار التزيف ، والانهاك وحمى النفاس كلها جعلت حياة الأم جحيماً . . خاصة وأن النظام البرلماني الذي أخذت به لم يساعد على التثام جراحها بل إنه فاقمها .. واضطرت



لأن تدفع ثمن لحظة الغرام المذهبي كما دفعت من قبل لحظة استعلاء حاكمها المتعجرف وكما دفعت بعد ذلك ثمن غرور ديكتاتورها المتهور . . . وكان ثمن هذه الحلقات المتوالية هو : الحرب العالمية الأولى ، سقوط جمهورية فايمار ، الحرب العالمية الثانية ، فما أقسى الثمن الذى تدفعه الشعوب والجمهير ثمننا لأخطاء قادتها وحكامها المسيطرين أو دعاتها المتعجلين وجزاء لطاعتها لهم . . « إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » .



وفى المسرحية السياسية « طبول فى الليل » قدم الكاتب المسرحى الألمانى « برتولد بريخت » الذى عاصر أحداث فايمار وشاهد ظهورها وسقوطها تصوراً يماثل تصورنا . وإن كان قد رجع عنه وكفر به فيما بعد . وقد كتب بريخت مسرحيته تلك عام ١٩٢٠ ومثلت عام ١٩٢٢ فى ميونيخ وكانت أساساً لشهرة بريخت الشاب ككاتب مسرحى وصور لنا فيها بريخت جندياً يدعى « كراجلر » ينخرط فى الحرب العالمية وتنقطع أخباره عن خطيبته آنا التى ترتبط بعلاقة جديدة مع صديق آخر يدعى بورك تتمخض عن جنين يدفع آنا لتسكون خطيبة بورك . ويتم الاتفاق والاحتفال بذلك فى مساء اليوم الذى يعود فيه كراجلر ، فيشهد مراسم الاحتفال بالخطبة ، ويصدمه ذلك صدمة عنيفة . فيخرج هائماً على وجه لينضم إلى الثوار فى ذلك الأسبوع الأحمر الذى شاهد قومه « سبرتاكوس » . وبعد فترة تسأم آنا عشرة بورك وتأخذ فى البحث عن كراجلر حتى تهتدى إليه . وعندئذ يتغير موقف كراجلر تماماً ، إذ يقطع علاقته بالنشاط الثورى قائلاً « الآن جاء دور السرير الناصع البياض » ويعيش مع آنا فى سلام حريصاً على حياته « البورجوازية » الرتيبة .

وبعد عشرين عاماً من إصدار بريخت لهذه المسرحية ، عندما أصبح

اشتراكيا مرموقاً تنسك لهذه الخاتمة واعتذر عنها بأنه لم يكن قد توصل إلى عمق وأهمية الثورة البلوريتاريه . ودعا القراء والمشاهدين لأن يحولوا عطفهم على كراجلر إلى كراهية لتصرفه « الخسيس » ولكن الحقيقة تظل بعد هذا أن الانطباع الأول الذى دفع بريخت لتكليف المواقف والخاتمة ، كما جاءت فى « طبول فى الليل » هو الانطباع الطبيعى ، والسليم أيضاً . فلم يكن تصرف كراجلر خسيساً كما أدعى بريخت عندما غلب على الفنان فيه الداعيه السياسى . ولولا غلبة التأثير السياسى عليه لرأى أن تصرف كراجلر كان تصرفاً طبيعياً وسليماً لأن اتجاهه الأول إلى الثورة لم يكن عن ايمان منه بها ، وإنما جاء رد فعل لانصراف حبيبه عنه — أى أن الاتجاه الثورى لم يكن أصيلاً ، وإنما كان بديلاً فعندما عاد الأصيل انتفى البديل . وقد قال الزمن نفسه قوله فإن بريخت نفسه فقد فى أيامه الأخيره حماسه للاشتراكية ، أو على الأقل هتت هذه الحماسه ، وقد نجد فى هذا الكتاب إشارة إلى ذلك ...

\* \* \*

وقد يضيق بعض القراء لأننا لم نلجأ إلى التبسيط المريح ، ولم نصدر حكماً بادانه بأنه أو بتبرئه تامة لكل الذين قدمتهم جمهورية فايمار وأسهموا فى قيامها وسقوطها : الحزب الاشتراكى الديمقراطى . النقابات . النازى الخ . . . وربما كان الشيوعيون هم الاستثناء الوحيد ، ومع هذا فقد عرضنا الجوانب الانسانية والكريمه فى زعيمه الشيوعيين روزا لوكسمبرج . ولعل هؤلاء القراء كانوا يؤثرون أن تقدم لهم الصورة « بالأبيض والأسود » ولكن السياسة التى استهدف الكتاب تقديمها لا تصور بالأبيض والأسود . . . وإنما بالألوان ، التى يتكون معظمها من امتزاج الألوان الأصلية بعضها ببعض . إن السياسة فن كما هى علم والجانب الفنى فيها يجعل أى تقديم لها فى شكل رياضى حاد الزوايا ، محدد الأطراف ظلاماً لها وتحيماً عليها . وقد حاولنا أن تقدم الصورة

كاملة بأعماقها وسطوحها . حسناتها وسوءاتها .. قوتها وضعفها ليكون الانطباع عنها شاملا وأميناً وعادلاً .

\* \* \*

لكى يمكن الخلاص من مثل مأزق فايمار ، الذى تتخبط فيه بعض مناطق الوطن العربى ، أو يتهدد مناطق أخرى كتبنا هذه الدراسة ، وقدمناها تحت شعار « تعلموا السياسة » لآيماننا بأن نقص التشقيف السياسى بعد من اكبر وجوه النقص والضعف التى تتعرض لها الشعوب . وفى نظرنا أن نكسه ١٩٦٧ المدوية لا تعود إلى أسباب عسكريه خارجية بقدر ما كانت نتيجة للجهالة السياسية التى أطبقت على المجتمع المصرى قادة وجمهوراً . ولا ريب أن المجتمع المصرى قد تعلم منها درساً قاسياً ودفع ثمناً فادحاً . ومع هذا فلا يزال ينقصنا تأصيل هذا الدرس وتعميقه بحيث نخرج منه بثقافة سياسيه راسخه ورصينة . والواقع أن نكسه ١٩٦٧ كانت هى الدافع الأول للتفكير فى إصدار هذه الدراسة . وكانت الصورة الأولى لها أن تصدر فى كتاب واحد تحت عنوان « الالهم ساعات محنتها » وأن يتضمن ثلاثة فصول عن فايمار ، وعن الاتحاد السوفيتى وعن تركيا غداة معاهده سيفر ، ولكنى ما أن بدأت الكتابة حتى استفاضت السطور ووجدت أن من الظلم للموضوع أن يصدر فى كتاب واحد وأن الأفضل ان يصدر كل فصل فى دراسة مستقلة تبرز جانباً معيناً من الجوانب المأساوية فى تاريخ هذه الدول . وكانت الأولى هى فايمار والجانب المأساوى فيها هو « التخبط فى تحديد المواقف » ونرجو إن شاء الله أن يصدر كتابا الاتحاد السوفيتى وتركيا .

وأنا أهدى هذه الدراسة إلى القيادات الشابة فى التكتلات الجماهيرية .  
فقد لمست بنفسى جريرة الجهالة السياسية على كتلتين من أعظم تكتلات

المجتمع المصرى . فقد أراد الله أن أعاش معاشه وثيقه « الاخوان المسلمين »  
 فى عهدها الأول . وكانت وقتئذ أصدق الهيئات المصرية تمثيلاً للشعب .  
 ويوجه خاص قاعدته العريضة — الريفيين . وكانت أكبر التكتلات الجماهيرية  
 المصرية وأكثرها شجاعة وإيماناً وأطهرها ذمّة ويدرأً ، ورزقت قيادة نابغة ،  
 ولكن هذا كله لم يشفع لها تجاه ضحالة وعيها السياسى الذى جعلها تضيع  
 الفرص التى سنحت لها . والتى لو أحسنت انتهازها لأفادت المجتمع المصرى  
 والعربى ولوقته كثيراً من المزالق التى انزلق اليها ، ثم طويت هذه الصفحة  
 لأعاش عن كسب كتله جماهيرية أخرى هى الحركة العمالية التى لم يتوفر  
 لقياداتها ولا لجمهورها ثقافة سياسية فكانت النتيجة أن أصبحت لعبة  
 الحكام . . . وأن جاءت فى ذيل الهيئات . ولم تستطع أن تخدم جمهورها  
 أو تخدم المجتمع المصرى . مع أنها هى الهيئة الوحيدة التى احتفظت بوجودها  
 من أيام ما قبل الثورة . . . وأنها هى التى تحرك عجلة المجتمع والإنتاج .  
 ولا تنقصها الجماهير . . . أو الإمكانيات .

مع هذا ، ورغم أننا تقدم بحثنا تحت شعار « تعاملوا السياسة » فنحن  
 لا تساورنا أية أوهام عن أثر عاجل لهذا الكتاب . فقد خبرنا من الضعف  
 البشرى ، ومن فجور الأقوياء واستخذاء الضعفاء وغلبة السلبية والأمر  
 الواقع ما فيه الكفاية . . . ونحن نعلم حق العلم أن هذه الكلمات التى نكتبها  
 فى وحدة ، ونطبعها على حسابنا الخاص قد تكون « صيحة فى واد » ولكن  
 هذا لن يمنع من أنها — كما ارتأى ذلك الكواكبى فى طبائع الاستبداد —

... إن ذهبت اليوم مع الريح

فقد تذهب غداً بالأتاد . . .

وقبل هذا حدثنا القرآن عن الذين يعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم

عذاباً شديداً . وأن هذا لم ينهم « قالوا معذرة إلى ربكم ، ولعلمهم يتقون » وهو ما يعطينا درساً . ان على الداعية أن يقوم بدعوته وإن بداله أن الهلاك قد حُق على قومه . إن على الكاتب أن يكتب حتى لو لم يجد قارئين . وعلى الخطيب أن يخطب حتى وإن لم يجد مستمعين ، لأن هذا هو واجبه ، وأداؤه له يبرىء ساحته ، ولأن هذا الأداء لن يذهب هدراً كما يبدو ، إن الكلمة المكتوبة ستهتدى إلى قارئها المفقود . والكلمة المنطوقة ستجذب سامعها الغائب . . فلا يأس . . حتى وإن لم يكن هناك أمل في حاضر مائل أو مستقبل وشيك . .

بهذه الروح نقدم « ظهور وسقوط جمهورية فايمار » .

يناير ١٩٧٧

جمال البنا





## الباب الأول

### ألمانيا حتى الحرب العالمية الأولى

**الفصل الأول :** التطور السياسى .

**الفصل الثانى :** الحركات التحررية والشمبية حتى ثورة ١٨٤٨ .

**الفصل الثالث :** تطور الحركة الاشتراكية الألمانية حتى نهاية القرن التاسع عشر .

**الفصل الرابع :** صراع الأفسكار والوقائع « تطور الاشتراكية الألمانية من بداية القرن العشرين حتى الحرب العالمية الأولى .



# الفصل الأول

## التطور السياسى

فى بعض الحالات يكون الموقع الجغرافى لدولة ما شئوما عليها ولعنه تلاحق  
حاضرهما ومستقبلها وتفرض عليها أعباء إضافية تجاه الدفاع عن كيانها أو تحقيق  
وحدتها . الأمر الذى تنجو منه دولة أخرى بفضل بحر أو نهر أو جبل أو حتى  
مجرى مائى ضيق كالمانش يفصل بينها وبين جيرانها الطامعين ويحقق لها الأمن  
والطمأنينة وتكوين وحدتها تكويننا ثابتا مستقرا .

وقد أراد الله لألمانيا أن تتوسط السهل الأوربى للمفتوح الذى كان لا بد  
أن تعبره موجات الهجرة من الشرق الآسيوى القاحل إلى السهل الأوربى  
الخصيب ، وأن لا تحيط بها من الحدود الجغرافية المنيعه ما يصددها . وأصبح  
هلى شعبها وأهلها أن يكونوا فى رباط دائم لرد الغزاة وأن يتعرضوا لكل  
ما تلحقه الحروب من دمار وخراب واضطراب .

ومنذ أقدم العصور ، وقد بدت جريرة الموقع الجغرافى على ألمانيا فكانت  
أرضها معبراً للهجرات ، وكانت الغنينة الكبرى للأباطورية الرومانية التى  
أزجت إليها الفيالق بعضها أثر بعض ، واصطلى الجرمان — الذين كانوا وقتئذ  
قبائل حرة ، محاربة ، تحيا حياة البداوة ، ولا تعتصم بالأسوار والجدران —  
بنار هذه الحرب . وأثبتوا أنهم أهل للرومان . . وهزموهم أكثر من مرة . .  
واستحقوا إعجابهم حيناً وتقمّتهم حيناً آخر . فقال قيصر عنهم فى رسالته عن  
حرب الغول « لقد قيل إن لديهم مائة « كاتون » يقدم كل كاتون ألف

محارب مسلح للحرب خارج حدودهم بينما يظل الآخرون تحت السلاح ويستغلون بالفلاحة ليتمكن إرسالهم في العام للقادم إلى الميدان بينما يعود زملاؤهم وبهذه الطريقة لا تنقطع الحرب أو الفلاحة .

وضرب سنيكا في رسالته عن الغضب المثل بسيطرة الغضب على الألمان واستطرد « من ذا لديه روح حيوانية animal spirits أكثر من الجرمان . . من ذا يندفع بحماس إلى حملة أكثر منهم . . من ذا يحب السلاح الذي شبوا عليه وأصبح وحده محل عنايتهم دون أى شيء آخر . . من ذا أكثر تحملا لكل نوع من المشاق » وأوضح سنيكا أنه رغم هذه الصفات ، فإن سيطرة الغضب عليهم تفقدهم النصر .

ووصف تاسيتوس في قرابة عشرين صفحة مظاهرهم وعاداتهم « عيون زرقاء مفترسة ، شعور شقراء . . أجسام فنية عريضة ويحملون أسلحتهم دوما في الحرب والسلم وعندما لا يحاربون فإنهم يشتغلون بالصيد ويكفون العناية ببيوتهم وغدايتهم إلى زوجاتهم . . وشغلهم الحقيقي هو القتال . . يقاتل الزعيم في سبيل النصر . . ويقاقل الأتباع في سبيل الزعيم . . ومن الصعب إقناعهم بحرب الأرض وبذرا الحب وانتظار الحصاد بينما يستطيعون مباغته العدو ونهب ترواته . . ويبدو لهم أن من الغباء أن يعيش الإنسان بمرق جبينه عندما يستطيع أن يعيش بحمد سيفه » .

وتحدث تاسيتوس عن صيحاتهم الحربية التي تصدع القلوب وكيف أنهم يدنون تروسهم من أفواههم ليكون صدى هذه الأصوات مدمراً .

وأجمع مؤرخو الرومان على أن الجرمان ليس لهم آلهة . كآلهة الشرق القديمة . فقد آمنوا بأرواح تسيطر على الطبيعة وتقمص الأنهار والبحار والنبات والمواصف ونسجوا من ذلك كله أساطير كانت نواة « الفولكلور » الجرمانى

ألقى تغنى به - فيما بعد - الشعراء والكتاب وأقام عليه الموسيقيون والمسرحيون روائعهم .

ولم ينتصر التنظيم العسكري الرومانى على الشجاعة الألمانية إلا بعد كفاح مرير وعندئذ أصبحت ألمانيا ذخر الأباطورية الثمين ومعينها الذى يجدد شبابها ويحيى مواتها ويصلح ما أفسدته الشهوات ويزودها بالجيوش الفنية والدماء الأبية وزهرة الحرس البريتورى وانتهى الأمر بأن أصبحت أولى بالأمباطورية من نفسها فورثت اسمها وحملت تقاليدها .

ومرت القرون . . .

وتصدعت الأمباطورية الرومانية . . . وقامت على أنقاضها مملكة الفرنجة بزعامة كلوفيس ( سنة ٤٨١ ) . الأمباطور الأول الذى اعتنق المسيحية وأسس دولة الميرفنجيين — وبعد وفاته انقسمت دولته إلى ثلاثة أقسام هى استراسيا فى الشرق ونويستريا فى الغرب وبورجنديا على جانبي نهر الرور . وفى سنة ٦٢٢ استطاع ييبين الأول أن يوحد نويستريا واستراسيا وأن يورث هذه المملكة إلى ابنه ييبين الثانى ثم إلى ابن هذا الأخير — شارل مارتل — وهو القائد الذى قدر له أن يحجب الحضارة العربية عن أوروبا عندما هزم عبد الرحمن الغافقى فى بواتيه — ولولا هذه الحركة الحاسمة لما كان لأوروبا حاجة لأن تقضى قرونها الوسطى فى ظلام .

وبوفاة ييبين ابن شارل مارتل طويت دولة كلوفيس التى يطلق عليها دولة الفرنجة أو الميروفنجيين ، وبدأت دولة الكارولنجيين بداية باهرة على يد شارلمان الذى توجه البابا فى كنيسة القديس بطرس فى روما سنة ٨١٤ امباطورا على الدولة الرومانية ، وحكم أوروبا — تقريبا — بمزيج من الحزم والعدل ، وإن لم يقدر لهذه الدولة البقاء طويلا إذ انتهت بوفاة كونراد الأول

سنة ٩١٩ لتبدأ أولى الدول الألمانية الخالصة عندما انتخب بعض النبلاء  
الألمان هنرى دوق سكسونيا ملكا عليهم . وكان من أبرز شخصيات تلك  
الأسرة السكسونية ( ٩١٩ — ١٠٢٤ ) أوتو الأول الذى استطاع أن يقضى  
على مقاومة الهنغارين والسلاف . ويموت هنرى الثانى انقضت الأسرة  
السكسونية وبدأت الأسرة الفرانكونية عندما انتخب النبلاء ورجال الدين  
كونراد الثانى دوق فرانكونيا ملكا على ألمانيا سنة ١٢٠٤ وضمت هذه  
الأسرة هنرى الرابع الذى قاوم البابا جريجورى السابع حتى أعلن هذا حرمانه  
وأجبره على أن يستسلم وأن يقف على باب البابا فى كانوسا ثلاثة أيام قبل أن  
يأذن له بالدخول .

وأوهن هذا الصراع الأسرة الفرانكونية وتفككت ب وفاة هنرى الخامس  
لتبدأ أسرة هوهنشتاوفن التى كان أشهر أفرادها فردريك الأول ( بارباروسا )  
وهو فى رأى فاجنر مؤسس الريخ الأول ، ولا ريب أنه من أبرز الشخصيات  
المأساوية التى حفل بها التاريخ الألمانى ومثلت على مر العصور . وب نفس البطولة  
والإصرار ، ورغم الهزيمة الأخيرة تراجيديا « التحدى الألمانى » التى تجعل  
الحياة نوعا من البطولة التدريية والمأساوية رغم أنه لم يرزق النهاية المجيدة  
التي تليق بالفارس . . إذ غرق فى أحد أنهار آميا الصغرى وهو يقود الحملة  
الصليبية الثالثة التى أراد بها استرجاع بيت المقدس من صلاح الدين .

وفردريك بارباروسا « واسم فردريك هو الاسم الأثير ، أو حتى المقرر ،  
لدى الأسرات الألمانية الحاكمة على اختلافها » هو جد فردريك الثانى الذى  
ترك ألمانيا وآثر عليها بالرمو وكان يعد نسيجا وحده بين ملوك الألمان لأنه  
كان يجيد اللغة العربية لإجادة تامة بالإضافة إلى اليونانية واللاتينية والعبرية ،  
وكان حاميا للفنون والآداب ولا سيما العربية وكاتباً ومؤلفاً .

وانتهت دولة الهوهنشتاوفن في منتصف القرن الثالث عشر وتعرضت ألمانيا لفترة من التفكك هيمن فيها أمراء المدن والولايات وحاربوا عدد من يحق لهم انتخاب الملك بسبعة أمراء : ثلاثة من أساقفة الكنيسة وأربعة من الأمراء وأطلق عليهم « الأمراء الناخبون » وفي عام ١٢٧٣ أُنْتُخِبَ هؤلاء رودلف هابسبورج ملكاً. وما أن مات حتى احتكوا قبضتهم على ألمانيا وحلوا دون أن يُنْخَبَ ملوك أقياء. وفي سنة ١٣٥٦ اجتمعوا « اسقف ماينز - اسقف زير - اسقف كولونيا - ملك بوهيميا - كونت الراين - دوق سكسونيا - دوق براندبورج » وعقدوا ماسي بالاتفاق الذهبي وكان يوجب انتخاب القيصر في فرانكفورت ، وتويجه في آخن ( التي دفن فيها شارلمان ) وحول هؤلاء الامراء السبعة وجد بضعة مئات من الكونتات والنبلاء الأقل شأنًا .

وكان لحركة الإصلاح الديني التي بدأها لوثر عندما تهدى سلطة البابا سنة ١٥١٧ - والتي تعد عادة نهاية للقرون الوسطى وبداية العصر الحديث - آثار بعيدة المدى فقد أدت إلى تعزيز سلطة الامراء واحتدام النزاع المذهبي ما بين البروتستنتين والكاثوليكين . وأدى هذا كله إلى حرب الثلاثين عاماً التي اندلعت شرارتها في بوهيميا سنة ١٦١٨ وظلت حتى سنة ١٦٤٨ عندما عقدت معاهدة وستفاليا .

وأُنْزِلت هذه الحروب بألمانيا من الدمار والخراب ما هبط بسكانها إلى النصف . وما جعلها خلال الفترة التي أعقبت معاهدة وستفاليا حتى الثورة الفرنسية أكثر تفككا وضعفا مما كانت عليه قبلها .

وفي هذه الفترة من فترات الضعف والتفكك أخذ نجم بروسيا في الظهور وبدأت في القيام بدورها التاريخي لتوحيد ألمانيا وبلورة فلسفتها القومية .

وكانت بروسيا عام ١٦٤٠ عندما تولى حاكمها الأمير فردريك وليم — أول

حكام الهوهنزولون — تضم اماره براندبرج في الوسط وروسيا في الشرق وعدداً من الدوقيات الصغيرة على ضفاف الرين .

وكون فردريك جيشاً مدرباً قوياً وعمل على توحيد بروسيا بحيث استطاع أبنته فردريك الثالث أن يجمع منها مملكة وأن يلي عرشها باسم فردريك الأول . ومع هذا فإن أبنته فردريك وليم الذي اعتلى العرش سنة ١٧١٣ هو الذي يعد المؤسس الحقيقي لبروسيا ، فقد صعد بالجيش من ثلاثين ألف أو أقل إلى ثمانين ألفاً — أو أكثر — وخصص له ثلثي موارد مملكته — ووضع نظم الخدمة المدنية على أسس عسكرية صارمة تقوم على الطاعة والنظام والعمل والدأب وتقديس الواجب وأن خدمة الدولة هي الرسالة العظمى للفرد في الحياة .

وواصل أبنته فردريك (الكبير) سياسة والده في تعزيز الجيش وقاده في سلسلة من المعارك الظافره حصل بها على سيليزيا وروسيا الغربية التي كانت جزءاً من بولندا .

على أنه من الخطأ أن يظن أن الذين كونوا بروسيا، وأرسوا أسس نظمها وجمتمعها كانوا من الملوك أو القواد، فلو حدث ذلك لما رزقت تلك الصلاية التي اتسمت بها والتي مكنتها من مقارعة الخطوب . . لقد أسهم في تكوين بروسيا، وربما بنسبة أكبر مما أسهم به الملوك والقواد ، مجموعة كبيرة من المفكرين والفلاسفة والفنانين آمنوا برسالة بروسيا وسكبوا روحهم وعبقريتهم في هذا السبيل ووضعوا الأساس الفكري والتنظير الفلسفي للنظم العملية التي أرساها الملوك والقواد . ولعل أبرز هؤلاء هو الفيلسوف العظيم ايمانويل كانت (١٧٢٤ — ١٨٠٤) الذي استطاع بموهبة فذة أن يبلور أفكاره عن المثالية والواجب والقانون في اطار محكم جذاب . وقد استغلت هذه الأفكار — التي كانت تتلاقى مع بعض القيم التي قامت عليها النظم البروسية لتعزيز مكانة



وسلطة الدولة حتى وإن لم يكن « كانت » نفسه في حدينه المجرد والموضوعى يرمى إلى تدعيم الدولة البرومانية بالذات . ويجب أن يذكر أيضاً فيشته الذى بدأ حياته ليبراليا وتأثر حيناً بكتاب كانت عن « السلام الدائم » بحيث كان من الممكن أن يكون أحد أنصار التعاون الدولى ولكن الفترة الحاسمة التى عاش فيها والتى جرعت بروسيا كأس المهانة وأذاقتها عار الهزيمة جعلته فى النهاية وطنياً متعصباً ، وبينما كانت سنابك فرمان نابليون تطلأ التراب الألمانى اثر هزيمة جينا المدوية ، كان فيشته يوجه خطاباته الملتهبة إلى الأمة الألمانية التى استنفض فيها العزائم وأحيا الهمم واستطاع بموهبته الفلسفية أن يقيم بناءاً فلسفياً ووطنياً يدور حول روح الشعب وثقافته التى تحملها اللغة والآداب ، ويفسر تاريخ البشرية تفسيراً يجعل للشعب الجرمانى القدر المعلى فى إظهار الحضارة الأوربية ، ويطوع الاقتصاد لخدمة الدولة . وبعد موت فيشته بأربع سنوات شغل كرسيه فى جامعة برلين جورج فردريك هييجل ( ١٧٧٠ — ١٨٣١ ) الذى جمع ما بين الموهبة التجريدية والتنظيرية التى كانت لسكانت ، وما بين الاتجاه الوطنى والجرمانى الذى كان لفشته . وبهذا أوجد لنا أكمال صورة فاسفية للدولة المقدمة التى تجسم الارادة الآلهية والمثل الأعلى وروح الشعب ومن ثم يكون التفانى فيها نوعاً من العبادة وتحقيق الفرد لذاته وإدائه لواجبه .

ولا يشق على الباحث أن يلمحظ أن فلسفة هؤلاء جميعاً جعلت التاريخ والمثل والواجب والدين والاقتصاد تدور حول الدولة ، وتتبلور فى الدولة وأنهم جميعاً كانوا يرون أن الحضارة الإنسانية بدأت مع اليونان وانتقلت إلى الرومان ثم إلى الجرمان وأن ألمانيا أكثر من أى دولة أخرى مؤهلة لحل لواء الحضارة الأوربية وأن هذه الفلسفات — من كانت إلى هييجل — كانت تسيّر خدمة خطوة من التعميم إلى التخصيص .

وصاحب هؤلاء الفلاسفة الذين ثقفوا العقل الألماني ومرنوه مجموعة أخرى من الكتاب والمؤرخين والفنانين والادباء الهبوا حماسه مثل جوته فريد هردر (١٧٤٤—١٨٠٣) الذي تغنى بألمانيا : غاباتها وسماواتها وأساطيرها الرومانيسكية القديمة ومثل فاجنر الذي بعث الأبطال المصطوريين في مسرحياته والحانه واحيا « سيغفريد » ومثله حيا في بارباروسا . . وتنبا بأنه سيبعث مرة أخرى ليعيد تكوين « الريخ » ومثل فردريك لودفيج جان الذي أثار شباب ألمانيا وأدخل الروح العسكرية الجامعات الألمانية بحيث أشبهت الثكنات ، وأصبحت المبارزات هي الرياضة ، والجروح والندوب هي الأوسمة ومثل المؤرخ هنريش فون تريتشكه (١٨٣٤ — ١٨٩٦) الذي أكد أن الشعب الألماني يتميز بمق الفكر والاحساس بالولاء والاخلاص والدقة في العمل . ومجد الحرب بأعبارها « العلاج الوحيد لكل شعب مريض » وأنها أكبر مناسبة يتجلى فيها الولاء وتفاني الفرد في الجماعة . ومثل نيتشه الذي شن غارة شعواء على الأخلاق والمعونات المسيحية ومجد القسوة ورأى النبيل في أن يكون الإنسان وحشا آريا مقترسا وأن الأهداف المقدسة ليست هي التي تبرر الحرب ولكنها الحرب التي تضيئ القداسة على الأهداف .

وكان هؤلاء الفلاسفة والكتاب أثر عميق في تكوين المجتمع البروسي وبلورة نظرية الدولة وإقامتها على أسس فلسفية ونظرية . وقد ظهر بجانبهم عدد آخر من عباقره الفكر الألماني اتسموا بطابع إنساني مثل جوته وهينه ولسكن التيار الجارف أعلى صوت الأولين وأعطاهم الغلبة وجعلتهم يمثلون فلسفة الدولة والسياسة ، بينما لا يمثل جون وهينه سوى الجانب الرومانتيكي .

وعندما ظهر نابليون وأوقع هزيمة جينا المنسكرة بالجيش البروسي تراجعت بروسيا تحت وطأة الهزيمة . واضطرت الملكة «لويزا» التي تمثلت : يا أكثر مما تمثلت في زوجها العزيمة على المتابعة أن تنحني أمام الطاغية . ولكن في

الوقت الذى كانت الجنود الفرنسية تطأ بأحذيتها الثقيله طرقات برلين . وكان نابليون يقف أمام قبر « فردريك الكبير » ويمسك سيفه كان فيشته بوجه خطابات المتنبهة وكان شيلى يرمز للمقاومة ويتنبأ بالانتصار فى روايته « وليم تل » وتكونت هنا وهناك جميعيات سرية وهيئات تنفخ روح الوطنية فى الشعب وتضم الجنود وطلبة الجامعة وغيرهم بينما ظهر لفييف من رجال الإدارة عملوا لاستنقاذ بروسيا من وهدة المهانة والتأخر ونجحوا فى ذلك بفضل إيمانهم وواهبهم .

وكان أبرز هؤلاء الرجال المصالح والإدارى القدير البارون فوق شتين ( ١٧٥٧ — ١٨٣١ ) الذى عهد إليه الملك فردريك وليم بإدارة شئون البلاد فى أعقاب معاهدة تلسيت ولم يبق شتين فى منصبه سوى قرابة عام واضطر مولاه إلى نفيه خضوعاً لارادة نابليون ولكنه خلال المدة الوجيزة حقق من الاصلاحات ما وضع أساس نهضة بروسيا الإدارية وجعلها تتحرر شيئاً ما من روح القرون الوسطى التى كانت تقيد جهازها الحكومى فأصدر فى سنة ١٨٠٧ مرسوم التحرير الذى حرم أسوأ صور الاستعباد والفنائه والنظام الطبقي وحرر المدن من التبعية للوردات وأوكل إدارتها إلى مجالس منتخبة وأصل الإدارة الحكومية وأدخل نظام الوزارة المسؤولة ولو لم يبعد من منصبه بهذه السرعة لأكمل هذا كله بوضع دستور برلمانى .

وادخرت مهمة احياء الدفاع القومى وتعزيز الجيش لشارنهورست وزميله جنسنو وكان يجب طبقاً للمعاهدة اير فوررت التى املاها نابليون أن يقتصر الجيش البروسى على ٤٢ ألفاً ففتح هذا التقييد لشارنهورست وسيلة للتعميم لا الزيادة فحسب فجعل مدة الخدمة العسكرية قصيرة وأصبح على كل بروسى أن يعضيها ويعد جندياً فى الجيش الاحتياطى وبهذه الطريقة أصبح معظم البروسيين جنوداً بينما يكون الأربعون ألفاً فى حكم الضباط .

بفضل هؤلاء الرجال وغيرهم من الإداريين الذين توفرت لهم القدرة والكفاية والایمان امتعادت بروسيا تفتتها في نفسها واستطاعت أن تحارب نابليون مرة أخرى وأن تحرر أرضها من إفسار التبعية المذلة وإن لم يستطع مندوبها في مؤتمر فيينا ( ١٨١٤ ) هاردنبرج أن يستعيد الأثر من فرنسا المهزومة .

وبرزت قضية الوحدة الألمانية مع الانتصار على نابليون ولكن كان هناك اختلاف جسيم في وزن هذه القضية ، كما كان هناك مصالح مكتسبة عميقة الجذور تعارض الوحدة .

كان هناك من يريدون الوحدة المظلمى أى ألمانيا التي تضم كل الذين يتحدثون الألمانية بما في ذلك بروسيا والنمسا ، وكان هناك من يرى إقامة دولتين ألمانيتين بزعامة بروسيا والنمسا على التعاقب ، تستقطب كل واحدة اقرب الولايات إليها ( وقد كان شنين من هذا الرأي ) وكان هناك من يريد وحدة محدودة تقوم على بروسيا وولاياتها ، وكان بعض هؤلاء يريدون الوحدة الكبرى ولكنهم لا يريدونها بحيث تذوب بروسيا في ألمانيا ، ولكن أن تستقطب بروسيا ألمانيا ، لأن بروسيا في نظر هؤلاء هي روح ألمانيا وملاذها ، ومثلة قيمها . ويجب دائماً الحفاظ على هذه الطبيعة فيها . وكان هذا هو رأى بدمارك وبمقتضاه رسم خطة لتكوين إمبراطورية ألمانيا مع الاحتفاظ بالطابع البروسى . أو بعد « برؤسه ألمانيا » كما يقومون Prussianisation of Germany .

وتجاه هؤلاء الذين كانوا يريدون الوحدة ويجهدون لها . . كانت المصالح المكتسبة تعمل لتعويق الوحدة . كان الدوقات والأرءاء والنبلء والكونتات يريدون إعادة الساعة إلى ما كانت عليه قبل الثورة الفرنسية . كان كل واحد منهم لا يمينه إلا علمه وقصره ودرعه وحرمة . وياوره وشاعره . وأرضه التي يكسح له فيها فلاحون تتحكم فيهم تفاليد الخضوع والتبعية للسيد الأعلى . .

وكان كل واحد منهم يريد عالماً يكون هو محوره حتى وإن لم يكن إلا ولاية صغيرة.  
وكان هناك النمسا التي كان وزيرها « مترینخ » هو ممثل سياسة الحفاظ وحامي  
حماتها في أوروبا بأسرها . وعندما حدثت بعض الفلاقل سنة ١٨١٩ أمر مترینخ  
مندوبى الولايات الألمانية بالاجتماع في كارلسباد حيث أعلن « أننى لأمل  
بعمونة الله أن أوفق فى قمع الثورة الألمانية . كما وفقت فى هزيمة فاتح العالم » .

ومن حسن حظ الوحدة الألمانية أن هؤلاء جميعاً كانوا فى واد . . . والتطور  
فى واد آخر . فى الوقت الذى لم يعم فيه النبلاء والأمراء إلا بأوضاعهم الخاصة  
كانت الصناعة والتجارة تشق طريقها وتفرض نوعاً من الوحدة الاقتصادية  
وتحطم الحواجز والجدارك التى أقامها النبلاء . وبهذه الطريقة حققت حركة  
الزولفرين نوعاً من الوحدة الاقتصادية ومهدت للوحدة السياسية ولم يكن صوت  
الصناعة والتجارة بأقل من صوت الأحرار والكتئاب . . .

ثم جاءت ثورة ١٨٤٨ فكانت كعاصفة - وإن لم تكن أعصاراً - هزت  
عميقاً كل الأوضاع السياسية . وقد بدأت الثورة فى فرنسا ولكنها انتقلت  
بسرعة إلى ألمانيا التى كانت فى حالة استهداف ، فأودت بمترینخ العنيد  
فكأنما أزاحت بذلك رمز عهد بأسره ، وفر امبراطور النمسا ، وفى كل المدن  
الألمانية هبت الجماهير وسلحت نفسها وإقامت المتاريس واصطدمت مع الجنود  
ونجحت فى بعض الحالات إلى درجة إعلان الجمهورية وأعلن الملوك والأمراء  
الحريات فى بلادهم ، واحتلت الجماهير فى برلين القصر المسكى ، وفر ولى العهد  
ناجياً بجملده ووضعت الجماهير يدها على قصره ، واضطر الملك ثلاث مرات لأن  
يخضع لارادة الجماهير ، وأن يسير مع وزرائه فى جناز تشييع ضحايا الصدام عارى  
الرأس ، وأن يحمل شارة الثائرين ذات الألوان الحمراء والسوداء والذهبية وأن  
يعد الجماهير بأن يضع نفسه على رأس امبراطورية ألمانية تندمج فيها بروسيا .

وبدأ كما لو أن « ثورة مارس » كما اطلق عليها قد حققت هدفها .

ولكن الحقيقة لم تكن كذلك . . .

فع أن ممثلى الولايات الألمانية اجتمعوا فى فرانكفورت فى صيف ١٨٤٨ بفكرة وضع دستور لألمانيا الموحدة ، إلا أن سير الأحداث والانحسار الذى اعتقب المد الثورى والفتور الذى تملك الجماهير بمجرد اعلان عقد جمعية فرانكفورت وعدم وجود قيادة سياسية شعبية موحدة قادرة على فرض ارادتها . هنا كما أفسح للجمعية سبيل التراجع بحيث كانت ثمرة الاجتماع الذى استمر لقراءة عام دستور مهمل ، تسكونت بمقتضاه دجلة اتحادية تحت الرئاسة الوراثية لامبراطور هو ملك بروسيا ، وأن يكون هناك مجلسان نيابيان يكونان البرلمان أحدهما يمثل الولايات والثانى يمثل الشعوب . ويكون الوزراء مسئولين أمامه ، وفى ٢٨ مارس سنة ١٨٤٩ قدم التاج الامبراطورى إلى الملك فردريك وليم الرابع — ولكن هذا وقد سنحت له الفرصة لينتقم من المهانة التى أوقعها به الشائرون فى العام الماضى رفضه باباء وشم قائلا « إن هذا الشئ لا يحمل سمة الصليب المقدس ، إنه ليس تاجا وإنما هو قلاده استعباد يصبح بها سليل أكثر من أربعة وعشرين أميراً وملسكا قن الثورة وعبدها » وتحدث أحد ثمنائه عن التاج الامبراطورى بأعتهباره « قبعه أحق ، قدره حمراء الاطار ، يقدمها ثوريون » وهكذا هزم رفض مارس ١٨٤٩ ثورة مارس ١٨٤٨ واستعادت القوى الرجعية سلطانها وإنصرفت بروسيا لتعزيز قواتها العسكرية وتدعيم سلطانها وتحقيق الوحدة بطريقة تخالف كل الاختلاف عما تصوره مؤتمر فرانكفورت . وكانت هذه هى المهمة المدخرة لبسمارك والتى أدت خلال العقد الخامس من سنة ١٨٦٩ حتى ١٨٧١

فى سنة ١٨٦٩ توفى الملك فردريك وليم الرابع وخلفه أخوه الذى ولى

العرش بأسم وليم الأول . وفي السنة التالية دعا الكونت أوتوفون بسمارك وكل إليه إدارة شؤون البلاد . . .

وكان بسمارك رجل دولة من الطراز الأول . كشف عن فكره في جملة جاءت عرضاً في حديث له « إن القضايا العظيمة الراهنة لا يمكن أن تحل بالخطابات والأصوات البرلمانية ولكن بالدم والحديد » وأخذت عليه الكلمة وحاول هو تأويلها . ولكن الحقيقة أنها كانت سقطة لسان فرويدية الدلالة . ولم يكن له بعد أن يندم عليها . فقد جمع القرآن الكريم في آية واحدة ما بين الحديد والأنبياء . وكان دم الشهداء أنبل ما يمكن أن يطرز به لواء أو تكلل به دعوة ، ولكن ما يمكن أن يؤخذ على بسمارك أنه لم يقيم « الدم والحديد » على جماهير . . . أو نظرية . كما هو الحال في الإسلام . أو الاشتراكية ( فلا نكران في أن لينين كان رجل دم وحديد أكثر من بسمارك ) كانت الجماهير في حالة بسمارك هي الجيش . . . وكانت النظرية هي شخص بسمارك وما يراه ، وهذا هو الخطأ في أسلوب بسمارك .

ووجد بسمارك في فون رون وزير الحربية وفون مولتكه رئيس الأركان مساعدين قديرين ومع أنه لم يجد دائماً من يفهمه أو يساعده . وأنه تعرض لمكائده عديدة من البلاط والأمراء فإنه شق طريقه . ومهد له بسلسلة من المناورات السياسية الذكية التي فرق بها اعداءه ، وحقق هدفه مع كل واحد منهم على حدة ، وفي وقته . وبفضل إصراره وإرادته وتصميمه أستطاع أن ينتصر أخيراً . ففي حرب الأسابيع السبعة ( ١٨٦١ ) هزم النمسا في سادوا وضم عدداً كبيراً من الولايات إلى بروسيا وضمن ولاء ومحالفة الباقي بحيث امتدت بروسيا من الرين إلى البلطيق ثم أحكم خططه بحيث تعلن فرنسا بنفسها عليه الحرب التي يريد بها ، وقد حدث ذلك وخلال ثلاثة أسابيع من إعلان فرنسا

الحرب في ١٩ يوليو سنة ١٨٧٠ دفع فون رون بخمسمائة ألف جندي إلى فرنسا؛ فتوالت هزائمها حتى وقعت كارثة سيدان (١ سبتمبر ١٨٧٠) التي اضطر فيها الإمبراطور نابليون الثالث إلى التسليم وتهاوت الإمبراطورية الثانية وبدأت الجمهورية الثالثة ورأسها حكومة للدفاع القومي ضمت الجنرال ترشو حاكم باريس وجول فيفر وغامبتا . وفرض الألمان الحصار على باريس وانتقلت الحكومة إلى تور ، ولكن تسليم بازان لقلعة ميتز في ٢٨ أكتوبر كان ضربة لم يثبت لها سوى غامبتا الذي حاول بجهود مستيئة انقاذ الموقف ، ولكنه بعد نجاح جزئي فشل واضطرت باريس إلى التسليم في ٢٨ يناير ٧١ وأعلنت هدنة ليكن انتخاب جمعية عمومية وانعقدت هذه في بوردو وانتخبت تير رئيسا للدولة . وفي ١٠ مايو وقعت معاهدة الصلح التي كانت تقضى على فرنسا بتسليم الألزاس كاملة (باستثناء بلفورت) والمنطقة الشرقية للورين. وقلعتي متز وستراسبورج . وأن تدفع غرامة باهظة وأن تظل الجيوش الألمانية مرابطة لحين اتمام الدفع .

وكما هو معروف فإن هذه الحرب هي التي أدت إلى تفجر ثورة الكوميون المشهورة . فقد ثار الباريسيون واستولوا على معظم نواحي العاصمة . وهربت الحكومة إلى فرساي . وبينما كان علم الجيش الألماني يخفق فوق ضاحية « سان دنيس » كان العلم المثلث يرتفع فوق ضاحية فرساي بينما يرتفع علم الثوار الأحمر فوق باريس نفسها . وفرضت قوات الحكومة على باريس حصارا كان أشد من حصار الألمان لها . وارتكبت فظائع من الجانبين . وبعد ستة أسابيع اقتحمت قوات الحكومة طريقها نحو المدينة التي أصبحت أطلالا وأعدم عشرات الألوف بلا رحمة بينما سجن أونيفي الوف أخرى . وطويت صفحة هذه التجربة الأولى لحكومة شيوعية .



وعلى أطلال الكوميون ، وعلى أطلال الامبراطورية الفرنسية الثانية قامت  
الامبراطورية الألمانية ، وفي قاعة المرايا بقصر فرساي اجتمع نبلاء وأمراء  
المقاطعات الألمانية ليقدموا التاج الامبراطوري إلى ملك بروميا الذي تقبله  
منهم ، بعد أن رفضه سلفه من ممثلى شعوب هذه الولايات . وكان بسمارك قد  
أجرى ترتيبات الوحدة من قبل وتغلب على كل الصعوبات التى قامت فى  
وجهه ، وأدجت كل الولايات فى إمبراطورية فدرالية يرأسها امبراطور ورأى  
هو ملك بروميا . ويدير الامبراطور بمساعدة المستشار السلطة التنفيذية بينما  
وكلت السلطة التشريعية إلى مجلسين هما البند سترات الذى يمثل النبلاء  
والريشستاج الذى يمثل الجماهير وينتخب مرة كل خمس سنوات .  
وهكذا تحقق حلم الوحدة الألمانية وقامت الامبراطورية الألمانية .

ولكن ..

هل كان المستشار الحديدي يعرف أنه وهو ينسج المؤامرات ويزجى  
الجيوش ويحقق الانتصارات ويستولى على الأتراض والورين ويفرض جزية  
ثقيلة على فرنسا أنه إنما كان يقدم سابقة ستمهجها فرنسا .. وتطبقها على ألمانيا  
نفسها . وأنه إنما كان يعطى الحجة لفرنسا لاملأ معاهدة فرساي بعد ذلك  
بخمسين عاما .

بالطبع لا ..

إن وهج المعركة . وبريق الانتصار والتركيز النام فى تحقيق الغاية دون  
نظر إلى عواقبها البعيدة كان يعمى عينه . كان الواقعى هنا هو واقعى الحاضر  
وليس المستقبل فى حين أن حساسية الفنان واستشفافه لأبعاد المستقبل جعلت  
جورج صاندت تنبأ فى أشد ساعات فرنسا ظلمة وحلمكة بكل ما سيحدث ..

« ألمانيا المسكينة .. إن قدح النعمة الأزلية قد حُتى عليك كما حُتى علينا

لقد أمتلك الانتصار ، ولكن روح الحكمة تبيحك وتعد مرثأتك . إن الشيء المهلهل الذى يسمى فرنسا لا يزال يستمسك فى يديه بقطعة من ثوب المستقبل المرصع بينما تلفين نفسك فى علم ملطخ سيصبح ككفك «<sup>(١)</sup> .

وكانت سياسة بسمارك التى تلت الانتصار تستهدف تأمين هذا الانتصار وحياطته بسلسلة من المعاهدات الدولية أمن بها جانب روسيا والنمسا واسترضى فرنسا وحاول أن ينسبها خسارة الازناس واللورين بتوسيع مستعمراتها وأوضح لها أهمية تونس . والتقطت فرنسا الطعم واستولت على تونس سنة ١٨٨١ ولكن هذا جعلها تدخل فى صراع مع إيطاليا التى كانت تمنى نفسها باحتلال تونس واتهمز بسمارك الفرصة فعمد اتفاقية مع إيطاليا .

وفى الوقت نفسه فقد استطاع بسمارك بسلسلة من المناورات وادعاءات حماية التجار والمستكشفين الألمان أن يفرض الحماية على أقليم جنوب غرب إفريقيا وتوجو والكامبيرون وغينيا الجديدة وجزائر السلومون وجزائر مارشال . وتصور فى وقت ما إمكان جعل ألمانيا قادرة على الاكتفاء الذاتى الاقتصادى بفضل مواردها وموارد مستعمراتها .

وكانت الرأسمالية الألمانية تسير بخط سريعة وتضع الأمس للتوسع الكبير الذى سيؤدى ثماره فى الفترة ما بين الحرب السبعينية والحرب العالمية الأولى ، وكان أبرز مميزاته الجمع ما بين البحث العلمى والتطبيق العلمى والاتجاه نحو التكتل والتركيز . وحاول بسمارك أن يكسب ولاء الطبقة العاملة التى كانت قد أهملت حتى سنة ١٨٨٠ خاصة وأنه كان يضيق بالحزب الاشتراكى الديمقراطى ضيقا شديدا . ودخل فى صراع مرير معه وتصور أنه يستطيع بذلك أن يحول العمال عن الحزب إن لم يكسب ولاءهم فأصدر عام ١٨٨٣ قانون التأمين الصحى وكان

(1) George Sand and Gustave Flaubert Letters p. 200.

يحمل العمال ثلث تكاليف العلاج ويحمل أصحاب الأعمال بالثلثين الباقين ، وأعقبه بقانون التأمين من الحوادث وعند الشيخوخة اللذين يحملان للعمال الحق في معاش ثابت عند إصابتهم أثناء العمل باصابات تعجزهم عن العمل أو عند الشيخوخة وكانت هذه القوانين تعد الأولى من نوعها في العالم .

وكانت سنة ١٨٧١ هي القمة التي انتهى إليها القرن التاسع عشر ورسمت خريطة أوربا ولم يحدث بعدها حتى نهاية القرن أو حتى قيام الحرب العالمية الأولى تغيرات أو تطورات حاسمة .

وكانت هي أيضا قمة المسيرة الألمانية نحو الوحدة حتى وإن لم يتحقق ضم النمسا . . .

ولكنها ككل قمة وبصفة خاصة لما شابها بالذات من ملاسات التقطت بسرعة داء القمم .

فقد اعتقد بسمارك أنه بعد أن حقق الإمبراطورية لن يقهر ، وأنه سيظل أبداً ربان الدولة وقبطانها الحكيم وأنه مهما وقع من شكس بينه وبين الإمبراطور المسن أو غيره من الامراء . . فإنه في النهاية المنتصر . .

ولكن نهايته جاءت على يد شاب مغرور متهور فقد مات ولهم الأول في ٩ مارس سنة ١٨٨٨ وولى الحكم بعده ابنه فردريك لمدة ٩٩ يوماً توفي بعدها ليحكم ابنه ولهم الثاني « فليوم » الثاني ، كما أطلقت عليه بعض السكتابات العربية .

كان ويلهم الثاني حاكماً مطلقاً كبسمارك ، ولكن لم يكن لديه شجاعة الحسم ، ولكن ضعف المناورة ، فكان يحاول أن يدرأ الثورة وأن يستل المقاومة من الجماهير ، لا بخطط أو اصلاحات أو على أساس أفكار ، ولكن بالادعاءات أو التقريب الشخصي . وقد كان بسمارك في أيامه الأولى قد حاول

أن يدراً ثورة الجماهير بادخال عدد من الاصلاحات كنظم التأمين التي أشرنا إليها ، ورضخ لمنح الشعب حق التصويت في مستهل حكمه ، ولكنه في سنواته الأخيرة أصبح يميل لاستخدام القمع والكبت وكان في هذا ، وفي غيره يختلف عن الإمبراطور . فقام خلاف بينه وبين الإمبراطور حول ما يتبع نحو الاشتراكية الصاعدة فبسمارك يريد الضرب بقوة ويقترح حل الرشستاج والامبراطور يؤثر المصانعة والتخدير ، كما كان بسمارك يريد تجديد الاتفاقية المعقودة مع روسيا والقيصر يتردد ويحتمل النزاع . ويعمل القيصر وراء ظهر بسمارك وإثر مقابلة عاصفة أثار فيها بسمارك أحاسيس القيصر وأشعره الأهانه . . لم يعد هناك وفاق . وكان على بسمارك أن ينسحب .

وفي عزلته الخلوية وأيامه الأخيرة رأى بسمارك ما كان وهج السلطة يخفيه عنه وتبين الأعماق التي كان العمل اليومي يحول دون أن يراها فتنبأ بالحرب القادمة وتنبأ بالجمهورية في روسيا ، وبانتصار العمال حيث يتقدم نزاع بين العمال وأصحاب الأعمال .

« . . . إذا أحسنت سياسة البلاد أمكن الحكومة اجتناب الحرب القادمة . وإذا ما أسيدت سياستها دامت تلك الحرب سبع سنين على ما يحتمل . والمدفعية هي التي تقدر مصير الحرب القادمة وقد تعلن روسيا النظام الجمهوري في وقت أقرب مما يظن . والعمل أكثر نيلا للانتصارات في الكفاح بينه وبين رأس المال . ولا يلبث أن يحدث هذا في كل مكان يكون للعمال فيه حق التصويت . وسيكون النصر النهائي الحاسم للعمال<sup>(١)</sup> » .

\* \* \*

وفي السنوات التي أعقبت تخلى بسمارك انتهجت ألمانيا سياسة التوسع

(١) بسمارك لامليل لود فبيج ص ٧٧٧ للترجمة العربية عادل زعيتر وص ٦٨٢

من الترجمة الانجليزية ترجمة Eden and Cedar Paul

التجارى والاستعماري وكان هناك فرق بين توسعه، وتوسع الذين خلفوه . فقد توسع بسمارك إلى الدرجة التي أحس فيها بحامسته الذكية أن عليه أن يقف عندها . فوقف . وكان كل همه أن يعزز الوضع الذي انتهى إليه وأن يصونه ويحافظ عليه بسلسلة من المعاهدات والسياسات اللبقة التي تعزز موقف ألمانيا وتعزل أعداءها . ولم يكن بسمارك ليستسلم للسعار الرأسمالى والفهم التجارى الذي لا يشبع لأن جنوده كانت جنود النبيل الأقطاعى . ولم يكن لدى خلفاء بسمارك الشخصية القوية والبصيرة النافذة التي كانت له فانساقوا وراء أطماع الرأسمالية الصاعدة والقيصر المغرور ، وليس أدل على هذا من أنهم عنوا — أول ما عنوا — بتقوية الأسطول الحربى والتجارى فأثاروا مخاوف بريطانيا، وأعتقدوا أنهم وصلوا من القوة درجة لم يحتاجو معها إلى السور السياسى الذى أقامه بسمارك بحكمته ليحمى ألمانيا ، فلم يجددوا الاتفاق مع روسيا فنارت مخاوفها وأخذت تتقرب من فرنسا ، ورحبت فرنسا بهذا التقرب الذى يكشف ظهر عدوتها الصاعدة ويخرجها من عزلتها التى فرضها عليها بسمارك ، كما حدث تقارب آخر بين فرنسا وإنجلترا نتيجة لاستيحاء هذه من السياسة البحرية لألمانيا . . كل هذا والقيصر سادر فى غيه يستعرض عضلاته ويوقف الدبلوماسية الأوربية على شفا الهاوية .

وفى يوليو سنة ١٩١٤ وقعت حادثه لا قيمة لها فى حد ذاتها وكان يمكن تفادى عواقبها فى الظروف والملابسات العادية . ولكنهما فى الجو المتوتر والتحيز والطمع والعداوة وتجاه سلسلة المعاهدات التى كانت تربط الدول بعضها ببعض . . كانت كافية لأن تلقى بالعالم فى أتون الحرب العالمية الأولى.

## الفصل الثاني

### الحركات التحررية والشعبية

حتى ثورة ١٨٤٨

كان يسير بجانب التيار الوطني العسكري الذي حقق الوحدة الألمانية وجعل من ألمانيا دولة عظمى والذي بدأه فردريك وليم سنة ١٧١٣ وتكامل بالنجاح على يدي بسمارك سنة ١٨٧٠ نيار آخر اجتماعي واقتصادي حملت لواءه الاتلجنسيا البورجوازية والطبقة العاملة التي كانت تكبر وتنضخم مع دخول الصناعة الحديثة وازدهار التجارة .

وكان التياران يتلاقيان في بعض الحالات ويتعارضان في حالات أخرى . فالانتاجنسيا والطبقة العاملة أرادا كالعسكريين والوطنين الوحدة القومية . وكان العامل الاقتصادي بالذات فعالا في تحقيق هذه الوحدة على ما أشرنا ، ولكن تأخر الوحدة القومية ، وتختلف ألمانيا عن السباق الاستعماري الذي برزت فيه الدول الأوروبية حتى الصغيرة منها كهولندا وبلجيكا ، دع عنك بطلا السباق إنجلترا وفرنسا ، جعل المثل الأعلى الوطني والعسكري يواصل السير ولا يقف عند تكوين الوحدة وأبعده عن أن يتأثر بالمثل الاشتراكية والشعبية . على نقيض ما حدث في دولة أخرى كروسيا مثلا . التي تحققت لها الاستقلال والوحدة واستعمرت جيرانها الاسيويين ، فلم تكن المشكلة فيها استبداد الدول الأخرى بها ولكن استبداد الارستقراطية بالجماهير . ومن هنا أخذت المثل العليا فيها الطابع الجماهيري والشعبي واقتربت من الاشتراكية قدر ما أغتربت عن الوطنية ولم ينظم طلبة الجامعات الروسية أنفسهم في جمعيات

وطنية لحل السيف والمبارزة — كما فعل طلبة الجامعات الألمانية — ولكن في جمعيات سرية للدعاية وإثارة الشعب وانصافه .

ولكن ليس معنى هذا أن التيار الاشتراكي — الشعبي لم يوجد ، لقد كان لا بد أن يوجد بوجود إنتلجنسيا شعبية وطبقة عاملة وكصدى للدعوات الاشتراكية إلى كانت تضطرم في جارة ألمانيا اللصيقة — فرنسا — كما أن عددا كبيرا من المفكرين الذين كانوا يطالبون بالوحدة كانوا يطالبون بالحرية الفكرية والسياسية كوسيلة لتحقيق الوحدة ، وعندما تحققت الوحدة فكشمة لها . . .

ومن هنا فمع أن المثل الأعلى الوطني — العسكري ظل دائما بارزا وسبوعا ، وله الغلبة ، إلا أنه وجد بجانبه دعوات شعبية ديمقراطية تتعالى وتضطرم في الفترة المضطربة التي تسبق استقرار الأوضاع ، ويزيد فيها ضغط الحكم والملوك على الجماهير والشعوب ، وتضعف وتهن عندما تستقر هذه الأوضاع وتظفر الشعوب بحقوقها — أو بجزء منها — لتنصرف إلى مجالات أخرى .

وفي الفترة التي نتحدث عنها كانت ألمانيا تمر بفترة الانتقال السياسي التي مهدت للوحدة والتي اتسمت بالكفاح الأخير للأمرء والاحتفاظ بسلاطنتهم الاستبدادية في مواجهة مد الوحدة . ومن هنا فقد اشترك فيها معظم المفكرين كل بطريقته الخاصة . فكان منهم شعراء مثل هينه وفريليجرات Heine and Freiligrath وموسيقين مثل فاجنر ورجال اقتصاد مثل ليست وماركس وإنجلز وكتاب دراما مثل بوخز واشترك بعض هؤلاء اشتراكا عمليا في الاصطدامات والمعارك وقادوا الجماهير وسقطوا صرعى . كما ظهرت بين الطلبة حركات مثل مؤتمر الطلبة Junges Deutschland ، ومثل ألمانيا

الفتاة Bursenschlaftertag وكان الهدف الدائم والملح لهم جميعا (باستثناء  
ماركس وأنجلز) الحريات : حرية الفكر والنشر والمعارضة السياسية .

ومن أبرز صور الاحتجاج والمقاومة ما قام به سبعة من أساتذة جامعة جوتنجن  
الصغيرة عندما حل ملك هانوفر الجديد أرستت أوجست في نوفمبر ١٨٣٧  
مجلس الديت والنقبي دستور ١٨٣٣ وأعاد دستور ١٨١٩ ، وأوقع ذلك  
أساتذة الجامعة في مأزق لأنهم حلفوا بيمين ولاء لدستور ١٨٣٣ الذي النى  
بدون موافقة البرلمان . وبعد أن ناقش بعض الأساتذة الأمر رفعوا لإدارة  
الجامعة مذكرة أعربوا فيها عن معارضتهم لإلغاء الدستور وختموها بأنهم كانوا  
دائما يحذرون طلبتهم من الشطط السياسى . . وأن عملهم كأساتذة يقوم على  
الاستقامة والأمانة ، وبدونها لا يمكن لدروسهم أن تكون مجدية « وأى قيمة  
لحلف يمين ولاء لصاحب الجلالة ملكنا إذا أخذ من رجال يخادعون أنفسهم »  
وكان الموقعون على هذه الوثيقة هم الأساتذة : فردريك داهلمان الذى كان  
كأحد المحامين البارزين سابقا من الذين أسهموا فى وضع الدستور الملغى .  
ولهلم البرخت أستاذ القانون الألمانى وجاكوب جريم ولهلم جريم أستاذى  
الميثولوجية والتاريخ الألمانى وجورج جوتفريد جرفينس Gervinus أستاذ  
الآداب وجورج أفالد Ewald العالم اللغوى ولهلم أدوار فيبر Weber أستاذ  
الطبيعيات .

وأنارت هذه المذكرة الاهتمام ، وانتشر نبؤها انتشار النار فى الهشيم لما  
عرف به هؤلاء الأساتذة من الاتزان وتشجعت بعض الهيئات الأخرى فقدمت  
احتجاجات مماثلة . وجن جنون الملك ، وخطر له أن يذهب إلى الجامعة  
ويسوى الأمر بنفسه هناك . ولكنه استبعد هذا الخاطر وذهب إلى أحد  
الحصون القريبة من الجامعة وطلب إيفاد عمداء الكليات وعندما وصلوا



تستقبلهم ياور الملك وسألمهم عما إذا كانوا قد أعدوا خطاباً. فوضعوا من وحي اللحظة خطاباً قصيراً، ولكنه نبذ، فأعدوا آخر أعربوا فيه عن ثقتهم في نوايا الملك الطيبة التي يعتزون بها ولا يقبلون شيئاً يسفها. وحاز الخطاب موافقة الياور وأدخلهم على الملك وخلال الحديث قال الملك متفضلاً إنه لن يعاقب الجامعة. ولكن المذنبين فحسب!

وفي أوائل ديسمبر نشرت إحدى الصحف ذات الصلة الرسمية مقالين دون توقيع، أتنقد الأول تصرف الأساتذة ووصفه بأن غير قانوني لأنهم إذا كانوا يعارضون إلغاء الدستور فقد كان عليهم الاستقالة. ويكشف المقال الثاني ما دار في لقاء الملك بالوفد وأن الوفد تبرأ من تصرف الأساتذة السبعة. وأثار المقالان دويماً شديداً، وفي الوقت نفسه بدأت الإجراءات الرسمية ضد الأساتذة السبعة فدعوا في ٤ ديسمبر للمثول أمام محكمة الجامعة وبعد التحقيق معهم بفترة أرسل الملك أحد ضباط الحرس بأوامر فصل كل أستاذ من الأساتذة السبعة على أساس أنهم رفضوا طاعة حاكمهم الشرعي وسيدهم. كما طلب إلى ثلاثة منهم مغادرة الولاية خلال ثلاثة أيام.

وبين عشية وضحاها أصبح الأساتذة السبعة أبطالا قوميين ونظمت المظاهرات لتوديع الثلاثة المطرودين. وأرسلت الجامعات الأخرى رسائل تشجيع وتأييد ومنحت بعضهم ألقاباً فخرية. وتكونت في ليبزج هيئة لجمع الإعانات لالة الأساتذة حين إعادة تعيينهم وعلا دواثرها نوفر ضيق وتجهيم لم يستطع الملك إزاعه شيئاً خوفاً من الانفجار ولكنه بذل كل جهده للنضيق على الأساتذة والاحتجاج على الولايات التي رحبت بهم. وحال ذلك دون أن يشغل أى واحد منهم منصبا في الجامعات الألمانية رغم ترحيب هذه الجامعات وفشلت المحاولة التي توسط فيها المشرع المشهور سافيني لتعيين أربعة منهم في الجامعات البروسية. وكان الاستثناء الوحيد هو ملك ورتمبرج الذي عين

البروفيسور افالد في جامعة توبنجن وعندما قدر للملكين أن يجتمعا سأل  
أرنست أوجست زميله ملك ورتمبرج لماذا يعين أستاذاً فصله هو فأجاب « لهذا  
السبب نفسه » .

وأثارت هذه القضية جدلاً شديداً فيما بعد في الدايت الاتحادى وقسمته إلى  
قسمين ولم يستطع أرنست أوجست الدفاع عن موقفه إلا بصعوبة كبرى  
وخسرت جامعة جوتنجن مركزها ولم تستطع تعويض أساتذتها الذين استأنفوا  
بعد مدة نشاطهم الجامعى في مختلف الولايات الألمانية أو سويسرا وأسهم بعضهم  
في اكتشاف النغراف المغناطيسى .

وكانت لقضية الأساتذة السبعة آثار بعيدة المدى فقد عززت العمل السياسى  
في الجامعات الألمانية ، كما كانت سابقة للتدخل لاختضاع الجامعات الأمر الذى  
سيأرمه بسمارك بصفة شبه منهجية .

وكما يحق لنا أن نتوقع — فإن حركات الشباب والطلبة كانت أكثر  
عنفا واتجهت وجهة العمل الثورى والتأمري وقد تصورها قضية ويدج  
Weidig وبوخنر Buschner .

وقد كان ممثلو طلبة الجامعات الألمانية على اختلافها قد اجتمعوا  
سنة ١٨٣٢ فيما سعى « المؤتمر » وانتهوا إلى أن الأغلبية الكبرى من الشعب  
على استعداد للثورة لو وجد التنظيم الذى يتولى القيادة . وارتأت مجموعة  
صغيرة من طلبة جامعات جيزن وهيدلبرج وويزبرج Wueszburg وارلانجن  
أن تقوم بالضربة الأولى بأمل أن تتبعها بقية الجامعات . ووضعت خطة كان  
يجب بمقتضاها أن يحتل مستون رجال المراكز الهامة في فرانكفورت بما فيها  
مقر الدايت الاتحادى وبنك روتشيلد ( ليتمكن ضمان تمويل الحركة ) .

وكان زعيم هؤلاء المتأمرين محاضراً جامعياً سابقاً هو الدكتور أرنست

هون روشبيلات وقد استطاع أن يضم إليهم عددا من الحرفيين والمهنيين وغيرهم . وبوجه خاص الواعظ السابق وناظر المدرسة ويدج Weidig الذى كان يمت بأجداده إلى كبير ثوار الألمان « لوثر » . والذى سينمى أحفاده ثائراً آخر هو ليبكنشت .

ولكن أحد المتآمرين ، ويدعى كهل Knhl عرض على السلطات إفشاء سر للمؤامرة إذا قدمت إليه مبلغاً من المال وعفوا تاماً عنه وماطلت السلطات فى هذا ولكنها قبلت أخيراً ، وقبل بدأ التنفيذ بيوم واحد فأرسلت التعليمات بسرعة إلى عمدة فرانكفورت بينما كان المتآمرون يتجمعون ويتجهون نحوها وقد خباؤا أسلحتهم تحت ثيابهم . وعند منتصف ليل ٣٠ أبريل سنة ١٨٣٣ هاجموا مركزين من مراكز البوليس واستولوا عليهما وأخذوا يقرعون الأجراس لإثارة المواطنين وحملهم على الانضمام إليهم . ولكن هذا الانتصار كان قصير المدى . فقد وصلت القوات التى أرسلت ولم تجد صعوبة تذكر فى الانتصار على المجموعة بعد صدام أصيب فيه بعض الطلبة والجنود . واستطاع زعماء المؤامرة الهرب إلى فرنسا وسويسرا وكان منهم كارل شابر وتيودور شوستر اللذين أسهما فى تكوين عصبة العدول Bund der Gerechten فى لندن فيما بعد . ولم يكشف أمر هؤلاء الزعماء أو غيرهم لأن كهل أراد أن يحتفظ لنفسه بالأسماء الكبيرة فى المؤامرة ليساوم عليها فيما بعد .

وبعد هذا الوقت ببضعة شهور كان أحد طلبة جوتنجن ويدعى بوخنر يلقى بطالب آخر يدعى بكر . ويطلق عليه فى بعض الحالات بكر الأحمر Red Becker حمرة شعره .

وأسر بكر إلى صديقه أنه عضو فى جمعية سرية يرأسها شخص مؤتمن هو

الواعظ ويدج ، وجمع بينهما ، ومع أنهما كانا يختلفان في الطبيعة ، إذ كان بوختر يستهدف بالدرجة الأولى استنهاض الجماهير للقيام بثورة اجتماعية على حين كان ويدج يستهدف الإصلاح الدستوري والوحدة القومية ، فإن عداوتهما المشتركة للأوضاع القائمة وحدت بينهما . واقترح بوختر تكوين جمعية سرية لإثارة الاضطراب والإعداد للثورة في كل ناحية يوجد بها ثلاثة أفراد يؤمنون بفكرتها ، وإصدار منشور لإثارة الجماهير ، وبعد شيء من التردد قبل ويدج الفكرة .

وعاد بوختر إلى جيزن ، واستطاع أن يجند عشرين طالباً وأن يكون منهم جمعية باسم « جمعية حقوق الإنسان » وهو اسم جمعية كانت موجودة بالفعل في استراسبورج وتعرف بوختر عليها . وبعد بضعة أسابيع كتب بوختر المنشور المتفق عليه باسم « رسول هس The Hessian Messenger » وحاول ويدج أن يلطف من حدة وقسوة لهجة المنشور ، وحذف بعض فقرات كان بوختر يرى أنها أفضل ما فيه ، وأقحم بعض آيات الإنجيل . ومع هذا فقد ظل المنشور جرة ملتهبة من إثارة الفلاحين على الملاك ، الفقراء على الأغنياء . المحكومين على الحكام

وبعد طبع المنشور بدأت عملية توزيعه وأخذ بوختر يوسع نطاق عضوية الجمعية بحيث ضمت ممثلين لعدد كبير من الجامعات .

ومن سوء حظ المؤتمرين ان كان كهل ، وهو الذي وشى بالحركة الأولى من بينهم — ولم تكن هذه الحقيقة معروفة . فوضع خطة منقنه لاستغلال السلطات لقاء الوشاية بهذه الحركة . فاتصل بالسلطات وأنهى إليهما أن بعض الطلبة سينقل عددا من المنشورات الثورية من المطبعة في أوفنباخ إلى جيزن . وبذلك استطاعت السلطات أن تقبض عليهم — وعلم بوختر بذلك في الوقت

المناسب واستطاع باتصالات سريعه أن يخطر المؤتمرين الآخرين ، وأن ينقذ النسخ الباقية في المطبعة .

وظلت تقصيات السلطات المؤامرة تتخبط وتستطيل ، فإن كهل لم يشأ إفشاء الأسماء الكبيرة - وبذلك تمكن بوختر من الفرار واقتنعت السلطات بأن ويدج هو محرر المنشور واعتقلته في أبريل سنة ١٨٣٤ وعرضته لتعذيب أدى به لأن يموت أو ينتحر - بعد ثلاث سنوات .

وكان يمكن للسلطات أن تلاحق مثل هذه التحركات السرية والثورية المحدودة ، ولكنها لم تكن لتستطيع شيئاً عندما هبت عاصفة الثورات عام ١٨٤٨ . وقد أشرنا إلى الأثر السياسى لهذه الثورة . وكيف تمكنت القوى الرجعية من أن تحتويه وتستحوذ عليه . أما الأثر الاجتماعى والدوائى والشعبى لها فإنه يفوق بمراحل حصيلتها السياسية .

وأهمية ثورة ١٨٤٨ من الزاوية الشعبية والدعائية أنها كانت نقطة الإنطلاق والبدية للاشتراكية وظهور الطبقة العاملة واشتراكيها فى العمل الثورى . وأنها كانت الفرصة التى أتاحت لكارل ماركس أن يقوم بدور بارز فى الدعاية السياسية عمقت مفاهيمه وزادتها صلابه .

ومن هنا ، فمع أن الثورة بدأت أساماً فى فرنسا ، ونجحت فى إقتلاع النظام القائم وإحلال نظام آخر كان من بين رجاله داعية اشتراكي إلا أن مؤامرة لويس بونابرت أجهضتها . وكان الأثر الأعظم لها فى ألمانيا ، فمع أنها أخذت عسكرياً ، وفشلت سياسياً ، فإن البنود المذهبية التى وضعتها لم تلبث أن نمت وازدهرت وأوجدت الاشتراكية الألمانية .

وحق ثورة ١٨٤٨ كان الفكر الاشتراكي فى الأغلب فرنسياً يستلهم سان سيمون وفورييه وبرودون . ويدور فى تلك الحلقة التى أطلق عليها ماركس

- ظالمها - الاشتراكية المثالية « اليوتوبية » وعندما ظهرت بدايات الفكر الاشتراكي الألماني تأثرت بالأفكار الفرنسية ، كما استلهم بعضها أفكار الثورة الفرنسية التي لم يكن قد طال عليها الأمد وقتئذ ، خاصة وقد بلغ عدد المهاجرين الألمان الهاربين من العنف البروسي إلى باريس وحدها قرابة ثمانين ألفاً .

وقبيل ثورة ١٨٤٨ ظهر أبرز داعية اشتراكي في ألمانيا وهو الخائك ويتليخ - كما ظهرت المجموعة التي كونت عصبة العدول في لندن - وكان أبرز دعايتها الموسيقي كارل شابر والاسكافي هنريش باور والساعاتي جوزيف مول والرسام فندر Pefender واينكاروس وولهم ولف ( الذي أهدى إليه ماركس فيما بعد كتابه رأس المال ) .

وفي سنة ١٨٤٦ أوفدت العصبة جوزيف مول إلى بروكسل ليتصل باثنين من المثقفين ظهرا وقتئذ هما الدكتور كارل ماركس من ترير وفردريك أنجلز من بارمن وليدعوهما للالتحاق بالجماعة وأبدى هذان السيدان شكهما ، ولكنهما سافرا إلى إنجلترا حيث أعادا تنظيم الجماعة .

ولا شيء مثل ظهور ماركس في هذه الساعة يوضح الأثر البالغ للفرد القدير ، فقبل ماركس كانت الهيئة تحمل اسم « عصبة العدول » فتغيرت إلى « عصبة الشيوعيين » وكان شعارها « كل الناس إخوة » فأصبح شعارها « يا عمال العالم اتحدوا » بل إن البيان الشيوعي نفسه كان يمكن أن يصدر في صورة أسئلة وأجوبة - كما ارتأى ذلك أنجلز وهو شريك ماركس وصفيه - ولكن ماركس أصدره سببها ملتبة ، وثيقة اتهام وحكم بالإعدام . . ومن الطبع الناري والمزاج الحاد والعدواني لماركس أخذت الحركة الاشتراكية الحديثة سمتها وطابعها .

وفي سنة ١٨٤٨ عاد ماركس إلى ألمانيا ووجه زملاءه والهاربين الألمان للعودة لاعلى رأس حملة عسكرية كما كانوا يرون بالفعل ، ولكن للدعاية والتنظيم والإثارة في المناطق العمالية . واختار ماركس نفسه « كولون » مقرأ ليس فحسب لأنها إحدى المناطق الصناعية المتقدمة ، ولكن أيضاً لأنها تطبق قانون نابليون الذى كان يقضى بأن ينظر الخلفون في القضايا السياسية .

وأصدر ماركس مجلة الرين الجديدة من أول يونيو ١٨٤٨ حتى ١٩ مايو ١٨٤٩ عندما صدر العدد الأخير مطبوعاً بالأحمر ، وعرضت للمرة الأولى ذلك الفكر الثورى الباتر كالسيف .. البارد كالصلب الذى ينضج بشأن العداء والبغضاء والتعصب .

« إننا لا نتساح ، ولا نسألكم تسامحاً ، وعندما تكون الغلبة لنا فلن نعتذر عن الارهاب » .

« إن القضية هي الملك أو الشعب .. وقد قضى الأمر وسينتهز الشعب .. »  
« إن دفع الضرائب خيانة عظمى ، ورفض دفعها هو الواجب الأول للمواطن » .

« إننا لا نخفي قط منطلقتنا ، وليس هو بالمنطلق القانونى إنه بالمنطلق الثورى » .

هذه هي « الرين الجديدة » وتلك بعض مقاطعها .. كانت شيئاً جديداً يمثل الصلابة ، ويبعد عن المساومة ويتسلح بالثقة المطلقة والتعصب المصمت . لقد أعطى ماركس وصحيفته الرين الجديدة الحركة العمالية شيئاً ثميناً للغاية . شيئاً كانت في أشد الحاجة إليه . أعطاه الصلابة . كانت الماركسية أشبه بمعدن صلب قاس اختلط بالدعوة العمالية الطرية المرنة التى كانت تخضع لأي تأثير وتقبل أى مساومة وترضى بأصاف الحلول — فحول ماركس هذا الطين

الرخو الطرى إلى أسمعنت مسلح . ومن المحتمل أن ماركس جاوز الدرجة المثلى في هذا ولكن من المشاهد أن الطبقة العاملة تغلب عليها المسكنة وتحكم تصرفاتها ضعة كمننت في خبيثة النفس وأعماقها عبر أجيال من الانقهار والخضوع حتى أصبحت وكأنها إحدى الصفات الوراثية السكمنة التي يظهرها اللقاء مع الطبقات المميزة فماتسكاد الارستقراطية تبدى أقل تنازل أو تلطف حتى يبدو ذلك إغراء لا يمكن للجماهير مقاومته وتلاشى إزاءه كل ذكريات الإهانة والاذلال القديم وتنسى الهدف وترضى بالفئات أو بأقل مما كانت الارستقراطية على استعداد لتقديمه، وفي كثير من الحالات يكون ذلك مفاجأة للارستقراطية التي تملكها الخوف إزاء قوة الجماهير . ولكنه يعزز فكرتها الطبقيّة عن دونية العامة ، وأنها لا تستطيع أن تنصدي لساتها تنصدي الأكفاء ، إزاء ذلك يكون من الضروري أن تمنح الجماهير تلك الجرعة المضاعفة من الثقة والزهو والصلابة . وهذا القدر من الشان ، على أن يخفف ذلك فيما بعد شيئاً ما حتى لا يتحول إلى صلف أو استعلاء .

وفي كل انحاء ألمانيا قامت المظاهرات وحدثت المصادمات وأسهم معظم دعاة الفكر الاشتراكي في قيادة هذه المظاهرات والدعوة إلى تكوين جمهورية وقتل مول وولف ونجا ليبسكنشت من القتل بأعجوبة وقبض على الباقين من دعاة الثورة وأقام أهل كولون المتاريس وأعلنت الأحكام العرفية وعطلت « الرين الجديدة » وعبر محرروها الحدود إلى بلجيكا وأنجسرت .وجه الثورة وفقدت مدعها . وفي فبراير ١٨٤٩ حوكم ماركس . وخلال دفاه عن نفسه أمسك بنسخه من قانون نابليون كانت على المائدة وعرضها على المحلفين قائلاً « إن قانون نابليون هذا لم يوجد المجتمع البورجوازي . على العكس ، لقد رأى المجتمع البورجوازي فيه التعبير الشرعي له ، وفي اللحظة التي لا يتجاوب هذا القانون مع بنيان المجتمع لا يصبح شيئاً



« وتسامح » المجتمع البورجوازي معه ، ولكن ماركس تأكد أن المد الثوري انتهى وفي الوقت نفسه طلبت السلطات إلى ماركس - الذي كان قد تخلى عن جنسيته البروسية - مغادرة البلاد .

وكان على ماركس أن يصنى ديون المجلة ، فمع أنها كانت قد أخذت تنجح ، ووصل عدد المشتركين إلى ستة آلاف ، إلا أن مواردها لم تكن لتفي بديونها طوال فترة التأسيس ورهنت زوجه ماركس - التي كانت تمت بصلة نسب إلى دوقة أرجيل - كل « فضيات » الأسرة ، وبيع الأثاث وكل ما تملكه . قبل أن يستطيع ماركس مغادرة ألمانيا إلى الأبد والذهاب إلى لندن . .

وبمغادرة ماركس لألمانيا انتهى عمله الشخصى والمباشر فى الحركة الاشتراكية الألمانية ومع أنه لم يقض فيها إلا قرابة عام إلا أنها كانت كافية لبذر بذور الماركسية .

---

## الفصل الثالث

### تطور الحركة الاشتراكية الألمانية

حتى نهاية القرن التاسع عشر

انتاب الحركة الاشتراكية والعمالية بعد انحسار ثورة ١٨٤٨ سبات طويل. وتقلدت القوى الرجعية مرة أخرى زمام الأمور وكان يجب أن تمضي عشرة أعوام قبل أن تبدأ بوادر اليقظة من جديد.

وفي هذا الفصل، كما في الفصل السابق، نجد أن ظهور الرجل القدير كان هو الذى يديق الناقوس ويبدأ المسيرة.

وعندما غادر ماركس وصحبه ألمانيا لم تجد الحركة الاشتراكية من يقودها. ولم تجد الحركة العمالية التي بدأت تسكب وتضخم مع كبر وتضخم الصناعة من يوحد شملها ويلم شعنها.

وكان هناك عدد من الهيئات والجمعيات العمالية ولكنها كانت محدودة. كما كان القائمون عليها من ذوى الافاق الضيقة، وقد كان أكبر هذه الهيئات هي أخوية العمال Workers Brotherhood التي كونها «بورن» زميل ماركس في كفاح ٤٨، وكانت سياستها بصفة عامة هي الخطوط التي وضعها البيان الشيوعي، ووصل عدد أعضائها إلى عشرة آلاف، وطالبت بجعل ساعات العمل عشرة وتحرير تشغيل الأطفال حتى سن الرابعة عشر ومنح العمال حق التصويت. وفرض الضرائب التصاعدية وتخفيف مدة الخدمة العسكرية.

كان هذا هو الموقف عندما ظهر لاسال على المسرح ظهور البطل في

المسرحية فتزعم الحركة وسار بها في أتحاف اشتراكي معين وأعطائها بعض السمات التي لازمتها طويلاً . . .

ولد فرديناند لاسال من أسرة يهودية من الطبقة الوسطى في أبريل عام ١٨٢٥ ودرس الفلسفة في الجامعة وأبلى أبواه أن يصبح أستاذاً جليلاً ، مرموقاً ولكن فطرته وطبيعته كانت تؤهله ليكون داعية . ويدا ذلك جليلاً من أيامه الأولى : فلم يكفد يسمع ، وهو في العشرين ، عما تعرضت له إحدى النبيلات على يد زوجها من عسف واستغلال حتى تبني قضيتها ونذر نفسه للدفاع عنها .

وكان زوج الكونتس هاتز فيلد قد أساء معاملتها واستحوز على مالها ولم تجد محامياً يطالب لها بحقوقها خوفاً من زوجها الغني والقوي ولعدد كبير آخر من الأسباب الفنية ولكن شيئاً من هذا لم يكن يشغى لاسال الشاب كما لم يئنه أنه لم يكن يعرف شيئاً عن القانون ، ومواء كان الباعث رومانسكياً كأجل ما يمكن أن تقدم الرومانتيكية وتجعله الفارس المنتد للسيده الممذبة ، أو أنه كان حالة من حالات الظلم الاجتماعي وفساد الأوضاع يكون العمل لها « جهداً أميناً لضمان الاعتراف بحقوق الإنسان المنتهكة » على حد قول لاسال . فإن لاسال ترك كل شيء للدفاع عنها وسار بالقضية طوال ثمان سنوات وعرضها على ٣٦ محكمة وقدم ٣٥٨ شهادتقبل السجن عندما اشترك في سرقة بعض أوراق الكونت التي أمل أن يجد فيها أدلة خاصة بالقضية . حتى استطاع سنة ١٨٥٤ أن ينتصر على الكونت وأن يظفر للكونتس بأموالها — بضعة ملايين من التاليرات ، وأصررت الكونتس الوفيه على أن يكون للاسال معاش سنوي سخى منها . .

وهذا الفصل من حياة لاسال لا يمكن أن يغفل . لاسال له من دلالة قوية وبارزه على طبع لاسال الذي تحكم فيه وعجل بوفاته ، ولكن أيضاً لما ترتب عليه من آثار وثيقة بالحركة العمالية كما ستري .

وعندما اشتعلت ثورة ١٨٤٨ أسهم لاسال فيها وتعرف على ماركس وقامت  
بينها علاقة توثقها وحدة الهدف وتوحدتها فرقة الطبع . كان لاسال جماهيريا  
عاطفيا ، خطيبا ، كما كان إلى - حديا ثريا - بينما كان ماركس سوداويا فقيرا  
منظرا ومنطويا على نفسه . وكان في لاسال خيال وديماغوجيه . ولم تسكن لديه من  
العنصرية الخلاقة ما يجعله يساوى ماركس أو يستقل عنه وفي الوقت نفسه فلم يكن  
يسمح له ذكؤه المتألق بأن يكون تابعا أليفاً لماركس . ومع أن ماركس عندما  
كتب إلى الكونتس معزيا إثر مقتل لاسال شبهه بأشيل الذي مات في شرح  
الشباب . فإنه شبهه - فيما بينه وبين اصفياه - بفار أحدث ضجيجا كبيرا<sup>(١)</sup>  
وكان يطلق عليه العبد اليهودي ، وقد أعترف لاسال دوما باستاذية ماركس .  
ولكن ماركس لم يغفر له إقبال الدنيا عليه وترحيب الجماهير به في الوقت الذي  
كان يعاني فيه مرارة الفاقة وكآبة الوحدة .

وانغمس لاسال في العمل الجماهيري فترة الثورة وسجن أكثر من ستة  
شهور واستغل محاكمته - وقتئذ في الدعاية لسياسته والدفاع عن قضية  
الطبقة العاملة .

وعندما انتشم غبار المعركة وانحسر مدها آب لاسال إلى دراساته التي كانت  
قضية الكونتس وثورة الجماهير قد قطعنها فأخرج « فلسفة هيراقليطس »  
و « نظام الحقوق المكتسبة » وكتب مسرحية عن « فرانزفون سيكنجن »  
النبيل الاقطاعي الذي ثار على النبلاء عام ١٥٥٢ . وعندما اندلعت حرب  
التحرير الإيطالية عام ١٨٥٩ اصدر رسالة بعنوان « الحرب الإيطالية ورسالة  
بروسيا » خالف فيها الاتجاه العام الذي كان يدعو لشن الحرب على فرنسا

(١) وكان ماركس يطلق في بعض مراسلاته الخاصة على الكونتس كلمة  
the old bitch وهي ما يمكن أن يترجم إلى البغي المعجوز أو السكبة أو  
القديمة المعجوز .

لاعتدائهم على النمسا ، وتنبأ فيها بكثير من التوقعات والتطورات التي حدثت بالفعل مثل ضم فرنسا نيس وسافوى . واستقلال إيطاليا وإعلان بروسيا الحرب على الدنمرك وضم شلزويج وهولشتين . وأرسل لاسال نسخا من هذه الرسالة إلى كل الوزراء البروميين — بما فيهم إسمارك — كما أصدر أيضاً رسالة عن « لسنج » الذي كان يراه الشخصية الألمانية التي تأتي بعد لوثر مباشرة ، وكتابتها عن الأحزاب وعلاقتها بالبلوريتاريا .

وخلال هذا الكفاح الجماهيري والعمل الفكري ذاع أسم لاسال ووجدت فيه قيادات بعض الهيئات العمالية الرجل الأمثل الذي يقود الحركة العمالية . وفي سنة ١٨٦٢ كتب إليه ثلاثة من هؤلاء هم فاهليتس Vahlteich وفريتزش Fritzche ودامر Dammer رسالة قالوا فيها .

« إننا الثلاثة قد ناقشنا هذا الموضوع كأعضاء في اللجنة ، ولا نعلم أحدا في ألمانيا غيرك يمكن أن يقود حركة بهذه الأهمية ، أو يستطيع أن يتحمل هذه المهمة الثقيلة ويكون في الوقت نفسه مستأهلاً للثقة المطلقة . إنك الرجل لهذا العمل ، و كلنا يضعه يسرور أمامك » . . .

وفي خطاب تال كتب دامر :

« إن تأسيس اتحاد عمالي واحد في أذهاننا جميعا وتستطيع أن تعتمد على أكثر من ثلاثين ألفا » .

وقبل لاسال الدعوة ، وفي مارس وضع برنامجها السياسي في صورة خطاب مفتوح وجهه إلى العمال وتضمن إلى جانب المطالب الكلاسيكية التي طالب بها العمال سنة ١٨٤٨ ، مثل حق التصويت المباشر للجميع ، مبادئ ذات أهمية خاصة منها أن الطبقة العاملة يجب أن تتحرر من نفوذ الحزب التقدمي الذي كان قد ظهر وقتئذ في ألمانيا وضم البورجوازية الصغيرة والمهنيين وكان يعطف

على الطبقة العاملة ، قدر ما كان يثبط قيامها كحزب مستقل . كما تضمن البرنامج مطلباً يبدو غريباً هو اعانة الدولة للجمعيات الإنتاجية العمالية .

وهذه النقطة الأخيرة التي بدت غير مفهومه وانتقدتها ماركس بقوة تعود إلى فكرة لاسال عن الدولة وعن الاشتراكية وأختلافها عن فسكرة ماركس عنهما . فلم يكن لاسال يرى في الدولة أداة كبت أو قمع أو مجرد تعبير اقتصادي ولم تكن نظريته إليها طبقية ، غارقة أو نظرية مجردة ، فقد رأى فيها بلورة لروح الشعب ونفسيته تربط المواطنين بها وشائج تسكاد تكون عضوية . وتوجد التزامات متبادلة وتتأثر بعد كبير من العوامل ، بما فيها العوامل الاقتصادية ورأى لاسال أن الطبقة العاملة عندما تمنح حق الانتخاب من ناحية وتعاون في مشروعاتها التعاونية والإنتاجية من ناحية أخرى فإنها توجد في كنف الدولة البورجوازية الدولة العمالية ، أو تساعد التطور على أنه يسير في هذا الاتجاه . كان ثمة خلاف جنري بين ماركس ولاسال نشأ عن الاختلاف في المزاج والوضع والملابسات :

كان ماركس وهو يستكشف نظريته يتحول شيئاً ما من ميدها إلى عبدها من الجابل لها إلى المفتون بها . فبالإضافة إلى أن هذه النظرية كانت من الأحكام والجمال كتمثال بجماليون القديم — بحيث تسببه وتسترقه . فإنها كانت في حقيقة الحال فلسفة جبرية إلى حد كبير ، يسير فيها التطور تبعاً لقوانين الماديه الجدلية التي لا يستطيع الناس (ولاحق العمال) تغييرها كانت المعاني الذاتية والإنسانية<sup>(١)</sup> والقصدية مستبعدة تماماً استبعاداً قد يصوره التأويل

(١) انظر مثلاً « ان القول أن كل فرد له قيمة كما لو كان كائناً له سيارة a sovereign being إنما هو وهم وحلم وافتراض من المسيحية التي تؤكد أن لكل فرد روحاً » .

Narx-Engels, Historical Critical Edition vol, I, N. 590 Moscow.

الماركسى للحرية بأنها السلم بالضرورة . كان ماركس كعالم الرياضية لا يستهدف أن يجعل ناتج الضرب والطرح شيئاً يريد به . . وإنما قصارى ما يطمع فيه هو أن يصل إلى الناتج الصحيح . وساعده على ذلك أنه كان يعمل فى منغاه القصى ، وفى صالة المتحف البريطانى ، وبين الكتب والمراجع فى منزل تام عن الاحداث . ولم يكن يتعامل مع الرجال والصراع والمواقف المعينة فى ظروف معينة فى مواقع معينة ، ولكن مع الفروض الرياضية الخالدة التى لا تتغير .

وفى مقابل هذا كان هناك عدد من المؤثرات الشخصية كاضطهاده وفاقته وأصله اليهودى وما ترسب خلال أجيال وأجيال فى أعماقه من بغض أو حقد وذكاؤه الخارق واعتداده بنفسه الخ .. وهى كلها عوامل ذاتية كانت تناقض المناخ الموضوعى للنظرية وجعلت ماركس يجمع بين التقيضين : سيد النظرية وعبيدها ، الداعية المتعصب والعالم الموضوعى ، المندد بليهود والممثل للخلق اليهودى .

نتيجة لهذه العوامل كلها ، آمن ماركس إيماناً لا يتطرق إليه الشك أن المعيار الوحيد للحكم على الآخرين هو تقبل نظريته تقبلاً تاماً دون أى ميل ، وفاته أنه عندما يلزم أتباعه تطبيق نظريته الجامدة المحككة على الظروف المتغيرة ، فإنه سيلبس عليهم الأحكام ويجعلهم كدون كيشوت يحسبون طواحين الهواء فوارس الأعداء .

---

== وكذلك ما جاء فى الطبعة الأولى لرأس المال :

« إذا كنت أتحدث عن الأفراد ، فلأنما يسكون ذلك بقدر تجسيمهم للأعماط الاقتصادية وتمثيلهم لعلاقات ومصالح طبقية خاصة » .

٤ — ظهور وسقوط

وإذا استثنينا انجاز الذي رُزق عددًا من العوامل الخاصة والاستثنائية جعلت الود صافياً إلى النهاية بينه وبين ماركس ، فقد تعرض كل أصفياء ماركس بين حين وآخر لثورة غضبه لتصوره انحرافهم بما في ذلك ليبسكنشت وبيل اللذين تملنا عليه وسلماله ، ولكنهما لم يستطعا ، وإلى حد ما لم يستسيغا ، التطبيق الحرفي لما أراد ماركس للحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني .

ولم يكن لاسال مثل ماركس ، فصحيح أنه أعجب بماركس وأفاد منه وتلمذ عليه حيناً من الدهر ، ولكنه كان زعيماً مرموقاً لأكثر كتلة عمالية في ألمانيا وعليه أن يتعامل مع المجتمع الحى النامى والأحداث المتطورة المتغيرة ، ولم يكن ليستطيع أن يقبل التجريد الماركسي الذي جعل ماركس يتخلى عن جنسيته ويعتقد أن العمال لا وطن لهم . لقد كان يرى بملأ عينيه أن من العسير تجريد العمال من المؤثرات التي تحملها إليهم جنسيتهم وأن من الخطأ نظرياً وعملياً أن يتصور المرء إمكان جعل الإنسان الماركسي كالإنسان الاقتصادي . فرضاً عقلياً مجرداً أو كائناً في حالة من انعدام الوزن والانبثات عن الأوضاع والجذور الموجودة بالفعل والتي تمسك به من كل ناحية باستثناء العامل الاقتصادي .

كان فهم لاسال للدولة بصفة عامة ، والدولة الألمانية بالذات ووضعه كزعيم لكتلة كبيرة فعالة وتحرره من التحديد النظري والتعقيد السيكلوجي ، كل هذا يجعله لا يرفض التعامل مع المستشار الحديدي « بسمارك » الذي كان يمسك في يديه بزمام السلطة ولم يكن يرى في هذا ضعفاً أو خيانة أو انتهازية ، وإنما مبيلاً لتحقيق أهداف دعوته ، وفي مقدماتها المطلبين الأساسيين : التصويت العام . وإعانة التعاونيات العمالية .

وقد شجبت ماركس - انطلاقاً من فكرته عن الدولة كأداة بكت - فكرة



إعانة الدولة للتعاونيات العمالية وحاول تلويث علاقة لاسال بـسمارك وتصويرها بأنها نوع من الخيانة ولكن لاسال اعتقد أنه أكثر فهما لبسمارك من ماركس كما كان بينه وبين بسمارك عامل مشترك دق على ماركس الإلمام به ، ذلك هو عداوة الأحرار فقد أبدت الارستقراطية الزراعية في ألمانيا - كما أبدت في بريطانيا من قبل - نوعاً من التعاطف مع الطبقة العاملة والتقارب معها . وكان العدو المشترك لهما - - - ولو لفترة معينة - هو الأحرار ورجال الصناعة والتجارة . وقد تنبأ لاسال بأن بسمارك سيمثل دور روبرت بيل (زعيم المحافظين في بريطانيا سنة ١٨٤٠) فيمنح حق التصويت العام المباشر ، ولم تكن هذه النبوة بالكاذبة .

وقد تحدث « بيل » عن هذه الاتصالات - كما تحدث عنها بسمارك فقال  
بيل في جلسة الرمثستاج في ١٦ سبتمبر سنة ١٨٧٨ .

« تعلقت هذه المحادثات والمفاوضات بأمرين : الأول الانتخاب العام المباشر والثاني إعانة الدولة لجمعية التعاون الإلتاجي . وقد كسب لاسال البرانس بسمارك لمشروعه ولو أنه رفض إقرار الانتخاب العام قبل إنهاء الحرب الدانمركية ولكن لاسال كان يريد إقراره فوراً ودون أى تأخير ومن هنا قامت خلافات خطيرة بين لاسال وبسمارك ولم يكن الأخير هو الذى أوقف المفاوضات ، ولكنه - وعلى أن أؤكد ذلك - لاسال . »

وقال بسمارك : « كان فى شخص لاسال شيء جذبني بطريقة غير عادية . وقد كان واحداً من أكثر من تعاملت معهم ذكاء وطموحاً وأنى لأسف حتماً أن وضعه ووضعى السياسى لم يسمح بمواصلة العلاقة الشخصية . وقد كان يسعدنى لو أن رجلاً يمثل هذه المواهب والمقدرة الذهنية كان جارى - وكان يابى إلى يابى . »

فحقى لو صرفنا — جدلاً — النظر عما أكده ببيل من أن لاسال هو الذى قطع العلاقة عندما لم يستجب بسمارك استجابة فورية لإقرار الانتخاب العام المباشر ولو أخذنا بما ذهب إليه مصادر أخرى من أن بسمارك هو الذى قطع المفاوضات فإننا لا نرى فى هذا كله انتهازية أو خيانة والقول بهذا ليس إلا قطعة من سيامة « تلويث المخالفين » التى انبثقت من طبع ماركس وأصبحت إرثاً للماركسية ، وجزءاً لا يتجزأ من التكتيكات الشيوعية .

وهذا كله لا ينفى أن يكون لاسال قد أخطأ لا فى مبدأ الاتصال ببسمارك — كما ذهب إلى ذلك ماركس — ولكن فى أسلوب هذا الاتصال ، إذ يجب دائماً على الزعيم الجماهيرى أن لا يتخذ مثل هذه الخطوة الهامة دون ارتكاز على قاعدته العريضة الصلبة ليتمكن له أن يتحدث من مركز قوة ، فإذا كان من المصلحة .. لاعتبارات معينة . الاحتفاظ لها بقدر من السرية فلا بد من إخطار اللجنة التنفيذية والحصول على موافقتها . ومعرفة القاعدة أو اللجنة التنفيذية تعطى الشرعية والتصديق والاعتراف وتبعد عنها طابع التآمرية والانتهازية الذى قد يظن بها قدر ماسيجملها تنطلق من مركز القوة . ولو أن لاسال خاض مع العمال المعارك من البداية لسلك هذا المسلك ولكن لما كانت القيادة قد أتمته منقاد « تيجرر أذيالها » فإنه فيما يبدو أساء تقدير قوته الشخصية ، وكان مسلكه الفردى هذا يتلاقى مع المسلك الفردى لبسمارك . وجلب لاسال على نفسه المتاعب والشبهات بهذا المسلك وأفقد محاولته بعض القوة التى كانت تتألى لها لو حقق لها تصديق القاعدة .

\* \* \*

بعد أن عرض زعماء العمال على لاسال قيادة الحركة وقبل هو ، وأوضح برنامجاً سياسياً فى خطاب مفتوح نشرت بعض الصحف إعلاناً فى ٢٩ أبريل سنة ١٨٦٣ جاء فيه :

« تقرر في الاجتماعات العمالية التي عقدت في ليبزج وهامبرج ودسلدورف ووسلونجن وكولون تكوين هيئة عامة للعمال الألمان على أساس المبادئ التي عرضها لاسال في خطابه المفتوح ونحن نضع فيما يلي لأئحة النظام الأساسي لهذه الهيئة رجاء مناقشتها في الاجتماعات العمالية ، وسندعو خلال الأسبوع القادم لمقد جمعية عمومية في ليبزج لاقرار اللائحة وانتخاب اللجنة التنفيذية » .  
ووقع على هذا الإعلان باسم اللجنة التنفيذية لاتحاد العمال ف. فاهلنش .  
واوتودامر .

وفي ٢٣ مايو سنة ١٨٦٣ وبعد سلسلة من الاجتماعات التي خطب لاسال في بعضها لأكثر من أربع ساعات تكون الاتحاد العام للعمال وانتخب لجنة تنفيذية لمدة خمس سنوات وكانت تضم لاسال رئيسا ودامر نائبا للرئيس وفاهلنش سكرتيرا .

ولكن هذه البداية المبشرة لم تحقق ما أنتظر منها ، فلم يضم الإتحاد أكثر من بضعة الوف ، واستمرت الخلافات ما بين اللجنة التنفيذية . واستقال فاهلنش من منصب السكرتير احتجاجا على دكتوتورية لاسال ، واستقال لاسال نفسه من منصب الرئاسة في ٢٧ أغسطس سنة ١٩٦٤ وسافر إلى سويسرا حيث كان ينتظره قدره ، ففي مبارزة بينه وبين أحد النبلاء البروسيين أصيب بجرح مميت توفى بسببه بعد ثلاثة أيام .

وكان لاسال عندما توفى في التاسعة والثلاثين ، عندما لم يكن الكثيرون من القادة قد بدأوا المسيرة . . ومن الصعب على الإنسان أن يمنع نفسه من لوم لاسال لزجه بنفسه في مثل هذه المأساة خاصة وأنه كان البادئ فيها ، إن الرجل العام ليس ملك نفسه إنه ملك دعوته ويجب أن يحتفظ بنفسه — كل نفسه — لها . وأن لا يسمح لأى اعتبار — بما في ذلك دعاوى الكرامة الفردية — أن

تحول دون ذلك . أو تحرم دعوته منه . وهو ما ينطبق على الشاعر الموهوب الذى قد يكون بحكم ، وهبته أسير العاطفة .

ومع هذا فإذا كنا نلوم لاسال ، أو حتى بوشكين ، فماذا نفعل فى رجل دولة وماليه مثل هاماتن ، يعرض نفسه للدوت . ويموت فعلا . فى ريمان الشباب ؟

لم يتسع الوقت للاسال لىكى يعمق بصماته على الحركة العمالية والإشتراكية الألمانية أو يوطيها شخصيتها الخاصة التى كان يمكن أن تحصنها من إغراء الماركسية ، ذلك لأنه لم يعمل فيها عملا مباشرا سوى قرابة عامين ، ومع هذا فليس من المبالغة القول أنه الأب الشرعى للحركة العمالية الألمانية وأنه أورثها بعض الخصائص التى لازمتها إلى النهاية ومثلت اختلاف الرئيسى ما بين الحركة العمالية وما بين الفكر الماركسى فإن الإشتراكية لدى لاسال وبالتالي لدى الحركة العمالية الألمانية كانت أداة الطبقة العاملة لنيل حقوقها ولكن الحركة العمالية فى الفكرة الماركسية هى أداة النورة الإشتراكية ، ولو أوسع الوقت لاسال وأصل هذا الاتجاه ، وعمقه ، لكان من المحتمل أن تتجنب جمهورية فايمار مصيرها المؤلم .

وبعد وفاة لاسال تعرض إتحاد العمال لفترة عصيبة . فقد فقد رئيسه وسكرتيره وتوقف العون المالى الذى كان يقدمه لاسال ، ودخلت السكونتس هاتزفيلد الحلبية وأرادت أن تواصل الكفاح الذى بدأه حامياها ، وأصررت على أن تسير الهيئة على الخطوط نفسها التى وضعها لاسال وتلا ذلك موجة أخرى من الخلافات انتهت بأن أصبح الزعيم النقابى شفايتزر رئيسا لإتحاد العمال ولكن الخلافات تجددت خاصة وقد أضيف إلى تدخل السكونتس تدخل ماركس وانجلز ومحاولتهما توجيه الحركة من منفاها البعيد توجيها شيوعيا ، ورغم هذه الخلافات التى كانت قمينه بأن تمزق الإتحاد فإن المد العمالى حل الإتحاد فزادت عضويته

وفي بعض المناطق مثل سكسونيا — حيث كان يحرم تكوين أحزاب عمالية سياسية ظهرت عدة هيئات عمالية ذات طابع ثقافي ، وبرز أوجست بيبل في قيادة الحركة العمالية المرددهه هناك .

كانت التطورات السياسية تدفع الحركة العمالية والاشتراكية إلى الأمام فبينما كانت بسمارك يرأس أمس الريح ويحقق الوحدة الألمانية ، ويرضخ لمنح العمال حق التصويت « كما تنبأ لاسال » كانت القوى الاجتماعية والاقتصادية تتجمع وتتناور وتتضح قسماتها وكانت الطبقة العاملة تتحفز وتتكتل وكانت مجموعات الرأسماليين والأحرار والملاك تكون أحزابا خاصة بها . .

وفي أول انتخابات عقدت بعد الحرب البروسية - النموية رشح ليبكنشت الذي كان وقتئذ مسجوناً في برلين وكونت الهيئات الثقافية العمالية حزب الشعب السكسوني على رأس قريبة من أمس إتحاد العمال وفي مؤتمر إتحاد العمال الذي عقد في إيرفرت في ديسمبر سنة ١٨٦٦ أعتمد — بشيء من الصعوبة — البرنامج الذي وضعته السكونتس هاتزفيلد ، والذي كان يتضمن تكوين جمعيات عمالية تعيينها الدولة تطبيقاً لمبادئ لاسال . ولكن عندما انتخب مرشح غير مرشح السكونتس للرئاسة انشقت هذه وكونت حزبا يرأسه مرشحها .

وجابهت الطبقة العاملة انتخابات ١٨٦٧ وهي ممزقة ما بين ثلاثة أحزاب كل يحارب الآخر . ومع هذا فقد فازت في كثير من الدوائر ونالت أصواتا ساحقة ففي إحدى الدوائر نال مرشحها ١٨٠٠٠ صوتا بينما لم ينل بسمارك في دأثرته سوى ٦٥٠٠ صوتا وفاز ليبكنشت ، وبيبل ، وشفاتينزر بمقاعد في الرشتاج الجديد . ويمثل هذا الثلاث إلى حد ما القوى الثلاث التي تجاذبت الحركة العمالية الألمانية أعنى بها النقابية والماركسية واللاسلية .

وكان قطبا الحركة الاشتراكية في الستينات — حتى مطلع القرن هما —

جون منازع — ويلهلم ليبكنشت وأوجست بيبل، وأول هذين ينتمى بإجداده إلى لوتر ، وويدج الذى تحدثنا عنه ، كما أنه أنجب كارل ليبكنشت تأثر الحركة السبرتاكوسية وشهيدها — كما سنرى — وكان ليبكنشت ثوريا هاجر فى العشرين من عمره إلى إنجلترا ولكنه عاد منها سنة ١٨٤٨ وقام بدور بطولى فى الثورة وكاد أن يقتل رميا بالرصاص . أما أوجست بيبل فقد كان بحكم المهنة « خراطا » وانتخب سنة ١٨٦٥ رئيسا لأحدى النقابات الحرفية — وهاجر إلى لندن حيث تعلم على يدى ماركس وأصبح من أصفائه ولما عاد أخذ يعلم العمال فى جمعيات الثقافة العمالية .

وكان ليبكنشت وبيبل يوجهان الحركة العمالية الألمانية نحو الماركسية واقترحا أن يكون حزب الشعب السكسونى فرعاً للدولية الأولى ، وكان مركز بيبل بالذات قوياً فى مكسونيا التى اعتبرت من قلاع الحركة العمالية الاشتراكية وفى مؤتمر نورمبرج الذى عقده حزب الشعب فى سبتمبر عام ١٨٦٨ — وحضره مندوبون عن النمسا ومويسرا ومندوب عن الدولية « هو ايكاروس » انتخب بيبل رئيساً بأغلبية الثلثين ووضع برنامجاً على خطوط ماركسية ، وأثار ذلك ثائرة بعض العناصر وانخذلت مجموعة منها .

وتضمن برنامج نورمبرج فقرات نقل بعضها من مقدمة الدولية أو استلهمت من روح كتابات ماركس . مثل « إن تحرير الطبقات العاملة إنما هى مهمة الطبقات العاملة نفسها » « إن الحرب السياسية شرط لازم للتحرير الاقتصادى للبلوريتاريا » « إن القضية الاجتماعية جزء لا يتجزأ عن القضية السياسية » « إن تحرير العمال ليس بالمسألة القومية أو المحلية . ولكنها مشكلة اجتماعية تعنى كل دولة » .

وكلمات جهود بيبل وليبكنشت بالنجاح عندما عقد فى ايزناخ

(٧ أغسطس ١٨٦٩) مؤتمر ضم عدداً من التشكيلات العمالية والاشتراكية « التي أطلق عليها مجموعة ايزناخ » وتمخض عن تكوين « حزب العمال الاشتراكي » .

وعندما قامت الحرب الألمانية الفرنسية كان على الاشتراكيين أن يحددوا موقفهم من الحرب وأن يقرروا هل هي حرب دفاعية ومن هو المعتدى ومن هو المعتدى عليه . وكان القسم الفرنسي من الدولية قد أدان الحرب قبل إعلانها بأسبوع « إن حرباً للسيادة أو حول الأسرة المالكة هي حماقة إجرامية » ورأى الزعيم النقابي شفايتزر ومن ناحيته أن الحرب دفاعية ، وأيد المجلس العام للدولية ذلك ببرقية أرسلها في ٢٣ يوليو وأكدت فيها ضرورة إبراز الطامع الدفاعي للحرب ، ومع هذا فقد أعلن عميدا الحركة الاشتراكية الألمانية ليبكنشت وببيل أن مسئولية ألمانيا جسيمة ، كمسئولية فرنسا ، ورفضاً في البرلمان الموافقة على اعتمادات الحرب .

وبعد الانتصار قدمت الأحزاب القومية مذكرة إلى الملك طالبت بضم الازناس والورين واستدراك ما أغفله مؤتمر سنة ١٨١٥ وعارضت ذلك التشكيلات العمالية على اختلافها بما في ذلك النقابات التي ظلت تحت زعامة شفايتزر المعروف بميوله القومية وتعصبه لبروسيا ووضعت مذكرة مضادة تنبأت فيها بأن ذلك سيضرم نار العداوة بين فرنسا وألمانيا ، وسيبهر حرباً جديدة .

وأنارت هذه المذكرة حرباً على الاشتراكيين ، وأخذ بسمارك يعتقل زعماءها - وعلى رأسهم ليبكنشت وببيل - ولكن هذا الاضطهاد أوجد أثراً مضاداً ، فقد انتشرت الكتابات الاشتراكية والثورية ، وزاد اقتراب النقابات من الفكر الاشتراكي وكان من الدلالات البارزة على ذلك سحب الثقة من شفايتزر الذي كان يحكم الحركة النقابية بيد من حديد وبعدها عن الاتجاه

الاشتراكي وفي الانتخابات التي أجريت سنة ١٨٧٤ للرشتناج نال  
الاشتراكيون أكثر من ٣٥٠ ألفاً من الأصوات تمثل ٦٪ من مجموع الأصوات.  
ونجحوا في انتخاب تسعة نواب كان منهم بيبيل وليبيكنشت اللذان كانا في  
السجن وظلا في السجن حقبة أخرى لأن الرشتناج رفض إطلاق سراحهما  
ومن ثم فلم يدخل المجلس عملياً سوى سبعة.

وضاعف نجاح الحركة الاشتراكية من اضطهاد بيسارك لها. وضاعف هذا  
الاضطهاد في نجاحها كما حدث أولاً ودفعها للتحرك نحو الوحدة خاصة بعد إقالة  
شففايتزر. وفي أكتوبر سنة ١٨٧٤ دخل ليبكنشت في مفاوضات مع تولكه  
Toelke ممثل اللاساليين وهاسونكلوفر Hasonclaver الذي حل محل شففايتزر  
في رأسه اتحاد معمال لنوحيد الحركة. وفي سنة ١٨٧٥ عقد مؤتمر جوتا ومثل  
الايزناخيين ٥٦ مندباً، بينما مثل اللاساليين ٧٣ مندوباً وانتخب رئيسان هما  
هاسونكلوفر للاساليين وجيب geib للايزناخيين بسلطات متعادلة. ووقع على  
ليبيكنشت المهمة التي لا يحسد عليها، مهمة وضع برنامج يجمع ما بين فريقين  
متقاربين قوة، ومتباعدين فكرة. وهكذا خرج برنامج جوتا نوعاً من  
التسوية واتسم بما تقسم به كل التسويات من ضحالة ووهن. وأنه في محاولته  
التقريب بين هذا وذلك يوهن هذا وذاك.

ونقد ماركس برنامج جوتا نقداً مراراً، وفنده مادة مادة بأسلوب حاد لاذع،  
وقد دفعه إلى ذلك - كما ذكر أنجلز - أمران: الأول بروز المضامين اللاسالية  
بشكل قضى على المضامين الماركسية، والثاني أن ماركس كان لا يزال مشغولاً من  
جراح معركة مؤتمر هوج Hugue Congress للدولية الذي تعرض فيها المنازلة باكونين  
وبنل جدا كبيراً لإبعاده، وكان باكونين يتهم ماركس بأنه وراء كل ما يحدث  
للحركة العمالية الألمانية، وأرسل هذا النقد الذي يحتل مكاناً بارزاً بين كتابات



ماركس إلى بريك Bracke في ٥ مايو سنة ١٨٧٥ لمرضه على بيبيل وليبكشت وجيب ، ولكن هذا النقد القارص لم ينشر على الملأ أو يعلم به جمهور الأعضاء . وحفظ سرا لأكثر من خمسة عشر عاما .

وتضمن برنامج جوتا نصوصا عن إلغاء نظام الأجور وعن قانون الأجور الحديدي وعن الدولة الحرة وعن التعاونيات العمالية الإنتاجية المعانة من الدولة وتحريم تشغيل الأطفال وتنظيم تشغيل النساء الخ . .

وحاول ليبكشت إرضاء لماركس أن يعدل شيئا ما ولكنه لم يوفق تماما ، وإن كان قد نجح في تغيير اسم الحزب فحذف كلمة « الديمقراطية » وأصبح الاسم الجديد للحزب هو حزب العمال الاشتراكي<sup>(١)</sup> . ولكن هذا أيضا لم يقدر له البقاء .

ونجح البرنامج من الناحية العملية وأثبت أن ما قد يراه المنظر انتحارا قد يكون من الناحية العملية انتصارا . ففي ظل الشعارات الحماسية والمرنة التي رفعها الحزب تقاطرت الألوف وتضخمت العضوية وأصبح للحزب ١٤٥ خطيبا عاما و ٢٤ مجلة يبلغ عدد المشتركين فيها مائة ألف . وفي انتخاب يناير ٧٧ ارتفع عدد النواب الاشتراكيين إلى ١٢ نائبا .

وأقضى ذلك مضجع المستشار إسمارك ، فمع أنه في فترات عديدة كان يدخل في منازعات مع الأحزاب إلا أن الحزب الاشتراكي لم يكن من أحزاب « النظام » كما قيل وكان يحمل حملة شعواء على سياسة إسمارك التوسعية والامبريالية . وفي ١٩ مايو سنة ٧٨ أطلق عامل يدعى هودل Hotel النار على عربة .

---

(١) الحزب الاشتراكي الديمقراطي تأليف عبد الرحمن المشهداني ص ١٤ مؤسسة فردريك ايبرت .

الإمبراطور وهي تعبر الانتردن لندن ، ولم يصب أحد وقبض على هودل . واستغل بسمارك هذا الحادث لكي يضرب الاشتراكيين ضربة قاضية ففي مايو عرض على الوشتناج قانوناً لمكافحة الاشتراكية ، وفي مواجهة هذا الاتجاه قدم ليبكنشت باسـم الاشتراكيين بياناً جاء فيه :

« إن النية المبيتة على استغلال عمل رجل مجنون ، قبل أن تقول العدالة كلمتها للقيام بإجراءات كاذبة وضعت من وقت بعيد ضد حزب يدين الجريمة في كافة صورها هو أمر من الواضح لكل محايد بحيث يجعلنا نحن الاشتراكيين الديمقراطيين — نقدم الآتي :

« إننا نعتقد أنه مما لا يتفق مع كرامتنا أن نقوم بدور في مناقشة قوانين الإقصاء exclusion الموضوعة أمام البرلمان ولن نسمح بأى إثارة كائنة ما كان مصدرها — بأن تثيرنا . ومنشترك في التصويت لأننا نرى من واجبنا أن نأكد من أن هجوماً مثل هذا لن يشن على إرادة الشعب وسنعمل كل شيء ممكن للحيلولة دون مثل هذا الهجوم . وسنثبت أصواتنا .

« إن الوشتناج سيتفق على الإجراء الذي يفضله وسيواجه الاشتراكيون الديمقراطيون الألمان — وقد ألفوا الكفاح والاتهام — أى كفاح واتهام جديد بالهدوء المطلوب لقضية عادلة ومنيعة » .

وقهر بسمارك في هذه الجولة فقد أيدته ٥٧ عضواً وعارضه ٢٥١ . ولكن فرصة جديدة منحت له لإعادة الكرة ، ففي يونيو أطلق الدكتور كارك نوبينج من شقته المطلة على انتردن لندن طلقتين على الإمبراطور وأصابه بجرح بالغ ودخل الجاني إحدى الغرف وأغلق عليه الباب وأطلق على نفسه النار . . ولم يكن بسمارك بالطبع ليفلت هذه الفرصة فحل الرمشناج وأثارت الصحافة المشاعر على العمال والحزب الاشتراكي بحيث ألصقت الجريمةتان

بالحزب، وربطت الثانية بالأولى واستبعدت العناصر الموضوعية - كعلاقة الجانبيين بالحزب أو البواعث على الجريمة - من التحقيق، وأديرَت الانتخابات التي أعقبت الحل بذلك، وفي مناخ يضطرم بالسخط على الاشتراكيين، فقد الاشتراكيون عدداً من مقاعدهم، وكسب المحافظون ٣٨ مقعداً، ورغم ذلك فقد احتفظ الاشتراكيون بنسبة مقاعد وعاد أبرز زعمائهم - بيل وليكنشت لأن سكسونيا ثبتت مع الاشتراكيين ولم تخذلهم ساعة المحنة.

وقدم بسمارك قانونه الاستثنائي للمجلس، وكانت الفكرة التي قام عليها إن الآراء المريضة «الباثولوجية» للاشتراكية - عدوة المجتمع والدولة - لا يمكن أن تقع بالقانون العادي ومن هنا كانت الحاجة إلى هذا القانون الاستثنائي «ووافقت كل المجموعات البرلمانية عليه بحماسة، باستثناء الحزب الكاثوليكي الذي تردد شيئا ما وعرض فكرة أن تشديد قانون العقوبات قد يكفي<sup>(١)</sup>، بينما رأى المحافظون أن يحرم كل الناخبين الاشتراكيين من حق الانتخاب. وفي النهاية ظفر القانون بمرافقة ٢٢١ صوت ضد ١٤٩ ووضع موضع التنفيذ بعد يومين، فألغيت كل الصحف الاشتراكية وحل الحزب وكافة منظماته وكل التشكيلات العمالية بما فيها النقابية، وصودرت الأموال ونفي أو سجن الألف. ومن لم ينف أو يسجن فصل من عمله. وشبه أحد الاشتراكيين هذا الاضطهاد الجماعي بما وقع للمسيحيين أيام الاضطهاد الروماني وقال «إنهم لا يدفنونا تحت الأرض، وإنما يغرسون بذورنا» وتنبأ وليكنشت بأن هذا الاضطهاد سيوحد صفوف الحزب، ويحول دون انقسامه، وأن بسمارك سيكون هو الخاسر في النهاية.

---

(١) واسكن نفهم هذا الموقف يجب أن نعلم أن الحزب الكاثوليكي نفسه كان حزباً ألقياً مضطهداً، وقد أعلن عليه بسمارك سنة ١٨٧٣ - ر.أ. ضروساً - التي حملت اسم «المركة الثقافية Kultur kampf».

وتحققت هذه النبوءة . فرغم كل صور السكيت واستخدام الأحكام العرفية فإن الحركة الاشتراكية لم تتحمل ، على العكس . . لقد ازدادت قوة . وغير بسمارك من سياسته فأراد أن يكسب العمال لصفة بإدخال بعض صور الإصلاحات والتأمينات الاجتماعية ، ولكن هذا . وأن أثر على بعض الاشتراكيين ، فإن الهدف منه لم يدق على ذكاء معظم الاشتراكيين ، خاصة وقد كانت تلك هي الفترة التي ظهر فيها جيل جديد من المفكرين الاشتراكيين كان أبرزهم « برنشتين » الذي عهد إليه بتحرير مجلة الحزب السرية « الاشتراكي الديمقراطي » بعد أن استقال فولمار من رئاسة تحريرها . وبمثل « كاوتسكي » وهو من أصل تشيكي . وكان أبنا لمثلة أشتهرت بتشكيلها قدر أشتهارها بكتابات الاشتراكية وأخذ يعرض أفكار ماركس وإنجلز في صحيفة أصدرها في ستوتجارت . وفي ٢٩ مارس سنة ١٨٨٣ عقد الحزب مؤتمرا في كوبنهاجن حضره ستون مندوبا من كل أنحاء ألمانيا ، ورفض المؤتمر تقبل إصلاحات بسمارك وقرر التمسك بكل الأفكار الاشتراكية وعندما عقدت الانتخابات في أكتوبر سنة ١٨٨٤ حاز الحزب الاشتراكي المنحل ٢٤ مقعدا ، وأثار هذا المستشار الحديدي . وفي سنة ١٨٨٧ أراد بسمارك زيادة عدد الجيش ووضع ميزانية عسكرية لسبع سنوات ولكن المجلس رفض هذه المطالب ولم يستجب إلا لجزء منها فأستصدر بسمارك قراراً بحله ، وشن حملة دعائية شرسة وأدعى أن فرنسا مستعلن حربا على ألمانيا لا تكون مستعدة لها . واستخدم أساليب الأهراب بحيث فاز في الانتخابات التي عقدت في فبراير سنة ١٨٨٧ بأغلبية كبرى وحقق مطالبه .

ولكن حدث وفتنما أنزل بسمارك من عليائه ، فقد مات الملك ولملم الأول وتولى حفيده الملك وكان يريد أن يظهر بمظهر حامى العمال والشعب . ونصير العدالة وأميراطور الألمان جميعا . وعندما أضرب تسعون ألفا من فخامى

وستفاليا ومنطقة الرين أستقبل وفد المضربين ووعدهم خيراً ، وإن كان قد أعرب عن رضائه عن أن الاضراب ليس من فعل الحزب الاشتراكي الديمقراطي الذي يراه « عدوا للوطن والامبراطور » .

وفي سنة ١٨٩٠ ألغى الرشتناج قانون مكافحة الاشتراكية وعندما حانت الانتخابات كسب الاشتراكيون ٣٥ مقعدا وخسر المحافظون والوطنيون ٨٥ مقعدا . وجن المستشار فبعد عشرين عاما من مقاومة الاشتراكية ، زاد عدد النواب الاشتراكيين عما كانوا عليه في أى وقت مضى وأراد بسمارك حل المجلس ولكن الامبراطور رفض . . وكان ذلك من المسائل التي كانت محل خلاف بين المستشار والامبراطور . . وأدت في النهاية إلى السحاب المستشار . . .

وبقدر ما كانت هزيمة المستشار ممضة ، بقدر ما كان انتصار الاشتراكيين مدويا . فزادت الصحف الاشتراكية إلى ستين وجاوز عدد المشتركين فيها ٢٥٠ ألفا وفاقحت عضوية الحزب مليوناً والتحقّت للمرة الأولى بإعداد كبيرة من النساء . وبدا جليا أن الحزب يستقبل فترة جديدة يكون عليه أن يستمد لها استعداداً مذهبيا وتنظيميا .

وفي أواخر عام ١٨٩٠ دعا أوجست بيبل إلى عقد مؤتمر استثنائي للحزب في مدينة هال . وفي هذا المؤتمر تقدم ليبكنشت ، الذي تولى وضع برنامج جوتا ، بإقتراح إعداد برنامج جديد للمؤتمر القادم للحزب وهو مؤتمر أيرفوت .

وفجر هذا المؤتمر كل النزعات المكبوتة التي كانت سياسة الاضطهاد قد أبعدتها حفاظاً على وحدة الحزب ، وأسرع انجلز فأعلن نقد ماركس لبرنامج جوتا الذي لم تعرفه جماهير الأعضاء حتى ذلك التاريخ لكي لا يتكرر الأخطاء وواصل الاتصال خاصة بكاوتسكي — النجم الصاعد في سماء التنظير الماركسي ،

ومنفذ وصية انجيز فيما بعد — وكانت هناك مواقف حرجه وحسامه كان يجب على المؤتمر أن يفصل فيها كمنظرة الحزب إلى القانون والدين والكنيسة . وموقفه من التجمعات الرجعية والأحزاب الأخرى والفلاحين . . . الخ .

وبرز في مؤتمر أيرفورت ثلاثة فرسان هم ليبكنشت وكاوتسكي وبيبل . وكان أولهم ليبكنشت — يؤثر على أعترافه بنقص برنامج جوتا القصد وعدم التطرف في رفع الشعارات النظرية . وكان يرى أن انجيز وأن كان حجة في التنظير ، إلا أنه لا يلم بالتطورات والوقائع والاضاع العملية في ألمانيا . وأعتقد أن التمسك بالشعارات قد يؤدي إلى عدم الحصول على مكاسب ، أو فقد ما أمكن الوصول إليه منها في حين أن تحقيق الانتصارات الجزئية سيشجع الجماهير على الاستمرار في النضال

ولكن كاوتسكي — كأي « غربال » جديد مشدود — قاوم هذا الاتجاه ورأى أن الأخذ به سيمكن القوى الرجعية من أن تنطلق ضد الطبقة العاملة وأن تنظيم البرنامج والالتزام به سيكون أكبر كثر إحتياطي يعود إليه الحزب لتعميق أفكاره ويحول دون افلاسه الفكري .

وتوسط بيبيل — وهو رئيس الحزب . . الاتجاهين وحرص على الاحتفاظ بوحدة الحزب ، ولما كان الفريقان السابقان متكافآن تقريبا ، فقد قام بيبيل بالصياغة وحقق لكاوتسكي أكثر مما حقق لليبكنشت ، وتقبل انجيز البرنامج دون رضا كامل . وإن كان قد هنا كاوتسكي وشكره على جهده .

والواقع أن انجيز كان قد أرسل نقد ماركس لبرنامج جوتا لا بفكرة تجنب أخطاء جوتا فحسب . ولكن للأخذ بما اقترحه ماركس ، ولكن برنامج أيرفورت لم يحقق إلا الجانب السلبي من هذا الغرض . فالأفكار اللاسالية التي أنتقدتها ماركس بشدة — « التعاونيات المعانه — قانون الاجور

الحيدى — الدولة الحرة) أسيّمت ولكن البرنامج أغفل المبادئ الإيجابية التي اقترحها ماركس، كالثورية، وديكتاتورية البلوريناري.

وكشف أيرفرت عن وجود خلاف مذهبي كان محصوراً من قبل بين المنظرين، أو حتى في أذهانهم، ولم يتسرب إلى الجماهير وكان هؤلاء المنظرون لأسباب عديدة لا يتسع لها المجال هنا وقد تشير إليها في مناسبات لاحقة يقدر بعضهم بعضاً وكان يمكن لكل واحد أن يقف موقفه ولكن السنوات التي تلت أيرفورت أدت إلى تطورات جديدة وأظهرت أيضاً فرساناً أكثر حدة وتصميماً مثل روزا لوكسمبرج وبارفوس وفجرت قضايا أكثر اشتعالية حملت في مجموعها اسم «التنقيحية» فبدأت الدوامة الكبرى للجدل المذهبي وكشفت المناقشات عما كان مستوراً من نقط الضعف وكان كل مضمٍ فيها يعمقها ويوسع الهوة حتى قامت الحرب العالمية الأولى ووضعت الجميع أمام الأمر الواقع والاختيار الذي لا يحتمل المعارض أو التسوية وكشف مرة واحدة وبكل قسوة المأساة.

ومع أن التنقيحية التي كانت أولى الأعراض — وفي الوقت نفسه الأسباب — في الجدل العظيم لم ترزق شهرتها إلا مع أوائل القرن العشرين فإنها قد بدأت في تسعينات القرن التاسع عشر، ولم يكن الرجل الذي فجرها بعيداً عن الماركسية أو خارجاً عليها، لقد كان في قلب الحزب وأحد رجالاته البارزين. ذلكم هو ادوارد برنشتين الذي كان يشرف على جريدة الحزب وعند الاضطهاد البسماركى هاجر إلى لندن حيث تعلم على يدى أنجلز وأصبح محل ثقته، وعكف مثل ماركس على الدراسة النظرية، وتأثر مثله بالأوضاع البريطانية، ولكنه خرج من دراسته بوقائع ونتائج تختلف عما انتهى إليه ماركس. فقد كان ماركس يعيش في أعقاب «الأربعينات الجامعة» بينما عاش ماركس — ظهور واستمرط

برنشتين فترة الازدهار الرأسمالى وشاهد بعينه كيف أن الرأسمالية تمضى قدما وأنها أبعد ما تكون عن التحلل وأن الطبقة العاملة البريطانية تزيد حصتها من مكاسب الرأسمالية وترفع مستوى معيشتها بفضل العمل النقابى والتشريع البرلمانى . ولم ينكر برنشتين للماركسية ولكنه لم يرها فيها العقيدة الدينية المصومة ، وقد أراد أن يفصل ما بين الناحية العلمية المجردة وبين التطبيق العملى لها فى ظروف خاصة وتبعاً لتطور النظام الرأسمالى ، فلما كانت الرأسمالية قد أثبتت قدرتها على التكيف فمن الخطأ أن يعلق الحزب أهمية كبرى أو أن يضع استراتيجيته على أساس الأزمات الفادحة التى تنزل الرأسمالية . ولما كان التقطب الذى تصوره ماركس لم يحدث ، بل حدث العكس فالتسعت قاعدة الطبقة الوسطى كما تحسنت حال العمال ، فإن الصورة الثورية القائمة على التقطب تفنى ويصبح الحديث عنها ضاراً لأنه يثير مخاوف حلفاء محتملين .

وعندما نشر برنشتين هذه الآراء فى مجلة نيوزيت Neue Zeit لم تثر وقتئذ هجوماً كاسحاً . ولكنها ما أن رزقت قدراً من الذبوع حتى ظهر شعور بالعداء لها بين المنظرين الماركسيين ، وعلى رأسهم كاوتسكى ، وعندما علم برنشتين أن كاوتسكى سينير هذا الموضوع فى مؤتمر الحزب فى ستوتجارت سنة ١٨٩٨ أرسل دفاعاً قرءه بيدل وتلاه كاوتسكى فأعرب عن دهشته لأن برنشتين يناقش موضوعات لا خلاف عليها « فلاشتركية الديمقراطية ستفعل ما بوسعها للقيام بالإصلاحات الديمقراطية والاقتصادية وتنظيم الطبقة العاملة » واستطرد « ان برنشتين يعتقد أن التطور الاجتماعى سيتم بسلام - لا دون كفاح ولكن دون كوارث كبيرة - فالبلوريتاريا تكسب يومياً حقوقاً أكثر فأكثر وتكسب قوة اقتصادية عن طريق الحركة النقابية وبفضل نفوذها فى الجمعيات والتعاونيات . الخ . . وبهذا سيحل الانتاج الاشتراكى محل الإنتاج الرأسمالى حتى يتحقق المجتمع الاشتراكى . وقد أقام برنشتين



هذه الفروض على أساس دراسة الحركة النقابية البريطانية ، ولكن النقابات البريطانية لما تصبح بعد اشتراكية ولا تزال تحت نفوذ الليبرالية البورجوازية . ولو أن الطبقة العاملة شجعت السياسة الاشتراكية المستقلة لانقلبت عليها البورجوازية ولوضعت نهاية لهذا التطور السلمي . وقد تخلت التحررية الألمانية منذ مدة عن تظاهرها بالديمقراطية . وليس هناك اليوم حديث عن توسيع دائرة الحقوق . ولكن عن الانقلاب وإلغاء الحقوق الانتخابية والمسجون .

إن انتصار الديمقراطية في ألمانيا لن يتحقق إلا عن طريق انتصار البروليتاريا ، والصراع في سبيل الديمقراطية يجب أن لا يتم جنبا إلى جنب البورجوازية . ولكن ضدها وبما من واحد يستطيع أن يقول إن هذه المعركة ستنتهي بكارثة . وإنما يكون على الاشتراكية الديمقراطية أن تقوم بهذا الكفاح وما دامت واثقة من نفسها ، وعليها أن تقوم به لا على الأسس التي وضعها برنشتين ولكن تبعا للملاسات . -

ولكن هذا دفاع كسيح ، وفي السنة التالية ( ١٨٩٩ ) أصدر برنشتين كتابه « مقدمات الاشتراكية ومهام الاشتراكية الديمقراطية » .

وخصص المؤتمر الثاني — مؤتمر هانوفر — لمناقشة هذه القضية وحدها . وتحمّل عبء الهجوم ببيل الذي تحدث لمدة خمس ساعات متواصلة استهلها بأن الحزب لا يؤمن بمقيدة جامدة ( dogma ) حيث أن برنامجنا تغير ثلاث مرات خلال ثلاثين عاما وقد نبذنا قانون الأجور الحديدي وأن العمل مصدر الثروة وأن البورجوازية كلها رجعية ، كما شفيينا من وهم أن التعاونيات المعانة فيها خلاص الطبقة العاملة ولكن برنشتين ينبذ أساسيات الماركسية حيث أنه يهاجم فكرة مادية التاريخ ونظرية القيمة ، ونظرية البأساء المتفاقمة .

وظلت المناقشات المذهبية محتدمة لأكثر من ثلاثة أيام وأخيراً أصدر المؤتمر القرار الآتى (بأغلبية ٢١٦ إلى ٢١) .

« إن تطور المجتمع البورجوازى يدفع الحزب لأن يحتفظ بأفكاره الأساسية .. إن الحزب اليوم - كما كان بالأمس ينشغل فى الصراع الطبقي وطبقا لقواعد هذا الصراع فإن تحرير الطبقات العاملة إنما يكون بالعمل أنفسهم وأن غزو السلطة السياسية بمساعدة العمال « وتشريك » وسائل الإنتاج والتبادل بهدف إيجاد أفضل حال يمكن الوصول إليه للجميع هى المهمة التاريخية للبوريتاريا .

ولتحقيق هذه الغاية ، فإن على الحزب أن يستخدم وسيلة تتفق معها دون أن يقع فى أى وهم يتعلق بطبيعة الأحزاب البورجوازية . والحزب الاشتراكى لا يرفض التعاون العرضى معها ، وإن كان فى الوقت نفسه يتخذ كل الإجراءات لتعزيز نفسه وتوسيع الحقوق السياسية وحرىات الشعب وتحسين الوضع الاقتصادى للطبقات العاملة والكفاح فى سبيل التعليم العام ، ولكن الحزب يظل مستقلا ، ويرى فى كل نجاح يناله مجرد خطوة تقربه من الغاية المنشودة .. وبالنسبة لتكوين التعاونيات فإن الحزب يعلن حياده . وهو يرى أن تكوين مثل هذه التعاونيات من ناحية المبدأ وسيلة مناسبة لتحسين الحالة الاقتصادية لأعضائها وهو يرى أنها - كالتنظيمات البروليتارية التى تؤسس لضمان مصالح الطبقات العاملة وتوسيعها - وسيلة لتعليم العمال وإعطائهم استقلالاً فى شئونهم ، وعلى الرغم من ذلك فإن الحزب الاشتراكى لا يعلق أهمية حاسمة على التعاونيات فى موضوع تحرير الطبقات العاملة من عبودية نظام الأجور .

ويواصل الحزب سياسته فى مقاومة العسكرية ويؤيد سياسته الخارجية التى تتجه نحو «وأخاة الشعوب وبوجه خاص بلوريتاريا الشعوب الأخرى .

وكما يمكن أن يرى - فليس هناك من سبب يجعل الحزب يغير مبادئه أو تكتيكاته أو إسمه ليصبح مجتمعاً ديمقراطياً اشتراكياً وإصلاحياً، ومن هنا فإن موقفه من الدولة والمجتمع والأحزاب البورجوازية لا يمكن أن يغير، وجاء الرد الذي مزق التنقيحيه وهتك أسرارها من روزا لوكسمبرج التي كانت وقتئذ في ميعة العمر وأوج التآلق والنبوغ.

وعينت روزا بتنفيذ ما أورده برنشتين من وقائع على أساس أنها غير صحيحة أو كاملة أو أنه اساء فهمها وتأويلها. ولما كانت ذات مقدرة فذة على الجدل وذكاء حاد ينفذ إلى الأعماق ويتبين بسرعة الوجه الآخر في كل شيء فقد توصلت بسهولة إلى تنفيذ بعض نتائج برنشتين وتشويه البعض الآخر بعرض الوجه المقابل لها وتعميقه، فالإزمات مثلاً لا تعوق الرأسمالية تماماً، ولا تعد حرجاً سيئاً في الرأسمالية وإنما هي أدوات للتنفيس والتخلص من الفوائض ليتمكن تسير عجله الانتاج من جديد فإذا توقفت الإزمات، كما لاحظ ذلك برنشتين فسيؤدي هذا إلى اختناق النظام، والائتمان المصرفي وما أوجده من مرونة يخضع لآلية النظام، ومن ثم فلا يمكن أن ينظر إليه باعتباره وسيلة للتسكين إذ هو جزء لا يتجزأ من النظام وهو يدفعه ولكنه يدمره في النهاية لأنه يفاقم التناقضات الداخلية للرأسمالية، بل إن مضي النظام الرأسمالي دون عوائق سيؤدي إلى التخليص المتوالي في نسبة الربح نتيجة لنمو إنتاجية العامل، وهذا يؤدي إلى استحالة ظهور المنشآت الصغيرة والمتوسطة.

ولكن هذا الجانب لا يمثل إلا الجانب الأقل شأنًا من رد روزا لأن الشيء الذي كان يهمها كمنظرة ماركسية هو كشف خطورة منطق برنشتين وكيف أنه يسلب أصحابه من جوهر الماركسية ويجعلهم يرقون منها ولا يتمكنون منها إلا بالقشور، وأنه يحل نماذج الفكر البورجوازي محل التفكير البلوريتاري

ويجعل المؤمنين به يمتصون الأساليب البورجوازية كالحكم على كل حالة طبقية لمزاياها وحسب الوقت انخاض بها ، الأمر الذي يؤدي إلى تحكم التجربة في النظرية بدلا من الاستهداء بالنظرية عند التطبيق وبذلك تمزق الوحدة بين النظرية والتطبيق ويضحي بالمبادئ في سبيل التكتيك وأن المقدمات التي مناقها تستتبع الاقلاع عن الكفاح السياسي الثوري للسيطرة على السلطة ما دام العمل النقابي / البرلماني سيحقق للاشتراكية ما تريده فأوضحت روزا أن العمل النقابي / البرلماني إنما يكون هاما للاشتراكية باعتباره وسيلة لتوعية العمال وتدعيم تنظيمهم . الأمر الذي يوجد العامل الذاتي subjective للتحويل الاشتراكي أما برانشين فإنه يرى أن العمل النقابي / البرلماني يخفض شيئا فشيئا من الاستغلال الرأسمالي وهذا يجرد النظام من طبيعته الرأسمالية وبالتالي يتحقق موضوعيا objectively التغيير الاشتراكي .

وأظهرت روزا النقطة التي فاتت برانشين ، إلا وهي أنه ما لم يكن وراء العمل النقابي / البرلماني فكرة اشتراكية أصيلة (بالمعنى الماركسي الحقيقي) أو إذا حدث انفصال بينهما . فإن العمل النقابي / البرلماني سيكون غاية في حد ذاته وبالتالي لن يكون اشتراكيًا بل وقد يسير في اتجاه عكس . .

ورد برانشين أن النقابات ما أن تبدأ المسكاه حتى تمضي قدما لأن الشبهة تنفتح مع الأكل « ولن يقنع العمال حتى يحققوا التحول الاشتراكي » ولكن روزا قالت إن هذا الكلام صحيح من الناحية النظرية فحسب ولكنه ليس كذلك من الناحية العملية إلا إذا كان من الممكن إقامة سلسلة متكاملة متصلة من الإصلاحات تؤدي في النهاية إلى الاشتراكية وهو أمر خيالي ، والاكثر احتمالا أن تنقطع السلسلة في نقطة قبل الاشتراكية بكثير أمام عدد من الطرق البديلة والمتنوعة .

ومن ناحية النشاط الحزبي فإنه ما أن يجمل الحزب « النتائج العاجلة » هي الغاية الرئيسية فإن فكرة الكفاح للاستحواز على السلطة ستتضاءل والنتيجة أن يصطنع الحزب خطة المناجزة السياسية والتنازل عن نقطة لقاء كسب نقطة أخرى ، والتسوية الخ . . . وأهم من هذا أن اهتمام السلطات بالحزب ورضوخها لمطالبه وتسليمها بتحقيق اصلاحات إنما يعود في حقيقه الحال إلى القوة الثورية للحزب وأن هذه الاصلاحات ليست إلا ترصيه للحزب وابعاد فكرة الثورة أو تسويقها فإذا جرد الحزب نفسه من هذه الفكرة ، فإنه سيجرد نفسه من رأسماله ومصدر قوته ، وعندئذ فأغلب الظن أن لا تأبه به السلطات ولا تحقق شيئاً من الاصلاحات ، فالمنهج الاصلاحى يهزم نفسه بنفسه .

يمثل هذا المنطق تناولت روزا لوكسمبرج التنقيحية في رسالتها « من الاصلاح الاجتماعى إلى الثورة » ومجموعة مقالاتها التى نشرت سنة ٩٨ ، ٩٩ ولا تعطى هذه الاشارات إلا صورة مقتضبة ، وقد تكون باهتة ، لما اتسمت به من قوة ونفاذ .

مع هذا كله لم ينبجج النقد النافذ ولا قراوات الحزب فى القضاء على التنقيحية أو ابعاد براشتين لا من الحزب ولا من الرشتاج ، وظل برشتين محل تقدير الأغلبية وقص ادولف ستورمال كيف أنه عندما توفى هرمان مولر سنة ١٩٣٠ واحضر براشتين الذى كان قد شل نصفه الأسفل ليحجى للذرة الأخيرة زميله القديم « خلع كل المجودين قبعاتهم » .

ولو تساءلنا لماذا قاومت التنقيحية هذه الهجمات لسكانت الإجابة عدداً من الحقائق أبرزها أن الحزب الاشتراكى الديمقراطى وإن كان قد خاض معركة كفاحية أيام الاضطهاد وأنه ظل يحمل لواء الاشتراكية وأن أواصر عديده تجتمعت ما بينه وبين ماركس باعتباره المفكر الاشتراكى

الألمان الأشهر ، إلا أن الحزب لم يقل أبدا أنه ماركسي تماما ، حتى عندما نبذ الأفكار اللاسالية في مؤتمر إيرفورت ، ورغم نقد ماركس لبرنابج جوتا ، وما قام به أنجلز من جهود واتصالات ، فقد أغفل الحزب الجوانب الماركسية الايجابية والثورية . ولم يقف الحزب هذا الموقف لأنه يعادى الماركسية ، على العكس إن قائديه البارزين ليكنفشت وبيل تاملنا على ماركس وكانا يكتنان له عاطفة عميقة ، وبالمثل فيان كاوتسكي وبراشتين تاملنا على يد أنجلز وكانا يريان فيه استاذهما غير منازع . فلو أنساق قاداته مع ميولهم الشخصية لمضوا قدما في الماركسية ، ولكن الأوضاع حالت دون ذلك وكانت بعض هذه الأوضاع خاصة بالمانيا وبعضها الآخر خاص بالحزب ، فبالنسبة لألمانيا فإن إزدهار الاقتصاد الألماني وكثرة عدد الطبقة العاملة ونجاح الحركة النقابية وعناية الدولة بالنظم التأمينية والمؤثرات الشعبية والنفسية الألمانية التي تبرز فيها الوطنية بالطاعة والولاء هذه كلها لم تكن تشجع الاتجاه الثوري . وبالنسبة للحزب فإن نجاحه في دخول البرلمان وصلته الوثيقة بالنقابات وتعدد فروعه وصحفه ومقارعه وموظفيه كلها كانت تثقل به وتجعله أشبه « بالارمادا » الذي يعجز عن المناورة السريعة فتنباحه نفسه كان يجعله يعجز عن العمل الثوري قدر ما لا يجد داعيا له حتى لو استطاع . فقد كان هناك علاقة وثيقة ما بين حجمه وطبيعته . . والوسيلة التي ينهجها ، فحجمه الثقيل كان يجعله أداة ضغط ويكفل له النجاح قدر ما كان يحول دون أن يكون أداة مناورة وثورية ، بل قد يمكن المضي إلى ما هو أعمق ، فنشأة الحزب الأولى كانت مطلبية أكثر منها نظرية وكان العرق اللاسالي - العمالي أكثر عمقا وتأثيرا من العرق الماركسي - الاشتراكي . ومعنى هذا أن الحزب لم يكن يطلب الثورة للثورة . ولكنه كان يريد لها لتحقيق مطالب ، وبقدر ما تتحقق المطالب بقدر ما تقل الحاجة إلى الثورة .

ومن الناحية الموضوعية المناقشة ، فن الواضح أن النتائج التي انتهى إليها برنشتين كانت واقعية إلى حد كبير ، حتى وإن كان الأساس النظري الذي قدمه وإهيا بعض الشيء وأن عرض روزا لمناقضات الرأسمالية رغم أحكامه للنظري أو ربما لهذا السبب نفسه لم يكن واقعياً دائماً ، وأن إصرار روزا على مهاجمة التنقيحية قدم لها دعاية لم يكن برنشتين نفسه ليستطيع تقديمها ، ولعل هذا كان من العوامل التي جعلت كاوتسكي وغيره من أقطاب الحزب يؤثرون أن تمر التنقيحية حتى لا تفجر مناقشتها ضجه تحول المتهم إلى شاهد وتثير أزمة عقائدية تؤدي بالبقية الباقية من الإيمان في الأغلبية المترددة ، حتى وإن زادت الإقلية المؤمنة إيماناً .

## الفصل الرابع

### صراع الأفكار والوقائع

تطور الاشتراكية الألمانية من بداية القرن العشرين  
حتى الحرب العالمية الأولى .

كانت ألمانيا تودع القرن التاسع عشر ، وتستهل القرن العشرين في مناخ  
أبرز ما إتسم به هو الصراع بين الأفكار والوقائع .

من الناحية السياسية كانت ألمانيا قد حققت وحدتها ودعمتها ، وطوت تلك  
المشاعر القومية التي تملكته أحرار ألمانيا وكتائبها العظام وأرادوا بها استنهاض  
ألمانيا المنككة للثورة على الهيمنة الفرنسية ، وأفسحت المجال لمشاعر أخرى  
لا تقل عمقا عن الأولى : إن ألمانيا أشبهت « الضيف الثالث عشر على مائدة  
التاريخ » وأنها ظلمت حقها « المشروع » في التوسع الاستعماري وعمل أعداؤها  
على تقويت الفرصة عليها ، وأنها ، وهي التي يماثل سكانها سكان فرنسا وبلجيكا  
وهولندا معا ، لاتضع يدها على مثل ما توضع عليه أصغر هذه الدول . وأن  
« العدالة » الأوروبية تقضى بأن تتحمل ألمانيا نصيبها من عبأ الرجل الأبيض ،  
ولم يكن ما حصلت عليه بالفعل في الصين أو أفريقيا الغربية ليقنعها ، على  
العكس إنه كان يفتح شهيتها . .

كانت هذه المشاعر عميقة فعلا ، وتقمصت لبوسا وطنيا لأن المناخ الأوروبي  
كله كان يسبح في تيار استعماري ، ولم يكن من الطبيعي أن يحرم على ألمانيا



ما يحلل لبريطانيا وفرنسا ، أ.أ. أن الاستعمار بأسره جريمة بشعة ، ووصمة في التاريخ الأوروبي ، وأن عبأ الرجل الأبيض المزعوم ليس في حقيقة الحال إلا أخس صور النهب والسلب والقتل والوحشية ، فهذا ما لم ينظر «الوطنيين» الألمان ، بل ولا غيرهم . إذ لم يكن أهل أفريقيا السود أو أهل آسيا الصغرى ناسا كناس أوروبا . ولم يكن أكثر المفكرين الأوروبيين تحررا وأسانية ليتصور تطبيق القيم والنظم التي تطبق في المجتمع الأوروبي من حرية أو عدالة أو احترام للحقوق على الشعوب والجماعات الأفريقية . . أو يخطر له مثل الإنسانية العالمية التي نادى بها الإسلام وطبقها محمد وخلفاؤه الراشدون منذ أكثر من عشرة قرون ، فجريمة ألمانيا هنا هي كجريمة بريطانيا وفرنسا وهولندا وبلجيكا ، وإذا كانت الوحشية الألمانية قد فاقت في بعض الحالات وحشية بريطانيا أو فرنسا فلأنها كانت قد تعلمت على يد السابقين بحيث فاق التلميذ أستاذه .

ولم يتنبه الوطنيون الألمان ، وقد استغرقهم هذه السيكلوجية الأوروبية التي ورثتها أوروبا عن الرومان أن هناك تفرقة حادة بين مشاعر الوطنية القديمة التي استهدفت تحقيق الوحدة والاستقلال لألمانيا وإنقاذها من السيطرة الفرنسية، ومشاعر التوسع الاستعماري والعمل لاستعمار البقية الباقية من آسيا وأفريقيا ، فقد أعتبرت كلها مشاعر وطنية نبيلة تستهدف عزة ألمانيا وكرامتها وأن لا تقل منزلتها عن منزلة جاراتها الأوروبية بحيث أستمز ذلك التقليد الجامعي الذي جعل من الجامعات أيام التحرير مدارس للمبارزة واستخدام السيف . ولم توضع السيوف في أعينها بعد تحقيق التحرير بوقت طويل ، لقد ظلت مجردة ، مشهرة لكي تذل ألمانيا حقها المشروع في الاستعمار ومكانها تحت الشمس ، ومقعدها في المجتمع الدولي ، وظل الطلبة يستشعرون بعد الوحدة المرارة التي كانوا يحسونها قبل الوحدة .

وأضرم هذا كله أن كان على رأس ألمانيا قيصر بروسي يؤمن بالمسكينة ككل أسلافه ، ولا يظهر إلا مرتدياً زيه العسكري بخوذته المعدنية اللامعة التي يعلوها نسر محاق ، ووسط الضباط والجنود ، وأن زين له هذا الاتجاه بطانه تمده في غيه . . . وقد كانت وصية هذا القيصر لجنوده الذاهبين لتأديب الصينيين أن يقسو ويقتلوا . . . « حتى لا يجرؤ صيني . . . لألف عام أن يرفع عينه في وجهه ألماني » .

وراء هذا القيصر وضباطه كانت القوة الحقيقية الصلبة للتوسع ألا وهي الرأسمالية الصناعية الألمانية التي كانت قد بلغت أعلى مراحلها واستطاعت أن تعوض تخلفها بالعلم والإدارة والتركيز بحيث أصبحت القوة الثالثة في العالم بعد الولايات المتحدة ، وبريطانيا وكانت بريطانيا تتأخر شيئاً ما بقدر مسبقها القديم ، وارتباطها بوسائل إنتاج قديمة ، وابتمادها عن التنظيم الإداري والتركيز التي كانت ألمانيا سباقة فيها ، ولولا ما كانت بريطانيا تستمد من مستعمراتها لتخلفت اقتصادياً في كل شيء تقريباً وراء ألمانيا .

وقبل سنة ١٩٠٢ لم تصدر ألمانيا شيئاً يذكر من رؤوس الأموال إلى الخارج ، ولكنها سنة ١٩٠٢ صدرت ١٢٥٠ بليون فرنك وفي سنة ١٩١٤ أرتفع الرقم إلى ٥٤ بليون .

وسارت عملية التركيز الصناعي بدرجة لم تسبق حتى في الولايات المتحدة . ففي صناعة الكهرباء . مثلاً كانت سبع أو ثمان مجموعات من الشركات تسيطر — في مستهل القرن — على الصناعة . وفيما بين سنة ١٩٠٨ وسنة ١٩١٣ اندمجت هذه المجموعات في شركتين عملاقيتين هما جنرال إلكتريك A.E.G. وشركة سيمنس . وسيطرت الأولى على ما بين ١٧٥ و ٢٠٠ شركة ، وعلى رأس مال يقارب بليون ونصف بليون مارك بينما قدر رأس المال الذي تستثمره

صناعة السكر بآء الألمانية فى المارج بمبلغ ٢٣٣ مليون مارك .

وفى ١٩١٠ أنفقت الشركتان العملاقتان ، شركة جنرال اليكترىك الأمريكية وشركة جنرال اليكترىك الألمانية على إقتسام أسواق العالم فصارت الولايات المتحدة وكندا من نصيب الشركة الأمريكية، وألمانيا والنمسا والروسيا وهولندا وذنرك وسويسرا من نصيب الشركة الألمانية . .

وفى الملاحة أيضا أنهى التركىز بشركتين هما همبورج-أمريكا ونوردتشر لويد ، ورأس مال كل منهما ٢٠٠ مليون مارك . وفى سنة ١٩٠٣ اتفقنا مع شركة مورجان الموحدة للملاحة التجارية التى يبلغ رأسمالها ١٢٠ مليون دولار على عدم المنافسة وتحديد الخطوط الملاحية والموانى لكل شركة . .

وفى صناعة الصلب أيضا أقتسمت « نقابة » الصلب الألمانية مع الشركات الأخرى التجارة الدولية فخص بريطانيا ٥٣٪ / وألمانيا ٣٨٪ / وبلجيكا ١٧٪ .

بلاختصار وصل التركىز درجة زودت لينين بمعظم إحصائيات كتابه عن « الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية » .

وكان النظام السياسى لألمانيا أيضا يؤهلها لمستقبل كبير . .

فقد كانت دولة تعاهدية تقوم على ٢٥ دولة أو أماره أو مملكة تكون فى مجموعها الامبراطورية الألمانية .

وتتمثل السيادة فى مجلس « البندسرات » المكون من مندوبى الأمراء والرشتناج المكون من مندوبى الشعوب .

ورئيس الدولة هو القيصر ، وهو ملك بروسيا وله من الاختصاصات مايزيد عادة عن الاختصاصات التقليدية للملك الدستورى ، فقد كان من حقه حل

مجلس الرشتاج واتخاذ القرارات الحربية ، واعلان الحرب إذا هوجمت البلاد . دون أخذ موافقة البند سترات . .

والامبراطور هو الذى يعين المستشار ، وهو الرئيس التنفيذى للبلاد ، ويرأس مجلس البند سترات ويماونه وزراء يعدون مساعدين له ومسؤولين أمامه .

والبند سترات يمثل أمراء الدول الألمانية وحكوماتها وينص القانون على ضرورة موافقة البند سترات على القوانين حتى تكون نافذة وهو يتكون من ٦١ عضوا لبروسيا منهم قرابة ٢١ عضوا . والرشتاج ويمثل الشعوب وينتخب أعضاء ، جميع الذكور البالغين فى اقتراع عام سرى ومباشر على أساس نائب لكل مائة ألف ناخب وله حق إقتراح القوانين وتوجيه الأمثلة إلى المستشار وهو يضم ٣٩٧ عضوا . .

ومن هذا يتضح أن الدستور الألمانى لم يكن ديمقراطيا تماما لأن مجلس الرشتاج أضعف من مجلس البند سترات ولا يستطيع أن يقبل المستشار . ولما كان لبروسيا الأغلبية فى مجلس البند سترات ، فقد كان يكفى لايقاف أى تعديل دستورى أن يعترض ١٤ من المندوبين البروسيين ( وقد كان عددهم يقارب ٢١ كما ذكرنا ) كما كان لبروسيا ٢٣٦ نائبا من نواب الرشتاج .

وكان هناك عدد من الأحزاب ابرزها حزب المحافظين وحزب الأحرار وحزب الوسط الذى يضم الكاثوليك وحزب العمال الاشتراكى الديمقراطى ، كما وجدت صحافة قوية تمثل هذه الأحزاب وغيرها . .

والخلاصة أن النظام السياسى وإن كان متخلفا عن نظم ديمقراطية أخرى إلا أنه كان يحقق قدرا من الديمقراطية والحرية ، ولم يكن هناك شك فى أنه مع التطور وزيادة ثقل الجماهير ، فإن كفة الشعوب ستكون هى الراجحة ،

والواقع أن الحرب أرغمت القيصر — كاسيلي — على التنازل عن كثير من سلطاته ، ودفعته ليعلم تعديلات دستوريه جذرية تحقق المسئولية الوزارية ، وكان بوسع الشعب أن يحتفظ بها حتى لو لم تقم الثورة .  
وماذا كان الوضع بالنسبة للعمال . .

كانت الطبقة العاملة تزداد عددا وقوة . فبقدر ما كانت الرأسمالية تتقدم كانت الطبقة العاملة تتقدم ويرتفع المستوى المادى والاجتماعى للعمال ، وبقدر ما كان من الممكن إطراح سياسة العمل الرخيص ووسائل التشغيل المرهقة . وقد استطاع العمال رغم كل الصعوبات أن ينظموا نقابات قوية ، وأن تفوق العضوية فيها أى عضوية أخرى فى أى دولة أوروبية أخرى ، وكانت دلالة ذلك أن الطبقة العاملة الألمانية تستطيع بفضل نقاباتها أن تحمى حاضرها وتؤمن مستقبلها ، وأنه يمكن مع نجاح الرأسمالية فى الاستعمار أن ينالها نصيب من المائدة الخافلة ، وقد لا يكون سوى الفئات ولكنه يكفى وصور ذلك أحد الكتاب فقال « كانت كل الكتابات قبل ١٩١٤ تعلن مرة بعد أخرى أن الطريق الوحيد لا تفاق مصالح العمال وأصحاب الاعمال هو الإمبريالية الألمانية ، وبعبارة الأخرى ، الاتفاق على حساب مصالح الدول الأخرى ، فإذا اتفق العمال وأصحاب الاعمال فى هذا السبيل فإن الغنيمة ستكون لأشباعها معا<sup>(١)</sup> . »

وكان يمكن للعمال الألمان — ولو حتى فى الظاهر — أن يلففوا من الطبيعة الاتهامية والنفعية لمثل هذه السياسة بفكرة بناء الدولة الألمانية ، وأنهم لا يعملون لحساب أنفسهم فحسب . أو تحقيقا لإرادة الرأسماليين وحدهم ، ولكنهم يستهدفون أيضا بناء دولتهم الناهضة وتدعيم أسسها .

---

(1) Annihilation of Mansy Leslie Paul p. 135.

كما كان يمكن أن يشفع للنظام القائم لدى العمال وضقه لقوانين التأمينات الاجتماعية، ولم يكن من شأن العداوة الحادة ما بين القيصر والحزب الاشتراكي الديمقراطي أن يشي الحكومة عن هذه السياسة . على العكس ، لقد دفعت الحكومة لأن تمضى فيها إلى درجة جعلت القيصر الاتوقراطي يقول « دعونا نبني الاشتراكية وعندئذ سيهجر العمال الاشتراكية / الديمقراطية » وخضع المستشار كابريني الذي خلف بسمارك لهذه النزوة الإمبراطورية فعينت الحكومة عناية خاصة بالتشريعات الاجتماعية وتحديثت عن رغبتها في إقامة اشتراكية دولة<sup>(١)</sup> state Socialism أى تحويل ملكية بعض المنشآت من الملكية الخاصة إلى ملكية الدولة . ولم يسمع الحزب الاشتراكي الديمقراطي تجاهل هذا الامر، وفي مؤتمر برلين سنة ١٨٩٢ أصدر بياناً قال فيه « ان الحزب لا يرفض أى أجراء قد يفيد الطبقة العاملة في النظام الاقتصادي القائم . ولكنه لا يرى في هذه الاجراءات سوى تقدم ضئيل لا يمكن أن يؤثر على محاولاته لبناء دولة اشتراكية ومجتمع اشتراكي . وبالنسبة للحزب الاشتراكي الديمقراطي ، وهو تشكيل ثوري ، فإن اشتراكية الدولة تعد محافظة ، ومن ثم فإن كلنى اشتراكية دولة ، والاشتراكية الديمقراطية يضادان بعضها بعضاً ، ولا يمكن أن يتفقا » .

وبالطبع ، فإن عمل النقابات من ناحية ، ومحاولات الدولة من ناحية أخرى لا يعنيان أن العمال الالمان قد قبلوا الوضع تماماً أو أنهم تحصنوا من نفوذ الاشتراكية والماركسية ، فالذى لا ريب فيه أن جزءاً كبيراً من العمال - ولعلهم الاغلبية - قد آمن بأفكار اشتراكية تتفاوت في كثافتها وتركيزها ، وكانت الاكثية تؤمن بالمبادئ العامة للاشتراكية دون أن تصل إليها

(1) A. People's History of Germany by Ramos Oliveira  
p. 59.

إلى النهاية التي تصورها ماركس . وكان لهم في هذا مقنع يرضى ضميرهم القومي والطبقى على سواء . كانوا يجدون في الاشتراكية ما يشبع زهوهم الطبقي ، وفي الرأسمالية ما يشبع بطونهم . فكانوا يصلون للاشتراكية أولاً كلون على مائدة الرأسمالية . . ألسنتهم مع الاشتراكية . . وأيديهم مع الرأسمالية . . يتحدثون لغة إشتراكية ويمارسون أسلوباً رأسمالياً . . ولا يجدون في هذا تعارضاً يثير النقد .

فإذا كان هذا هو حال العمال ، فلنا أن نتصور أن الطبقة الوسطى من تجار أو مهنيين كانت أكثر رضا وتقبلاً للوضع القائم ، إذ كان يفسح لهم مكاناً طيباً في حضره ويعدم بالمزيد من الفرص والاحتمالات في المستقبل . ولأن النقطة المزعومة الذي تنبأ به ماركس لم يحدث أو على الأقل لم يكن محسوساً .

\* \* \*

هذا التحليل للوقائع التي كانت تعيش فيها ألمانيا وهي تدخل القرن العشرين تؤكد لنا أن الوضع السياسى والاقتصادى والطبقى لم تكن يتطلب — بالضرورة — تغييراً ثورياً . فلم تكن ألمانيا بالدولة المفلسة أو المتخلفة أو المستبدة ، بل كانت مزدهرة ، متقدمة ، لها صحافتها ونوابها وأحزابها وتستشرف مستقبلاً أكثر نجاحاً وازدهاراً وبالطبع كانت هناك مأخذ وأخطاء ووجوه نقص خاصة في المجال السياسى ، ولكن التطور كان يسير في اتجاه إصلاحها ، وقد أظهر سقوط بسمارك أن التطوير السياسى في الاتجاه الديمقراطية لم يكن مستحيلاً .

ولكن في مواجهة هذا الواقع الذي لم يكن ليتطلب إلا فسحة من الوقت وحسكة في معالجة المشكلات . . كان هناك عدد من التيارات الفكرية تتلاقى

في أنها تستحث الخطأ أو تنشد التغيير ، وأنها لا تستلهم في طلبتها حاجة الواقع الألماني وإنما تحقيق نظريات وأفكار ومبادئ آمنت بها إيماناً لا ينطرق إليه الشك .

كان هناك التيار الماركسي الذي فرض نفسه على السياق الطبيعي للأمر وعرقل مضيه المحتمل ، وجعله يدخل في المتاهات الجدلية العقيمة . .

ذلك أن ماركس — بدأ في وضع نظريته في أربعينات القرن التاسع عشر عندما كانت الطبقة العاملة تسقى من حميم الاستغلال الرأسمالي وتعيش في جحيمه وتخضع لسلطانة السيامية ونظرياته الاقتصادية، وبوجه خاص في بريطانيا. وكان الناظر في الأفق المدهم المثلث بسحب الجهالة والسخيمة والمرارة من ناحية العمال والجشع والطمع والوحشية من جانب الرأسماليين ينتهى إلى تلك المقدمة الدراماتيكية التي بدأ بها البيان الشيوعي ، وما يقوم عليها من صراع طبقي ما بين الرأسماليين والعمال ينتهى بالثورة الجائحة التي تأتي على الرأسمالية .

وعنما استقر ماركس بعد ذلك بعشرين عاماً في لندن ، وعكف على وضع كتابه الضخم « رأس المال » كانت بريطانيا — رغم بداية ضئيلة لا تكاد تلمحظ للتقدم — لا تزال تعيش في الظلال المقبضة للاربعينات الجائعة . وكان ماركس ككاتب وباحث يعكف في المتحف البريطاني معظم وقته ، ويجد من المادة المطبوعة عن فترة الأربعينات وما تلاها أكثر مما يجد عن الفترة التي يعيش فيها ولما يكتب تاريخها . فجاء رأس المال تنظيراً محكماً لوضع اقتصادي يتقطب فيه معسكر العمل ما بين طبقة عمالية جائعة عارية جاهله ، فاقدة للنفوذ والسلطة ، وطبقة رأسمالية ثرية ، قوية تسيطر على أجهزة الدولة بأسرها . وكان هذا التنظير ، وما ينتهى إليه من تنأج سلباً في جملته ومن الناحية الموضوعية ، فإذا وجد هذا الوضع ، ولم تتدخل فيه عوامل أخرى ،



فليس إلا ما تنبأ به البيان الشيوعي ورأس المال : الثورة العارمة المدمرة . . .  
 وكان يجب على ماركس كمفكر أن يخصص هامشا في نظريته لاحتالات  
 العوامل الأخرى التي كانت قد بدأت بالفعل بداية غير محسوسة في بريطانيا .  
 ولكن البناء النظري الذي أقامه ماركس بدا متاسكا متكاملا ، غنى بنفسه  
 عن العوامل الأخرى ، ولأن هذه العوامل الأخرى عندما بدأت بدايتها  
 المتواضعة كان هو قد انتهى بالفعل من بنائه الشامخ وعمله العظيم ، وكان  
 استغراقه في صبه وصياغته ينسيه كل أثر للعوامل الأخرى ، ولأن ماركس إذا  
 كان يحكم العقلية عالما فإنه كان يحكم المزاج فنانا وصاحب دعوة ، ومنظراً ،  
 وليس تعصبه المصمت وطبعه الحاد واستعلاؤه على الآخرين وابتعاده عن تواضع  
 العلماء إلا انعكاسات لهذا المزاج الذي لم يسمح له لا بتقدير وجهات النظر  
 الأخرى ، أو حساب العوامل المحتملة ، أو التعديل ، وأدى به إصراره على  
 الوصول إلى التكامل النظري البعد عن الواقع وحافت فكرة النظرية المحكمة  
 الشاملة على حساب المرونة والتفاصيل في الزمان والمكان .

وكانت النتيجة أنه ترك لنا تمثالا رائعا لا يقل في ابداعه وصدقته الفني عن  
 « لا كبتون » ويمثل تمثيلا دقيقا لحظة الألم المروعة للمجتمع البشري عندما  
 التفت عليه أفغوان الاستغلال الرأسمالي .

ولم يكد هذا التمثال العظيم يتم ويوضع على قاعدته ويلهم كل الناظرين  
 الحزن والأسى قدر ما يضرهم فيهم الحماسة والثورة ، حتى كانت العوامل الأخرى  
 قد مضت بعيدا بحيث غيرت الصورة تماما . فالطبقة العاملة البريطانية  
 استطاعت أن تتعلم ، وتكتسب من العلم قوة ، واستطاعت أن تتحد وتكون  
 النقابات ، وتمكنت من أن تتسلل إلى « أفخم نادى فى أوروبا » أى البرلمان  
 البريطانى فدخلته بعد عناء قليل وشاهد ماركس نفسه فى سنواته الأخيرة

دخول الدفع الأولى من النواب العمال ، ونجحت النقابات في أن تبدع أسلوباً  
تحتكر به عرض العمل وتخل بكل قوانين الاقتصاد الحر ، وتشل أو على  
الأقل توهن ، الاستغلال الرأسمالى .

وأنتاب التغيير الرأسمالية البريطانية أيضاً فقد فتح لها الاستعمار أفاقاً  
جديدة ووجدت في استعباد عمال المستعمرات مندوحة عن استعباد عمال  
بريطانيا ، ولم تضن بقتات المائدة على العمال ، كما تغيرت ذهنية الرأسمالى  
فلرأسمالى الكلاسيكى أيام ماركس : الأب الفظ الخشن الذى لاقى المشاق  
في صباه حتى حقق التراكم الرأسمالى ولم يكن يتحرك قلبه للولايات التى يقاسمها  
العمال قدماء في الأيام الأخيرة لماركس وخالفه الرأسمالى الابن الرقيق الحاشية  
المهذب ، الذى تعلم في الجامعة ويأنف من إذلال عماله أو معاملتهم بوحشية  
أو فظاظة ويأخذ الاستغلال على يديه صورة مقنعة ومحدودة .

ونتيجة لهذا التغيير المزدوج استطاع المجتمع البريطانى أن يكيف نفسه  
بحيث لا ينساق إلى الطريق المسدود ويصبح لا مناص من الثورة . فكفلت  
النقابات أجوراً عالية ، وعلاوات متوالية ، وأكملت الدولة عن طريق  
الضرائب ما تعجز عنه النقابات بحيث تحققت صورة ما من صور العدالة ولم  
تعد اليد العليا للإستغلال الرأسمالى وأحكامه ، وإنما للضمير الاجتماعى للأمة  
والقوى العديدة فيها ، كما أن المجتمع الرأسمالى استطاع أيضاً أن يجلى ميزته  
الأساسية : الحرية وما تسمح به من مبادئ ومرونة وصمامات أمان .

وهكذا فقدت النظرية الماركسية عن الصراع الطبقي العنف مضمونها  
العملى بالنسبة لبريطانيا بالذات ، ولم يكن مصادفة أن لم ترزق الماركسية فيها  
حزباً أو كان أقرب الأحزاب إليها وأكثرها حماسة لها هو حزب العمال المستقل ،  
ولم يكن يؤمن بالاقتصاديات الماركسية قدر ما كان يؤمن بالعدالة الاجتماعية .

وصيحة الانقاذ والتحرير التي أطلقها ماركس .

وعندما آمن مؤسسوا الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني ولهم ليبكنشت وأوجست بيبل بالماركسيه وتعلمنا على ماركس في لندن ، كان واقع الحال في بريطانيا وألمانيا يتلأم إلى حد كبير مع النظرية الماركسية ، فلم تكن ألمانيا قد اجتازت بعد الثورة الصناعية وحرم بسمارك الحزب الناشئ فأضرم الروح الكفاحية ، وأوجد ما يتطلبه العمل السري من تدقيق في الاختيار ، ومقدرة على التنفيذ ، كما كان هذا التحريم نفسه دليلا لا يدحض على صحة تحليل ماركس للصراع بين الطبقات .

ولكن ألمانيا استطاعت أن تجتاز الثورة الصناعية دون أن تتعرض طبقتها العاملة لما تعرضت له الطبقة العاملة في بريطانيا وكان بسمارك في الوقت الذي حرم الحزب الاشتراكي هو نفسه أول سياسي أوروبي أدخل التأمينات الاجتماعية في التشريع .

وكانت ظروف ألمانيا بعد أن حققت وحدتها أفضل من ظروف بريطانيا ، إذ بدأت هذه حيث انتهت تلك ، واستعانت بالعلم والمعرفة في الوقت الذي كانت بريطانيا تختال بأقدميتها وتتمسك بعراقتها .

والنتيجة أن ظروف الطبقة العاملة الألمانية في الثمانينيات تحسنت سواء كان ذلك بفضل الحركة النقابية الألمانية التي كانت تعد أكبر حركة نقابية في أوروبا ، أو بفضل تدخل الدولة التي كانت رائدة في هذا المجال أو بفضل استفادة الصناعة الألمانية من التقدم التكنولوجي .. وبقدر ما كانت ظروف الطبقة العاملة تتحسن ، بقدر ما كانت تبعد عن المضمون النظري للماركسية . ولم تكن المباحة ما بين ماركس وإنجلز في إنجلترا من ناحية ورجال الحزب في ألمانيا من ناحية أخرى حول برنامج الحزب إلا انعكاسا لبعض الاختلافات

ما بين الواقع العملي لألمانيا والمبادئ النظرية للماركسية .

وبدأت هذه الحقيقة تضغط على كيان الحزب وكل أعضائه، واختلفت آثار هذا الضغط فالطبقة العاملة وجدت في العمل النقابي ملاذاً كافياً يمكنهم بالفعل من تحسين ظروف العمل وهو الهدف الأساسي للطبقة العاملة بحيث أصبح المضمون الثوري للصراع الطبقي بالنسبة لها حماسة عاطفية وذكري من الكفاح القديم دون أن يكون هناك تفكير عملي في استخدامه ما دام من الممكن تسوية المنازعات المهنية على مائدة المفاوضات وبطريقة الإتفاقيات الجماعية . وكان وجود الحزب كأداة ، والشعارات الخفيفة كشعارات تكفي جداً ، أما السياسيون فقد وجدوا أن العمل البرلماني يكفي وأن من الممكن بالتشريع تحقيق مالا يمكن للعمل النقابي تحقيقه — أعنى التعليم والضحة والتأمين إلخ... فضلاً عن كبح جماح السلطة العسكرية وتوجيه السياسة العامة . وهذه كلها يستطيعها الحزب الاشتراكي الديمقراطي بنوابه الذين زاد عددهم قبيل الحرب العالمية الأولى على مائة نائب والأصوات التي اكتسبها وزاغت على أربعة ملايين ..

وبلورت هذا الاتجاه وعبرت عنه تعبيراً دقيقاً « التنقيحية » التي دعا إليها برنشتين وصحبه ولكن هذا لم يكن شأن جماعات عديدة من الاتباع منهم الذين أخذوا بسحر العمل الابداعي والفني بصرف النظر عن المطابقة العملية . وهم مجموعة كبيرة تحب للحب ، وتنظر إلى الفن للفن والجمال للجمال ولا تتلمس في العقائد الزاوية النفعية أو العملية أو حتى العملية ( فما أقل الذين قرءوا رأس المال بمعادلاته الجبرية وهوامشه العديدة ) ومنهم الذين يتأثرون بدعوات التحرير ونداءات العدالة ويشورون للقيم ويتصدون للاستغلال دون أن يعنوا بتحديد المسؤولية أو تعيين المسؤولين أو التثبت من وقوع الاستغلال بالفعل .

وجسامته . ومنهم الذين بدأوا من البداية وأصبح من العسير عليهم أن يتراجعوا حتى لو أرادوا لأن كل شبابهم الكفاحي وذكرياتهم العزيزة هي هناك ومثلهم كمثل المتنبي . .

يراد من القلب نسيانكم وتأني الطباع على الناقل ولوزلتم ثم لم أيسكم بكيت على حي الزائل فضلا عن أن كل تركيبهم الذهني قد كيف طبقا للنظرية فلا يستطيعون عنها حولا أو فككا ، ومنهم الذين نظروا نظرة دولية عامة ، ومنهم الذين يفضلون بحكم أمزجتهم الصراع على الوفاق والثورة على الإصلاح والحسم على التدرج ، بالإضافة إلى السكينة الذين يوجدون في كل معبد والسدنة الذين يحرسون كل هيكل وجباة العشور الذين يفيدون من النظرية التي أصبحت مذهبا ومن الإيمان عندما أصبح كنيسة .

كانت المفارقة أسما جناية الفكر على الواقع ، النظرية على الحقيقة التجريد المطلق على الواقع العملي ، رؤيا البصيرة على رؤيا البصر . إن سطورا ملتبهة كتبها مفكر عميق مؤمن ، وأقامها على أساس نظرية محبوكة ، وصب فيها - كالرصاص المصهور - نغمته على الرأسمالية ، أفقدت الجوعة التي آمنت بها أي رغبة في ، أو أي قدرة على التمييز بين الرأسمالية في دولة معينة وظرف معين ، والرأسمالية في دولة أخرى وظرف آخر لأن هذه السطور وصمت الرأسمالية إلى الأبد . وأضفت عليها نوعا من الوثنية جعلها لا تنجز ولا تختاف بحيث لا يمكن أن يقبل منها صرف أو عدل أو توبة أو إصلاح ، فلا شيء أقل من القضاء الكمال والاستئصال التام .

ويدلنا استقراء التاريخ على أن الحقيقة المادية قد لا تكون القوة الدافعة أو السبب المباشر للعمل الثوري ، وكما لاحظ الفقيه البريطاني « ديسى » إن

المواطنين الاستراليين في أفضل حال — ومع هذا فقد انتشرت بينهم القوانين الاشتراكية كما أن ثورة « غوغاه » باريس الذين لم يعانون من سوءات الامتيازات الطبقيّة كانت أشد من ثورة فلاحى القرى الذين تعرضوا لها .

فالقوة الدافعة قد تأتى من الاستثمارات الفكرية والمعنوية ، قد رما تأتى من الوقائع المادية ، وتتفاوت هذه الاستثمارات طبقا لدرجة سموها وإحكامها . فقد تصل إلى المستوى الذى لا يدرك ، ولا يسامى عندما تكون « قرآنا » معجزا يجمع — إلى الأبد — الناس من كل دولة ، ومن كل مستوى ، ويجعل الأكتريّة الأعجمية تلوى ألسنتها به ، وقد تكون « تورا » تحمى الشعب المضطهد المفرق من الشتات والذوبان والنحل وتوجد له كيانا . وقد تكون « البيان الشيوعى » الذى بدأ لأنصاره حكما بالإعدام على عهد وشهادة ميلاد لعهد آخر . وقد تكون مجرد خطبة تدفع الناس وقتها إلى حالة أشبه بالجنون ، وتسكفل الانتصار فى معركة انتخابية . فعند ما ألقى بريان خطبته المشهورة عن « صلب البشرية على صليب الذهب » أصبحت القاعة — على حد تصوير هوارد فاست — « بيتا للمجانين فقد نهض الناس من مقاعدهم وأخذوا يصرخون ويصفقون ويقذفون بالقبعات .. الخ وكانت النتيجة العملية انتصار بريان على منافسة التجلد » .

ذلك أن للبيان — بتصوير البي العظيم — سحرا على نفسية الجماهير لا تستطيع له صدا . وهو يسحرها ويكون لها نوعا من الواقع النفسى الذى يغنيها تماما عن الواقع العملى ، ويغير مقاييسه العادية . أو أنه يحدث — بلغة علم النفس — عملية إحلال ، وهذا هو ما حدث لتلك المجموعة التى آمنت بالماركسية فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى ، ورفضت التنقيحية ، وأصررت على الماركسية بعجزها وبجرها .

وكان لم يكن هذا التيار كافياً إذ انبثق تيار آخر يدين بظهوره إلى الأحداث الروسية التي بدأت بشورة ١٩٠٥ وتكملت بشورتي ١٩١٧ (مارس - وأكتوبر) وخضع هذا التيار في النهاية لتأثير لينين وتكتيكاته الظافرة. وكان أصحابه أقل عدداً ولكن أكثر حماسة وثوراً. فلم يكن الأمر أمر نظرية محكمة، ولكن أيضاً تجربة ناجحة. فنجاح ثورة أكتوبر جعل كل وسائلها نوعاً من الطقوس والشعائر التي لها قدامه النظرية نفسها ويجب أن تؤدي بعينها، ومن هنا أراد أصحاب هذا التيار - الشيوعيون - تطبيق التكتيكات اللينينية وتحقيق دولة تكون نسخة طبق الأصل من الاتحاد السوفيتي وبهذه الطريقة شاولوا عمل الحزب الاشتراكي الديمقراطي : أغلبيته التي كانت تنهج نهجاً اشتراكياً وليس ماركسياً، وأقليته التي آمنت بالماركسية. . . ولكن دون اللينينية .

والخطأ في تطبيق اللينينية على المجتمع الألماني هو بالضبط كالخطأ في تطبيق الماركسية عليه . فكما أن ماركس وضع نظريته على أساس وضع الطبقة العاملة البريطانية في الأربعينات، وهو وضع لم يكن ينطبق على ألمانيا - كما لم يكن ينطبق على بريطانيا نفسها في الثمانينات، فإن لينين وضع نظريته على أساس روسيا القيصرية الجاهلة المتخلفة التي يستبد بها حكم أوتوقراطي لا يعترف بمجلس نيابي أو أحزاب أو صحافة . ولم تقم بها رأسمالية أو صناعة متقدمة، ومن هنا كان لابد من ثورة تستحث السياق الطبيعي وتستأصل الاخطاء المتركمة والأوضاع السيئة والاتواقراطية المستحكمة، فليнин كان عملياً وواقعياً، ولم يسمح للماركسية بالتأثير عليه إلا بالقدر الذي يتفق مع إرادته . والحقيقة أن الماركسية بالنسبة له لم تكن أكثر من لواء، أو نقطة بداية . وليس من المستحيل أن نجد في كتابات ماركس وأنجلز ما يعارض كل أجراء قام به لينين .

وهذا لا يعنى أن الثورة اللينينية بالذات هى ما كان يتطلبه الوضع الروسى بالذات. لقد كان الوضع الروسى يتطلب الثورة فعلا، ولكنها لم تكن بالضرورة الثورة اللينينية بالذات. فالصورة التى أخذتها اللينينية هى نتاج المزاج اللينينى والوضع الروسى.

ولو كان للشيوعيين الألمان شىء من استقلال الفكر لرأوا أن ما كانت روسيا تحتاجه يختلف عما كانت ألمانيا تحتاجه. وأن أسلوبا ينبجح بحكم زعامة لينين يمكن أن يفشل بدون هذه الزعامة. ولكن الشيوعيين لم يكونوا ليروا شيئا كهذا. لأن وهج الثورة الشيوعية أعمى أعينهم وأغشاها.

\* \* \*

فى مواجهة هذه التيارات الفكرية اليسارية بدرجات كشافتها المتفاوتة من الاشتراكية الوردية إلى اللينينية الدوية التى تملكأت أذهان بعض المثقفين والجماهير من العمال فى ألمانيا، كانت هناك تيارات يمينية مضادة تتفاوت أيضا فى درجة كشافتها من الولاء القومى إلى الهوس الاستعمارى الذى مكن من ظهور هتلر والنازية فيما بعد وكانت تتفق مع التيارات اليسارية فى أنها لم تكن تستلهم الاحتياجات والوقائع. ولكن النظريات والمذاهب.

ولعلنا لاحظنا أن أكبر ما اسهمت به ألمانيا فى الفكر الإنسانى هو الفلسفة. فإذا كانت دول الشرق قد قدمت الأديان، وإذا كانت إنجلترا قد قدمت الثورة الصناعية، فإن ألمانيا قد قدمت إلى العالم أكبر فلاسفته، كانت هيجل وشوبنهاور، فالفلسفة فى ألمانيا نوع من الديانة، ولما كانت تدور بالدرجة الأولى حول فلسفة التاريخ، فقد أصبحت نوعا من الديانة القومية.

وكما لاحظ إيمان « فما من دولة بلغت فيها فنون الميتافيزيقيا، وأصبحت فيها الفلسفة كنيسة أو مؤسسة قومية، كما بلغت فى ألمانيا » وقد هيمنت.



شخصية هيجيل العلاقة على المفكرين الألمان — بما فيهم ماركس الذى لم يتخلص أبداً من الهيجيلية . وأظهرت فلسفته أكثر الصور الفلسفية بلورة للتاريخ والضمير والله والدولة . وسبق هذا كله فى مضمون ينتهى الحسب الشعب الألمانى وتمجيده ، ويتلاقى مع كتابات المفكرين الذين أكتشفوا سحر اللغة الألمانية وغاصوا وراء أساطيرها واستشفوا فيها روح البطولة والكفاح ، وجعلوا من التاريخ مزيجاً من الفن والشعر والرومانتيكية . .

وفى السنوات التى سبقت وعاصرت الحرب العالمية الأولى أضيفت قسماً جديدة مؤكدة ومكثفة لبعض هذه التيارات كدعوى امتياز الجنس الأرى الذى يمثله أصدق تمثيل الشعب الألمانى . وكان بعض المفكرين الألمان مثل فاجنر وجان « فردريك مودينج » ١٧٧٨ - ١٨٥٢ قد نادى بها ولكن عملية تأصيلها وإذاعتها جاءت على يدى هومستون تشمبرلن والسكونت جوينو . ولعل ذلك — أى صدورهما من انجليزى وفرنسى — مما ضاعف من قيمتها لدى الألمان .

وظهر أيضاً دعاة الجغرافية السياسية « الجيوبولتيكا » Geopolitick وكان أبرزهم الجغرافى الألمانى فردريك راتزل ( ١٨٤٤ - ١٩٠٥ ) الذى شغل كرسى الجغرافية بجامعة ليبزج وأجل محصلة دراساته فى قوانين سبعة تنبئ بدورها من فكرة أساسية هى أن الدولة كائن حى ، وأنها لا بد أن تنمو وتوسع وهذا النمو والتوسع يأخذ شكل الامتداد الجغرافى وضم الأراضى المتاخمة ، وإذا لم تفعل هذا فإنها كأتى كائن عضوى تنكش وتتقلص . ومن هنا فإن عليه الامتداد تأخذ طبيعة حيوية : ومن ثم جاء التعبير الألمانى المشهور المجال الحيوى « Lebensraum » الذى نادى به الجنرال هاوسهوفر ، وكان راتزل صديقاً حميماً لوالد هاوسهوفر .

ثم جاء رودلف كيلين (١٨٦٤ - ١٩٢٢) وأخذ يدل على صحة آراء راتزل بالأوضاع الدولية السائدة ، وكان رودلف هذا رجلا سويديا ذا نزعة المانية قوية عاصر الحرب العالمية الأولى ، وكان استاذاً للعلوم السياسية بجامعة جوتبرج ، وألف كتابين كان لهما أثرهما الواضح في نمو وتطور الجيوبوليتيكا ظهر أولهما في سنة ١٩١٦ وعنوانه « الدولة كمظهر من مظاهر الحياة » وثانيهما في سنة ١٩٢٠ واسمه « الأسس اللازمة لتيتم نظام سياسي » وفي رأيه أنه لما كانت الدولة كائناً حياً فالأرض التي تشغلها هي جسمها والعاصمة والمركز الإداري هما قلبها ورئتها ، أما الأنهر والطرق والسكك الحديدية فهي لها بمثابة الاوردة والشرابين والمناطق التي تحوى المعادن وتوجد عليها بالمواد الأولية والغذاء اللازم لنموها هي أطراف لهذا الجسم . وقد امتد الخيال بكيلين إلى إمكان قيام دولة كبرى تسيطر على أوروبا كلها وتكون خاضعة للسيادة الألمانية . وهو أول جغرافي استخدم لفظه جيوبوليتيك ، وفي رأيه أن أهم ما يجب أن تعنى به الدولة هي القوة وأن حياة أية دولة من الدول إنما تعتمد على التربة والحكومة والسلطة والاقتصاد والثقافة<sup>(١)</sup> .

وتبنى هذه الأفكار الميجور جنرال كارل هو سهوفر الذي ولد سنة ١٨٦٩ والتحق خلال المدة من ١٩٠٨ - ١٩٠٩ بالجيش الياباني مدرباً لمدفعيته ثم عاد إلى ألمانيا واشترك في الحرب العالمية الأولى ، وكان ياوره هو « رودلف هس » ولما انتهت الحرب صرف هم إلى دراسة أسباب الهزيمة . وفي سنة ١٩١٨ عين مدرسا للجغرافية والتاريخ الحربى بجامعة ميونيخ ووصل فيها إلى مرتبة الاستاذية ثم أسس بعد ذلك بقليل « معهد ميونيخ للجيوبوليتيكا » وأصدر مجلة

(١) الجيوبوليتيكا تأليف رسل . ه . فيفيلد . وج . اتزل يرسى ترجمة يوسف مجلى ولويس اسكندر . ج ١ ص ٢٧ - ٢٨

لنشر آرائه ، وفي سنة ١٩٢٣ التقى هتلر إثر قومه الفاشله بعد أن قدمه إليه باوره المقديم « هس » وتأثر هتلر تأثراً عميقاً باراه هامسوفر وأصبحت فيما بعد — أحد أركان الدعوة النازية .

والحقيقة أن هوسوفر لم يقنع براء راتزل وكيلين . ولكنه أضاف إليها أيضاً نظرية الجغرافى الانجلىزى هالفورد ما كيندر عن البؤرة الجغرافيه للتاريخ واضفت تلك الفكرة عنصر السيادة العالمية بالإضافة إلى فكرة المجال الحيوى ، فكانه وضع النقطة على الحروف ، كما يقولون .

وعززت هذه التيارات الفكرية وضع الجناح البروسى ، وجعلت الجامعات بطلبتها وأساتذتها يتجهون الاتجاه القومى ويرون فى العسكرية بما تستهدفه من فتح وتوسع وما تقوم عليه من طاعة من ناحية ومسئولية من ناحية أخرى ، وما تنسجم به من تنظيم صارم وما تتطلبه من تضحية هى المثل الألمانى الأعلى الذى يتجاوب مع مشاعر الشباب ومثالياته ، فأخذت تظهر جماعات عديدة تنتظم الطلبة ، والضباط والمهنيين ويغذيها رجال الصناعة . والنبل والملاك بأمال والنفوذ . .

وثمة عامل سلبى عزز هذه الاتجاهات . ذلك هو أن التيارات المعارضة الأخرى ، وبالذات التيارات الاشتراكية ، كانت ذات طابع غريب على البيئة الألمانية ، وكان الكثير من زعمائها من اليهود بالذات ، وكانت تؤيد الاتجاه الدولى والعالمى قدر ما تنقد الاتجاه القومى والوطنى ، ولا ترى فى الوطنية سوى « شوفونية » وفى القومية إلا « الأنانية بالجملة » وكانت تدعو إلى تمزيق المجتمع وهدم المؤسسات العريقة فيه ، بما فيها النظام البرلمانى نفسه ، وكان هذا العامل وحده يدعو لقيام هيئات مضادة تحول دون تغول هذه التيارات الاشتراكية واحتوائها العمال وابتلاعها المجتمع الألمانى حتى لو لم تكن مثل

هذه الهيئات موجودة بالفعل . وأعطى هذا العائل برهانه ودليله عندما انتصر البولشفيك في روسيا . إذ قدم مثالا للوحشية والتدمير والظلم الذي يطالب به الشيوعيون الألمان . .

\* \* \*

بهذه الصورة من النقطة دخلت ألمانيا القرن العشرين .  
لم يكن هناك داع لثورة ، أو حتى انقلاب ، وكان يمكن بأجراءات جذرية وسليمة اصلاح معظم وجوه النقص . .  
لم يكن هناك داع لدعوات ماركسية . . .  
ولم يكن هناك داع أيضا لدعوات استعمارية وتوسعية عسكرية، ليس فحسب حذرا من عواقب الصراع واحتمال الهزيمة ، ولكن لأن ألمانيا كان يمكن أن تشبع سكانها بفضل ما أوتى هؤلاء السكان من علم ودأب وحنق ومهارة أو بدعوات سامية تستهدف ضم النمسا وتحقيق « الانشλος » ...  
لم يكن هناك داع لكل هذه الدعوات . . أو لمعظمها . . .  
ولكنها وجدت بالفعل . .  
وكان لابد أن توجد ما دام الفكر ارث للجميع . . وما دامت الشعوب تضم الصالحين والظالمين . . .  
والمأساة ليست هي أن توجد . . ولكن المأساة أن لا توجد القيادات القوية التي تقاوم السرف والشطط وتكفل غلبه الحق على الباطل وتحول دون التخبط في اتخاذ المواقف .

ولم يقدر لألمانيا هذه القيادات ...  
ومن ثم أخذت المفارقة طابعها المأساوى . .

## الباب الثاني

---

### تحدد المسار

---

- |   |                    |
|---|--------------------|
| و دارت رحى الحرب .                        | الفصل الخامس :     |
| الثورة وإعلان الجمهورية .                 | الفصل السادس :     |
| المعسكرات تتعطب .                         | الفصل السابع :     |
| الحزب الاشتراكي الديمقراطي في ظل الغمام . | الفصل الثامن :     |
| سبارتا كوس يصلب من جديد .                 | الفصل التاسع :     |
| أحداث بافاريا العجيبة .                   | الفصل العاشر :     |
| نهاية البداية .                           | الفصل الحادي عشر : |

## الفصل الخامس

### ودارت رحى الحرب

لقد قيل إن أحدا لم يكن يصدق قيام الحرب العالمية الأولى عندما قامت بالفعل . فإذا كان هذا الكلام حقا ، فمن الحق أيضا أن السنوات التي سبقت الحرب كانت أبعد شيء عن السلام . وكان كل شيء فيها ينذر بالحرب ، ويوقف العالم على شفير الهاوية ، أفلم يكن طبيعيا أن يؤدي الوقوف على الحافة إلى الوقوع في الهاوية واللعب بالنار إلى الحريق في النهاية . .

بلى ، ولكن البشرية لم تكن لتستطيع أن تتصور الموقف تماما ببصيرتها ، كان لابد لكي تصدق أن تراه بعينها . كانت البشرية كالنبي الذي سأل الله أن يريه كيف يحيي الموتى . .

وفي حالتنا هذه ، لم تتصور البشرية كيف يموت الأحياء حتى قامت الحرب . وأشهدتها على أفظع مجزرة قامت حتى ذلك الوقت . .

ويصدق وعدها . . والصدق شر إذا التاك في الكرب العظام . .

\* \* \*

قد يكون مما يخرج عن نطاق هذا الكتاب أن نبحت عن مسئولية الحرب العالمية الأولى ، لأن هذا يتطلب تمحيصا في مجلدات ، ونحن لا نتعرض للحرب العالمية إلا بفدر ضرورة موضوعنا ، ومن زاوية آثارها على ألمانيا . .

والمهم أن حكومات الدول كانت ، وراء ظهر شعوبها ، ودون إشعارها تملكها الأطماع . . كانت روسيا تريد من تركيا البوسفور والقسطنطينية ،

وكانت فرنسا تريد من ألمانيا الالزاس واللورين ، وكانت ألمانيا تريد مجالا حيويا من روسيا ومستعمرات في آسيا وأفريقيا ، وكانت النمسا تريد الصرب والهيمنة على البلقان ، وكانت بريطانيا تريد أن تحافظ على غنائمها السابقة . وكانت ثمة سلسلة من المعاهدات العلنية والسرية تورطت فيها هذه الدول تباعا وتلزم فريقا بالوقوف في صف فريق ضد الفريق الآخر . ومن هنا نفهم كيف أن حادثة فردية كاختيال الأرشيديوق فرانز فرديناند في سراجيفو أدت إلى الحرب . فقد رفضت الصرب الانذار المبهين الذي قدمته النمسا . فداهمت الجيوش النمساوية أرضها ، فأعلن قيصر روسيا - الذي كان يعتبر نفسه حاميا للصرب التعبئة العامة ( ٣٠ يوليو ) وطلب إمبراطور ألمانيا إيقاف ذلك وأصدر هو نفسه أمر التعبئة ( أول أغسطس ) . وعندما رفضت روسيا الإستجابة لطلبه ، ورفضت فرنسا وبلجيكا التعهد بالبقاء على الحياد أعلن عليهما الحرب ( ٣ أغسطس ) فاضطرت بريطانيا لإعلانها أيضا في ( ٤ أغسطس ) — وبدأت حرب الشعوب .

وأى واحد يتابع هذه التحركات والقرارات التي أودت بأزهرة شباب أوروبا وأغرقت العالم في بحر من الدماء وجلبت من التعاسة الشتاء والدمار ما لم تجلبه حرب أخرى على البشرية وأقامت أوضاعا سقيمة كانت السبب في نشوب حرب أخرى أفظع وأشنع منها . لا بد وأن يتملكه العجب والأسى من أن هذه الاحداث الجسام الممولة كانت تتخذ ببساطة وييت فيها خلال جلسة أو جلسات وينفرد بتقريرها حفنة من السياسيين وتكون النتيجة أن يساق الملايين إلى المذبحة سوق الانعام وأن تغط الحوافر والديابات الزرع والضرع وأن تهدم القنابل البيوت الآمنة والمصانع المشيدة . .

كانت الهيئات الوحيدة التي تستطيع شيئا أمام هذا الجنون الذي أطبق

على الملوك والقادة والديبلوماسيين وأعدى الجماهيرى الأحزاب الاشتراكية، والنقابات، والدولية. وقد كانت الدولية - قبل الحرب العالمية بوقت طويل - قد ناقشت في مؤتمر ١٨٦٨ القيام باضراب عام يشل الحروب. وأوجب مؤتمر زيورخ (١٨٩٣) على كل الاشتراكيين مكافحة «شوفونية» الطبقات الحاكمة والعمل بكل قوة لتوثيق أو اصر التضامن بين عمال العالم. وفي مؤتمر ستوجارت (١٩٠٧) وكوينهاجن (١٩١٠) وبازل (١٩١٢) نوقش موقف الأحزاب الاشتراكية والنقابات وعرض موضوع الاضراب العام وكان القرار الذى اتخذته الدولية في مؤتمر بازل هو :

« في مواجهة خطر نشوب حرب ، تلتزم الطبقات العاملة وممثلوها في برلمانات الدول المتنازعة أن يفعلوا كل ما بوسعهم وأن يستخدموا كل الوسائل التى يرونها مناسبة للحيلولة دون نشوب الحرب ، فإذا أعلنت الحرب رغم ذلك فيجب الكفاح لانهاؤها بسرعة ، واستخدام الازمات الاقتصادية لاستمارة الشعب للاسراع بانهاه حكم الطبقة الرأسمالية . »

وفي مؤتمرات الحزب الاشتراكى الديمقراطى الألمانى من مؤتمر درسدن سنة ١٩٠٣ حتى مؤتمر ماجدبرج سنة ١٩١٢ كان الموضوع الهام الذى يستأثر بالنقاش هو موضوع الاضراب العام لشل الحرب . وتحدث في هذه المؤتمرات ممثلو كل التيارات الاشتراكية على اختلافها : روزا لوكسمبرج ، وبارفوس ، وليبكنشت ، وبييل وكاوتسكى فضلا من النقابيين . وكان القرار الذى اتخذه الحزب في مؤتمر مانهيم (١٩٠٦) ينص على أنه :

« إذا رأت اللجنة التنفيذية أن الحالة تتطلب الاضراب العام التورى فستقوم بالاتصال باللجنة العامة للنقابات لاتخاذ الاجراءات اللازمة لتحقيق الاتصار المنشود »



ولكن كان وراء هذا القرار العلني الذي يوحى بالموافقة على المبدأ اتفاق سرى، مع النقابات يقضى بأن لا يورط الحزب النقابات في إضراب عام، وأن لا يشجع القيام بالإضراب ولكن لو حدث، فعلى الحزب أن يخطر النقابات قبله بوقت كاف وأن يتبنى القرار ويعوله.

وبقدر ما كانت نذر الحرب تتكشف، بقدر ما كان الحزب الاشتراكي يشعر بالخناق يضيق عليه، وأنه يوضع في مأزق لا يكون أمامه إلا الانتحار العقيم أو التسليم المهين. ففي سنة ١٨٧٠ عندما جوبه بالحرب مع فرنسا، كان الموقف يختلف اختلافا كبيرا. كان الحزب كفاحيا، ولم يكن وراءه ما يجعله يتردد أو يشغل خطوه من مبان ومنشآت وجهاز وظيفي ضخم وكانت الحرب بعد بفضل سياسة بسمارك الحاذقة تبدو للحزب دفاعية وحصل على ما يمكن أن يعد تصديقا على ذلك من الدولية. ومع هذا كله فقد شجبتها وجعل تأييدها رهنا بالصفة الدفاعية لها.

ولكن في سنة ١٩١٤ كان الحزب جهازا ضخما يصل رأسماله إلى ٥٦٤ر٥١٤ر٢١ مارك. وكان يتبعه تسعون صحيفه يومية يصل تعداد توزيعها إلى ١٣٥٣ر٢١٢ ويعمل بها ٢٦٧ محرراً. وكان عدد العاملين في صحف وأجهزة الحزب الأخرى ٧٥٨٩ موظفا عاديا و ٧٦٥ إدارياً و ٢٦٤٠ فنيا. وكانت مقاومة الحرب تعنى المقاصرة بكل هذا إزاء ما ستقوم به الحكومة ضد المقاومة من مصادرة لكل هذه الأموال والمنشآت وتعطيل للصحف، واعتقال وسجن وتشريد لهؤلاء الموظفين جميعا.

ولا يقل عن هذا أهمية غموض الموقف الحزبي، وتوالي الأحداث فقد كانت الخطوة الحاسمة في الحرب هي إعلان روسيا التعبئة العامة في منتصف ليلة ٣٠ يوليو التي تبعها إعلان النمسا التعبئة العامة بعد ذلك بساعة، وفي ٣١

يوليو أعلنت فرنسا التعبئة العامة ، وعندما رفضت روسيا إنذار ألمانيا لها  
بفرض إجراءات التعبئة أعلنت ألمانيا عليها الحرب في أول أغسطس .

إن العالم الرئيسية في الأسباب المباشرة هي (أ) نية النمسا الميمنة على  
توهين الصرب - الأمر الذي كشفه وزير داخلية النمسا الاشتراكي في  
أعتاب الحرب فيكتور أدلر عندما نشر نصوص إجتماع مجلس البلاط  
المسوى في ٧ يوليو سنة ١٩١٤ (ب) التعبئة العامة لروسيا :

وقد ضخم دور ألمانيا . ، ولا ريب أن المستشار بنان هوفنج قدم تأكيدات  
بمساعدة ألمانيا للنمسا ، ولكن القيصر حاول أن يتراجع عندما تأزمت  
الأمور ، بيد أن السياق لم يسمح بذلك ، ووقع هو نفسه في أحبولة أقواله  
ودعاياته . .

النقطة الهامة التي تجعل موقف الاشتراكيين الألمان سنة ١٩١٤ يختلف  
أيديولوجيا ، عن موقفهم سنة ١٨٧٠ - هي التعبئة الروسية التي كانت السبب  
المباشر في دخول ألمانيا الحرب . فروسيا كانت رمز الرجعية والاتوقراطية  
والعدورق « ١ » الشكل الأفكار الشعبية والاشتراكية وقد أيدها ركس وأنجلز ،  
في مناسبات معينة الحرب ضد روسيا . وكانت المناسبة المباشرة لتكوين  
الدولية الأولى هي الاجتماعات التي نظمت تأييدا لبولندا ضد الطغيان الروسي ،  
وفي مؤتمر أيرفورت قال بيبيل « إذا هاجمت روسيا - عدوة الحضارة  
الإنسانية ، وحامية الوحشية والبربرية ، فإننا سنقاوم هذا العدوان بفاعليه  
أكثر من زعماء البلاد » .

فلو أن هذا العامل لم يكن موجودا ، لتمكن الحزب الاشتراكي  
الديمقراطي - ولو من ناحية المبدأ - أن يقاوم . . ولكن ماذا يفعل والمستشار  
الألماني نفسه يذكرهم بأن ماركس وبيبل أيدها الحرب على روسيا . . .

مع هذا... فلا ريب أن الحرب هي الحرب، وأن الحزب الاشتراكي الديمقراطي لم يكن يرغب أبداً الدخول في هذه التجربة، وكان يريد مخلصاً مقاومتها بكل الطرق باستثناء الحرب نفسها، وكان يعلم أنه إذا قاوم الحرب الخارجية إلى النهاية فسيؤدي هذا إلى حرب أهلية قد تكون عواقبها والحرب الخارجية معاً، أسوأ من الحرب الخارجية - فيكون الأمر كذلك كمن استخدم دواء هو أسوأ من الداء نفسه، وقد نظم عدداً من المظاهرات ضد الحرب في الشوارع حتى حرمتها الحكومة فعمد الاجتماعات داخل المباني والمقار الحزبية.

وكانت الأيام تضي سراعاً، والأحداث تتلاحق والحزب لا يستطيع أن يحسم، وفي الساعات الأخيرة أوفد الحزب هرمان مولر إلى باريس للتباحث مع الاشتراكيين الفرنسيين فوجد أن يد الاغتيال قد امتدت إلى «جوريس» وتوالت الأحداث فأعلنت ألمانيا الحرب على روسيا وهو هناك، وانقطعت الاتصالات. فلم يستطع أن يفعل شيئاً، وعاد في اللحظة الأخيرة قبيل أن تعلن ألمانيا الحرب على فرنسا وتغلق الحدود.

وقبل أن توقف الحكومة الحزب الاشتراكي الديمقراطي في المأزق الذي سيحدد مصيره، ويكون عليه أن يقول لا أو نعم، اجتمعت الهيئة البرلمانية للحزب، وكانت قد فقدت زعيمها التليدين ليبكنشت وببيل وحل في رأسه الهيئة هو جوهاسه. وأيدت الأغلبية الساحقة سياسة الحكومة - واستبعدت فكرة الإضراب لأنه قد يؤدي إلى حرب أهلية. واقترح كلونسكي الامتناع عن التصويت ولكنه لم يجد تأييداً، وأعلن أربعة عشر نائباً منهم هاسي، ولدبور ولبيكنشت «الابن» معارضتهم الأمر الذي يوضح أن الحزب لم يفقد المعارضين الشجعان. ولكنهم كانوا أقلية. أما الأكثرية فقد جرفها التيار.

— ١٠٢ —

« وطبقاً لمبادئ الالتزام الجزبي ، فقد كان على الأقلية أن تخضع للأكثرية .  
ووقع على « هاسه » بالذات ، تطبيق هذا المبدأ .

وهكذا فعندما تقدم المستشار بتمان هولفيج إلى الرشتاج يوم ٤ أغسطس  
سنة ١٩١٤ طالباً اعتماد خمسة ملايين مارك للحرب قام هوجوهاسه وقرأ  
البيان التالي :

« إننا نجاهد بالحقيقة الصلبة للحرب ، ونهدد بأهوال الغزو العدواني  
ونحن لا نتخذ اليوم قراراً يناصر أو يعارض الحرب . إن علينا فحسب أن  
نقرر الوسائل الضرورية للدفاع عن البلاد . إن الكثير ، إن لم يكن كل شيء ،  
بالنسبة لشعبنا ولحرياته هو الآن في مهب الريح لاحتمال غزو الاستبداد الروسي  
الذي لوث نفسه بدماء النخبة من شعبه .

وإنه لعلينا أن ندرك هذا الخطر ، وأن تؤمن الحضارة والاستقلال لدولتنا  
وبهذا نفى بما إلتزمنا به دائماً . إننا في ساعة الخطر لن نتخلى عن بلاد آباءنا  
ونحن نرى أننا على وفاق مع « الدولية » التي اعترفت دائماً بحق كل شعب  
في الاستقلال القومي والدفاع عن نفسه ، ونحن كذلك ندين — وفاقاً مع  
الدولية أيضاً — أي حرب للغزو ، ونطلب أنه حالما يتحقق هدف الأمن ،  
وأن يكون خصومنا على استعداد للسلام فيجب إنهاء هذه الحرب بسلم يجعل  
من الممكن أن نعيش في صداقة مع الدول المجاورة .

وفي ضوء هذه المبادئ ، فإننا نصوت تأييداً للاعتمادات .»

ولم يكن هناك صوت واحد معارض . صحيح أن ليبكنشت أراد أن يعارض  
ولكنه طلب أن يتكلم أولاً . الأمر الذي لم يسمح له به ..

ونزلت هذه الموافقة كالصاعقة على كل الاشتراكيين في كل البلاد .

ذلك أنه لم يساور هؤلاء الاشتراكيين شك في أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي العظيم ، حامى حتى الاشتراكية ، وحافظ تراث ماركس وإنجلز بنوابه الـ ١١٠ ميقف موقف المعارضة ، وأن هذه المعارضة هي التي ستفجر الثورة العالمية . كانت الأحزاب الاشتراكية تسمع الشعارات الثورية للحزب دون أن ترى التحول الإصلاحي البطيء الذي زحف عليه .. وعندما تكشف لها موقف الحزب الحقيقي كانت الصدمة التي أصابها تشبه الصدمة التي يصاب بها المشاهدون لرجل الفواريتة باستمرار في ملابس « التشريفة » والنياشين والسيف .. وقد خلع كل هذه .. وبدأ عاريا ، كما ولدته أمه .. ، وقد يصور هذه الصدمة أنه عندما أخطر لينين بهذا النبأ رفض أن يصدقه وعندما عرض عليه منشورا في صحيفة « فوروارد » التي تنطق باسم الحزب ظن أنها مزورة ، وأن روزا لوكسمبرج فقدت الوعي وكتبت بعد ذلك إن هذا العمل هدم أربعين سنة من العمل الاشتراكي ، بل لعل الكثير من الأعضاء العاديين صدموا ، كما عبر عن ذلك « جوليوس برونثال » عندما قرأ النبأ في جريدة « أربيتز زيوتنج » .

ولكن إلى جانب هؤلاء الذين استغرقهم الاشتراكية أو النزعة العالمية فلا ريب أن أغلبية الأعضاء كانوا يؤثرون المضي مع حكوماتهم إلى قدرها وأن التعقيد والسرعة والخوف من الهزيمة أمام الروس وتيقظ المشاعر الوطنية بتأثير هذه الأحداث .. كل هذا لم يدع لقادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي خيارا إلا تأييد حكوماتهم ..

وقد يلقي ضوءا على موقف الحزب الاشتراكي الخطاب الذي ألقاه الزعيم الاشتراكي الديمقراطي النمساوي فيكتور رادل في بداية الحرب ، وكما هو معروف ، فإذا كان هناك حزب اشتراكي يفترض أن يقاوم حكومته ، فهذا

الحزب هو الحزب الاشتراكي الديمقراطي النمساوي لأن الحرب كانت - من الناحية المباشرة - جريمة النمسا أولاً وقبل كل شيء - ومع ذلك فعندما تحدث عن تصويت الألمان تأييداً لاعتمادات الحرب قال « إن رأيي هو أن يصوت المروء للاعتمادات ولكني لا أعلم كيف أضع هذه الكلمات على شفتي . إنه لقرار مريع ، وإنه لصراع مريع ، لأن عمال الدول الأخرى يتعرضون للتجربة نفسها . إن هناك شيئاً واحداً أسوأ من الحرب . ذلك هو الهزيمة » .

واعترف صراحة بأنه لا يعنى كثيراً بالنمسا كدولة ، ولكنه يشمر بالمسئولية تجاه الناس الذين يعيشون في هذه الدولة ومضى فقال « إن مصالح عمال النمسا وعمال ألمانيا واحدة ، ونحن ندين الحرب ونلعن الذين بدأوها ، ولكن ما دامت الحرب قد أصبحت حقيقة واحدة فسنخوضها مع شعبنا » .

ورفض إدلو أن يناقش آثار الحرب على الحركة الاشتراكية الثورية العالمية « إننا اليوم لا نجاهد بموضوع الثورة الروسية ولكن بموضوع ما إذا كانت الجيوش الروسية ستطأ برن Brunn وبودابست وفيينا . وفي مثل هذه الحالة فإنني لا أستطيع أن أستقصى ما إذا كان الانتصار الروسي سيكون مواتياً لحزب تحرير العمال الروسي . إنني إذا أحسست بالسكين فوق عنقي ، فعلى أولاً وقبل كل شيء أن أزيحها بعيداً » .

وبمثل هذه العبارات والتشبيهات نفسها ، بررجول جيسيد - أكثر الاشتراكيين ماركسية - انضواء العمال الفرنسيين تحت لواء « الوحدة المقدسة » عندما تشتعل النار في البيت فليس هناك وقت للمجادلة ، والشئ الوحيد هو مد الأيدي إلى الدلاء » . وأعلن نقابي فرنسي أنه لو أن الاشتراكيين الفرنسيين قاوموا التعبئة لأطلق عمال باريس عليهم النار فوراً ودون انتظار للبوليس . وقال فردريتش ستامفر Stampfer محرر جريدة

« فوروارت » « لو أن قادة الحزب قاوموا الحرب لا كتسحتهم الجماهير ،  
ولما فهم أو ساءح مئات الألوف من الاشتراكيين الديمقراطيين نواب الرش تاج  
لو صوتوا ضد اعتمادات الحرب » .

ولا ريب أن هذه الأصوات كلها مما لا يمكن أن يطعن في سلامتها ،  
ولا يجوز أن يرمى أصحابها بالخيانة أو الخبن ، وهي أولى بالاستماع من صيحات  
لينين الطريد أو روزا لو كسمبرج ، المفكرة الدولية .. ، كما أن علينا أن  
لا ننسى أن كارل ليبجين زعيم الحركة النقابية الألمانية العتيد كان قد أعلن  
في أول أغسطس تأييده للجهة الوطنية التي طالب بها القيصر ، ولا تقتصر  
دلالة هذه الواقعة على أنها تمثل وجهة نظر القيادة النقابية وجمهورها الضخم  
المنظم ، وإنما هي تمثل أيضا ضعفا كبيرا على الحزب للوقوف موقف التأييد ،  
لأن الحزب كان يستمد جزءا كبيرا من عضويته من النقابات ويعتمد عليها  
في العمل العمالي المنظم .

إزاء هذا كله لا يمكن للمؤرخ المنصف أن يدين قرار الحزب في أغسطس  
حتى لو كان من الناحية الموضوعية والمجردة خاطئا ، لأنه لا يمكن الحكم  
على مثل هذا القرار عن كتب ، أو من الناحية المجردة . وعلى من يحكم عليه  
أن يضع نفسه في وقت ومكان الذين اتخذوه . والحق أنه الموقف الذي يجب  
القادة أمامه ، وإزاء ضغط الملابس أن ليس لهم إلا النزول على رأى الجماعة ،  
والذى عبر عنه الحكيم العربى :

فلما عصونى كنت منهم وقد أرى غوايتهم أو أننى غير مرشدى  
وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت ، وأن ترشد غزیه أرشد

وقد يقال إن مهمة القيادة هي توجيه الجموع وليس إتباعها والانسياق  
وراءها وهذا حق ، ولكن يحدث أن تأتى لحظات لا يمكن فيها مقاومة اندفاع

الجاهل ، ويكون من الضروري انتظار مناسبة يفتقر فيها المد الكاسح . ويفقد قوته الدافعه .

هو إذن قرار تطلبته الضرورة حسناً أو سيئاً ، خطأ أو صواباً . وليس مصادفة أن يكون أكبر من نددوا به «لينين» فلم يكن لينين ألمانيا أو فرنسياً . ولم يكن في وطنه . ولم يكن لديه شيء يخسره أو يجعله مستولاً ، وكان يستطيع في منفاه القصي أن يصدر من الأحكام ما يمليه عليه المنطق المجرد ، أو العقيدة المصته . أو المزاج الشخصي قدر ما كان وضعه — كطريد سياسى — يجعله يندد بالحرب . . . ويشور . . .

وهناك أيضاً روزا لوكسمبرج . ولكن روزا مفكرة دولية موضوعية وعندما تستخدم المشاعر الوطنية أو تستعر المعارك ، فلا يكون لها مكان . . .

وأخيراً فهناك كارل ليبكنشت . النائب الوحيد الذى كاد أن يعلن المعارضة . ولكن كارل ليبكنشت لم يكن يمثل رأياً قدر ما كان يمثل حالة عاطفية قد تصيب ، وقد تخطأ . . . ومنرى جريرة هذه الحالة على مصير «سبارتا كوس» .

ولو افترضنا ، جدلاً ، أن رفض النواب الاشتراكيون اعتمادات الحرب . . . فماذا كان يحدث ؟

كانت الاعتمادات ستظفر بتأييد الأغلبية ، وفي الوقت نفسه فسيوصم الحزب بالخيانة والعمالة . . . وستبطل به الحكومة . فإذا كان لديه قوة للدخول مع الحكومة في معركة فستكون الحرب الأهلية التي سيهزم فيها ، فضلاً عن أنه ليس من المنطقي في شيء أن يحارب الإنسان الحرب بالحرب نفسها — وبالذات بحرب أهليه . وحتى لو سارت المعركة في مصلحة الحزب فلن يكون ذلك أفضل كثيراً للحزب . أو للحكومة . لأن الأعداء لن يعترفوا بالحزب ،



أو يغيروا خططهم تقديره ... وفي مقابل هذا، فإن وجودهم في المجال السياسي كان يضمن خيرا للحزب، أو على الأقل — يعد أخف الضررين فلو انتصرت ألمانيا فسيواصل البقاء، ولن تستطيع الحكومة البطش به أو تلويث صفحته. ولو انهزمت فسيقدم ليحك بزمم الأمور، وهو ما حدث بالفعل.

وقد كان بوسع لينين، لو لم يندفع وراء الفكرة التقليدية للاشتراكية عن الحروب وشار « وحدة الطبقة العاملة الدولية » أن يتبين أن حربا من هذا النوع، وبالذات ما بين ألمانيا وروسيا كانت ضرورية لتوهين، بل لتحطيم، أكبر قوتين تمثلان الرجعية والعسكرية والاتوقراطية في أوروبا، وأن هذا التحطيم وحده هو الذى سيفسح الطريق إن لم يكن للاشتراكية، فعلى الأقل لنظم أكثر ديمقراطية. وهذا ما تنبه إليه بعد مدة عندما دعا إلى جعل الحرب ضد الملوك والأباطرة والرأسمالية، وهو ما كان سينتهى إليه المآل في جميع الظروف، وبالنسبة للمهزوم والمنتصر، فالحرب ليست تمثيلية. إنها دوامة تذهب بالنظم وتقتلهم من الجذور.

\* \* \*

ودارت رحى الحرب ...

وكانت الخطة التى وضعها الجنرال فون شليغن رئيس الأركان الألمانية سنة ١٩٠٥ تقضى باكتساح الألزاس واللورين واقتحام ميتر ومنها إلى باريس ونجح « مولتسكه » رئيس أركان ألمانيا وقتئذ (وهو ابن أخ فون مولتسكه قائد الحرب السبعينية) فى تطبيق هذه الخطة إلى حد كبير، فقد هاجم الجيش الألماني بلجيكا واستولى على بروكسل ثم سار إلى شمال فرنسا عابراً نهر المارن ودافعا أمامه القوات الفرنسية والانجليزية، وفى ٢ سبتمبر كانت الجيوش الألمانية تقترب من باريس وكانت الحكومة تتركها وتنتقل إلى بوردو.

ولكن حدث وقتئذ أن استطاع القائد الفرنسي « جوفر » أن يعوق مضي الجيوش الألمانية بمناورة بارعة. وأن يتمكن من إحداث ثغره في الجبهة الألمانية بطول خمسين كيلو ، فاضطر الألمان إلى التراجع حتى نهر الرين . وكانت تلك هي « معجزة المارن » التي غيرت مسار الحرب ، ووقفت مضيها ، وأطالتها لأكثر من سنتين تاليتين بدلا من القضاء على فرنسا في ستة أسابيع ، كما قدرت القيادة الألمانية ، وحلت حرب الخنادق محل المعارك .

وفي الداخل ، كان الحزب الاشتراكي الديمقراطي يفوق من أثر الصدمة الأولى ، وكانت الجماهير تعود إلى صوابها الذي فقدته في بهرة الحماسة ، وتبدأ تتبين المعنى الحقيقي والواقعي للحرب ، وعندما تقدمت الحكومة للرشتاج في ديسمبر سنة ١٩١٤ طالبة اعتمادات أعطى ليبككنشت صوته معارضا ومخالفا بذلك سياسة حزبه ومن هذه اللحظة حتى اعتقاله بسبب قيادته المظاهرات أول مايو سنة ١٩١٦ وقد كان صوت المعارضة في الرشتاج . ولم يدع وسيلة ليعبر بها عن رأيه إلا اتخذها وتعرض في هذا السبيل لمتخاف صور المضايقات التي وصلت إلى حد الضرب أو الخيلولة المادية دون أن يتحرك من مقعده وإن لم يعلم العالم الخارجى بشيء من ذلك وقتئذ لأن الرقابة كانت تحول دون نشر شيء عنه .

والحقيقة أن ليبككنشت لم يقنع بالعمل البرلماني . لقد بدأ من سبتمبر ١٩١٤ ينظم حركة احتجاج في ستوجارت ، كما كانت روزا لوكسمبرج وجوليان كارسكي وكلارا زتسكين وفرايز ميهرنج الذي كان في السبعين من عمره ينظمون الدعاية ضد الحرب. وفي إبريل سنة ١٩١٥ نشروا العدد الأول من الانترناسيونال . وكان هو العدد الأخير فقد حوكم الطابعون والناشرون والكتابون بتهمة الخيانة. وفي مايو ١٩١٥ حازت النشرة التي أصدرها ليبككنشت عن الحرب بعنوان

« العدو في البيت » ذبوعا كبيرا ، وبعد ذلك بشهر نشر « نداء الألف » وهو نداء وقع عليه ألف عضو من أعضاء الحزب بعضهم من الشخصيات البارزة ووجه إلى قيادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي وجاء فيه أن الحرب قد كشفت عن طبيعتها الامبريالية وأن على الحزب أن يسعى للسلام .

وأهم من « نداء الألف » ما نشرته جريدة الحزب في ليبزج تحت عنوان « الحاجة الملحة هذه الساعه » ودارت حول فكره نداء الألف ووقع عليه ثلاثة من أبرز قيادات الحزب هم كارل كاوتسكي وادوار برنشتين وهوجو هاسه . والأول كما هو معروف منظر الحزب ، والآخر رئيس الهيئة البرلمانية للحزب .

وعندما أعلنت الحكومة أنها ستتقدم في ديسمبر سنة ١٥ إلى الرشيستاج لطلب اعتمادات جديدة اجتمعت الهيئة البرلمانية للحزب . وأظهر التصويت أن ٦٦٪ من الأعضاء يؤيدون الحكومة وأن ٣٤٪ يعارضونها وكانت النواة الصلبة للمعارضة في الحزب — باستثناء ليبكنشب وروزا — هي المجموعة التي تزعمها هاس وحملت أولا أسم التجمع العمالي الاشتراكي *Sozialistische Arbeitagem . einschaft* ولما قدمت الحكومة بالفعل طلبها عارضه عشرون نائبا اشتراكيا وامتنع اثنان وعشرون رغم أن قرار الحزب كان هو الالتزام برأى الأغلبية . وطالب كارل ليجين رئيس النقابات بفصل الأعضاء الذين اتهموا بنظام الحزب ، ولم يتخذ وقتئذ شيء ، ولكن الحزب فصل بعد ذلك ليبكنشت وأصدر قرارات يقضى بأن معارضه رأى الحزب تفقد المعارض عضويته في الهيئة البرلمانية . وكان هذا القرار هو الذي أدى إلى تصدع وحدة الحزب . في ربيع عام ١٧ — عندما عقدت مجموعة هاسه وكاوتسكي مؤتمرا في جوتا وأعلنت استقلالها عن الحزب الاشتراكي

الديمقراطي وحملت اسم « الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل » وطالبت هذه المجموعة الحكومة بأن تعلن فوراً أهدافها الحقيقية من الحرب وأن تدخل في مفاوضات لسلام لا يكون فيه غالب أو مغلوب ولا مطالبة بتعويضات أو الحاق لأراض وأن ترفع الأحكام العرفية والرقابة على الصحف التي فرضت مع إعلان الحرب .

وبقدر ما كانت هذه الآراء تقدمية بالنسبة للحزب الاشتراكي الديمقراطي الذي أصبح يوصف بكلمة « الأغلبية » بقدر ما كانت تمتد محافظة بالنسبة لمجموعة الدولة التي أخذت تتشكل شيئاً فشيئاً ويقودها عملياً ليبكنشت ، ومنهيباً روزا لوكسمبرج .

وبدأ ليبكنشت وروزا يجمعان الإلتباع ، وكان الأول قد تحرر من عضوية الحزب عندما فصل في ١٦ يناير سنة ١٩١٦ ، كما كانت الثانية قد تحررت من سجنها في ٢٢ يناير ١٦ الذي أودعت فيه منذ قيام الحرب وفي ٢٧ يناير سنة ١٩١٦ بينما كانت ألمانيا تحتفل بعيد ميلاد القيصر ظهرت في الأسواق رسالة في صورة خطاب مفتوح يندد بالمناسبة ويحمل توقيع « سبارتا كوس » .

وشيئاً فشيئاً توالى رسائل سبارتا كوس وكلها تحض على الثورة وتدعو الجنود لأن يحولوا حراهم نحو الطبقة المستغلة ، وفي إبريل سنة ١٩١٦ ظهرت رسالة « أزمة الاشتراكية الديمقراطية أو رسالة جانوس » وهو الاسم الذي إلتحلته روزا وكانت قد كتبت قبل عام من نشرها واعتبرت للتو ، وعلى إيجازها ، إحدى الكتابات الاشتراكية الكلاسيكية .

وكانت هذه الكتيبات محدودة العدد ، فحق سبتمبر إقتصر توزيعها على خمسمائة نسخة ، ولكن ليبكنشت إمتطاع أن يجد أنصاراً يطبعونها بالمطبعة ، من خمسة آلاف نسخة .

وقبل أول مايو سنة ١٩١٦ أعلن ليبكنشت عن إجتماع عام يعقد مساء هذا اليوم ، وشهد الإجتماع قرابة عشرة آلاف وعندما بدأ ليبكنشت يهتف بسقوط الحرب والحكومة ، هاجم البوليس الإجتماع واقتلعه من مكانه واقتاده إلى السجن حيث حوكم وحكم عليه بالسجن عامين ( رغم حصانته البرلمانية ) وفقد مقعده في الرشتاج - وعندما نظرت القضية أمام محاكم الاستئناف أُلقي خطابا عنيفا رفع العقوبة إلى أربع سنوات ، وأدت المظاهرات التي قامت إلى سجن كثير من أنصاره ، كما قبض على روزا لوكسمبرج وأعيدت إلى السجن .

---

## الفصل السادس

### الثورة وإعلان الجمهورية

في صيف ١٩١٦ أخذت موجه الانتصارات التي بدأت بها ألمانيا الحرب تنحسر وتتجمد، فحطمت الجيوش الروسية الجبهة السماوية في جاليسيا، ودخلت رومانيا الحرب ضد ألمانيا، وتجمد الهجوم في الجبهة الغربية، وأحست الدوائر العسكرية أن من الضروري إجراء تجديد يخلص الجيش من هذا الوضع ويعطيه دفعة إلى الامام، وكان المارشال هندنبرج ومساعدته الجنرال لودندورف قد اكتسبا شهرة أسطورية منذ أن هزما الجيوش الروسية في معركة « تاتنبرج » والبحيرات المازورية « وأصبحا رمزاً للعسكرية الألمانية المنتصرة. وفي ٢٩ أغسطس استدعاهما القيصر وعين الأول قائداً عاماً والثاني رئيساً للأركان .

وكان هندنبرج بخلقه وخلقه الرمز الذي يمثل العسكرية البروسية بينما كان لودندورف هو القائد الفعلي، وواضع الإستراتيجيات . بل والحاكم بأمره في ألمانيا بأسرها . وقد استطاع عن طريق الضرورات العسكرية أن يفرض نفسه على الشؤون الداخلية والسياسية للبلاد، وكل كبيرة وصغيرة فيها .

وكان لودندورف مزيجاً من العبقرية والشذوذ، الفن العسكري والفكر السياسي وقد كان هو الذي قذف بلينين إلى روسيا في القطار المغلق المشهور «

كما كان هو الذى ساند هتلر فى قومته المجهضة فى بافاريا سنة ١٩٢٣ . وقد  
اعتقد أن القدر قد إختاره لينقذ ألمانيا فى هذه المرحلة الحرجة وليعيد تنظيم كل  
شئ فيها ولينفث فيها روحاً جديدة من الدقة والطاعة والإخلاص وجعله ذلك  
يتدخل فى الشئون السياسية إلى درجة جعلت من القيصر ويلهلم نفسه « صفراً  
متوجاً » على حد قول البعض .

على أن المهمة المعينة التى جاء من أجلها والتى تفوق أى مهمة كانت بالطبع  
المهمة العسكرية ، وفى البداية حققت سياسة لودندورف بعض الانتصارات  
فدخول لينين روسيا أدى إلى تسليمها وتوقيعها معاهدة برست ليتوفسك التى  
كانت انتصاراً لألمانيا خالصاً ، وفى الجبهة الغربية حافظت الجيوش الألمانية  
على خطوطها واستنزفت قوى الفرنسيين والبريطانيين ، بينما كانت الغواصات  
الألمانية تغرق السفن والقوافل البريطانية ، ولكن هذه كلها لم تكن إلا فصولاً  
من القصة القديمة : مطاولة القدر ، والقدر غالب ، ومكابرة الوقائع ، والوقائع  
فارضة نفسها ، والاستدانة على حساب المستقبل والمستقبل آت لا ريب فيه .  
فإدخال لينين إلى روسيا حقق المطلوب منه : تسليم روسيا . ولكنه كذلك  
أوجد شيئاً غير مطلوب بالمرّة : تغلغل الدعاية الشيوعية فى عقر العسكرية  
الألمانية . وحرب الغواصات أدت إلى دخول أمريكا الحرب ضد الألمان  
دون أن تدفع بريطانيا للتسليم ، واستراتيجية الدفاع فى الجبهة الغربية امتنزفت  
قوى الجيوش البريطانية والفرنسية ، ولكن هذه الجيوش عوضت خسائرها  
بالإمدادات الأمريكية فى حين لم تستطع الخطوط الألمانية تعويض خسائرها  
حتى وإن كانت أقل بكثير من خسائر الفرنسيين والبريطانيين .

وفى الداخل كانت البأساء تشتد ، وكان المدنيون يدفعون الثمن مع الجنود .  
وأضى الشعب شتاء ١٦/١٧ على البنجر الذى كان يخصص للحيوانات ولكنه  
أ — ظهور وسقوط

في الشتاء الثانی لم یجد حتى هذا البنجر وزادت وفيات الأطفال ، واندلعت مع بدیة عام ١٩١٨ اضرابات عمال الذخائر التي اشترك فيها ربعمائة ألف من عمال برلين وطلبوا بالإضافة إلى الطعام تحقیق « سلم عاجل دون تعویضات أو إلحاقات طبقا للمبادئ التي وضعها قومیسرو الشعب الروسی فی برست لیتوفسك » وكان هذا الإضراب مفاجأة للجميع ، حتى للحزب الاشتراکی الديمقراطي « الأغلبية » واعتبره البعض احتجاجا على معاهدة برست لیتوفسك بينما اعتبره البعض الآخر « بروفة الثورة » .

وحقیقة الحال أن النقابات لم تكن حتى هذه الفترة قد اشتركت فی معارضة الحرب بل لعل زعماءها أیدوها عندما أعلنت ، ولكن تطورات الحرب أذابت جمودها وأظهرت فیها نواة معارضة حملت اسم المندوبین الثوریین Revolutionäre obiente وترکزت أولا فی وسط عمال معادن برلين . ومثلوا أبرز العمال المهرة وأنشط النقابیین وقد انضموا فیما بعد إلى الحزب الاشتراکی الديمقراطي المستقل وإن احتفظوا فیہ بنوع من الاستقلال وكان مجال عملهم فی المصانع والنقابات التي كانت حتى ذلك الوقت تتقبل الحرب وتقاوم الإضرابات ، واستهدف المندوبون الثوریون تحويل النقابات من هیئات اقتصادية إلى قواعد للعمل السیاسی الثوری .

واعتبر قیام المندوبین الثوریین ونجاحهم فی تنظیم إضراب عمال الذخائر دلیلا على خطأ النظریة الماركسیة التي كانت ترمی العمال المهرة — ارمستقراطية العمال — بالعمالة للرأسمالية وخيانة قضیة الطبقة العاملة ..

وحاولت الحكومة إبعاد زعماء هذه الحركة .. ولكن الكثير منهم كان من أمهر العمال .. ولم یكن من السهل الاستغناء عنهم . وكانت مهارتهم تكسبهم نوعا من الحصانة لم یتمتع بها غیرهم من المعارضین الثوریین



كلا سبرتا كونسيتين .. ولكن كان هناك نقصان رئيسيان في المندوبين الثوريين الأول أن نفوذهم كان يتركز في العاصمة ولم يمتد كثيراً إلى الأقاليم والثاني أنه لم يكن لهم نظرية سياسية أو برنامج عمل للثورة التي كان الجو يتلبس بها وينذر بالانفجار .

ولم يكن أمام لودندورف إلا أن يمضى في الشوط الذي بدأه إلى النهاية، فقرر الهجوم قبل وصول مزيد من الجنود الأمريكيين . وفي مارس ١٩١٨ تحركت فيالق الجبهة الغربية بعد أن زودت بمئات الألوف من الجنود الذين نقلوا من الشرق بفضل معاهدة برست ليتوفسك<sup>(١)</sup> وسار الهجوم حتى وصل إلى نقطة من نهر المارن لا تبعد سوى ٥٦ ميلاً عن باريس وبدأت عملية شطر قوات الحلفاء، ولكن في يوليو بدأ « قوش » قائد الحلفاء هجومه المضاد، وأخذ الحلفاء يدفعون الألمان في بطاء ولكن في استماته . وفي ٨ أغسطس نجحت الفرق الاسترالية في إحداث فجوة واسعة في الخطوط الألمانية بينما كانت القوات الأمريكية تندفق . ففي مارس كان هناك ٣٠٠.٠٠٠ وفي يوليو وصل العدد إلى ١.٢٠٠.٠٠٠ وكان من المحتمل أن يزيد إلى مليونين في نوفمبر .

وبدأت نذر الانهيار، ولكن لودندورف كان يكابر وعندما سأله وزير الخارجية في يوليو - أى بعد فشل هجوم مارس الأول - عما إذا كان متأكداً من دحر الأعداء . رد بإيجاب . مؤكداً .

وفي ٢٦ سبتمبر شن الفرنسيون هجوماً واسعاً غرب أرجون بينما كان

---

(١) وقد لاحظ بعض المؤرخين أن استمتهواز ألمانيا على مساحات واسعة (حوالي ثلث روسيا) بمقتضى هذه المعاهدة تطالب بإبقاء قوات ألمانية كبيرة للاحتفاظ بها . . . لو أن هذه القوات توفرت لهم هجوم لسكان من المحتمل أن لا يقف حيث وقف . فكان ألمانيا قد عوقبت على شراستها شر عقاب .

الأمريكيون يتقدمون ما بين أرجون والموز وتحرك البريطانيون والبلجيكيون وفي ٢٩ سبتمبر طلبت بلغاريا - حليفة ألمانيا - الصلح كاشفة الجناح الجنوبي الألماني . وكانت هذه الهجمات المتلاحقة أقوى مما يستطيع لودندورف احتماله . فاعترف بالحقيقة المرة وصارح القيصر بأنه فقد كل أمل في الانتصار وأن من الضروري بدأ المفاوضات قريباً .

وقبل أن تؤدي الهزيمة العسكرية إلى الاندحار كانت التطورات السياسية - داخل ألمانيا وخارجها - تجبر القيصر على أن يعدل في الأوضاع السياسية الداخلية تعديلاً جذرياً .

ففي ١٧ مارس سنة ١٧ وصلت الأنباء الأولى عن ثورة مارس في روسيا . فدفعت إلى السطح بالخوف التي كانت كامنة في الأعماق ، وتبينت السلطات الحاكمة لأول مرة أن من الممكن أن تقوم ثورة ، والحرب دائرة .. خاصة إذا بدت بوادر الهزيمة .

وشجعت ثورة مارس في روسيا بعض أعضاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي لأن يتقدموا مطالبين بإصلاح النظم الانتخابية وأيديتهم في ذلك الأحزاب جميعها باستثناء المحافظين .

والواقع أن الإمبراطور أعلان في أبريل ومايو عن عدد من الإصلاحات في النظام الانتخابي ودخل - للمرة الأولى - في اتصالات مع الرشتناج قبل أن يعين المستشار هرتلتنج . وفي سبتمبر ١٩١٨ وجه خطاباً إلى المستشار كان في حقيقته رسالة إلى الشعب والرشتناج جاء معها : .. أريد أن يتم التعاون بين الشعب والحكومة بطريقة أكثر فعالية لتحقيق خير الوطن وتقرير مصيره ، وتقضى إرادتي أن يشترك الرجال الذين يتمتعون بثقة الشعب مع الحكومة في كل ما لها من الحقوق والواجبات ، ولم تكن هذه في حقيقة الحال إرادة الإمبراطور .. ولكنها كانت ضرورة التطورات الحربية التي

كانت تتطلب تغييرا جذريا . واستقال هرتلنج واعد الإمبراطور إلى إختيار  
مستشار لم يكن من النكرات السياسة أو الحاشية التي يصدر إليها الأوامر هو  
البرنس ماكس أوف بادن الذي كان صهر الدوق مكبر لاند الانجليزى وعرف  
بمبولة الديمقراطية .

وفي ٥ أكتوبر سنة ١٩١٨ أعلن المستشار الجديد أمام الريشتاج « إن  
كنفى رجل واحد لاتقويان على حمل العبء الذى تنوء بحمله الحكومة الآن .  
واعتقد أن الطريقة التى تدار بها شئون الإمبراطورية اليوم يجب أن تتغير .  
ولن تستطيع أية حكومة أن تتكون فى المستقبل ما لم تحرز ثقة الريشتاج  
ويكون جل أعضائها منه » وعقب ذلك صدر قانونان يوم ٢٨ أكتوبر سنة  
١٩١٨ حققا المطالب الآتية :

(أ) النص على ضرورة أن يحوز المستشار ثقة الريشتاج وأنه المسئول  
عن كل الأعمال التى يأتياها الإمبراطور ، وأن المستشار والوزراء مسئولون  
لإمام الريشتاج والبند سترات .

(ب) أضيف إلى اختصاصات المجلسين التشريعيين اختصاصات كان ينفرد  
بها القيصر مثل إعلان الحرب ، وعقد الصلح ، وتوقيع المعاهدات ، وأصبح  
قيام القيصر بذلك رهنا بموافقة الريشتاج والبند سترات .

(ج) أصبحت الإدارة الحربية المطلقة التى كان يتمتع بها الإمبراطور  
خاضعة للرقابة المالية .

وأعلن المستشار « إن نظاما جديدا يبدأ اليوم تنتقل بوساطته الحقوق  
الاساسية التى كانت لشخص الإمبراطور إلى الشعب الألماني » وسعى علماء  
القانون فى ألمانيا هذا الخطاب وثيقة النزول السياسى<sup>(١)</sup> .

وكانت مهمة البرنس ما كس صعبة . فقد كانت القيادة العسكرية تلاح بعد أن برح الخلفاء - الحاحا مستمرا في التفاوض فورا ، وتأمل في صلح تقليدى . يتيح لها فرصة لالتقاط الانفاس ، ويحتفظ لها ببعض المكاسب ، بينما لم يكن الخلفاء - بما فيهم الرئيس ولسن - على استعداد لشيء من هذا القبيل ، كما لم يكن لديهم ما يحملهم على العجلة ، والواقع أن المفاوضات استمرت أسابيع طويلة مؤلمة .

وكانت الخطوة الأولى للبرنس ما كس هي تشكيل وزارة تمثل الأحزاب الكبرى في الرشتاج . وكان هذا في حد ذاته يعد تغييرا كبيرا في النظام الدستورى وخطوة نحو تعديله وجعله أكثر ديمقراطية . ولما كان الحزب الاشتراكى الديمقراطى أحد الأحزاب الكبرى في الرشتاج، فضلا عن أهميته الخاصة فقد عرض عليه البرنس ما كس الاشتراك في الوزارة .

ونوقش هذا العرض في اللجنة القومية للحزب والهيئة البرلمانية ، وفي اجتماع مشترك ضم الهيئتين اتفق على الاشتراك في الوزارة بشروط كان أهمها السلام العاجل والإعلان الصريح بأن ألمانيا ستكون على استعداد للانضمام إلى أى مجتمع دولى يؤسس لحل منازعات السلام على أساس نزع السلاح والتعهد بإعادة بناء بلجيكا والصرب والجبل الأسود والوصول إلى حل حول تعويضات الحرب ووضع إدارات مدنيه في المواقع المحتلة واعطاء الالزاس واللورين الحكم الذاتى وأن يكون حق الانتخاب سرىا ومباشرا لجميع الألمان الخ . . . وهى مبادئ قلل من أهميتها أنها وضعت وألمانيا على شفا الهزيمة وعندما كان المنتصر يستطيع أن يجبرها على هذا كله ، وما هو أكبر ..

وأوضح أخذ الأصوات أن هناك أقلية تناصر الدخول دون قيد أو شرط وذكرايبرت المجتمعين « إذا لم يتدخل الاشتراكيون الديمقراطيون فلن

يكون هناك سلام سريع - ولا ديمقراطية للدولة ولتحقيق هذين المطلبين للشعب الألماني فإن علينا أن نشترك في الحكومة « وعبر أوتو فيلز عن مخاوفه من أنه عندما تستهوى الامبراطورية ، فإنها ستأخذ الاشتراكيين الديمقراطيين معها ، ورفض شيديمان أى تعاون وزارى ، ولكن أيبيرت أقنعهم بأنه « إذا كنا نريد جعل جذور الحكومة في البرلمان فكيف يسعنا أن نقف بعيدا ، وهل يكون هناك أى فرصة لحكومة برلمانية دون الاشتراكية الديمقراطية » وانتهى الأمر بقبول العرض ودخول اثنين من الأعضاء البارزين هي باور وشيديمان الوزارة .

وكان هذا القرار حدثا يمثل في دقته وخطورته قرار ٤ أغسطس سنة ١٩١٤ . فدخول الاشتراكيين الديمقراطيين الوزارة كان يشركهم في مسئولية الهزيمة ويلطخهم بها ويعرضهم لتنديدات العسكريين واليساريين وهي إعتبارات كانت كفيلة بأن تصرفهم عنها - لولا ما تصوره من أن الواجب الوطنى يلى عليهم في هذه الظروف الحرجة - كما أملى عليهم في ٤ أغسطس - الموافقة . .

ويتفق الجميع على أن دخول الاشتراكيين كان من باب التضحية وبدافع من الوطنية وليس من باب الطمع أو الطموح ولكن الخلاف يدور حول صواب أو خطأ القرار ، والمعياري الذي يفصل في ذلك هو هل الحزب الاشتراكي الديمقراطي يستهدف تحقيق غاياته عن طريق التشريع البرلماني أو أنه حزب ماركسي ثوري يرتبط بنظرية معينة وأسلوب معين . فإذا كان الحزب الاشتراكي هو الحزب الماركسي فلا خلاف في أن القرار من ناحية المبدأ خاطيء فكل دعاوى البرلمانية لا محل لها ولا تساوى قلامه ظفر في الماركسية . ولكن إذا كان الحزب الاشتراكي الديمقراطي هو في حقيقة الحال ومنذ نشأته ، ومهما حمل من شعارات حزب ديمقراطي برلماني ساحة معاركه هي الانتخابات

والأصوات فلم يكن هناك مناص من الاشتراك في الحكم لانه تحقيق الديمقراطية والإصلاح البرلماني فحسب .. ولكن أيضاً لدرأ عواقب عدم الاشتراك، وهذه العواقب هي إما هيمنة عسكريين ورجعيين وإما فوضى تنتهي بسيطرة دكتاتورية أو بلسفيه . . وهي كلها إختيارات بغيضه إلى الاشتراكيين الديمقراطيين . . وعندما تنبأت روزا لوكسمبرج بإن الشيدمانيين والباوريين الذين بدأوا بتقبيل يد الملك الألماني سينتهون بأن يطلقوا النار على العمال الألمان عندما يضرّبون ويتظاهرون ، إن هذه الاشتراكية العجيبة قد سدت - باشتراكها في الوزارة كنصيرة للرأسمالية - الطريق أمام ثورة العمال الماثلة ، فإنها في حقيقة الحال كانت تقول بلغتها الحادة إن اشتراك الحزب الاشتراكي الديمقراطي حال دون نشوب الثورة الماركسية . وهذا هو ما حدث بالفعل وما كان يريد به الحزب الاشتراكي الديمقراطي وما كان ينقمه عليه الماركسيون . .

إذن لم يكن هناك مبرر موضوعي لتجريح القرار ما لم يكن المروءة ماركسيا . وقد أثبتت الأحداث التي جاءت سلامته ، إذ مكن الحزب من السيطرة على الحكومة بسهولة .

وبدأ البرنس ماكس اتصالاته بالرئيس ولسن الذي أختره من بين الخلفاء لأسباب لا تخفى في الأيام الأولى لشهر أكتوبر ، وفي منتصف الشهر وجه الرئيس ولسن نظر ماكس إلى ما أرتبطت به الحكومة الأمريكية من تحطيم كل القوى المطلقة وأن القوى التي حكمت ألمانياهي الآن من هذا النوع ، فسار خطوة أخرى وأعلن في الأسبوع الأخير من أكتوبر عن الإصلاحات الدستورية التي أشرنا إليها والتي حققت جوهر الديمقراطية البرلمانية . ولكن لم يكن لهذه الإصلاحات الصدى المطلوب لدى الرئيس ولسن إذ رد بأنه يرفض

مناقشة الهدنة إذا كان على الحلفاء أن يتعاملوا مع القادة العسكريين والاتوكراطيين المملكين، وساور ما كس الشك أن ويلسن يريد خلع القيصر أو حتى القضاء على الملكية .

وأثار هذا الموقف ثائرة العسكريين وطالبوا بمواصلة الحرب واصدر لودندورف بياناً إلى الجيش حذر فيه من أن الحلفاء يطلبون تسليماً غير مشروط « وهو أمر لا يمكن - نحن العسكريين - أن نفعله » وتجاهل لودندورف المستشار وذهب لمقابلة القيصر وثار البرانس ما كس وأصر على إقالة لودندورف وادعى لودندورف أمام القيصر أن طلباته السابقة لبدء المفاوضات إنما كانت وسيلة لكي يعرف الشعب الألماني موقف الحلفاء وتصلبهم ، وأنه الآن وقد عرف ذلك على استعداد للحرب بروح جديدة . ولكن دولة العسكريين كانت قد دالت وأرسل المستشار نائبه فون باير ليحاسب لودندورف . وعندما هاجم لودندورف المستشار وحمله مسئولية الصلح المشين - وأنه لو ترك الأمور تسير هكذا « فستجد البلاشفة خلال بضعة أسابيع هنا » رد نائب المستشار في برود « لست أخشى هذا ، وبالإضافة فعليك أن تدع هذه الأمور لي . فأنا أفهمها أفضل منك » .

وانتهت المقابلة باستقالة لودندورف وانتهاء دكتاتوريته العسكرية التي بدأت من صيف ١٩١٦ وكانت - رغم كل ما حاوله - عقيمة كأي دكتاتورية عسكرية وكان عليه خلال أسابيع معدودة أن يفر إلى السويد متخفياً، وإن احتفظ بالقيادة العليا لهند نبرج ، لأن هند نبرج كان - كما ذكرنا - رمز العسكرية أكثر مما كان أداؤها المنفذه .

ومن المهم هنا أن نوضح أن المستشار ما كس لم يكن ليغض في مفاوضاته ولم يتأكد تماماً من عجز الجيش عن المقاومة . ولكنه لم يكن يستطيع

أن يعلن ذلك حرصا على البقية الباقية من القوى المعنوية وللاحتفاظ بمركز تساوى قوى مع الحلفاء . وقد زاد اقتناعا بعجز الجيش عن المقاومة بعد لقاءاته مع الجنرال جرونر الذى عين محل لودندورف وكان ضابطا حصيفا وعلى علاقات حسنة بزعماء الحزب الاشتراكى الديمقراطى « الأغلبية » وتصور جرونر أولا أن من الممكن مواصلة المعارك ولكنه لم يلبث بعد دراسة الموقف بدقة أن اقتنع بضرورة الدخول فى مفاوضات بأسرع ما يمكن .

وأول عدم وصول رد من الرئيس ولسن على آخر رسالة من رسائل المستشار ما كس إليه ، وكانت بتاريخ ٢٦ أكتوبر ، بأن الرئيس يطلب تنازل القيصر وتوقفت الفكرة وكان الجميع يقبلونها كخروج من المأزق وضرورة ، مهما كانت قسوتها ، فإن نهاية رهيبة خير من رهبة بلا نهاية ، على حد تصوير شيدمان . ووافق جرونر نفسه بشرط أن لا يجبر القيصر على ذلك .

وكانت هناك قوى أخرى تعمل فى الميدان وتسرع بسير الأحداث . وكانت هناك قوى أخرى تعمل فى الميدان وتسرع بسير الأحداث . وفى ٢٣ أكتوبر أفرج عن ليبكنشت بناء على اقتراح شيدمان الذى تصور أن وجوده خارج السجن أقل خطرا من بقاءه داخله ، ولكن ليبكنشت استقبل استقبال الأبطال وسط احتفالات شعبية لم تخطر ببال الاشتراكيين الديمقراطيين ، وأجلس فى عربة مليئة بالورود وجرها عمال برلين واخترقوا بها الشوارع ، وفى روسيا توقفت المواصلات وأغلقت المصانع عندما وصلها النبأ وأرسلت الحكومة برقية تهنئة بتوقيع لينين وميفرد لوف وستالين .

ومن ناحية أخرى ، فإن اذعان الاتحاد السوفيتى للشروط التى أمثلتها المانيا عليه بمقتضى معاهدة برست ليتوفسك أسفر آليا عن اعتراف المانيا بالاتحاد السوفيتى وبأن يكون له سفارة فى برلين ، واختار لينين ادولف جوف - الذى كان أحد أعضاء الوفد الروسى فى مفاوضات برست ليتوفسك - سفير للاتحاد



السوفييتي في ألمانيا . وأحضر هذا علما أحمر كبيرا نقش عليه « يعمال العالم  
اتحدوا » ونصبه فوق السفارة الروسية في أكبر ميادين برلين « انتردولندن »  
كما اصطحب وفدا من ثلثائه فرد بعضهم من أقدر المنظمين والمهيجين . وكانت  
شحنات المطبوعات الثورية تصل بانتظام إلى السفارة متمتعة بالحصانة الديبلوماسية،  
وأصبحت السفارة هي مقر القيادة الشيوعية . وكان جوف يجتمع كل مساء  
تقريبا باتباع ليبيكنشت وغيرهم من اليساريين، ولم يقتصر الأمر على المطبوعات،  
فقد وزعت النقود والأموال ووضعت الخطط ، ومضى هذا قدما ولفترة طويلة .  
وكانت له آثاره الخطيرة في إضرام الاتجاهات الشيوعية والثورية .

ووصل المدى الثوري إلى ما يقارب الذروة عندما ثار البحارة في كيل . .  
ولم تكن تمردات البحارة بالشئ المجهول من قبل . ولكنها كانت نادرة  
وفردية وتقع فوراً وبشدة . ولكن اضطراب الأحداث والعوامل الخاصة التي  
سيرد عنها الحديث أعطت هذه التمردات طابعا آخر .

وخلال يوليو سنة ١٩١٧ تمرد بعض بحارة البارجة برنذرجنت لتبولد  
Prinzregent Luitpold لسوء الجراية ، ونظموا مسيرة احتجاج في ميناء  
ويلهمشافن . وعندما عادوا إلى السفينة قبض على زعمائهم وحكم على بعضهم  
بالسجن ، كما رحل اثنان إلى « كولون » حيث نفذ فيهما حكم الاعدام .  
وفي الوقت نفسه فقد أمرت الاميرالية بتكوين « لجان طعام » ينتخبها  
البحارة أنفسهم وتشوى الاشراف على توزيع الجراية . وهذه اللجان التي أريد  
بها القضاء على الشكوى أصبحت نواة للخلايا الاشتراكية ومجالس البحارة  
فيما بعد .

ولكن لم يكن لمثل هذه الاضطرابات أن تصل إلى شئ كبير لو لم تتردد  
تلك القصة التي أثارت البحارة ، فقد قيل إن الاميرالية قررت القيام بمغامرة

انتحارية يتصدى فيها الأسطول الألماني للأسطول البريطاني ، فإذا استطاع أن يهزمه فسيؤدي ذلك إلى تعزيز موقف المانيا في مفاوضات الصلح ، وإذا انهزم فلن يخسر شيئا لأنه كان في حكم المقرر أن يضع الحلفاء أيديهم على الأسطول ، وفضلا عن ذلك فسيكسب الشرف وحرمان الحلفاء من الأسطول .

وعززت هذه الشائعات أن أصدرت الاميرالية في الأيام الأخيرة من أكتوبر الأوامر بأن تقلم البوارج إلى عرض البحر بعد أن ظلت في مرابضها قرابة سنتين .

وتعددت الشائعات فقليل إن الأسطول البريطاني قد تحدى الأسطول الألماني في مبارزة حتى النهاية . . وأن الاميرالى العجوز . . فون تريبتز سيخرج من معسكره ليشهد المعركة . . وأن القيصر نفسه سيقود الأسطول على ظهر البارجة « بادن » .

وفي مساء ٢٩ أكتوبر عندما أمرت القوة الرئيسية من الأسطول بالاقلاع تمرد بحارة الأسطول الأول، وأبرق القباطنة المذعورون إلى الاميرال فون هيبير، فأمر بتأجيل الاقلاع يوما حتى يتحكم الضباط في الموقف ، ولكن التمرد استمر في اليوم التالي فألغى الاميرال إقلاع السفن .

وكان ذلك انتصارا للبحارة . ولكن الاميرالية لم تكن لتسمح بأن يمضى هذا دون عقاب . وفي اليوم التالي ٣١ أكتوبر . أرسلت احدى الغواصات فتصدت للبارجة ثورجن ووجهت نحوها أنابيب توريدها ، كما أحاطت ثلاث مدورات بالبارجة وبهذه الطريقة حوصر البحارة ، وعندما أرادت البارجة هوليجلانند أن تحول دون ذلك ، وقعت هي نفسها في مأزق ، وأنزل بحارتها وبحارة البارجة ثورجن وهم قرابة ثلثمائة وخمسين بحارا .

ولكن الأمر لم يمض بمثل هذه السهولة في بقية السفن ، وعندما أقتيد ١٨٠

بحارا من بحارة البارجة مار كجراف إلى السجن البحري في قاعة كييل ثار بحارة الأسطول الثالث واعتزموا تحرير زملائهم واجتمعوا بتوجيه من بعض البحارة الاشتراكيين ، فاستمعوا إلى خطابات من بعض زعمائهم ، ومن « أرثروب » رئيس الاشتراكيين الديمقراطيين المستقلين ، وتكرر هذا الاجتماع في المساء الثاني - والثالث من نوفمبر - ولكنه لم يمر بسلام . فقد أطلقت إحدى دوريات البوليس النار على البحارة . فاكتسح البحارة في الصباح التالي مدينة كييل وهاجموا مخازن السلاح وكون الوقاد ألتلت Alet سوفيت بحارة كييل - السوفيت الأول في المانيا واتخذ من مدرسة التوربيدو مقرا .

ورأى قائد القاعدة الاميرال سوشون Souchon أنه لا يستطيع مقابلة البحارة بالقوة - فدعا زعيمهم ألتلت لمقابلته وعرض مطالبه - وتضمنت هذه المطالب إطلاق سراح المسجونين ، وتحسين الطعام والشراب وأن يعفى البحارة من تحية الضباط المتقاعدين كما تضمنت ضرورة موافقة البحارة على خطط الأسطول للخروج إلى عرض البحر . .

وتلقى سوشون هذه المطالب بهدوء ، وأبدى استعدادا لتنفيذ ما يستطيعه منها وإرسال ما لا يستطيعه إلى برلين للموافقة عليه . وفي الوقت نفسه ابرق إلى الحكومة في برلين طالبا إرسال مندوب عنها ليؤكد للبحارة أن ليس هناك اتجاه لإقلاع السفن ، وذكر أن من الأخير أن يكون هذا المندوب من من الحزب الاشتراكي الديمقراطي . .

وخلال هذه المدة سيطر البحارة على مدينة كييل تماما وقبضوا على كل الضباط وجردوهم من سيوفهم ونياشينهم وزجوا بهم إلى السجن ، ورفعت كل السفن الرايات الحمراء ، وفي أكبر ميادين المدينة ، كان بحار سمين يدير حركة المرور ويضع في حزامه ثمانية مسدسات ، وحول عنقه - نيشان الجدارة - أعلا

اليناشين البحرية - انتزعه من عنق أحد قادة الغواصات ، بينما كان رسل البحارة يذهبون إلى بقية الموانئ لحث بحارتها على المشاركة في الثورة . وأعلنت جريدة « فولكس زيتونج » التي تصدر في شلسونج هولشتين إن الثورة تسير . . وأن ما حدث في كيل سيحدث في الأماكن الأخرى خلال الأيام القليلة القادمة . . . وستؤدي إلى حركة تطوق كل ألمانيا .

\* \* \*

كانت كل هذه العوامل تضغط ثقيلًا وحشيًا على البرنس ما كس في برلين . بالإضافة إلى التهاوى السريع في الجبهة الذي كان يجعل لكل يوم ، بل لكل ساعة ، أهميتها وخطورتها ، وتخلي حلفاء ألمانيا عنها ، ففي ٣١ أكتوبر وقعت تركيا على اتفاقية هدنة . بينما كان رسول نمساوى يسلك طريقه عبر الخطوط الإيطالية للتفاوض في الهدنة . وكان البرنس ما كس يتمل في انتظار رد مذكرته إلى ويلسن بينما كان اختلاف وجهات نظر الحلفاء يحول دون وصول الرد السريع ، ففي الولايات المتحدة كان هناك من يرى أن ليس في ألمانيا حكومة يمكن التفاوض معها ، وكان من رأى الجنرال « برشنج » مواصلة الهجوم حتى التسليم دون قيد أو شرط . ولكن فوش اعتقد أنه قد يخسر مائة ألف جندي قبل الوصول إلى شروط أفضل . وأنه ما دامت الشروط التي ستبلى تماثل التسليم فليس من حق أى واحد أن يسفك نقطة دم أخرى .

وفي ألمانيا فهم تأخير الرد أنه إصرار من الحلفاء على خلع القيصر ، وتمسك شيدهمان بضرورة اتخاذ إجراء ما لحل القيصر على اتخاذ هذه الخطوة من تلقاء نفسه ، ولكن القيصر الذي لم يكن ليعتزم ذلك فاجأ مستشاره بالسفر في مساء ٢٩ أكتوبر إلى مقر القيادة العليا في « سبا » بلجيكا « وعيشا حاول ما كس أن يقنعه في الدقائق الأخيرة وبالتليفون قبل مغره بالأقلاع عن هذه الفكرة محذرا « إنه فرار آخر إلى فارن » وهو تحذير كان جديرا بأن ينفذ إلى أعماق

القيصر . . ولكن عبثا . . فقد كان القيصر يسير إلى قدره .

وخلال هذه الفترة كانت أحداث كييل تمتد لتشمل كل الموانئ وتنتقل من الموانئ إلى المدن . . وإلى جبهات القتال . وكانت آثار ذلك تضغط على الاشتراكيين الديمقراطيين « الأغلبية » وتشعرهم بأنهم قد تأخروا طويلا وأن الزمام يفلت من أيديهم بسرعة وأنهم ما لم يتخذوا خطوة حاسمة فلن يستعيدوا منزلتهم أبدا . وبدأ لهم أن الشيء الوحيد الذي يجعلهم يستدركون تخلفهم ويستعيدون المبادأة هو خلع القيصر فتمسكوا بذلك ، حتى « ايبيرت » الذي كان أكثرهم تحملا للأوضاع . وسأل المستشار ايبيرت بصراحه « هل إذا توصلت إلى إقناع القيصر بالتنازل فهل ستقف بجانبى فى الصراع حول الثورة الاشتراكية Social revolution » فأجاب ايبيرت بلا تردد « إذا لم يتنازل القيصر فليس هناك مفر من الثورة الاشتراكية ولست أريدها . وفى الواقع فإنى أكرها كالتحيطية » .

أمام هذا التأكيد عين المستشار لجنة للتفاوض مع الحلفاء على شروط الهدنة ، ولم تكن اللجنة من العسكريين ولكنها كانت من المدنيين ولم يكن الضابط الوحيد فيها من أركان الحرب ، واعد قطار خاص بعد ظهر يوم ٦ نوفمبر ، وبعد مفره بدقائق وصل رد الحلفاء الذى طال انتظاره وهو يعرب عن استعداد الحلفاء لتلقى وفد المفاوضه .

وكان على المستشار أن يصفى حسابه مع « جوف » سفير الاتحاد السوفيتى الذى جعل من السفارة مقراً للاعداد للثورة ، وكان شيدمان قد اقترح أن يوعز لأحد الحمالين بامقاط أحد الصناديق المرسلة للسفارة والمتمتعه بالحصانه الديبلوماسيه حتى ينكشف ما تحتويه من ملبوعات تحض الألمان على الثورة ، وحدث هذا وطرده جوف .

واهتمته الحكومة الألمانية في إذاعة موجهة إلى الشعب الروسى بأنه ، بالإضافة إلى ما قام به من تحريض فإنه انفق ١٠٥٠٠٠٠٠٠ مارك على شراء أسلحة وذخائر للشوارج . . ورد جوف بكل بجاحه أن نشاطه في الاثارة والتحريض إنما تم بمساعدة الحزب الاشتراكى الديمقراطى المستقل ، وأن المبلغ الذى زعمت الحكومة أنه أنفقه على شراء أسلحة وذخائر يقل فى الحقيقة عما انفق بالفعل ، وما يصل إلى بضعة مئات من الالوف ، وأنه يفخر أنه عمل بكل ما يستطيع لدفع الثورة الألمانية<sup>(١)</sup> .

وقرر المستشار أن ينهى مسألة اعتزال القيصر ، فأخذ يعد العدة للسفر إلى سيبا عندما قيل له إن ايدرت وشيدمان يطلبان مقابلته فوراً لسمع منهما بعض المطالب التى قررتها هيئة الحزب، وعندما ظهر أمامهما، كان الرجلان مأخوذتين وقدا إليه اندازاً من خمس نقط . منها إيقاف حظر الاجتماعات العامة ، وزيادة عدد الاشتراكيين الديمقراطيين فى الوزارة، وأهم من هذا كله أن يعلن القيصر تنازله عن العرش ظهر اليوم التالى ( ٨ نوفمبر ) وأن يعلن ولى العهد تنازله عن حقه الورائى ، فإذا لم تنفذ هذه المطالب حتى ظهر اليوم التالى فإن الحزب سينسحب من الوزارة .

وكان البرنس ماكس يعلم أن حزب الأغلبية قد غلب على أمره ولم يعد له خيار وأنه عندما طالب بتنازل القيصر ، فأما لأن ذلك هو أقل ما يمكن أن تتقبله الجماهير التى انطلقت من عقالها ، والحقيقة أنه بينما كانت مسئوليات الحكم ومشكلة النفاوض مع العلماء والتعامل مع القيصر ومتابعة سير الممارك وما إلى هذا كله يشغل وقت المستشار ووزرائه ، كان الشيوعيون والمستقلون يعملون وقد خلا أمامهم الجو تقريباً . وفى الأيام الأولى من نوفمبر اكتسحوا

(1) A Century of Conflict by Stefan. T. Possony p. 96.

معظم المدن . فكل المواثي خضعت بدرجات متفاوتة لسيطرة « سوفيتات البحارة » وتهاوى الضبط والربط بين الجنود ، سواء منهم جنود الجبهة أو جنود المؤخرة ، وكانت كل فرقة تستقدم لحفظ النظام تصيها المدوى فيرفض جنودها إطلاق النار على العمال والمتظاهرين وينضون إليهم ، وظهرت الصحف المعارضه من كل نوع دون أن تأبه للرقابة وكانت كلها تطالب بعزل القيصر وإقامة جمهورية سوفيتية . وظهر التعارض والنخب ما بين أوامر وزير الحربية وأوامر الحاكم العسكري لبرلين في حالات عديدة ، وتعطلت المواصلات بل إن الحكومة نفسها أمرت بانزع قضبان السكك الحديدية التي تصل بعض المناطق النائية ببرلين حتى لا ترسل هذه المناطق ثوارها وظهر أن المجموعات الثورية على اختلافها قد أعدت العدة بفضل الأموال والخطط التي دبرها « جوف » للقيام بالثورة يوم ٤ نوفمبر ولكنها أجلت لبضعة أيام واقترحت ليكنشت للقيام بها يوم ٨ أو ٩ نوفمبر ، ولكن المندوبين الثوريين أوضحوا أن هذه الأيام أيام صرف مرتبات ، ومن العسير إبعاد العمال عن المصانع ، وعندما ألقى البوليس القبض على أرست دميغ Ernest Daumig زعيم المندوبين الثوريين وجد معه خطة مفصلة للثورة يوم ١١ نوفمبر . .

ولم تكن هذه مجرد شائعات . إذ أن الاشتراكيين المستقلين واتحاد سبرتاكوس دعوا إلى الاضراب العام من الساعة التاسعة من صباح يوم ٩ نوفمبر للمطالبة بخلع القيصر والقضاء على الملكية وفي الصباح الباكر ليوم ٩ نوفمبر اتصل شيدمان تليفونيا بالمستشار سائلا « هل تنازل القيصر » وعندما قيل له « ليس بعد » قال « لم يذهب هو وإذن فسأذهب أنا » وفي الساعة التاسعة كرر سؤاله وعندما علم أن القيصر لم يتنازل بعد أعلن استقالة الاشتراكيين « الأغلبية » من الوزارة .

وبدأ الأضراب . . وتجمعت مئات الألوف من العمال وظهرت لافتات ضخمة تحمل بخط كبير عبارة « أيها الأخوة لا تطلقوا النار » ليواجه بها العمال الجنود . ولكن لم تكن إليها حاجة . فقد ذاب الجنود وسط الجموع ، أو تفرقوا . . ولما لم يجدهم ضباطهم تفرقوا هم أيضاً . وفي هانوفر عندما حاولت السلطات دفع الجنود لضرب العمال . . انضم الجنود إلى العمال . وفي كولون رفع الجنود علماً أحمر على ثكنتهم وتسكروا هذا في كاسل وفرانكفورت وغيرها . .

وفي دار المستشارية - المكان الأخير للوزارة - كان الاضطراب سائداً . والمستشار يحاول الاتصال بالقيصر دون جدوى . . وكل دقيقة تمر تدفع بمزيد من المتظاهرين إلى الميدان الفسيح المحيط بدار المستشارية . وفي منتصف الثانية عشر ، ودون مشاور مع أحد كتبه البرنس ما كس إعلان تنازل القيصر عن العرش ، وأعطاه لأحد معاونيه ليرسله إلى وكالة « ولف » للأبناء . وخلال دقائق علمت الجماهير بنص الوثيقة التي كان فحواها .

« قرر الامبراطور والملك أن يتنازل عن العرش ، وسيظل المستشار الامبراطوري في منصبه حتى يمكن تسوية موضوع الوراثة » .

ولم يكن هذا الإعلان مبنيًا على حقيقة . فحتى هذه اللحظة كان القيصر في مقر القيادة يتصور أن حضوره سيؤثر عليها ويتشبث ببقايا ضئيلة من الأمل . ولكن كان من الضروري إذاعة هذا البيان لكي يصبح الأضراب نهاية لمرحلة من الفوضى والقلق ، وليس بداية لمرحلة من الثورة والحرب الأهلية .

وعند الظهر اخترق خمسة من زعماء الاشتراكيين الديمقراطيين يتقدمهم فردريك ايبرت طريقهم نحو دار المستشارية . واستقبلهم المستشار وقادهم نحو حجرة المكتبة وظل الجمع وقوفاً ، فلم يكن المجال يسمح بتريث أو مجاملة . .



وطلب ايبرت « حرصاً على السلام والنظام » تسليم السلطة للحزب مضيقاً  
لأنه قد يدعو بعض أعضاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي (المستقل) وإن  
لم يكن هذا مؤكداً . وسأل المستشار هل يضمن الحزب حفظ النظام فرد ايبرت  
بالإيجاب ومرة أخرى سأل « هل سيعتمد جمعية تأسيسية لتحديد مستقبل ألمانيا »  
فرد بالإيجاب أيضاً . وبعد سؤال أو سؤالين انسحب المستشار ومعاونيه  
لحنية ، ولكنهم عادوا بسرعة ، وسأل المستشار ايبرت هل سيتولى المنصب  
في إطار Within الدستور الملكي فقال .

— أمس كنت أرد بالإيجاب . أما اليوم فعلى أن اتشاور مع زملائي .

— وماذا عن الوصاية .

— لقد فات الوقت . .

وبدون رسميات أو تعهدات سلم المستشار المنصب إلى ايبرت . . وهرع  
شيدمان إلى الرشتاج لينقل النبأ . . ودخل إلى مطعم الرشتاج ليتناول طبقاً  
من حساء البطاطس ولكنه لم يكده يتذوقها حتى قيل له إن جموعاً كثيفة تحيط  
بالرشتاج ، فوضع شيدمان ملعته وجرى صاعداً إلى أعلا . . وفتح شباكاً  
يطل على الجموع — وأعلن أن ايبرت قد تقلد المستشارية ثم صرخ « فلنحى  
الجمهورية الألمانية الكبيرة » وعاد إلى حسائه . .

وهكذا ولدت جمهورية فايمار بين ملعتين من الحساء .

وعندما قدم ايبرت إلى الرشتاج . . وعلم بإعلان شيدمان الجمهورية عنفه  
« لا » ليس من حقه أن تعلن الجمهورية . إن هذا متروك للجمعية الدستورية »  
وهي لفئة توضح خلق ايبرت وحرصه — حتى في مثل هذا المأزق الدقيق —  
بجلى الشرعية، وحقبة الحال أن شيدمان إنما أعلن الجمهورية بنفسه لكي يفوت

على ليبكنشت هذا الإعلان ويجوز للحزب كل ما ينيه هذا الإعلان . فهي  
من هذه الناحية « ضربة معلم » .  
وألقي ايبرت خطابا جاء فيه :

« أيها المواطنون : لقد سلم إلى البرنس ما كس فون بادن الذي ظل حتى  
الآن مستشار الإمبراطورية ، بموافقة زملائه ، المستشاريه .. وأعتزم أن  
أكون وزارة بالاتفاق مع الأحزاب . وستكون حكومة الشعب ، ويكون  
برنامجها تحقيق السلام للشعب الألماني بأسرع ما يمكن . ومنحهم الحرية التي  
اكتسبوها .

أيها المواطنون ..

إني أدعوكم لمساعدتنا في مهمتنا الصعبة فأنتم جميعا تعلمون إلى أى مدى  
تعرض للخطر ، وورد أقوات الشعب . وأنه للواجب الأول على كل مواطن  
أن يظل في الحقل وأن لا يضع العوائق في طريق إنتاج الطعام ونقله . إن  
نقص الطعام يعني الشقاء للجميع فالفقراء سيعانون منه بقسوه ، كما سيتعرض  
العمال الصناعيون لشاق لاحد لها .

أيها المواطنون ..

أرجوكم أن تخلو الشوارع لتكون المدينة مدينة القانون والنظام » .

وفي الساعة الرابعة بعد الظهر اقتحم ليبكنشت السراى الملكية ، وكان  
معظم الحرس قد هجروها بينما بقي عدد ينظر في سأم إلى الجموع . ودخل  
ليبكنشت دون أن يمنعه أحد ووقف في الشرفه التي ألف القيصرون أن يلقى  
خطاباته منها وقال « لقد أشرق فجر الحرية ، ولن يدخل أحد من الموهنزلرن  
مرة أخرى هذا المكان وأنا أعلن الجمهورية الاشتراكية الألمانية التي ستبني

كلى الألمان .. إننا نمد أيدينا إليهم ونندعوهم لكي يتموا الثورة العالمية .  
والذين يريدون منكم هذا فليرفعوا أيديهم وليقسموا » .. فارتفع الحثاف  
إلى غنان السماء ..

وبينما كان ذلك يمضى احتل مجلس الجنود الشكنات العسكرية بينما أوى  
أميل ايشورن - وهو أحد الاشتراكيين المستقلين المتطرفين وكان من قبل  
من الموظفين بسفارة الاتحاد السوفيتى - إلى رأسه البوليس فى ميدان  
الكساندر وأعلن نفسه رئيسا للبوليس وأطلق سراح ٦٥٠ من المسجونين  
ووضع يده على كل الأسلحة الموجودة، كما احتل أنصار ليبك كشت مقر أحد  
الصحف المحافظة . وبدأ اتحاد سبرتا كوس يصدر منها صحيفة « العلم الأحمر »  
وجاءت روزا لوكسمبرج التى أفرج عنها للتو من سجن برسلو لتشرف  
على تحريرها .

وفى المساء شهدت دار المستشارية اللقاء الأخير .. ما بين آخر مستشار  
امبراطورى .. وأول رئيس جمهورى ، وفى هذا الوداع قال « البرنس »  
الذى ينسب إلى أعرق العائلات المالكة .. للتقائى الذى بدأ حياته صبي  
مروجى .

— هرايبرت .. إننى أعهد بالإمبراطورية الألمانية إلى حفظك ليرد هذا  
« لقد فقدت اثنين من ابنائى فى سبيلها » .

وأخذ ايبرت يذرع مكتبه الفسيح الخالى بالدور الثانى من المستشارية عندما  
دق جرس أحد التليفونات - وكان يحمل رقم ٩٨٨ وهو الخط المباشر ما بين  
القيادة العليا والمستشار .. ورفع ايبرت السماعه لسمع صوت « جرونر »  
رئيس أركان حرب المارشال هند نبرج .. وعلم ايبرت أن التيمصر فى قطاره  
الخاص وأنه يعتزم الانجاء إلى هولندا بعد أن يترك المارشال مسئولية قيادة

الجيش وأن المارشال يعتزم إعادة الجيش إلى قواعده بمجرد اتمام الهدنة ..  
 وفهم ايبرت أن الجيش لا يعارض حكومته . وبعد فترة من الصمت سأل  
 ايبرت «وماذا تنتظرون منا» فرد جرونر بان الفيلد مارشال ينتظر من الحكومة  
 أن تؤيده في تعزيز الضبط والربط في الجيش وأن تصان الامدادات  
 والاتصالات .

— وماذا أيضاً ..

— إن الضباط ينتظرون أن تقاوم الحكومة الإمبراطورية البلشفيه . وهم  
 يضعون أنفسهم تحت تصرفها لهذا الغرض .

واطمأن ايبرت .. وطلب من جرونر أن يبلغ شكره للمارشال ..  
 وهكذا عقدت الصفقة ..

---

## الفصل السادس

### المعسكرات تتقطب

كانت الفوضى والعمية التي سادت الأيام الأولى من نوفمبر تنفث شيئا فشيئا لتفسح المجال لنوع من التقطب تتلاقى فيه الأشباه بالأشباه والنظائر بالنظائر وتلتزم أشتات القوى المفتته لتكون معسكرات يتميز كل منها بمنهج معين حتى وإن اقتصر على الخطوط الأساسية العريضة دون التفاصيل الدقيقة .

#### ١ - الجيش « الضباط ومجالس الجنود »

كان هناك الجيش الذي كان رغم الهزيمة والتحلل يمثل قوة كبيرة ليس فحسب لثقله المادى ولكن أيضا لأن الجيش كان يمثل القيم العريقة لالمانيا . وكان هو الذى حقق الوحدة الالمانية بحد السلاح ورأى فيه الشعب حامى الامبراطورية الأمين كما آمن هو بأن هذه الحماية هى رسالته المقدسة .

ولم تلوث الهزيمة الجيش . إذ لم تلصق به شائبة جبن أو فرار أو تفريط ، وكان حتى المدة منتصرا يقف فى الأرض التى غزاها واحتلها ، كانت هزيمته فى حقيقتها نوعا من التوقف اضطر إليه نتيجة لتكالب الأعداء ، ولأن الكثرة تغلب الشجاعة .

وكان ضباط الجيش منذ أن بدأ التنظيم الحديث للجيش الالمانى يخشرون اختيارا خاصا من طبقة النبلاء والملوك . وعندما أريد زيادة الجيش سنة ١٩١٣

وظهر أن هذه الطبقة تعجز عن أن تزود الجيش بالعدد المطلوب من الضباط وفض وزير الحربية أن يفتح الباب أمام عامة الشعب . وكان هناك تقليد يرفض أى فرد له ميول اشتراكية من الانتظام فى سلك الضباط ، فقد قيل إن الاشتراكيين تنقصهم المؤهلات اللازمة للضباط .

وكان هذا صحيحا من وجهة نظر القيادة البروسية التى كانت تستلهم تقاليد البيئة الاقطاعية وتجعل أولى واجبات الضباط الولاء والتفانى فى خدمة الدولة . وأولى واجبات الجنود الطاعة العمياء التى توجدها نظم صارمة من الضبط والربط ، وكانت هذه التقاليد تحقق التكامل المطلوب للجيش : الولاء من الضباط والطاعة من الجنود ، هذا التكامل الذى وصفه تاسيتوس من أيام الامبراطورية الرومانية وصفا دقيقا وموجزا عندما قال « يقاتل الزعيم فى سبيل النصر ويقاتل الأتباع فى سبيل الزعيم » وبهذا التكامل استطاع الجيش الألمانى أن يتحمل ضغط الحرب وتضحياتها طوال أربع سنوات .

وحق النهاية استطاع الضباط أن يحتفظوا بالضبط والربط فى الجيوش الميدانية رغم الهزيمة . بحيث تم الانسحاب بطريقة أثارت الإعجاب . فكانت الفرق تسير بنظام تحت إمرة قوادها فى الجانب الأيسر من طريق الانسحاب الطويل بينما خصص الجانب الأيمن للمدنيين . ولم تقف مسيرة الانسحاب حتى بالليل . وحددت الأوقات والأماكن ومواعيد الراحة ... الخ بكل دقة . وكانت طلائع الحلفاء لا تكاد تلتحق بهم لتأخذ الأسلحة التى اتفق على تسليمها وكان الألمان يتركونها فى أكوام على جانب الطريق .

وعندما يقارن هذا بما حدث فى روسيا يتضح الفرق الكبير فى الوضع بين الدولتين ، فقد كان الجنود الروس يفرون من الميدان والحرب قائمة فى حالة من الفوضى والذعر والتمزق والتدهور نتيجة للهزيمة والنزوى الإدارية ورداءة الأسلحة والأطعمة وما أن اندلعت شرارة الثورة حتى فشكوا بضباطهم . . . بينما كان

الالمان يسيرون بعد الهدنة كأنهم في استعراض بخطوات الاوزة . ونحت  
الاعلام وعلى دقات الطبول يتقدمهم ضباطهم .

إن مثل هذا الانسحاب الذى تم عن قيادة خالديه<sup>(١)</sup> جعل الالمان يستقبلون  
الجنود ككرايين وليسوا كفراريين ورفعوا لهم أقواس النصر التى كتبت  
عليها عبارات « التى قواتنا التى لا تقهر » « إلى الجنود المظفرين » .

وكانت صفوة الضباط الالمان . هم الضباط البروسيون الذين كانوا يتمون  
إلى أعرق العائلات الارستقراطية ، ويتوارث أبناؤها الخدمة العسكرية جيلا  
بعد جيل ، وهناك أسرات عديدة كان أبناؤها يحملون السيف لأربعة أو خمسة  
أجيال متوالية ودون انقطاع . وقد تحدث ، مؤلف « قطار برلين الأخير » عن  
آخر جيل من أجيال « الجونكر » ووصف بعض خلائقهم فقال .

« إن الجبرالات البروسيين رجال يروق النظر إليهم ، فهم من الناحية  
الجسدية يملفون الغاية من الوسامة . إن فون بوك وفون ليب<sup>(٢)</sup> هما اليوم القوام  
الذى كان لهما عندما كانا فى السادسة عشر رغم أنهما قاربا نهاية السن المادى  
لحياة الفرد ، وهما يتمتعان بحيوية الشباب ، إنهما لا يشيخان لأن هذا يجعل الحياة  
غير نظامية ، وهو أمر لا يتمشى مع الشريعة البروسية . إنهم يبدأون الحياة  
بالميلاد ، ويواصلون ذلك ببساطة دون أى تغيير حتى يفجأهم الموت ، وقبل أن  
يفجأ الموت المارشال فون ريشنو بعامين كان يسبح عاريا فى الفستولا « وتذكر  
الاشاعة أنه كان يحمل مسدسه بين أسنانه » فى مقدمة فرقته . وقبل أن يموت  
بعام كان يمارس فى الصباح تمريناته بجانب ما كس شيملنيج فى التير جاردن  
وفى المساء كان يشترك فى سباق ضد فريق أولمبي فى العشرين من عمره .  
وبما أن شىء يمكن أن يثير إعجابهم ، فوجوههم جامدة ، وهذا الجنود لا يتغير

---

(١) نسبة إلى خالد بن الوليد والى حاربته بالمسلمين فى مؤتة وتلقب بالنبى لهم الكرايين .

إلا في حالتين : حالة الإصرار المستميت ، وحالة البسمة العابرة . الأولى عند أداء الواجبات والثانية في الحياة الاجتماعية عند تناول الشاي أو المآهب . وقد يصور ذلك « لودندورف » الذي كان يسير بالملابس العسكرية الكاملة الجنرال عبر المانيا النازية ، عندما كانت الجموع الهائجة تمزق شاربات الملازمين ، ما كنا هادئاً ، كما لو كان ذاهباً إلى حفلة شاي . وفي إحدى المرات عندما كانت معركة فرنسا في أيامها الأخيرة ، اجتزت ميدان المركة رفقة ضابط بروسي شاب ، فعلا الوحل حداثي ، وضربت الأسلاك الشائكة سروالي ، وفقدت قبعتي . وعندما وصلنا إلى ستراسبورج في المساء لم تكن شائبة واحدة لوعشاء الرحلة تعلق بدليلي ، فحذاءه يلعب ، وكل شعرة في مفرقه في مكانها المحدة بالضبط !

ومن شراهم حدث ولا حرج ! إنهم يعبون الخمر عباً . وخلال رحلة سبعة أيام عبر خط ماجينو مع الكابتن سومرفيلد الملحق العسكري بوزاره الدعاية وأحد الضباط البروسيين - كان يشرب بلا انقطاع ليلاً ونهاراً . وكان يشرب كل شيء ، وفي كل وقت . وقد حاولت أن أسايره ونجحت خلال الثلاث عشرة ساعة الأولى . ولكني بعدها لم أستطع ، وقنعت بأن آخذ مكافئ على المائدة واشاهده وهو يجرع عدداً من زجاجات الخمر المتنوعة . وفيما بعد أخبرني أن الضباط البروسيين يمزجون على الشراب كجزء من تدريبهم العسكري ، وأنه عندما كان في السابعة عشر كان يطلب منه أن يجلس منتصباً إلى جانب رؤسائه ويشرب معهم كوباً بعد آخر . وفي النهاية كان يؤمر بالوقوف في وضع « الانتباه » وأن يجيب على أسئلة ، فلذا أخطأ أو تلمع هوقب . وبعد هذا التدريب شيئاً هاماً ، لأن رؤية ضابط يترنح سكرأ يسىء إلى الضبط والربط وكرامة الضباط . والاحتفاظ بالكرامة تحبب كل الظروف ، وفي كل الأوقات جزء لا يتجزء من الشرع البروسية .



وإنه يبدو أنهم ليسوا كائنات إنسانية ، وأن المشاعر والتوازن الإنسانية محرمة عليهم بحكم مهنتهم البروسية . إنهم آلات تتحرك بالانعكاسات ، ولا تدرى ما التفكير باستثناء ما يتعلق بالمعارك وكميات القتاد والأسلحة والذخائر ، وهذا ما يؤدونه بكفاية ، أما التفكير فيما وراء ذلك فهو محرم عليهم ، والتاريخ بالنسبة لهم ثابت ومضمونه محدد ، وهو يعنى الوطن والحكومة التى تختارها وتعينها طبقتهم ، فإذا أنتخبت الجماهير الحكومة ، فإنها لا تصبح حكومة الوطن والحسن لديهم هو ما يتفق مع الجرمانى ، والسيء هو الغريب والشعبى . وهم يتساحون فى الخطيئات « الرجالية » كالفسق ، والاحتفاظ بعشيقه ، والشراب ، والقمار ولكنهم يبتعدون عن أى اتصال بمن هم دونهم ، وهناك فكرتان يؤمنان بهما إيمان العقيدة المنزلة هما الشجاعة والواجب . فهم لا يتساءلون أبداً عن السبب ولكنهم ينفذون الأوامر ، أو يموتون دونها فى شجاعة . وهم فى وقت واحد رومانىكيون كفرسان القرون الوسطى ، وممقوتون كقطاع الطرق ، وهم بحكم مهنتهم مدبرون ، يضيقون بالسلام واعداء مطبوعون لكل ما أحرزه العصر من بناء للديمقراطية .

وتبدأ ، مؤلف « قطار برلين الأخير » بأنهم فصيلة مقضى عايلها فهم فى الحقيقة « حقارية » اجتماعية لا مستقبل لها ، سواء انهزم هنار أو انتصر فلوانهزم فسيمزومون معه ، ولو انتصر فسيظلون لفتوة . ولكن النصر الأخير سيكون لرجال ( الجستار ) وهو حكم صائب . ولكن كان لابد من هزيمة الحرب العالمية الثانية ، ومعارك الجبهة الشرقية الضروس لى يمكن طلى صفحة العسكرية البروسية ، أما فى الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الأولى ، فلم يكن ألوهن قد تطرق إليها بعد .

وكان الضباط يكتنون البغض والكراهة لكل الإنجازات الاشتراكية وقبل

تحمّلوا ايبرت وزملاءه على مضض ، وباعتبارهم أهون الشرين وأنهم الحاجز دون الطوفان . ولم تكن أسباب هذه العداوة مقصورة على الاختلاف - أو قل التضاد - في فهم الحياة والأسس التي يقوم عليها المجتمع ، إذ أضيف إلى هذا العامل الموضوعي عامل ذاتي هو التهديد بالقضاء على المنزلة المميزة لهم كضباط ، وملاك ، أو حتى حرمانهم من لقمة العيش وإزاهلهم إلى درك الاستجداء المهين . ولم يكن في هذا التصور مبالغة . فإن أحداث الثورة البلشفية وما أو قعته بالنبلاء والضباط القيصريين من قتل أو تشريد جعل الناجين منهم يصبحون خدما أو سقاة في فنادق ومقاهى باريس وغيرها . كانت حية ومائلة في الأذهان وتمثل نوعا من السكابوس المزعج يجعل الضباط الألمان يبدأون الاشتراكية بالعداوة تطبيقا لأول درس يتعلمه المسكريون في كل العالم : أن الهجوم أفضل وسيلة للدفاع .

\* \* \*

وأظهرت الثورة قوة جديدة في الجيش هي ( مجالس الجنود ) التي أخذت تنظم الجنود وتبعدم عن سيطرة الضباط . وكان الاتحاد السوفيتي قد استطاع أن يوصل دعايته إلى الخطوط الألمانية والشككنات بطرق عديدة كانت أبرزها ( المؤاخاة ) التي أصر عليها لينين قبيل ( برست ليتوفيسك ) وسلم الألمان بها في حدود تصوروها أنها لن توهن الضبط والربط ولكنها تجاوزت ما تصوره بكثير . وقد تأثر جنود معظم الفرق التي سحبت من الجبهة الشرقية عند شن هجوم المارن بالدعايات البلشفية بدرجات متفاوتة ، فضلا عن الدعاة المحترفين والمنظمين الذين درّبهم «جوف» بمساعدة المجموعات اليسارية والمعونات المالية التي مكنتهم من العمل . ونتيجة لهذه العوامل كلها تكونت في معظم المدن ( مجالس جنود ) مارست قدرا من السطة والهيمنة على الشؤون العامة . وفي لحظات الخماس والمد الثوري كان الجنود يهاجمون الضباط ويجردونهم من

علاماتهم وأوسمتهم ، ولكن قلما جاوز الأمر ذلك .  
ولسكن مجالس الجنود على أهميتها وخطورتها الكبرى خضعت لعدد كبير من وجوه النقص قللت من فعاليتها واودت بها بعد مضي أقل من عامين . وكان من أبرز وجوه النقص عدم توفر الوعي السياسي الثوري لدى أعضائها ، كانت الثورة بالنسبة لهم العودة إلى الحياة المدنية واستئنافها بأسرع ما يمكن من الوقت وبأقل ما يمكن من التضحيات ، ومن هنا فقد تجاوزوا مع فكرة الدولة في عقد الجمعية الوطنية - ولم تسكد تعقد حتى ساءوا لها المسؤولية الثقيلة التي لم يكونوا لها أ كفاء ولم يقدروها قدرها : مسؤولية السلطة .

وكان يمكن أن يعوض هذا النقص لو رزقت المجالس قيادة ثورية قادرة وناطقة ، ففي الفترات التلميلية التي خضعت فيها مجالس الجنود لقيادات عمالية أو اشتراكية واعية ، تخلوا عن سلايتهم ، ولكن هذا لم يحدث إلا لماما . ولو رزقت مجالس الجنود زعما قديرا مثل تروتسكي لاختلف الأمر حتى وإن كانت النتيجة الأخيرة بالنسبة للمجالس نفسها واحدة . ففي المانيا سادت المجالس السلطة مخنرة ومتطوعة إلى الحزب . وفي روسيا سلب الحزب السلطة من المجالس نتيجة لأن رجلها القدير تروتسكي كان في الوقت نفسه هو رجل الحزب . وقد يصور موقف مجالس الجنود من قيادتها العسكرية ما حدث عندما تكون بالقيادة العليا في سبام مجلس جنود ، ففي ١٠ نوفمبر سنة ١٨ تقدم إلى القيادة سبعة جنود باعتبارهم اللجنة التنفيذية لقيادة مجالس الجنود طالبين الاشتراك في إدارة عملية الانسحاب والتثبت من أن القيادة لا توجه الجيش ضد الثورة . واستقبل هذا الوفد ضابط أعاد لذلك فتحدث عن روح الزمالة التي تجمع ما بين الجنود والضباط وذكر اسم هندنبرج وأنه وضع نفسه في خدمة الحكومة . ثم اقتادهم إلى حجرة الخراط حيث كانت توجد خريطة بطول الحائط موضح عليها الطرق والكبارى ، وخطوط السكك الحديدية ومحطاتها

وتتقابل فيها الخطوط الزرقاء والحمراء والخضراء في اختناقات ضيقة . وتحدث الضباط عن هذه كلها بيسر ومهولة أدهشت الجنود . وسأل الوفد عما إذا كان على استعداد لإدارة عملية الانسحاب؟ إن الأوامر يجب أن تصدر وأن يصدق عليها بسرعة لأن أى تأخير بعد انتهاء كالاتفاق ويضعهم تحت رحمة الحلفاء ، ورد الجنود مبهورين بأن هذا يمكن أن يترك للضباط وأن المجلس يؤيد الضباط . واستطاع الضباط أن يحمل الوفد على إصدار بيان يدعو إلى تأييد قيادة الجيش .

وأغرى هذا النجاح وما اتسمت به عملية الانسحاب من كفاية ودقة القيادة العليا بأن تعالج قضية « مجالس الجنود » معالجة جذرية . فقرر جروزر عقد مؤتمر مجالس الجنود فى الجيش الميدانى فى أول ديسمبر فى امن Ems بنية اتخاذ قرار كان قد أعده لسكرتير سلطات هذه المجالس وحل كل التشكيلات العسكرية وتدعيم سلطة الضباط معتمدا على اسم هند نرج وتأثيره على الجنود . ويعتقدا أن الثورة نزوة عارضة .

وعندما انعقد المجلس مضى كل شئ فيه طبقا للخطة التى رسمها جروزر ، فالتقيت خطب تندد بتهور مجالس العمال والجنود فى برلين وقدم القرار الذى وضعته القيادة العامة وكاد أن يجاز عندما قدم اميل بارت رئيس المندوبين الثوريين وألقى خطابا ملتها ندد فيه بسداجة الجنود التى مكنت الضباط من تخديرهم .

وانكشفت مناورة القيادة وأفلت الزمام من يدها وقرر المجلس حق الجنود فى رفع العلم الأحمر ، وأن مجالس الجنود هى الممثلة القائمة دون منازع لإرادة الشعب ، وأنها أداة السلطة السياسية .

ولكن هذا الفشل لم يثن القيادة العليا ، فوضعت خطة أخرى ، للتضاء على العناصر الثورية بأسرها فى برلين ، سواء منها الجنود أو العمال ، فعندما سرحت

الفرق ، وجهت القيادة العليا تسع فرق من فرق المشاة الموثوق بهم ليعسكروا في أرباض برلين ، جنوبا وشرقا وغربا . كما دربت وحدات خاصة على قتال الشوارع . ووضعت القيادة العليا خططها على أساس أن يلي دخول القوات مباشرة عمل حاسم لتجريد السكان من الأسلحة والقبض على العناصر المشاغبة والثورية وإعادة السلطة والنظام في الجيش .

بيد أن المستشار إيبرت رفض هذه الخطة رفضا باتا . وكان قد حذر جرونر قبل أن يعقد مؤتمر مجالس الجنود ، وأوضح له مخاطر ذلك وكان يستطيع أن يتساح في عقد المؤتمر ولسكنه لم يكن ليقبل أن تطلق تسع فرق من المشاة على سكان برلين فضلا عن أنه كان يعرف مدى تعقد الموقف فسلطانه محدودة .. وزملاؤه لا يشقون في القيادة العليا . ومجالس العمال والجنود لن تستسلم بسهولة . ولهذا طلب إيبرت للمرة الأولى أن يذعن الجيش لأوامر الحكومة . فلا يعود إلى برلين إلا الجنود الذين جندوا منها .. ولهم أن يحملوا الأسلحة ولكن دون ذخائر .. وحاولت القيادة العليا التلصص ودفعت بهندنبرج لأن يرسل لايبرت خطابا يناشده الموافقة على إلغاء مجالس الجنود للضباط حتى يستقر الضبط والربط .

ولكن إيبرت لم يكن يستطيع الموافقة على هذا حتى لو أراد ، وأخيرا أمكن الوصول إلى تسوية بحيث تتولى السلطات المدنية الاشراف على تجريد المدنيين من الأسلحة ويسمح للفرق التسعة بالدخول إلى برلين محتفظة بالذخائر على أن لا تحضر معها دبابات أو مدافع رشاشة ، وابتهجت القيادة العليا بذلك وأوكلت قيادة الفرق إلى جنرال صارم هو فون ليكيس Von Lequis وزودته بتعليمات سرية للعمل بما يراه لازما - حتى لو تعارض ذلك مع أوامر الحكومة أو وزارة الحربية .

ودخلت القوات بنظام تام وفي مقدمتها الجنرال ليكيس وأركان حربه على

ظهور الجياد واضعين كل نياشينهم ومنبتين في خوذاتهم طاقات من أوراق السنديان ترمز للاخلاص والشجاعة ، ولكن الاستقبال كان قاترا ووقفت مجموعات من فرقة « بحارة الشعب » التي تمثل أكثر العناصر ثورية تحدى في شك وامتناء . خاصة وقد لاحظت المدافع الرشاشة مخبأة في العربات تحتم أكداس من أوراق السنديان .

ولم تكدم تمضي ثلاثة أيام حتى « تبخر » الجيش على حد تعبـير أحد المؤرخين<sup>(١)</sup> فكل الجنود عادوا إلى أهلهم دون إذن ، وظلوا هناك . وهجرت الشكنات ونبتت كل القواعد العسكرية . وبدلا من أن يجرد الجيش المدنيين من السلاح فقد جرد المدنيون الجيش من السلاح .

وهكذا فشلت فشلا ذريعا هذه المحاولة أيضا ودل ذلك - بما لا يدع شكاً - على أن موجة الثورة يمكن أن تبتلع الجيش وتذيب كل نظم الضبط والربط بحيث يعسر استخدامه كقوة منظمة في ضرب الثورة وأنه إذا أريد هذا فلا بد من قوات محدودة العدد تعزل عن البيئة العامة للثورة وتغذى بفلسفة ودعاية مضادة تصل من القوة والموضوعية إلى مثل دعاية الثورة .

فإذا كانت نظم الضبط والربط قد تهاوت بين الجنود فإن النواة القوية الصلبة للضباط لم تتأثر .. على العكس لقد زادت الأحداث الأخيرة قوة وأشعرتها الخطر الذي يهددها في الصميم ودفعها ذلك لأن تعمل بوسائل جديدة .

وتمثل لنا هيئة الضباط ومجالس الجنود قادة دون جيش وجيشاً دون قادة . وقد استطاع القادة أن يكونوا جيشاً ولم يستطع الجيش أن يبرز قادة .. وانتصر القادة في النهاية .

(١) The Kings Depart p. 235.

## ٢ — البرجوازية

عندما قامت الحرب كانت البرجوازية من رجال صناعة ومهن وأساتذة جامعات .. الخ هي نواة مجتمع الامبراطورية وقاعدة تقدمه .. فكان رجال الصناعة الصاعدة يمثلون القوة الاقتصادية للبلاد والأمل في أن تتجاوز ألمانيا ما بلغتته عدوتها اللدود بريطانيا .. وكانت صناعة الحديد والآلات والأصباغ والكيمياويات تفوق بالفعل مثيلاتها في بريطانيا . وعندما قامت الحرب عززت الصناعة . فلما حدثت الهزيمة توقفت وفقدت بعض كيائها الرسمي .

وكان المأزق الذي وقع فيه الاشتراكيون الديمقراطيون ( الأغلبية ) أنهم لم يكونوا متحمسين لفكرة تأميم الصناعة التي اقترنت بالبلشفية والفوضى أكثر مما اقترنت بتلك الصورة السمحة للاشتراكية التي تعمل فيها النقابات معززة بالحزب والتشريع لتحقيق مكاسب للعمال شيئاً فشيئاً ، وكانت هذه الصورة الأخيرة هي ما يتفق مع الطابع السلمي والتدريجي والنظامي للاشتراكية الألمانية . كما أن جزءاً كبيراً من هذا الفهم يعود إلى ما تصوره الاشتراكيون الديمقراطيون من أن بلوغ الصناعة والإنتاج درجة عالية من التنظيم والتركيز إنما يمثل بتعبير رودلف هلفندج في مؤتمر الحزب سنة ١٩٢٧ « احلال المبدأ الاجتماعي للإنتاج المخطط محل المنافسة الحرة وأن مهمة هذا الجيل هي أن تترجم هذا الاقتصاد الذي نظمه وأداره الرأسماليون إلى اقتصاد تديره الدولة الديمقراطية » ولم تكن صورة هذه « الترجمة » واضحة حتى ١٩٢٧ ومن هنا فقد وفقت جمهورية فايمار موقفا « ديمقراطيا » من الرأسمالية عندما كانت السلطة في يدها ، وتستطيع القضاء عليها وتصورت أن دورها ليس القضاء عليها ولكن تحويلها من إدارة رأسمالية إلى إدارة ديمقراطية .. وكان هذا الوهم يشبه وهم الشيوعيين عن أنه لا بد من وصول هتلر إلى السلطة . حتى يأتي الدور التاريخي للشيوعية .

وبهذه الطريقة أعطيت الرأسمالية «فترة السماح» التي مكنتها من أن تستعيد صرا كرها وأصبح كل حديث عن التأميم مستعدا ، وشيئا فشيئا أصبح الحديث عن العدالة ثقيلًا ، ومع مضي الوقت استعادت الرأسمالية قوتها وتسكرت للجمهورية ونسكلت بالنقابات .

وكان للقضاة أهمية كبيرة في المجتمع الألماني وقاموا بدور بارز في مقاومة الجمهورية واستغلوا صفاتهم وسلطاتهم والثغرات التي لا يخلو منها قانون في ذلك . ودأب قضاة المحاكم الجنائية على تبرئة العسكريين والرجعيين وإدانة الشيوعيين والاشتراكيين .

وكان مما يفاقم من أثر ذلك للطبيعة التعاقدية للجمهورية التي تطلبت الالتجاء إلى القضاء عند الاختلاف وفكرة زعماء الجمهورية عن القانون والنظام التي جعلتهم يحكمون القضاء في عدد كبير من المناسبات كإهانة علم الجمهورية أو إهانة رئيس الجمهورية «ايبرت» وفي معظم هذه الحالات خذلهم القضاء ، وجعل من المحاكم منابر لدعاية خصومهم .

وروى و. س. ويتنسكي W. S. Woytinsky أن بعض الفلاحين وصف ألوان العلم الجمهوري بأنها روث أسود وأحمر وأصفر ورفضت الحكومة قضايا على من كانوا يستخدمون هذه الألفاظ في الخطب العامة وعرض محامو الدفاع علم الجمهورية في قاعة المحكمة وأوضحوا أن الشريط الذي يدعى رسميًا «ذهبيًا» لم يكن من لون ذهبي ولكنه بدلا من ذلك كان أصفر مثل روث البهايم ، وفي بعض الحالات انحازت المحكمة إلى جانب الدفاع مستغلة القضية لاذلال الجمهورية وحدث هذا بالنسبة لايبرت نفسه . . وهو رئيس الجمهورية ورمزها .

ولم يتعاطف المثقفون سواء كانوا أساتذة جامعات أو طلبة مع الجمهوريه الناشئة أو الفكر الاشتراكي ، فالنشأة التاريخية لألمانيا جعلت - كما أشرنا -



الفكر الألماني يتجه اتجاها وطنياً وليس اشتراكياً ولم يظهر في ألمانيا مفكرون شعبيون كالكتاب الروس العظيم بلنسكى وشيرنفسكى وتولستوى وتورجنيف وديستوفسكى وجوجول وجوركى الخ .. من الذين أبرزوا قضية الشعب المستعبد المحروم وعرضوا صورة لمشاعر العمال والفلاحين وعالجوا قضية العدالة الاجتماعية بحيث مهدوا الجو للدعوات الاشتراكية والشعبية وألهبوا نخيلة شباب الجامعات وأبناء النبلاء .. على العكس لقد كان عمالقة الفكر الألماني هم كانت ونيته و فيشته وهيجل وتلك السلسلة من المؤرخين الذين مجدوا الجنس الألماني وحضارته وخصائصه . وقد كان من جوته عملاقاً من عمالقة الفكر الإنساني وكان جديراً بين الكتاب الألمان بمنصب الصدارة والראسة ولكنه لم يثر نخيلة المثقفين ، وفي سنة ١٩٣٢ عندما احتفل بذكرى مرور مائة عام على وفاته لم يكن الاحتفال بالدرجة الأولى باعتباره شاعراً أو نبياً ولكن باعتباره أفيونا ولم تجد الدعوة لإقامة تمثال له ريش هينه وهو الذي يلي جوته كشاعر إنساني من يستجيب لها على امتداد ٧٥ عاماً .

وقد يقال إن ماركس كان ألمانيا أيضاً . وأنه الابن البكر لهيجل ولكن ماركس كان يهودياً بالأصل . وكان ابناً عاقاً لهيجل لأنه استخدم أسلوبه ليقلب فكرته ، وقد نبذ جنسيته البروسية وعاش في بريطانيا .. ومن هنا فن العسير أن نعتبره «ألمانيا» وقد اعتبره المفكر الألماني «أوزفيلد شبنجلر» «اشتراكياً إنجليزياً» ودعا إلى انقاذ الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني من نفوذه لأن «حزب بيبيل يتضمن قيماً بروسية أصيلة مضادة للماركسية كالضبط والالتزام والاستعداد للتضحية حتى الموت في سبيل فكرة سامية» ورأى شبنجلر أن الاشتراكية والبروسية معا يجب أن يقف ضد الماركسية التي تمثل بريطانيا بنزعتها المادية<sup>(١)</sup> .

(1) Weimer Culture by Peter Gay p. 90.

ولم تحدث الجمهورية تغييرا كبيرا في نفسية أو ذهنية المفكرين أو نظم الجامعات وظل المؤرخون الألمان القدامى هم الذين يلمون جيل فايمار وقد تحدث الكاتب فرانز نيومان Franz Neumann عن بيئة بعض الجامعات الألمانية فترة الحرب .

عندما جئت في ربيع ١٩١٨ إلى جامعة برسلو ، نبذ أبرز اقتصادي فيها في محاضراته الأولى قرار الصلح لسنة ١٧ ( الصلح دون ضم أو تعويض ) وطالب بضم لونيغي وبري Longwy and Brie وتحويل بلجيكا إلى محمية ألمانية وأن تستعمر ألمانيا مناطق واسعة من أوروبا الشرقية وما وراء البحار ، وتنبأ أستاذ الآداب بالانتصار الألماني من واقع تصوره لفلسفة كانت ومثله . وعندما ذهب إلى ليزج في أواخر عام ١٩١٨ . رأى أستاذ الاقتصاد أن من الضروري تأييد شروط اتحاد الجامعة الألمانية Pan German Union وأركان الحرب، بينما استخلص أستاذ التاريخ أن الديمقراطية في جوهرها صورة غير ألمانية للتنظيم وأنها إنما تناسب الانجلو ساكسون الماديين ولكنها تضاد قيم الجنس الألماني ، وعندما انتقلت إلى روستوك في صيف ١٩١٩ كان على أن أنظم الطلبة لمقاومة الدعوة ضد السامية التي كان يقوم بها علانية الأساتذة ، وأخيرا عندما حلت في فرانكفورت كانت المهمة الأولى التي جابهتني هي المساعدة في حماية أستاذ جامعي اشتراكي - عيني حديثاً - من الهجوم السياسي والبدني الذي كان يقوم به طلبة يؤيدهم سرا عدد كبير من الأساتذة (١) .

وفي ١٥ نوفمبر سنة ١٩٢٢ حضر الكونت كسلر احتفالا بالذكري الستين لميلاد جرهاردت هوبمان في جامعة برلين فوصف في مذكراته كيف أن أستاذاً الآداب يدعى بترمن حاول أن يشن المسئولين في الجامعة عن دعوة ابهرت

(1) Ibid p. 46

«حيث أنه من غير المستساغ للجامعة أن يقف أمامها الرئيس الجمهورى للدولة»  
وعندما رفض المسؤولون طلب بترسن أن لا يدعى «لوب» على الأقل حيث أنه  
« من الكثير جدا أن يدعى اثنان من الاشتراكيين الديمقراطيين »<sup>(١)</sup>.

### ٣ — اليسار

كانت التطورات التي سبقت الحرب وعاصرتها تنعكس على معسكر اليسار  
وتجرى تغييرات جسيمة في مواقع مجموعاته ، فالحزب الاشتراكي الديمقراطي  
الذى تعرض لمحنة التنقيحية أولا ، ثم تأييد الحرب بعد ذلك أصبح يمثل يمين  
اليسار ، وفي الوقت الذى لم تكن البرجوازية والعسكريه لنبرئة من « وصمة »  
الاشتراكية فقد كانت بعض المجموعات الاشتراكية تلتصق به وصمة العمالة  
للعسكريين والبرجوازية .

والحقيقة أن تأييد الحزب الاشتراكي الديمقراطي للحرب صدم بعض  
الاشتراكيين الماركسيين صدمة لم يفوقوا منها ، ووضعهم على طريق الالعودة  
بالنسبة للحزب بينما كان أثره أخف بالنسبة لآخرين . ولكن حتى بالنسبة لهذا  
الفريق ، فقد كان من القوة بحيث يجعلها تنشق عن الحزب .. وإن قدر لها أن  
تعود ، ومثلت الفريق الأول روزا لوكسمبرج وكارل ليبكنشت واتباعهما ،  
ومثله كذلك المندوبون الثوريون « بينما مثل الفريق الثانى تلك المجموعة التي  
عارضت التأييد ولكنها خضعت لإرادة الأغلبية تمسكا منها بقواعد الالتزام  
الحزبى .. وكان على رأسها رئيس الهيئة البرلمانية للحزب « جو هازه » الذى  
كان عليه بحكم صفته أن يقرأ البيان المشهور يوم ٤ أغسطس . حتى وإن لم يكن  
مؤمنا به .

وعندما اتضح أن الطبيعة العدوانية للحرب، وتكرر طلب الحكومة لاعتبارات مالية دون أن يستطيع الحزب الاشتراكي الديمقراطي الرجوع عن موقفه لم يعد مناص من أن تنشق هذه الجماعة في الفترة ما بين مارس ويونيو ١٩١٧ وأن تكون الحزب الاشتراكي الديمقراطي U S P D بزعامه كلوتسكي وهازه وبيرنشتين وعدد آخر من أبرز أعضاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي.

وكانت الميزة التي اتسم بها الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل هي أنه في الوقت الذي لم يتجهم لألمانيته ولم يتجاهل الضرورات التي كانت تفرض نفسها، فقد كان لديه من الشجاعة ما يجعله يحاول الملائمة ما بين التطبيق والتنظير. دون أن يسلم قياده لواحد منها على حساب الآخر... وكان هذا دوراً شاقاً ولدرجة جعلت مدة قيام الحزب به محدودة وتمزق بعدها أشلاء.

وعندما تكون الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل جذب الأنظار وأسرعت المجموعات التي عارضت الحرب بالإنضمام إليه حتى وإن كانت موافقها أكثر يسارية وتشدداً من موقف الحزب وكانت أبرز هذه المجموعات مجموعة المندوبين الثوريين ومجموعة سبارتاكوس.

وكانت مجموعة « المندوبين الثوريين » تتكون من نواة صلبة من مهرة عمال المعادن بپرلين. وقد قاوموا الحرب. وكانوا هم الذين نظموا الإضراب السياسي المدوي في يناير سنة ١٨ وثاروا على القيادات النقابية العليا واستهدفوا تحويل النقابات من هيئات مهنية خاصة إلى تشكيلات سياسية وثورية وقد تحدث عنهم رئيسهم « ريتشارد مولر » فقال: « خلال الحرب لم تأت القوة الدافعة لحركة الجماهير من المستويات الدنيا للطبقة العاملة، التي كانت تعاني أكثر من غيرها آثار الحرب، ولكنها جاءت من المستويات العليا والعمال الفنيين. وذلك القسم الذي يطلق عليه إرستقراطية الطبقة العاملة، والذي

لأنهم ظلوا بأنه شل الثورة الألمانية<sup>(١)</sup>.

وكان من الممكن لهؤلاء المندوبين الثوريين أن يكونوا هم السوفيت الألماني الذي يصبح العمود الفقري للثورة، والواقع أنهم وضعوا الخطط للثورة فعلاً وناقشوا في عدد من الاجتماعات النقاط التفصيلية وحددوا بعد مناقشات حامية يوم ١٢ نوفمبر للقيام بالثورة. ولكن تمرد بحاره كيل يوم ٣ نوفمبر غير الخطط، وبدلاً من أن تبدأ الثورة في برلين وتنقل منها إلى بقية المدن، والموانئ الألمانية. فقد قامت في كيل وامتدت منها إلى بقية المدن والموانئ وقامت في برلين يوم ٩ نوفمبر متأخرة أسبوعاً عن كيل، وسابقتها بيومين للميعاد والذي حدده المندوبون الثوريون.

وكان النقص الأساسي في المندوبين الثوريين هو - كما ذكرنا - إقتصارهم على برلين وعدم إمتدادهم إلى غيرها، وأنهم كانوا يفتقدون النظرية التي يقيمون عليها حركتهم أو يقبسون منها برنامجهم. كانوا جمهورياً دون نظرية بينما كانت مجموعة سبرتا كوس نظرية دون جمهور، وكان يجب أن يتلاحم هذان ليستكملا هذا النقص وبذلك بالفعل المحاولات لتحقيق ذلك وكان يجب لنجاح مثل هذا المسعى وصهر المجموعتين أن يوجد الزعيم القوي الذي يضع الخطط ويتواءم مع الأحداث، وكانت المجموعتان تفتقدان هذا الزعيم. حقيقة أن روزا لوكسمبرج كانت عبقرية في التنظير ووضع البرامج والخطط ولكنها لم تكن لتستطيع دائماً دفع الجماهير لتحقيقها وتلك قيادتها وكبح جماحها.. وكانت بالإضافة التي قدمتها للثورة وللشكر الإشتراكي هي وضع برنامج تلك المجموعة التي اختارت لها اسم سبرتا كوس..

ولم تكن روزا هي الأولى التي بعثت اسم سبارتا كوس من ذكرى الصراع الروماني القديم فقد سبقها إلى ذلك الكاتب الألماني «لسنج»

ولكن لسنج جعل من سبارتا كوس بطلا لرواية أما روزا فقد بعثته من جديد كما كان : علما على هيئة قائمة بالفعل قد تكون أقل عدداً من جيش سبارتا كوس ولكنها تزيد عنه علما وثقافة وتقوم بدور درامى وديناميكي تسيل فيه الدماء .

وقد أشرنا في فصل سابق إلى إصدار روزا لوكسمبرج للرسائل التي حملت اسم سبارتا كوس « ومجلة الأترناسيونال » الأمر الذي أدى إلى مصادرتها واعتقال روزا لوكسمبرج . . وقد آن الأوان للحديث عن هذه المفكرة النابغة بما يسمح به المجال .

ولدت روزا سنة ١٨٧٠ في بولندا الروسية من عائلة يهودية مثقفة واعتنقت الأفكار الثورية عندما كانت تلميذة في المدرسة العالية في وارسو حيث كونت مجموعة صغيرة لمقاومة الطغيان الروسى . ولكي تنفادى السجن هاجرت وهي في الثامنة عشر إلى سويسرا . . وأتمت هناك دراستها بتفوق جذب الانتباه ، وعندما نالت درجة الدكتوراه في الفلسفة في الثالثة والعشرين نذرت نفسها للعمل في سبيل الطبقة العاملة وبرزت لأول مرة في مؤتمر زيورخ ١٨٩٣ للدولية الثانية ، ثم ذهبت إلى ألمانيا كداعية ومدرسة ومؤلفة . وأضفى عليها زواج شكلى الجنسية الألمانية بحيث أمنت إخراجها من ألمانيا ، وعملت مدة كرئيسة تحرير إحدى الصحف الألمانية . .

وعند إعلان الحرب سجنحت لمدة ثلاث سنوات وأربعة شهور في مختلف السجون الألمانية ، ولكنها كانت دائماً الكتاتبة من سجنها ، سواء كانت هذه النكتات سياسية أو خاصة كخطاباتها إلى صديقتها لويز زوجة كاوتسكى وسونجنا زوجة ليبكنشت التي لم تلبث أن أصبحت زميلتها في السجن ، ونشرت بعض هذه الرسائل بعد نهايتها المفجعة فأثارت بأسلوبها الطلى

وهو اطلقها الرقيقة إعجاب الجميع . وقال أحد المؤرخين « لقد كانت دائماً أقرب إلى غاندى منها إلى لينين » وهذا المزيج من الثقافة العالمية والنظرية والنزعة الإنسانية والأدبية أعطاها مساحة من سعة الأفق والأمانة ، وعصمها من هوس الاستحواز على السلطة أو لغة الارهاب والوحشية وكان الخطأ فيها هو الخطأ في الماركسية نفسها التي لم تستطع على مارزقته من ذكاء التحرر من إسارها .

وقد خاضت روزا معركتين مريرتين كانت فيهما هي الفارس المجلى الأولى هي التنقيحية وقد أشرنا إليها والثانية هي جمهورية فايمار التي بدأت بمقارمة الاستسلام للحرب . .

وعندما بدأت المجموعات الماركسية المعارضة للحرب، تتجمع في زيبروالد أولا و كيننال ثانياً « سنتى ١٥ و ١٩ » قدمت مجموعة الايترناسيو فال مذكرة تضمنت عددا من المقدمات والنتائج أو الواجبات التي يفترض القيام بها لكي يمكن للدولة أداء دورها التاريخي .

واستملت مقدمات المذكرة بأن الحرب العالمية قد قضت على عمل أربعين طاماً من الاشتراكية الأوربية ودمرت ثورية الطبقة العاملة وتضامننا الدولى وربطت ما بين آمال الجماهير وانتصار حكوماتهم الرأسمالية وأن زعماء الحركة الاشتراكية في ألمانيا وفرنسا وبريطانيا ( باستثناء حزب العمال المستقل ) بتأييدهم لحكوماتهم دعموا الإمبريالية ومنحوها مهلة وأطالوا في أمد المجزرة وجعلوا محاولة الأحزاب الاشتراكية في روسيا والصرب وإيطاليا لأداء واجبها أمراً عقيماً . وأن الحرب العالمية لن تفيد الجماهير والشعوب شيئاً وأنها ليست إلا منافسة وحشية للاحتكارات . إذ لم تعد الحروب القومية ممكنة في عهد الاحتكارات الطليقة ولا تستخدم المصالح القومية إلا كوسيلة للخداع

وإخضاع الطبقات العاملة لعدوتها اللدود الإمبريالية وقد أصبحت الشعوب الصغيرة التي ناصر حكامها الامبرياليه دعى أو رهائن في المعركة الامبرياليه للدول العظمى . وفي ظل هذه الظروف فإن الحرب تعنى كائنه ما كانت نتيجةها هزيمة الديمقراطيه الاشتراكيه ما لم تتدخل البروليتاريا الدوليه تدخلا ثورياً ، لأنها ستؤدى إلى تقوية العسكريه والاستغلال وجعل البرلمانات أداة في يدها وبذلك ستمهد الحرب القائمه لحروب جديده وأن التوصل إلى السلام لا يمكن أن يكون بوسائل يوتوبيه أو رجعيه مثل المحاكم الدوليه أو الديبلوماسية الرأسماليه أو المعاهدات على اختلافها — كمعاهدات نزع السلاح أو حرية البحار أو التحالف الأوربي أو الدول العازلة . . الخ والوسيله الحاسمه الوحيدة هى قدرة البروليتاريا الدوليه على النشاط السياسى وعزيمتها الثورية كما أن الامبرياليه باعتبارها المرحله الأخيرة للحكم السياسى للرأسماليه هى أسوأ عدو للبروليتاريا فى كل الدول وإن كانت تتفق مع الصور السابقه عليها فى أنها تقوى أعدى أعدائها للدرجه التى تكشف فيها عن نفسها ، فالامبرياليه تستحث تركيز رأس المال وتحمل الطبقات الوسطى وزيادة البروليتاريا وتستثير المعارضه المتزايدة من الجماهير . ومن هنا فإن كفاح البروليتاريا يجب أن يتقارب حول مقاومه الامبرياليه لأنه سيكون فى الوقت نفسه كفاحاً فى سبيل السلطه السياسيه للدولة والمجاهه الحاسمه ما بين الاشتراكيه والرأسماليه . ولا يمكن إدراك الهدف الاشتراكى إلا عندما تتوحد البروليتاريا الدوليه فى جبهه واحد ضد الامبرياليه وتجعل شعارها « الحرب على الحرب » وبذل أقصى الجهود والتضحيات ومن هنا فإن مشكله البروليتاريا اليوم هى جمع البروليتاريا من كل الدول فى قوة ثورية فعاله لتسكون عاملاً حاسماً فى الحياة السياسيه عبر تنظيم دولى قوى وفهم متفق عليه لأهدافها ووسائلها ، وتكتيك ثورى للعمل السياسى فى الحرب والسلام . وقد حطمت الدوليه الثانيه ذلك وثبت فشلها بجزءها خلال



الحرب عن أن تقيم سدا ضد التحلل القومى وخطيائه الممثلين الرسميين للأحزاب الاشتراكية فى الدول الكبرى وانحرافها فيجب إقامه دوليه عماليه جديدة تتحمل مسئوليه قيادة وتوحيد الكفاح الثورى للطبقة العامله ضد الامبرياليه .

ولكى تقوم الدوليه الجديده بهذا الدور التاريخى — فعليها أن تضع لنفسها المبادئ الآتيه :

١ — إن الكفاح الطبقي داخل الدول البورجوازيه ضد الطبقات الحاكمه والتضامن البلورى تارى الدولى فى كل الدول أمران لا يتجزآن وقاعدتان حيويتان للطبقات العامله فى كفاحها العالمى للتحرر ، والاشتراكية البلورى تارى لا يستطيع أن يطرح الصراع الطبقي أو التضامن الطبقي خلال الحرب أو السلم دون أن يقع فى الانتحار .

٢ — إن العمل الطبقي للبلورى تارى فى كل الدول يجب أن يجعل هدفه الرئيسى فى السلم كما هو فى الحرب الانتصار على الامبرياليه ومنع كل الحروب ويجب أن يكون العمل النقابى والبرلمانى تابعا لهدف هو وضع بلورى تارى كل دولة فى معارضة حادة للبورجوازيه القوميه<sup>(١)</sup> وإبراز كل مناسبة للاختلاف ما بين الاثنين وتقديم التضامن الطبقي الدولى على كل شئ آخر والدفع به إلى الصدارة .

٣ — أن تكون الدوليه هى بؤرة التنظيم للطبقة العامله العالميه وتتولى الدوليه فى السلام وضع التكتيكات للأقسام القوميه لها عن موضوعات السياسه الاستعماريه والتجاريه والعسكريه واحتفالات مايو وما إلى ذلك كما تحددها خطوط العامه للتكتيك الذى يتبع وقت الحرب .

---

(١) إن كلمه قوميه هنا ، وفى بقيه الفصل ترجمه لكلمه national التى تترجمها بعض الكتب العربيه « قطنية » .

٤ — يعطى تطبيق قرارات الدولية الأولية على تطبيق أى قرارات أخرى وبقدر ما تخالف الأقسام القومية ذلك بقدر ما تنأى بنفسها عن الدولية .

٥ — فى الكفاح ضد الامبريالية والحرب ، لا يمكن قيام سلطة محددة إلا بتضامن جماهير البلوريتاريا فى كل الدول . ويجب أن تضع الأقسام القومية نصب عينها أهمية تعليم الجماهير العريضة النشاط السياسى والقيام بالمبادرة وبناء النقابات والتنظيمات السياسية ليسكن فى أى وقت بفضل اكتساب تعاونها النشاط والسريع فى كل الأقسام القومية تحقيق إرادة الدولية وتحويلها إلى أعمال

٦ — إن المهمة التالية للاشتراكية هى التحرير الروحى للبلوريتاريا من وصاية البورجوازية التى ينم عنها نفوذ الايديولوجية القومية . ويجب أن تنبذ الأقسام القومية فى اثارها فى البرلمانات وفى الصحافة الأسلوب التقليدى للقومية باعتباره أداة البورجوازية للسلطة . إن الصراع الطبقي الثورى ضد الامبريالية هو اليوم الحماية الوحيدة للحرية القومية الحقة . والدولية الاشتراكية وطن كل البلوريتاريا ، ويجب أن يؤخر كل شىء فى سبيل الدفاع عنها .

وتوضح هذه الوثيقة رأى روزا لوكسبرج فى التضامن الدولى وأنه يجب أن يمنح الأولوية والصدارة على كل صور العمل القومية ويقدم لنا تصورهما للدولية كهيئة تهيمن على كل قسم من الأقسام القومية التى تكونها ولكنها تستمد قوتها من كل هذه الأقسام وإيمان هذه الأقسام بها .

وقدمت هذه الوثيقة إلى مجموعة الاينترناسيونال فى أول يناير ١٩١٦ واعتمدتها ونشرت للمرة الأولى فى إحدى مطبوعاتها .

وعندما تحولت مجموعة الاينترناسيونال إلى هيئة باسم اتحاد سبارتاكوس Spartacus Bund وضمت روزا وثيقة هامة باسم « الاسبرتاكيون الالمان » وضحت فيها أهدافهم وأغراضهم ونشرت فى مجلة « دى روثن فاهن » فى

ديسمبر سنة ١٨ واعتمدت أيضا في المؤتمر التأسيسي الذي حول اتحاد سبارتاكوس إلى « الحزب الشيوعي الألماني ( K. P. D. ) » في ٣٠ ديسمبر سنة ١٨ والوثيقة بمثابة برنامج لجمهورية سوفيتية تقوم على مجالس ، وقد افترضتها بالإشارة إلى أن ثورة ٩ نوفمبر وضعت حدا لمذبحة الحرب وأعوامها الأربعة بفضل قومة العمال ، ولكن الحكم السياسي ليس إلا انعكاسا للإمبرالية الرأسمالية التي كانت السبب الحقيقي للحرب وأن الحرب قد وضعت المجتمع أمام الخيار ما بين استمرار الرأسمالية أو استبعادها ، وقد فقدت الرأسمالية مع نهاية الحرب حقها في البقاء ولم تعد قادرة على إنقاذ المجتمع مما أوقعته حربها من بطلالة أو تدمير لوسائل الإنتاج أو مجاعة أو أوبئة أو إفلاس . والاشتراكية وحدها هي القدرة على الانقاذ ، وليس هناك طريق آخر .

ومهمة تحقيق الاشتراكية هي أعظم مهمة قدر للطبقة العاملة أن تقوم بها في التاريخ الإنساني. وهذه المهمة تتضمن إعادة بناء الدولة والأساس الاقتصادي لها إعادة تامة وكاملة. الأمر الذي لا يمكن أن يتم بمرسوم يصدره برلمان أو لجنة أو بعض الموظفين ، وإنما يتم عن طريق الجماهير . ففي كل الثورات السابقة كانت الأقلية هي التي تقود الكفاح الثوري وتستغل الجماهير . والثورة الاشتراكية هي الأولى التي حققت الجماهير نفسها النصر ، ولا تقتصر مهمة الجماهير على أن تحدد عن وعي وبوضوح هدف ووجهة الثورة ، ولكن أيضا أن تبني الاشتراكية خطوة بخطوة بنشاطها الخاص . ولما كانت الميزة الرئيسية للمجتمع الاشتراكي هي أن تكون الجماهير حاكمه وليست محكومته ، فيجب أن يُحَلَّ العمال أجهزتهم الخاصة - مجالس العمال والجنود - محل الأجهزة الموروثة للحكم الرأسمالي . وأن يتم ذلك من أعلى مستوى في الدولة حتى أقل مستوى. ويجب أن تملأ الجماهير البروليتارية كل المناصب الحكومية وتراقب كل المهام وتختبر كل مقتضيات الدولة على محك الأهداف الاشتراكية ومصالح

الطبقة العاملة وبالمثل فإن إعادة البناء الاقتصادي لا يمكن أن يمضي إلا عن طريق العمل الجماهيري للطبقة العاملة . فراسم « التشريك » التي تصدرها السلطات الثورية العليا لن تكون سوى كلمات فارغة والطبقة العاملة وحدها ، بجهودها الخاصة تستطيع أن تحول هذه الكلمات إلى وقائع ولن تستطيع الطبقة العاملة أن تكفل الرقابة والإدارة الفعلية للإنتاج إلا عن طريق الكفاح الصامد ضد رأس المال ، وجها لوجه في كل مشروع وضغطها المباشر وبوسائل الاضراب وإيجاد الأجهزة التمثيلية الدائمة لها .

وعلى العمال أن يتعلموا أن يحولوا أنفسهم من مجرد آلات يستخدمها الرأسمالي في عملية الإنتاج إلى قادة قادرين ومفكرين في هذه العملية ويجب أن يوفرُوا لأنفسهم حاسة المسؤولية تجاه المجتمع الذي يملك وحده الثروة الاجتماعية . وأن ينموا في أنفسهم الحماسة للعمل دون سوط الرأسمالي . والانضباط دون النير والالتزام دون السيطرة . إن الإحساس المعنوي للمجتمع الاشتراكي إنما هو التصور الأعظم لمصلحة الشعب والانضباط الدائم الصارم والروح المدنية الصادقة لدى الجماهير كما أن الأمانس المعنوي للمجتمع الرأسمالي هو الاثرة والأنانية والغباء والفساد .

ويمكن للعمال اكتساب هذه الفضائل المدنية الاشتراكية وكذلك المعرفة والمقدرة على إدارة صناعه الاشتراكية بالنشاط الخاص والتجربة الشخصية . إن « تشريك » المجتمع إنما يمكن أن يتم إلى الدرجة القصوى بالكفاح بلا هوادة وبصورة متصلة للعمال في كل المواقع التي يتلاقى فيها وجها لوجه العمل ورأس المال ، الجمهور والبورجوازية الحاكمة .

أن تحرير الطبقات للعماله يجب أن يكون عمل الطبقات العاملة نفسها . وفي الثورات البورجوازية كان سفك الدماء ، والارهاب والاعتقال

السياسى أسلحة لامناص عنها الطبقات الصاعدة ، ولكن الثورة البلوريتارية لا تتطلب الارهاب لتحقيق أهدافها وهى تنظر إليها فى كره ومقت ، وليس لديها حاجة لمثل هذه الوسائل لأن كفاحها لا يوجه ضد أفراد ، وإنما ضد نظم. إن الثورة البلوريتارية ليست محاولة إقليمية يائسة للتغيير الجبرى للعالم طبقا لرأيها الخاص . على العكس إنها عمل الجماهير العريضة وملايين الناس الذين يدعون لحل رسالتهم التاريخية ولأن يجعلوا حقيقة ما أصبح ضرورة تاريخية .

ولكن الثورة البلوريتارية تعنى فى الوقت نفسه النهاية لكل صور الاستعباد والتحكم وهذا هو السبب فى أن الرأسماليين والبلونكر والبورجوازية الصغيرة والطبقة الحاكمة ستقوم قومة رجل واحد حتى الموت - ضد الثورة البلوريتارية.

ومن الجنون أن نتصور أن الرأسماليين سيسلمون طواعيه لقرار اشتراكى يصدره برلمان أو جمعية وطنية وأنهم سيتنازلون مختارين عن أملاكهم وأرباحهم وامتيازاتهم ، إن كل الطبقات الحاكمة قد حاربت بتصميم إلى النهاية فى سبيل امتيازاتهم . إن الأعيان الرومان وبارونان القرون الوسطى وملاك العبيد فى أمريكا والملايك فى ولاشيا Wallachia وأصحاب مصانع الحرير فى ليون جميعا قد مفسكوا أنهارا من الدماء وساروا على الجثث وارتكبوا القتل والاغتيل والحريق واضرموا الحرب الأهلية للدفاع عن امتيازاتهم وساطاتهم .

وقد فاقت الطبقة الامبريالية والرأسمالية ، وهى السلالة الأخيرة لطبقة المستغلين ، كل أسلافها فى الوحشية والنفالة وسندافع عن قدس أقداسها - أرباحها من الاستغلال - بقضها وقضيضها وبذلك الدم البارد الوحشى الذى أظهرته خلال سياستها الاستعمارية والحرب العالمية الأخيرة ، وستقيم الأرض وتقعدها ومستعبأ الفلاحين ضد العمال الصناعيين وتضع أكثر العناصر تخلفا من العمال فى مواجهة الطبيعة المتقدمة وسترسل ضباطها لارتكاب المذابح وستحاول

بمائة طريقة وطريقه من المقاومة السلميه أن تلغى عمل الثورة .  
وهذه المقاومة يجب أن تضرب بيد من حديد ، وبأقصى فعاله إن الثورة  
البورجوازية المضادة يجب أن تقابل بقوة ثورة الطبقة العاملة . ويجب أن تجابه  
مؤامرات وخطط ومشروعات الطبقة الرأسماليه باليقظه الدائمه ووضوح الرؤيه  
واستعداد الطبقة العاملة للعمل فى أى وقت .

ولتكوين البروليتاريا من ذلك فإن اتحاد سبرتا كوس يطلب :

أولا : كوسائل عاجلة لتأمين الثورة :

١ — تجريد كل قوة البوليس والضباط — وكذلك الجنود غير البروليتاريين  
من السلاح .

٢ — استيلاء مجالس العمال والجنود على كل مصادر الأسلحه والذخائر  
والصناعات الحربيه .

٣ — تسليح كل العمال البالغين باعتبارهم الشعب العامل . وتكوين  
حرس أحمر للعمال من العناصر النشطة فى الميليشيا لحماية الثورة ضد  
المؤامرات على الثورة .

٤ — القضاء على سلطة الأمر للضباط وإحلال الالتزام الإرادى للجنود  
محل النظام العسكرى الوحشى وانتخاب العمال لكل الرؤساء مع حق سحب  
الثقة فى أى وقت وإلغاء المحاكم العسكريه .

٥ — ابعاد كل الضباط من مجالس الجنود .

٦ — إحلال الممثلين المفوضين لمجالس العمال والجنود محل كل الأجهزة  
والسلطات السياسيه للعهد القديم .

٧ — تكوين محكمة ثوريه لمحاكمة المسئولين عن الحرب وإطاعتها أى

آل الهوهنزولرن - ولودندرف - وهندنبيرج وتربيتز وشركاؤهم وكذلك المتآمرين لإقامة الثورة المضادة .

٨ — الاستيلاء العاجل على كل مصادر الطعام لتأمين غذاء الشعب .

ثانيا : في المجال السياسى والاجتماعى :

١ — إلغاء كل الدويلات ذات الاستقلال الذاتى وإيجاد جمهورية المانية اشتراكية موحدة .

٢ — إلغاء كل البرلمانات والمجالس المحلية وإحلال مجالس العمال والجنود ولجانها وأجهزتها محلها .

٣ — انتخاب مجالس العمال فى المانيا بأسرها عن طريق السكان البالغين من الشعب العامل رجالا ونساء - تبعاً للصناعات وانتخاب مجالس جنود عن طريق الجنود باستثناء الضباط والضباط السابقين - ويكون للعمال والجنود حق سحب الثقة من ممثليهم فى أى وقت .

٤ — انتخاب مندوبين عن كل مجالس العمال ومجالس الجنود للمجلس المركزى للعمال والجنود وينتخب المجلس المركزى اللجنة التنفيذية باعتبارها السلطة العليا تشريعياً وتنفيذياً وبالنسبة للمحاضر - يجتمع المجلس المركزى مرة كل ثلاثة شهور على الأقل ويعاد انتخاب المندوبين كل مرة ويكون للمجالس المحلية حق استدعاء مندوبيها فى المجلس المركزى إذا خالف إرادة ناخبيه .

٥ — إلغاء كل العلامات المميزة للطبقات كالألقاب والنباشين والمساواة التامة قانونية واجتماعية بين الجنسين .

٦ — إصدار تشريعات اشتراكية جذرية لتخفيض ساعات العمل والهبوط بالبطالة وتحديد ساعات العمل بست ساعات .

١١ — ظهور وستروم

٧ — كفالة الإسكان والصحة والتعليم للطبقات العاملة عن طريق اجراء تغييرات جذرية في سياسة هذه المجالات .

ثالثاً : مطالب اقتصادية أخرى :

١ — مصادرة كل أملاك التاج لمصلحة الشعب .

٢ — إلغاء دين الدولة وكل الديون العامة الأخرى وكذلك قروض الحرب باستثناء ما اشترك فيها بمبالغ محدودة يعينها المجلس المركزي للعمال والجنود .

٣ — مصادرة كل الأراضي الزراعية الكبيرة والمتوسطة وتكوين تعاونيات زراعية لها نظامها تحت إدارة مركزية موحدة وتظل الممتلكات الصغيرة في أيدي ملاكها من الفلاحين حتى يقرروا طواعية الانتحاق بالتعاونيات الزراعية .

٤ — تأميم البنوك والمناجم والصناعات الكبرى والمنشآت التجارية .

٥ — مصادرة كل الممتلكات التي تجاوز حداً معيناً يقرره المجلس المركزي للعمال والجنود .

٦ — الاستيلاء على كل وسائل النقل العامة والاتصالات .

٧ — انتخاب كل المجالس الإدارية في المنشآت لتنظيم الشئون الداخلية بالاتفاق مع مجالس العمال والجنود .

٨ — تكوين لجنة اضراب مركزية تعمل بالتعاون الوثيق مع المجالس الصناعية وتكفل لحركة الاضراب في البلاد بأسرها الإدارة الموحدة والتوجيه الاشتراكي وتكتسب له التأييد السياسي من مجالس العمال والجنود .

وابعاً : مشاكل دولية :

تنشأ علاقات عاجلة مع الأحزاب الشقيقة في الدول الأخرى لوضع الثورة



الاشتراكية على أساس دولى لكفالة السلام والأخوة الدولية والابعثات  
الثورى للطبقة العاملة الدولية .

\* \* \*

هذا هو ما يعمل له اتحاد سبورتاكوس . .

ولأن هذا هو ما يريده . . فإن صيحات الرأسماليين تنعالي « اصلبوه »  
وهذا الاجماع على مكافحة اتحاد سبورتاكوس من كل معسكرات الثورة  
المضادة هو ما يدل على أن قلب الثورة إنما يدق في هذا الاتحاد وأن المستقبل  
سيكون له .

إن اتحاد سبورتاكوس ليس حزبا يريد أن يتسلق السلطة على أكتاف  
جماهير العمال ، إنه ليس إلا الفريق الواعى من البلوريتاريا وفي كل منعطف  
فإنه يوجه جمهرة العمال إلى واجباتها التاريخية . .

إن اتحاد سبورتاكوس يرفض المشاركة في الحكومة مع خدام الطبقة الرأسمالية  
من جماعة شيدمان وايرت لأنه يرى في مثل هذا التعاون عملا من أعمال الخيانة  
المبادئ الأساسية للاشتراكية .

وسيرفض اتحاد سبورتاكوس أيضا أن يأخذ السلطة لمجرد أن جماعة شيدمان  
وايرت قد كشفت عن نفسها وأن الاشتراكيين الديمقراطيين المستقلين قد  
وصلوا بحكم تعاونهم معهم إلى طريق مسدود .

إن اتحاد سبورتاكوس لن يتقلد السلطة أبداً إلا عندما يتضح تماما أن  
« ذلك هو الإرادة الحرة للأغلبية الساحقة من جماهير البلوريتاريا فى المانيا ،  
ولن يتقلد أزمة السلطة إلا بالموافقة الواعية من العمال على أهداف ومبادئ  
وغايات سبورتاكوس .

إن الثورة البلوريتارية لن تبلغ الوضوح والنضج الكامل إلا عبر الكفاح

النديجي خطوة بخطوة على طريق جولجوتا<sup>(١)</sup> - وعبر التجارب المرة للعمال من هزائم وانتصارات .

إن انتصار اتحاد سبرتاكوس ليس بداية الثورة ولكنه النهاية وليس هو شيئاً آخر غير انتصار الجماهير العريضة للطبقة الكادحة .

تبقى أيتها البلوريتاريا . . وانفض إلى المعركة . . إن علينا أن نكافح طاملاً . . وأن نكسب عالماً .

ويمثل هذا البرنامج أفضل ما يمكن أن يوجد به فكر اشتراكي ، وكان وجود روزا على رأس التنظيم الجديد يعد ضماناً له من الانزلاق والانحراف ولكن هذا الضمان لم يكن فعالاً لدخول عناصر أقل عمقاً وإنسانية وأكثر سطحية وانسياقاً مع استشارات العاطفية أو اغراءات السلطة وقد كانت لحظة الميلاد لاتحاد سبرتاكوس هي إلى حد ما لحظة الوفاة . إذ ارتوى اعتبار التنظيم الجديد هو الحزب الشيوعي ولم يكن هذا إحلالاً للفظ محل لفظ ، إذ استتبع تغييرات عميقة خاصة عندما أنهت يد الاغتيال الأثيمة حياة روزا بعد أسبوعين تقريباً من تأسيس الحزب .

\* \* \*

وهكذا يتضح أن معسكرات اليمين بدأت في وقت مبكر للغاية تتكامل وتستعيد مواقعها بعد الأيام الأولى للثورة في حين انقسم اليسار إلى فريقين معتدل يمثل الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل وماركسي يمثل الحزب الشيوعي . . وإذا كان هناك ما يجمع بين هذه المعسكرات المتضادة . . فهو أنها جميعاً باستثناء الحزب الاشتراكي الديمقراطي كانت تضيق بالجمهورية الناشئة وتتمنى لها الزوال السريع .

---

(١) الطريق الذي يزعمون أن السيد المسيح قطعه إلى مكان الصلب .

# الفصل الثامن

## الحزب الاشتراكي الديمقراطي

### في ظل الغمام

لم نتعرض - عندما تحدثنا في الفصل السابق عن تقطع المعسكرات للحديث عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي (الأغلبية) الذي كان يتوسط هذه المعسكرات ويتقلد السلطة . . .

وقد أوضحنا في الفصل الأول كيف أن التطور الاقتصادي والسياسي جعل من هذا الحزب حزبا إصلاحيا ديمقراطيا أكثر منه ماركسيا وثوريا ، وكانت الأحداث التي وقعت في ٤ أغسطس ١٩١٤ ، وبعده ، تكشف عن هذه الحقيقة ، وتدفع به أكثر فأكثر نحو اليمين . فقيام ثورة أكتوبر في الاتحاد السوفيتي أكدت له الطابع الدموي والعنيف بل والوحشي الذي تصطبغ به الثورة الشيوعية ، وانفصال المستقلين عن الحزب أفصح المجال للعناصر المحافظة لتكوين أكثر حفاظا ، كما جعلتهم ديماجوجية ليبكنشت يعزفون عن النظريات ، والشخصية الوحيدة الجديرة بالاحترام ، وهي روزا لوكسمبرج . كانت تهيم في آفاق العالمية . . .

ويجب أن لا ننسى أن الحزب ، مع العقد الأول للقرن فقد قادته المؤسسين . فقد مات ليبكنشت سنة ١٩٠٠ ومات بيل سنة ١٩١٣ ومات سينجر سنة ١٩١١ ، وكان هؤلاء ، على أسنانهم المتقدمة يصفون على الحزب اذكري

الكفاح القديم، ويربطونه بالصحبة المباشرة لماركس وأنجلز ويصعب عليهم أن يتزحزحوا عن اليمين الذى اضطرتهم إليه الملابس والأحداث الخاصة بالمانيا إلا بمدى محدود لا يسمح بأكثر منه ماضيهم الكفاحى الطويل، ففى لعبة التقدمية دفعتهم الأحداث من اليسار حتى الوسط، ومن الوسط حتى اليمين، ولكن يمينهم كان يمكن أن يعد يسارا بالنسبة لمن جاء بعدهم مثل ايبيرت وشيدمان اللذين تمرسا فى المدرسة النقابية أو برنشتين رائد حركة التنقيح أو لودفيج فرانك أو ادوار دافيد اللذين كانا يناصران التحالف مع المعسكرات الأخرى وعندما أعلنت الحرب أصر أولهما على التطوع وقتل قبل نهاية العام.

وعند موت بييل اختير فردريك ايبيرت رئيسا للحزب وقد نشأ ايبيرت من أسرة عاملة، وعمل وهو صبي كسروجى لفترة حتى اجتذبه العمل النقابى. ثم العمل السياسى. وكانت النقابية هى المدرسة التى تدرس فيها. شأن كثير من القادة الاشتراكيين - بالعمل العام والادارى. وفى سنة ١٩٠٦، أختير سكرتيرا تنفيذيا لمركز الحزب فى برلين فأسس - من العدم تقريبا - النظام المكتبى والإدارى للحزب بحيث أصبح العمل فيه يدور بمثل دقة الساعة - ونقل النظام الذى وضعه لمركز الحزب الرئيسى فى برلين إلى بقية المراكز والفروع فلاعجب إذا اشتهر ايبيرت بالمقدرة الإدارية والأمانة والتفانى، وكان يحكم هذه المحطات عزوفا عن عالم النظريات والجماهير والاجتماعات. كان إداريا وليس قياديا، تتجلى فيه الصفات العملية من دربه ومراعاة وصبر ودأب وفهم لطباع الأشياء، ولكنه لم يكن بالمزاج أو النشأة أو العمل ثوريا أو نظريا ولم يرزق سعة الخيال، أو ديناميكية رجل الجماهير أو جاذبية رجل الدعوات.

وكان الرجل الثانى بعد ايبيرت، ويقترن به كما يقترن تروتسكى بلمينين هو فيليب شيدمان، الذى قدر له أن يكون أول رئيس وزارة فى جمهورية فايمار، وقد مال إلى اليسار حينما، خاصة عندما فقد منصبه كنائب رئيس الرئاستاج لرفضه.

القيام بزيارة ولاء للإمبراطور وإمتقال من رئاسة الوزارة لإحتجاجا على معاهدة فرساي قائلاً قولته المشهورة « أى يد لا تحبف يمكن أن تقيد نفسها وتقيدها بهذه الشروط » وإعتزل السياسة بعد ذلك وقدر له أن يعيش طويلاً ، بعد هذه الأحداث العاصفة . ومات سنة ١٩٣٩ .

ومن الواضح بالطبع أنه لا يمكن أن يقارن ايبرت ب لينين أو شيدهمان بتروتسكى . فقد كانا رجلين يحكمهما الواقع ، ولم يرزقا الخيال والإرادة والنبوغ والمسلكت التى رزقها لينين وتروتسكى وجعلتهما يعملان لتغيير الواقع المائل وتحقيق عهد جديد .

وإلى جانب هذا النقص فى القيادة فإن التبع فى المواقف الذى جاء بدوره نتيجة لعجز الحزب عن التوصل إلى الصيغة النظرية التى تحكم هذه المواقف وتخلصه من التخبط فيها ، وتبرؤه من طابع الإتهامية الذى يمكن أن يلصق به - كان من أكبر أسباب فشل الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى السيطرة على الأمور ، ذلك أنه إذا كان الإغراق فى التنظير والإستعباد له مما يسئ إلى التنظيم ، فإن فقد التنظير بالسكينة - أو سطحيته . يفقد الحزب المعيار الموضوعى الذى يقيس به الأمور ، والبوصلة التى ترشده إلى الاتجاه السليم . . وتدور عليه العلاقة بين الجماهير والقيادات ..

وهذا لا يعنى أبداً أن الحزب الاشتراكى الديمقراطى أخطأ عندما لم يصطنع النظرية الماركسية ، أو يجذو حذو لينين ، فقد أظهرنا تخلف التصور الماركسى عما وصل إليه المجتمع الألمانى قبيل فائمار . كما لم يكن هناك مبرر لى يسلك كما سلك لينين ، فضلاً عن أن مسلك لينين لم يكن المسلك الأمثل أو المعيارى . إن الخطأ الرئيسى فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى أنه عالج حالة ثورية بأسلوب سلمى كأضعف ما تكون الأساليب ومن هنا ضاق به الجميع ، وحلوه الأوزار ..

وفي الأيام الأولى التي أعقبت إعلان جمهورية ، كانت برلين أشبه بدار للمجانين على حد تشبيه أحد الكتاب ، كانت كل المعسكرات التي أشرنا إليها تنحفز وتسعى لكي تضم صفوفها وتثبت وجودها في اللحظة الحاسمة التي سقط فيها النظام القديم ولما يتم بعد النظام الجديد ، وأخذ كل معسكر من هذه المعسكرات يحاول السيطرة على برلين ، فجالس الجنود تدعى الحكم ، وأنها هي السلطة العليا ، ولكنهم لم تكن منظمة ، ولم يكن الجنود يظهرون إلا أوقات الشغب والوجبات وصرف المرتبات ، والوجود العسكري الوحيد الذي رزق شيئاً من الدوام كان هو « فرقة بحارة الشعب » التي كانت تضم فلولاً من بحارة الموانئ الثائرة واصلت سيرها حتى برلين فاعتصمت بالقصر المملوكي والاسطبلات الملحقة بها وفعلت بهم الفوضى والفراغ وإفتراد لزامة فعلها بحيث أشبهوا « التراصنة » و « الفتوات » الذين يعيشون على ما يفرضون من إتاوات .

وكانت القيادة العسكرية العليا تستقر في « كاسل » وتتابع الموقف بعد أن تهاوى الجيش وتحطم الضبط والربط ، وأصبحت لا تقود إلا نفسها : ولكنها كانت تتماسك وتتجلد وتتحصن وراء المارشال السمين الصامت كتمثال أبي الهول بينما يدير مساعده اللبق الذي « جرونر » الأمور .

وفي الأيام الأولى التي أعقبت الثورة مباشرة وشاهدت قومات البحارة وإضرابات المال وإنبعاثات « مبرتا كوس » إنتاب الطبقات المميزة ذعر ، وآوت إلى جحورها ، وأصبح أقصى ما تطمع فيه هو أن تنسى ، وينسى وجودها حتى تمر العاصفة وهي على ظهر الأرض وليست في بطنها . . وانفسح مجال الشوارع والميادين للمظاهرات .

ولعل ليبكنشت كان أمعد الناس بهذه الحالة الأور ، وأكثرهم إنغماساً فيها

فقد وجد الجماهير التي يتطلبها ، ووجدت الجماهير فيه الزعيم الذي يلهمها ويشجعها على الانطلاق من عقائدها والتحرر من روابط المجتمع القديم ، ولكن هذا النشاط الثوري المحموم كان إهداراً للجهود وتبذيراً للطاقات أكثر مما كان استثماراً لها أو توجيهها التوجيه المنظم الذي يحقق الهدف المرسوم ، ثم كان هناك احتمال أن يجرفه هو نفسه تيار الحماسة التي كان يثيرها الجماهير بحيث تسوقه معها دون أن يستطيع التحكم فيها ، وهو الاحتمال الذي كان يفاق روعاً ويجعلها تضيق بهذه الامتناعات وتخشى عواقبها .

وكان المستشار ايبرت هو الذي تقلد الحكم من يد المستشار الايمبراطوري يوم ٩ فبراير أكثر الجميع شعوراً بعدم شرعية هذا الوضع واستقراره . لقد كان رجلاً أميناً جريصاً على الشرعية والدستورية ، وكان رجلاً نظامياً يعمل وينتج في الجو النظامي الثابت المستقر . أما هذا المناخ العاصف ، المتقلب ، الذي لا يثمر عملاً . ولكن مظاهرات وهتافات . . فكان يضيق به . ويريد من قرارة نفسه أن يضع نهاية له وكانت الوسيلة المفضلة في نظره هي عقد جمعية دستورية وطنية تتولى مسئولية وضع النظام الجديد طبقاً لإرادة الشعب الألماني . ولكن التطور السريع للأحداث . ووجود جبهة معارضة قوية . ومجالس العمال والجنود تهيمن على الموقف . . لم يكن ليسمح بذلك . ورأى أن خير ما يؤدي في اللحظة الراهنة أن يشرك معه في مسئولية الحكم الاشتراكيين الديمقراطيين المستقلين ، الذين كانوا على انشقاقهم من الحزب وتأثرهم بالمد الثوري آونة والتنظيم الفكري آونة أخرى يخضعون لقيادات ناضجة نشأت وعاشت في كنف الحزب ، بل ورؤسائه ، وتتسم بقدر كبير من الاتزان وتقدير المسئولية . وعرض ايبرت تصوره لما يكون عليه الحكم واضعاً في ترتيبه التيارات التي كانت تؤثر على

الحزب الاشتراكي الديمقراطي والقضايا التي أثبتت في ست نقط كالآتي :

— جمهورية اشتراكية ؟ نعم هذا هو هدف سياستنا وهو هدف سيصوت عليه الشعب الألماني في الجمعية الدستورية .

— السلطة الكاملة لمجالس العمال والجنود ؟ لا . . . إننا نرفض فكرة ديكتاتورية طبقة واحدة ما لم تكن وراءها أغلبية الشعب . إن مثل هذه الديكتاتورية تناقض المبادئ الديمقراطية .

— فصل الأعضاء البورجوازيين من الحكومة ؟ لا . . . إن مثل هذا العمل سيضع عقبات يصعب التغلب عليها في طريق إمدادات الطعام . ويعرض للخطر مصالح المواطنين .

— مشاركة المستقلين لمدة ثلاثة أيام فحسب لكي يمكن لوزارة مختصة توقيع الهدنة . ؟ إننا نرى أن مشاركة كل الزعماء الاشتراكيين ضرورية ، على الأقل لحين انعقاد الجمعية الدستورية .

— أن يكون وكلاء الوزارة البورجوازيون والمديرون مجرد خبراء استشاريون ؟ حسنا جدا .

— الحقوق المتساوية لزعيمى الحزبين بالوزارة ؟ أجل ، ولكل أعضاء الوزارة . وسببت الجمعية الدستورية في هذه النقطة في الوقت المناسب .

ويوضح هذا التصور أن إيبرت جامل المستقلين في بعض النقط ولكنه تمسك بمبادئه ورفض فقط أخرى كأن تكون السلطة كاملة في يد مجالس العمال والجنود ، وفصل العناصر البورجوازية من الحكومة كما يبدو جليا . بروز فكرة « الجمعية الدستورية » في ذهن وترتيب إيبرت

وأرسل إيبرت « شيدمان » إلى الاشتراكيين الديمقراطيين المستقلين .



للدخول معهم في مفاوضات للاشتراك في الوزارة وأمضى هذا سهرة طويلة قبل أن يتوصل إلى تسوية تقضى بأن يحل محل الوزارة مجلس يدعى « مجلس قوميسرى الشعب Volks Beauftragten » يضم ستة من القوميسرين ثلاثة من الحزب الاشتراكي الديمقراطي (الأغلبية) هم ايبيرت ولانديسبرج وشيدمان وثلاثة من الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل هم هازه وديتان وبارت. وأن يشرف المجلس على عمل الوزراء الذين يجب أن يكونوا اشتراكيين باستثناء بعض الوزارات التي تتطلب مواصفات معينة كوزارة الحربية والبحرية على أن تخضع أوامرهم لتصديق قوميسرين اثنين أحدهما من الأغلبية والثاني من المستقلين. وتكون سلطة القوميسرين متعادلة. ويستند المجلس سلطته من مجالس العمال والجنود، أما نقطة الجمعية الدستورية فقد ارتوى تأجيلها على أساس « إن فكرة الجمعية الدستورية لن تكون موضوعا للبت إلا عندما تستقر الظروف التي أوجدتها الثورة ».

ومع أن هذه التسوية كانت تمثل تنازلا من الأغلبية عن خطها السياسى وصفقتها العددية، فإنها لم تتم إلا بعد عناء كبير، ومن وراء ظهر ليبككنشت الذى كان فى حكم المنضم إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل، والمهيمن عليه بحكم الجموع والجاهير التي كان هو زعيمها، ووصفت بعض المراجع الموقف بالآتى :

«... وبينما كن المجتمعون يناقشون هذه الشروط (أى شروط انضمام الحزب المستقل للوزارة) دخل عليهم فجأة ليبككنشت ومعه مجموعة من مؤيديه ووقف خلف سكرتير الجلسة وطلب منه (على) صيغة أمر تدوين ما إلى « الشروط هي تسليم كافة السلطات التشريعية والتنفيذية والقانونية إلى العمال والجنود » وساد الاجتماع سكون مطبق ولم يناقشه أحد على هذا القول

ولا على تدخله في الاجتماع تحاشيا لاحتمال حدوث صدام مباشر مع مجموعته . وفي هذه الأثناء كان إبيرت ومجموعته بانتظار شروط الحزب المستقل ، وحينما طال الانتظار أرسل إبيرت النائب شيدمان لمعرفة الأسباب ، وعندما دخل شيدمان قاعة الاجتماع سلمه ليبكنشت الورقة المكتوب عليها شروطه السالفة الذكر . وبعد قراءتها قال شيدمان « يارفاق كيف تتصورون تنفيذ ذلك » .

وبعد مناقشة قصيرة عاد شيدمان إلى جماعته ومعه الورقة المذكورة التي رفض إبيرت قبولها على الفور ، وناشد المستقلين إعادة النظر في الموضوع بسبب ( حرجية ) الموقف وضيق الوقت . وبعد خروج ليبكنشت من مقر البرلمان باتجاه المتظاهرين إمن جماعته في إحدى ساحات برلين عقد نواب الحزب المستقل اجتماعا ثانياً لمناقشة الأمر . وفي هذا الاجتماع اتفق الرأي على التخلي عن الشرط الذي أملاه عليهم ليبكنشت ولقاء ذلك تقوم الحكومة بعد تأليفها بطرح الثقة بنفسها على المجلس الشعبي المؤلف من العمال والجنود وذلك ترضية للمتطرفين الذين يتمتعون بأغلبية لا بأس بها في هذا المجلس<sup>(١)</sup> .

وتوضح هذه الفقرات أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي رفض مبدأ استمداد السلطة من مجالس العمال والجنود بصورة دقيقة وأن الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل لم يصبر تماماً على ذلك . وكان الذي يتمسك بذلك هو ليبكنشت . ولم يكن لتسكة قيمة عملية حاسمة لأنه - في كل شيء - لم يكن يسير إلى النهاية المنطقية ، وإنما كان يسير دائماً إلى منتصف الطريق ثم تتوزعه وتنتاشه اهتمامات أخرى . كان ليبكنشت « كالعيار » الذي

---

(١) الحزب الاشتراكي الديمقراطي تأليف عبد الرحمن مشهدي ص ٧٤  
نشر مؤسسة فروريتنس إبيرت . ألمانيا - والألفاظ التي بين القوسين نقلت حرفياً  
على ركا كتبها .

لا يصيب ولكنه « يدوش » على حد المثل ، وقد أحدث ضجيجا مرعبا للحكومة وأخرجها في كثير من المناسبات دون أن يصيبها في مقتل .

وأخيراً شكلت الوزارة كالآتي : ايرت الداخلية والجيش ، شيدمان المالية . لاندسبرج الصحافة والإعلام ، هاس الخارجية والمستعمرات . ديتان التسريح والصحة . بارت السياسة الاجتماعية .

وفي الوقت نفسه كان قرابة ثلاثة آلاف من مندوبي العمال والجنود في برلين يجتمعون في دار السيرك Circus Busch للنظر في الوضع ، وأيدت الأغلبية فكرة تحالف الحزب الديمقراطي وانتخبوا لجنة تنفيذية مكونة من ٢٤ عضوا ستة منهم من الاشتراكيين الديمقراطيين وستة من الاشتراكيين المستقلين والباقي من الجنود .

وبهذه الطريقة أصبح هناك هيئتان تمارسان السيادة والحكم مجلس قوميسرى الشعب . واللجنة التنفيذية لمجالس العمال والجنود في برلين : واعتبر كل البلاغات والقرارات حتى اضطرر الأمر وتطلب تحديد السلطات . وفي ٢٢ نوفمبر اتفقا على أن تكون السيادة للجنة التنفيذية ويقوم مجلس القوميسرين بالسلطة التنفيذية تحت رقابتها . كما أصبح لها حق تعيين أعضاء مجلس القوميسرين ولكن هذا الاتفاق الذي كان يرجح كفة اللجنة التنفيذية ، أثار استياء الدوائر الحكومية التي تدمرت من رقابة مجالس العمال والجنود ، كما نفرت مجالس العمال والجنود في بقية الولايات الألمانية من استئثار اللجنة التنفيذية التي كانت تمثل برلين وحدها . فقررت اللجنة التنفيذية أن تضم أعضاء من مجالس العمال والجنود في مختلف الولايات الألمانية على أن لا يكون لهم الحق في مناقشة الموضوعات التي تتعلق ببروسيا .

ولم يحسم هذا الحل النزاع . ولكن الظرف لم يكن يسمح بتحدى مجالس

العمال والفلاحين ، وبدلاً من ذلك استطاع إيبرت أن يعقد في ٢٥ نوفمبر اجتماعاً باسم « مؤتمر الولايات الألمانية المتماهدة » ضم ممثلي حكومات الولايات الألمانية وفي هذا الاجتماع قال إيبرت « إن الطريقة التي يجب أن تتبع في تنظيم العلاقات ما بين حكومة الريخ وحكومة الولايات الألمانية أن يوكل أمرها إلى جمعية وطنية ، وقد عازمت الحكومة عزماً أكيذاً على عقد هذه الجمعية في أقرب وقت مستطاع » وأصدر المؤتمر قرارين ينص أولهما على أنه يجب أن يوكل إلى جمعية وطنية وضع دستور جديد للريخ والثاني أن يجالس العمال والجنود هي التي تمثل إرادة الأمة إلى حين اجتماع الجمعية الوطنية .

وكان هذا - رغم تضمنه لطعم مجالس العمال والجنود - في حقيقة الحال انتصاراً لإيبرت ، الذي استغله بسرعة فأذاع منشوراً خاصاً باجتماع الجمعية العمومية .

أزاء ذلك ارتأت اللجنة التنفيذية لمجالس العمال والجنود أن تعقد مؤتمراً قومياً من ممثلي مجالس العمال والجنود في ألمانيا بأسرها للنظر في الوضع السياسي لألمانيا ، وما يكون عليه شكل حكوماتها . . أو بعبارة أخرى . . هل تكون جمهورية سوفيتية تقوم على مجالس العمال والجنود . كما كان يريد الشيوعيون واتحاد مبارتا كوس والمندوبون الثوريون . . الذي أعلن زعيمهم رتشارد مولر - وهو في الوقت نفسه رئيس مجلس عمال وجنود برلين « إن الطريق إلى الجمعية الوطنية سيكون فوق جثتي » . . أو أن تكون جمهورية ديمقراطية برلمانية ، كما كان يؤثر الاشتراكيون الديمقراطيون .

كان لكل طرف مبررات وجيهة يدعم بها رأيه . فالبرلمانية كانت قد وصلت في ذلك الوقت إلى أعلا ذروة بلغتها . وكانت الدول المنتصرة كلها انجلتراً - فرنسا - الولايات المتحدة - برلمانية ، صحيح إن قيام الثورة البلشفية وأخذ الاتحاد السوفيتي بنظام غير النظام البرلماني كان يمكن أن يعد بدأ نزول

البرلمانية من القمة التي بلغت ، ولكن هذا النزول اصطحب بقلقل وتطلب توضيحات زهدت فيه ، وأثارت الشك حوله ، بل لعله أبرز جدوى النظام البرلماني وأفضليته . وكانت التقاليد البرلمانية لدى الحزب الاشتراكي الديمقراطي عريقة ، وعن طريق العمل البرلماني اكتسب الحزب منزلته الكبيرة . وكان برنامج بقر البرلمانية ، وكانت الديمقراطية البرلمانية هي المطلب الأول في برنامج إيرفورت للحزب سنة ١٨٩١ . ولم يقل أنجلز في نقده لبرنامج الحزب إن هذا خطأ ولكنه قال إنه لم يمس إلى الدرجة الكافية .

وكان يمكن لأنصار البرلمانية أن يقولوا إن البرلمان لا يعجز عن إصدار القرارات الثورية - لو أراد - كالتأميم أو المصادرة أو غير ذلك . وأن نظم الانتخاب لا تحول دون انتخاب نواب عمال بدليل نواب الحزب . وأن اصلاح نظم الانتخاب ممكنة ، ومطلوبة داخل الاطار البرلماني .

وفي مقابل هذه المزايا ، فإن أنصار البرلمانية كانوا يربطون دائماً ما بين مجالس العمال والجنود . . والسوفييتات الروسيه ويرون أنها ليست فحسب غريبة على البيئة الألمانية ، بل إنها ستؤدي إلى الديكتاتورية والأرهاب .

ومن الناحية الأخرى ، فن الواضح أن العمال والجنود هم الذين قاموا بالثورة ؛ وليست الأحزاب ، أو حتى النقابات ، فعالم الذخائر الذين بدأوا الاضراب بتأثير قادتهم المباشرين ومندوبو العنابر ثم الجنود والبحاره هم الذين بدأوا الانتفاضة والتظاهر والتمرد . . فهؤلاء وأولئك هم أصحاب الثورة . وهم لا يفتقرون شيئاً في « البرلمانية » التي أصطحبت دائماً بالأحزاب والتنظيمات الرأسية والمركزية . وهم لا يرون من المنطق في شيء أن تترك التشكيلات القائمة بالفعل ، والتي تكتسب تكتلها بحكم طبيعتها أي المصانع والشكنات وأن تجري الانتخابات على أساس دوائر سكنية لا يربطها رباط أو تنظيم . . أو أن

يسمح « لصناعة الانتخابات » أن تتدخل وتضل وتخدع وتزيف . وتجعل اليد العليا لأصحاب المال والنقود .

وهم يضيفون أنه وإن كان البرلمان يستطيع — نظريا — أن يصدر ما يشاء من القرارات الجذرية عن مصادرات أو تأميمات . الخ . فإنه عمليا لا يفعل هذا ، ولا يحفظ التاريخ سوابق لهذا على كثرة البرلمانات . ذلك لأن طريقة إنتخابات الدوائر تبعد العناصر الصالحة أو الفقيرة . بينما تظهر وتعلو العناصر الغنية أو المناقفة التي تستطيع أن تحكم صناعة الانتخابات . وهذه المحاذير كلها لا توجد عندما تجرى الانتخابات على مستوى المنشآت .

أما الربط ما بين المجالس والديكتاتورية فهو أمر غير صحيح من الناحية الموضوعية ، بمعنى أن المجالس لا تقتضى — ضرورة — نوعا من الديكتاتورية . وواقعياء ، فإن هذا الربط كان نوعا من تداعى المعانى جاءت به التجربة الروسية . وحتى في التجربة الروسية فلم تكن السوفيتات هي السبب في الديكتاتورية . على العكس . لقد كانت السوفيتات هي أول ضحية الديكتاتورية التي جاء بها الحزب الذي أبدعه لينين وكان يضم كل السلطات في يديه ويخضع لتوجيه أقلية مصممة . وكان من حق السوفيتات الألمانية أن تنتهزاً من مثل هذا الحزب ، لأن إحدى إضافات روزا لوكسمبرج البارزة في الفكر الاشتراكي أنها نددت بديكتاتورية الحزب البلشفيكي ولم يكن تصديها له بأقل من تصديها للتنقيحية ، وكتبت في رسالتها عن الثورة الروسية

« إن الحرية عندما تكون لانصار الحكومة فحسب ، لأعضاء الحزب فحسب ، مهما كان عددهم كبيرا ، فإنها لا تكون حرية ، إن الحرية هي دائما حرية الذين يفكرون تفكيرا مختلفا .

ومع كبت الحياه السياسية للدولة ككل ، فإن السوفيتات أيضاً ستختنق ،

فبدون الانتخابات العامة ، وبدون الحرية غير المقيدة للصحافة والهيئات والنقابات ودون الصراع الحر للأراء والمعتقدات لا تلبث الحياة في كل الهيئات العامة أن تذبل ، وتصبح الحياة جوفاء تكون فيها البيروقراطية هي العنصر الفعال ، وما من أحد يستطيع أن يتحرر من هذا القانون ، وشيئا فشيئا تترك الحياة إلى سبات ثقيل على حين يدير ويحكم بضمة من زعماء الحزب بهمة لا تكل ومثالية لاحد لها . إنها ليست ديكتاتورية البلوريتاريا ، ولكنها ديكتاتورية حفنة من السياسيين .

والحقيقة أن نظام المجالس أكثر ديمقراطية من البرلمانية ، لأنه يعطي الناخبين سلطة سحب الثقة من المندوب ، وبذلك يقضى على كل احتمال للخروج عن إرادة القاعدة .

وهذه البراهين قوية ، وصائبة دون ريب ، ولكن أنصار البرلمانية كانوا يعلمون أن روزا لو كسمبرج في نقدها للبشافية نسيج وحدها . وأنها بين العمال صوت في البرية . . وأن هوى العمال الحقيقي في تلك المرحلة قبل أن تثبت التجربة صدق نبوءات روزا وتظهره للعيان هو مع التجربة البشافية وانهم ما أن يجدوا أنفسهم في مقاعد الساطة والحكم حتى يحنوا حنوها . .

وكان يمكن لأنصار المجالس أن يقولوا إن تكوين هذه المجالس لم يكن تماما مجرد تقليد أو اقتداء بالتجربة الروسية . ولكنه كان اجراء تلقائيا ، وطبيعيا للغاية ، ظهر في الأيام الأولى للثورة الألمانية لأنه كان الأسلوب العملي الوحيد والترجمة النيابية الممكنة لثورة يقوم بها العمال والجنود ، ولم يكن هناك بديل لها من وحى الساعة، فحيثما تتجمع الجماهير في مصانع أو ثكنات . . فإن الانتخابات التي تجري لابد وأن تأخذ شكل المجالس .

\* \* \*

وفي الأيام الأولى للثورة أكتسب العمال بفضل التحلل والهزيمة من ناحية والمد الثورى والمباداه من ناحية أخرى اليد العليا وناصرهم في ذلك المستقلون وأصبحت مجالس العمال إلى حد ما ، مصدر السلطة ، وقبل ابرت هذا الوضع على مضض ، وبأمل أن الأيام المقبلة ستؤدى إلى انحسار المد وتقلص المجالس خاصة وقد إتضح أن مجالس العمال والجنود في بقية الولايات الألمانية أقل تعصبا وحاسة من مجلس برلين ، وأن الكثير منها — خاصة بالنسبة للجنود — يتفق مع ما يذهب إليه الحزب الاشتراكى الديمقراطى ، من تسليم السلطة إلى الجمعية الوطنية وليس التمسك بها . .

ولم يكن هذا الأمر يرضى ليبكنشت وجماسته الذين استحوزت عليهم الثورة البلشفية . وكان تأييد لينين لهم يشد في أزهرهم ويمدحهم في غيهم ، ومن المحتمل أنه هو نفسه [ لينين ] كان مخدوعا في حقيقة الوضع فباستثناء مجموعة ليبكنشت وبعض المتعاطفين معها ، فلم يكن هناك تقارب بين المجموعات الأخرى والاتحاد السوفيتى ، بما في ذلك مجالس العمال والجنود نفسها ، وعندما تقرر عقد المؤتمر القومى لهذه المجالس ، أرسل الاتحاد السوفيتى — دون أن يدعى — وفدا يضم اساطينه : بخارين ورا كوفسكى واجناتوف Ignatov وراذك . فأرسل مجلس عمال وجنود برلين إلى الاتحاد السوفيتى يطلب إرجاء لإرسال الوفد بالنسبة للحالة الحاضرة ، ولم يأبه الاتحاد السوفيتى بهذا الطلب ، وسار الوفد حتى أوقفه الجنود على الحدود ووجهوا نحوه مدفعا رشاشا واجبروه على العودة . ولم يقبل راذك هذه الهزيمة فتخفى في زى جندى ألمانى جريح ودخل الحدود ، وأصبح أداة للاستشارة والتحريض وتنفيذ مخططات الاتحاد السوفيتى . .

واستهدف ليبكنشت وطاقمته الحيلولة دون إجراء انتخابات يكتسب



فيها ايرت الأغلبية ، فأخذ يفري الجنود الساخطين والعمال العاطلين ، كما أخذت فرقة بحارة الشعب تخرج من مكنها بين آونة وأخرى وتقتصب إغتصابا أقواتها وتموينها وفي يوم ٢١ نوفمبر حدث احتكاك بين عدد من البحارة وعدد من رجال البوليس قتل فيه بعضهم ، ويمكن ذلك لليبكنشت من إقامة جناز سياسي أتهم فيه الحكومة بخيانة الثورة .

وفي مناسبة أخرى أقتاد ليبكنشت بضعة مئات من الأطفال والتلاميذ إلى مجلس عمال وجنود برلين وهم يحملون الرايات الحمراء وتقدم قى في الساعة عشرة من عمره وقدم مطالب التلاميذ التي كانت تتضمن ابعاد ايرت وشيدمان ومنح حق التصويت لكل من يبلغ الثامنة عشرة من العمر .

واستغل ليبكنشت حركة قامت بها بعض العناصر البورجوازية في مساء ٦ ديسمبر بدعوى تأييد ايرت وهاجمت فيها مجالس العمال والجنود ودار صحيفة السبارتا كوسيين فأعلن عن مظاهرة كبرى اليوم التالي ( ٧ ديسمبر ) خضمت مئات الألوف . وأشرف ليبكنشت على المسيرة تحيط به العربات التي كانت كل منها ترفع مدفعا رشاشا حتى أحاطت بدار المستشارية وحاصرتها . وأطفالا القوميسرون النور ، وأخذوا يتابعون في الصمت والظلام تطور الأحداث . وشاهدوا ليبكنشت وهو يندد بهم ويقول بأعلى صوته « لقد اريناهم أن لدينا القوة على أقتلاعهم ، ولكنى لن أطلب الليلة سوى أن تهتفوا «لتحيا الثورة الاشتراكية . لتحيا الثورة العالمية» وأرسل القوميسرون أميل بارت الذي كان يعد أشدهم يسارية وقربا إلى ليبكنشت، ولكن الجماهير استقبلته بالصغير ولم تستمع إليه . .

على أن هذه الاستنارات والمضايقات كلها لم تحل دون أن يعقد المؤتمر القومى لمجالس العمال والجنود خلال الفترة من ١٦ ديسمبر إلى ٢٠ ديسمبر

سنة ١٩١٨ ، وكانت النقابات وإدارة الحزب الاشتراكي الديمقراطي قد استطاعت أن تقنع معظم المندوبين بسلامة وأمن الاتجاه البرلماني ، وهوس وخطر الاتجاه الشيوعي ولذلك فعندما قدم « دوميج » الشيوعي يوم ١٩ ديسمبر اقتراحه بجعل مجالس العمال والجنود أساسا للنظام السياسي وأن توضع في يدها كافة السلطات رفض هذا الاقتراح بأغلبية ٣٣٤ صوتا مقابل ٩٨ ، وأيدت قرابة ثلثمائة اجراء « انتخابات الجمعية الوطنية يوم ١٩ يناير سنة ١٩١٩ ، وانتداب مجلس القوميسرين للقيام بهم الساطة التنفيذية والتشريعية لحين انعقاد الجمعية الوطنية » وانتخب المؤتمر لجنة مركزية Sentralrat من سبعة وعشرين عضوا لها حق الرقابة البرلمانية .. وبذلك فقدت اللجنة التنفيذية لمجلس العمال والجنود في برلين ، التي كانت قوام الثورة ، شأنها ..

وبالطبع ، فإن هذه القرارات كلها أثارت ثائرة ليبكنشت والجناح الشيوعي بأسره ، ورفض الاشتراك في اللجنة المركزية ، التي أصبحت بذلك تتكون من الأغلبية وأعلنت مجلة العلم الأحمر .

« أننا لانترف باتفاقات الحكومة . إن رجال المؤتمر قد خانوا الذين أنتخبوهم وجاوزوا سلطاتهم . إن مجالس العمال والجنود لا يمكن أن تحل . لأن الذي أوجدها يوم ٩ نوفمبر كان العمل الثوري للجماهير . إن الساطة السكاملة الآن هي في أيدي أنصار شيدمان ، وليس هذا هو كل شيء . إن هازه لم يعد في مجلس القوميسرين . أجل هازه ، وكذلك ديتمان وبارت ، إن الجناح اليساري من المستقلين يرفض الدخول في المجلس التنفيذي ليستعيد شرفه .. بينما يظل البين لسكي يحمي البغاء السياسي » .

وليس معنى هذا أن الجناح الشيوعي خرج صفر اليدين من المؤتمر ، فقد استطاع أن يشير حماسة المؤتمر إلى حد كبير . وعندما اكتشفوا أن بين

المندوبين ثمانية عشر ضابطا أخذوا يهتفون « ليسقط الضباط » بينما أقنعم بعض أفراد فرقة بحارة الشعب القاعة مطالبين بتكوين حرس أحمر . وفي النهاية أستطاع الشيوعيون أن يحملوا المؤتمر على أن يؤيد ما سمي بنقط همبرج . لأن الذى تقدم بها كان « لامبل » مندوب همبرج . وكان يتضمن سبع نقط أرزها . .

- ١ — رفع كل علامات الرتب العسكرية كرمز لتحطيم العسكرية والقضاء على مبدأ الطاعة العمياء وعدم حمل الجنود لأسلحة عندما لا يكونون فى الخدمة .
- ٢ — تكون مجالس الجنود هى المسئولة عن الفرق وصيانة الضبط والربط .
- ٣ — ينتخب الجنود رؤسائهم ، ويمكن انتخاب الضباط السابقين الذين حازوا ثقة الجنود .

- ٤ — اتخاذ الاجراءات السريعة للقضاء على الجيش الدائم وتكوين الميليشيا الشعبية .

ووضع هذا القرار اىبرت فى مأزق - وبين خيارين حاسمين ، كان يمكن أن يرى فى هذا القرار تفويضا من الشعب لضرب العسكرية الألمانية التى طالما ندد بها الحزب الاشتراكى أيام القيصرية ، ورأى فيها حامية لكل الأوضاع الرجعية والطبقية ولم يكن ليجد فى هذا صعوبة كبرى لأن العمال والجنود فى صفه - ولأنه هو رئيس الحكومة الشرعية .

ولكن هذا الاختيار ، وإن كان ينجيه من العسكرية - إلا أنه فيما تصوره كان يوقمه فى يد الشيوعية الألمانية ، وكانت كراهته لها ، وما تحمله من وحشية وديكتاتورية وفوضى تفوق كراهيته للجيش والعسكرية خاصة وأنه تصور أن ولاء الجيش سيكون له باعتبارهُ رئيس الدولة فى حين أن مجالس الجنود لاتدين

بالولاء لغير نفسها ، وماتتصوره من مبادئ . وكان هناك عوامل أخرى خارجية لا تقل وزناً عن العوامل الداخلية ، فهناك الخلفاء الذين كانوا يقفون لألمانيا بالمرصاد ، وكانوا يرفضون أن يقوم في ألمانيا نظام شيوعي يستلهم ثورة أكتوبر السوفيتية ويرتبط بها بوشائج الولاء .

ولم يكن هناك شك في موقف القيادة العليا ، وأنها متعارض هذا القرار بشدة والواقع أن جرونر ذهب إلى ايبيرت يوم ٢٠ ديسمبر مصطحباً الخبير السياسي للقيادة العليا الميجور كورت فون شلنسر في ملابسهما العسكرية ونياشينهما وأعلننا بصراحة وبطريقة باتة أن القيادة لا تقبل هذا المراء .

وخرج ايبيرت من هذا المأزق بأن استثنى من تطبيق هذا القرار الجيوش الميدانية وأرضى هذا القيادة ، ولكنه أغضب زملاءه في الوزارة من الحزب المستقل الذين رأوا في هذا قضاء على القرار ، لأن القيادة تستطيع أن تدعى أن كل وحدة إنما هي جزء من جيش ميداني .

وفي هذا الوقت حدث تطور في موقف فرقة بحارة الشعب فقد حاولت الحكومة أن تجلي الفرقة عن القصر وأن تهبط بمددها من ٣٠٠٠ إلى ٦٠٠ . وفي ١٣ ديسمبر قدمت الحكومة ١٢٥ ألف مارك ووعد قادة الفرقة بتنفيذ المطلبين ولكنهم عادوا يوم ٢٠ ديسمبر فطلبوا من الحكومة ٨٠ ألف مارك كمنحة عيد الميلاد ورضخت الحكومة بشرط عدم دفع المبالغ إلا بعد إخلاء القصر وتسليم مفاتيحه إلى أوتوفيلز حاكم برلين . وفي صباح ٢٣ ديسمبر ذهب وفد من البحارة حاملًا مفاتيح القصر في حقيبة جلدية إلى دار المستشارية وقابل هوجو هازر القوميسير المستقل قائلاً إنه لا يريد التعامل مع فيلز - ولما كان هازر على وشك الخروج من دار المستشارية . فقد أشار عليهم بمقابلة برت . وكان برت في اجتماع فأشار باقتياد الوفد إلى ايبيرت . ولكن ايبيرت لم يكن موجوداً

وفي هذه اللحظة نفسها كان بعض البحارة يطالب فيلز بدفع المبلغ على أساس أن زملاءهم قدموا المفاتيح ولما اتصل فيلز ببرت قال هذا إنه لم ير المفاتيح. ولكنه متأكد أنها موجودة بدار المستشارية ولم يقتنع فيلز بهذا الإيضاح فنار البحارة وحطموا المكتب واختطفوا فيلز واثنين من مساعديه. وعادوا بهم إلى القصر الذي لم يكن قد أخلوه كما زعموا بينما حاصرت فصيلة من البحارة دار المستشارية وأغلقت أبوابها وقطعت الأسلاك التليفونية.

وعندما عاد ابرت إلى مكتبه اتصل بالبحارة وطلب اخلاء سبيل فيلز. ولكن هؤلاء طلبوا دفع المبلغ وإلا فسيضرب فيلز بالرصاص فاستمهلهم ابرت. واتصل عن طريق الخط التليفوني السري الذي يربط ماينيه وبين القيادة وأخبر شليسر الذي رد على التليفون أن الحكومة سيجتهدون المستشارية وطلب بحدة الجيش ورد هذا بأنه سيصدر الأمر فوراً بإرسال قوات الجنرال فون ايسكس. وهي إحدى القوات القليلة الباقية تحت تصرف القيادة وكانت تعسكر في ثكنات بوتسدام.

وفي منتصف الليل لان البحارة فكروا الحصار حول دار المستشارية وعادوا إلى القصر، بينما كانت فرقة الفرسان المعسكرة في بوتسدام على بعد خمسة عشر ميلاً من برلين تزحف على المدينة.

وعندما أحس البحارة بقدوم الجنود ثاروا وطلبوا من ابرت سحبهم. واتصل ابرت في محاولة أخيرة لحقن الدماء بالقيادة العليا طالباً سحب القوات لأن الأزمة انتهت ولكن القيادة لم نشأ أن تغلت من يدها فرصة القضاء على الفرقة السكريبية فرفضت وتقدمت فرقة الفرسان حتى أصبحت على مرمى المدافع من الاسطبلات وشاهد البحارة مبهوتين الجنود وهم ينصبون المدافع كما يشاهد المحكوم عاياه بالاعدام جلاديه وهم ينصبون المشنقة فلم يكن لديهم مدافع.

وفي الساعة السادسة والنصف من صباح ٢٤ ديسمبر طالب أحد الضباط البحارة بالتسليم خلال عشر دقائق ولم يرد البحارة . فقد استنجدوا تليفونيا بموانئ البلطيق ووعدوا بالنجدة العاجلة . . وفي الساعة السابعة بدأ الجنود يقصفون مبنى القصر ثم هاجموا فلم يجدوا فيه أحدا . فقد أخلاه البحارة وهربوا إلى الاسطبلات عن طريق ممر خفي فصبوت المدافع نحو الاسطبلات .

وفي منتصف التاسعة ارتفع علم أبيض على الاسطبلات وظهر وفد من البحارة يطلبون إيقاف النار لمدة عشرين دقيقة لوضع ترتيبات التسليم ولكن هذه العشرين دقيقة أنقذت البحارة فما أن توقف إطلاق النار حتى تدفقت الجماهير التي كانت تراقب المعركة عاجزة عن الحركة مازل إطلاق النار مستمرا . وتخللت الجماهير صفوف الجنود وأخذت تناشدكم الرحمة وكان بينهم نساء وأطفال وبهذه الطريقة تحلل الجنود وسط الجماهير وهرب الضباط وفشلت « معركة عيد الميلاد » وكتب للبحارة عمر جديد من حيث لم يحتسبوا .

وأدت هذه الأحداث إلى سلسلة من المظاهرات هاجمت فيها الجماهير الحائقة مبنى جريدة « فوروارتس » لسان حال الحزب الاشتراكي الديمقراطي (الأغلبية) واحتلوه وفي ٢٩ ديسمبر انسحب القوميسيرون المستقلون من الوزارة فعين محلم ثلاثة من الاشتراكيين الديمقراطيين (الأغلبية) هم نوسكه، وفيسيل ، ولوب - ولكن هذا الأخير لم يقبل المنصب وعقد اتحاد سبارتكوس مؤتمرا حضره كارل رادك وانتهى هذا المؤتمر بتأثيره إلى تكوين « الحزب الشيوعي الألماني » وأعلن عن تكوين الحزب في اليوم الأول من عام ١٩١٩ ووضعت روزا لوكسمبرج خطط سياسة الحزب وهي خطط اعتمدها الحزب وأخذها وإن كان قد خالفها في بعض النقاط مثل الاشتراك في الانتخابات البرلمانية التي حدد لها ١٩/١/١٩١٩ فقد كان من رأى روزا الاشتراك ولكن معظم الأعضاء رأوا غير ذلك .

كان الحزب الاشتراكي يتخبط وسط المتناقضات التي تحيط به وتلك اليأس ايجرت وذكر لجرونر عبر التليفون أن الوسيلة الوحيدة أمامه لدرا صدام دوى مع الشيوعيين هو أن يهجر دار المستشاريه ويختفى فإذا حضر ليكنشت لم يجد بها أحدا بينما يشكل هو الوزارة في مكان بعيد . ولكن جرونر أشار عليه برأى آخر . ذلك أن يستدعى نوسكه من كييل ويعهد إليه بمعالجة الموقف .

وكان نوسكه قد أوفد في الأيام الأولى في نوفمبر إلى كييل لمعالجة ثورة البحارة واستطاع أن يحتوى هذا التمرد ويحصره في أضيق نطاق . ونجح في هذا نجاحا لفت نظر ضباط القيادة العليا ، واستجاب ايجرت لفكرة جرونر واستدعى نوسكه .

ودخل نوسكه غرفة ايجرت في لحظة تاريخية حاسمة كان النقاش فيها يستخدم حول اختيار وزير الدفاع وكانوا قد انتهوا إلى تعيين ضابط هو الكولونيل والتروينهارد، ولكن رينهارد طلب أولا موافقة القيادة العليا . وغضب نوسكه وطلب البت في الأمر . وعندئذ سأله أحدهم هل يقبل هو فأجاب « بالطبع إن أحدا يجب أن يكون كلب الصيد . . ولن أتخلى عن المسؤولية » فأمسك رينهارد بخطاب التعيين وشطب بيده على اسمه وكتب فوقه « جوستاف نوسكه » . وكان تعيين نوسكه في هذا المنصب إيداناً بتقلص الفرصة أمام الشيوعيين . وأن الصراع دخل مرحلة جديدة هي نهاية البداية الثورية وفترة القلق إزاء تحديد المسار .

## الفصل التاسع

### سبارتا كوس يصلب من جديد

لم تكن روزا لوكسمبرج ترجم بالغيب عندما قالت إنه ما أن يظهر اتحاد سبارتا كوس حتى تتعالى صيحات العسكرين والبورجوازيين « اصلبوه » .

إنها بنت النتائج على المقدمات ، وقاست التاريخ الحديث على التاريخ القديم وتمثلت طبائع النفوس ونوايس المجتمعات . ولم تسمح للأوهام أن تحدوها عن طبيعة الاستقبال الذي ينتظر سبارتا كوس الجديد .

ولكنها مع هذا تصورت أن سبارتا كوس الجرمان سيكون أصلب عودا من سبارتا كوس الرومان . . وفي هذه النقطة فحسب أخطأها التقدير . . لأن الذي تصدر المسيره لم يكن القائد ولكن الديماجوج .

\* \* \*

في ٤ يناير والجموع التي ألها ليبكنشت تكتسح برلين ، دعا جنرال اسمه فون ميركر Von M ercker ايبرت ونوسكه للذهاب إلى ضاحية زوسن Zosson التي تبعد ٣٥ ميلا من برلين ليطلعهما على سره الرهيب . . في الوقت الذي تحلل الجيش وتهاوى الضبط والربط في كل وحدة استطاع ميركر بالعمل في هدؤ وصمت أن يجتذب أربعة آلاف متطوع وأن يدرهم تدريبا مستمرا بحيث يصبحون مقاتلين أشداء ويكونون الفرقة الأولى من تلك الفرق التي سيصبح ظهورها وتأخذ شكلا وبائيا وتحمل إسم « الفرق الحرة » .



وليس من العجيب أن يستطيع جنرال تجنيد وتدريب مثل هذا العدد مع حالة الفوضى التي سادت البلاد إذا وضعنا في حسابنا التقاليد العسكرية الألمانية ومدى عراقتها وأنها عبأت مليونين من الجنود ، وكذلك حرص الضباط على الاحتفاظ ببعض الفرق التي تكون نواة الجيش عندما تتحسن الأحوال ، كما أن تحلل الجيش الرسمي دفع بعض المدنيين المتحمسين لدخول الميدان ومحاولة سد النقص ، ففي يوم عيد الميلاد عام ١٩١٨ كون فرانز سيلدت Franz Seldte وهو تاجر خور في ماجدبورج فرقة الخوذة الفولاذية وابتدعت القضاء على الثورة واستعادة القوة العسكرية الألمانية واعتبر المارشال هند نبرج رئيساً فخرياً لها ، كما عمل في خدمتها بعد تقاعده الجنرال المشهور « فون سيكت » رئيس الأركان والذي سيؤدي دوراً بارزاً في سير الأحداث فترة الجمهورية .

ومن ناحية أخرى ، فإن نوسكه ان ولى وزارة الدفاع حتى دعم مناصبها الرسمية بنخبة من أذكي الضباط الذين اختارهم بعناية القيادة العليا . وكان أركان حزبه الميجور إيريش فون جيبسا سليل أسرة من النبلاء شغل أفرادها المناصب العسكرية لأجيال متتالية ، كما عين فون لوتفيتز Von Lutwitz حاكماً عسكرياً لمدينة برلين ، واختار للقيادة في مناطق معينة من برلين ضباطاً أكفأ وطموحين مثل فون ستيفاني وفون ستوكهوزن وفون هامرشين .

وكأنما كانت هذه الترتيبات على ميعاد . فبعد يومين من استعراض إيبيرت ونوسكه للفرقة الحرة في زوسن - أى يوم ٦ يناير اندلعت الشرارة التي أضرمت الثورة الشيوعية التي طال انتظارها .

وكان السبب المباشر هو اقالة اميل ايشورن الذي كان من غلاة الحزب الإيثتراكي الديمقراطي المستقل ، وكان منذ قيام الثورة قد احتل مقر البوليس .

وأعلن نفسه رئيسه ومارس هذه السلطة بطريقة اعتبرت تستر على المتمردين على الحكومة أكثر مما هي حفاظا على الأمن ، وعندما وقع صدام « عيد الميلاد الدامي » ودار القتال أمام الاسطبلات أعلن أن البوليس « محايد » ولم يحاول نصرة الحكومة كما لم يكن يخفى معارضته لانتخابات الجمعية الوطنية ، وهي سياسة يمكن تفهمها عندما نعلم أن ايشورن عمل حينما من الدهر في خدمة سفارة الاتحاد السوفييتي تحت إمرة جوف ، وكان ايبير يتحمل صفاقة ايشورن لأنه كان جزءا من صفقة مع المستقلين ، فلما انسحبوا في ٤ يناير أمر باقالته .

ولكن ايشورن رفض تنفيذ القرار ، وهرع إلى مقر الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل واجتمع قاداته بالمندوبين الثوريين والحزب الشيوعي وأصدروا بياناً مشتركاً طالبوا فيه ببقاء ايشورن وناشدوا الجماهير القيام بالمظاهرات لتأييد ذلك . ولبت الجماهير هذا النداء وامتلأت الميادين والشوارع المحيطة بمقر البوليس ميدان « الكساندر بلاس » والمتفرعة منه ، وكانت الجماهير من الكثيرة والكثافة بحيث أدهشت المنظمين للمظاهرة أنفسهم ومن شرفة مقر البوليس ألقى زعماء المظاهرة الخطابات الحماسية .

وداخل المبنى عقد اجتماع موسع لقيادات هذه المجموعات الثلاث حضره ٧١ فردا مثل الشيوعيين منهم اثنان فحسب هما ليكنشت وويلهم بيك . أما الباقيون فكانوا من المستقلين أو المندوبين الثوريين واتخذوا بأغلبية ٦٥ إلى ٦ قرارا خطيرا هو الدعوة للاضراب العام ، وتأييد هجوم مسلح على الحكومة . . ووضع ألمانيا في طليعة الثورة البلوريتارية العالمية . .

ولم تكن هذه القيادات قد اجتمعت لاتخاذ هذا القرار بالذات وكان يجب على أعضائها - وهم جميعا من القيادات المسئولة - أن يعلموا خطورة قرارهم

هذا ، وأنه كائننا ما كان وهن الحكومة فإنه يعنى الحرب الأهلية فى كل مدينة .  
وليس فى برلين وحدها وأن الانتصار فى برلين - حتى لو كان مضمونا -  
فإنه لا يكفل ضرورة الانتصار فى النهاية وأن الثورات حتى على أقل المستويات  
لا يمكن أن تتخذ فجأة ودون درامة مفصلة وأن الفشل فى هذه الخطوة الخامسة  
يعنى تصفية القوى الثورية .

كل هذه اعتبارات من العسير علينا أن نتصور أنها دقت على المجتمعين .  
ولكن الذى حدث أن المد الثورى وموجه الحماسة اذابت كل اتران أو تعقل .  
وجعلت المندوبين يجهزون فجأة بأن ساعة الثورة قد دقت ، وكان الرسل  
يهرعون بين آونه وأخرى بالأنباء والتنازع عن التحركات الكاسحة للعمال  
المسلحين . وعن استعداد فرقة بحارة الشعب للعمل تأييدا للثورة ، وقيل إن  
ألفى مدفع رشاش وعشرين مدفع هاون ستكون تحت طلب النافرين فى مبانيدو .  
فالثورة التى يتحدثون عنها قد بدأت بالفعل وهل هناك دليل أكثر من أنهم  
يناقشونها فى مقر إدارة البوليس . .

أضف إلى هذه المشاعر التى انتظمت الجميع اندفاع ليبكنشت فمع أنه لم يحضر  
من الشيوعيين سوى اثنين وأن ليبكنشت كان يعلم أن سياسة الحزب المعلنه  
والتي وضعتها روزا لوكسمبرج وتمسكت بها هى الاثارة والدعاية بين صفوف  
العمال حتى يدعى الحزب بحكم الأغلبية لتقلد السلطة دون حاجة إلى انقلاب . .  
فإن من المؤكد أن ليبكنشت تزعم الدعوة للثورة ، وأن انقياد المجتمعين لهذا  
الرأى يعود إلى حد كبير لتزعم ليبكنشت له ووقوف ليبكنشت هذا الموقف  
أمر يثير التساؤل ، فهل حقاً انساق وراء هواطفه ، أو أنه كان لديه من الأسباب  
الخاصة جداً ، والسرية ما يجعله يقفه ، وهل من المحتمل أن يكون وراء هذا  
الموقف « معاهدة » بينه وبين السوفيت عقدت فى أواخر سنة ١٩١٨ لتأييده .

عسكرياً بمجرد إعلانه الثورة ، على حد ما روى مليوكوف Milukov ؛ أو حتى اتصالات مكشوفة بهذا المعنى وان لم تصل إلى مستوى « المعاهدة » ؟

وعندما استقر الرأي على هذا القرار بدأت كتابة المنشورات لبدأ الأضراب في اليوم التالي واختار المجتمعون لجنة ثورية من ٥٣ عضواً ووضعت هذه منشورات لنوزع عقب قيام الأضراب العام تعلن سقوط حكومة ايبرت — شيدمان وإن اللجنة الثورية قد قبضت على زمام الأمور . كما بدأت عملية توزيع الأسلحة .

وبدأ الأضراب العام في موعده المحدد — ٦ يناير — وسارت مظاهره ضمت قرابة ٢٠٠.٠٠٠ عامل بينما احتملت مجموعات من العمال وكافة انباء ولف ومعظم دور الصحف ، وفي صباح اليوم التالي ( ٧ يناير ) استولى العمال على بوابة براند بورج وألقوا عليها المدافع — وأصبح باستطاعتهم إطلاق النار من هذا المكان المرتفع على الجهات الأربع — كما استولوا على دار طباعة الحكومة ومحطات السكك الحديدية وحفرت الخنادق ووضعت المناريس .

وفي ٧ يناير كانت الحكومة قد بلغت أقصى درجة من الضعف وأعلن أحد الوزراء في اجتماع الوزارة بدار المستشارية « ان الاسبرتا كوسيين قد استولوا على مبنى إدارة السكة الحديد ، ووزارة الخريمية هي الثانية في الترتيب ، وبعدها سيأتى الدور علينا » واقترح برنشتين وبعض المعتدلين من المستقلين مثل كوتسكى وهيلفردنج فتح باب المفاوضات مع الثأرين ، ولكن كل محاولات التفاوض ذهبت هدرا ، ذلك أن ليبكنشت كان في حكم الواثق من النجاح وقد امرت اللجنة الثورية بطبع بيان في ثمان صفحات بمجرد تقلد اللجنة السلطة .

ولكن موقف الحكومة لم يكن ميثوباً منه ، كما تصور ليبكنشت ، فقد

ذهب نوسكه إلى ضاحيه داهلم Dahlem ليمبأ الجنود ، واستطاعت الوزارة عندما استنجدت بالمواطنين أن تسليح خمسة الاف من الموظفين المدنيين وعهدت إليهم بحراسة المباني واستطاع هؤلاء المتطوعون أن يستولوا على بوابة براندبورج وينحوا الثوار عنها وأرسل ايبرت أحد كبار معاونيه إلى فرقة بحارة الشعب ليكسبها إلى صف الحكومة . وحاول زعيم الفرقة الذي وعد الثوار بالمعونة أن يلقي القبض عليه ، ولكن البحارة الذين أعادوا التفكير في الأمر وخافوا مغبة مقاومة الحكومة حرروا مندوب ايبرت واعتقلوا قائدهم نفسه وأعلنوا حيديتهم . وغنى عن القول أن كل القوى العسكرية قد رحبت بهذه الفرصة التي تمكنها من الخلاص مرة وإلى الأبد من الشيوعيين المقيتين . وظهرت عشرات الفرق الحرة يقودها ضباط ممرسون . وعزفت الطبقة الوسطى الصغيرة عن تأييد الثأرين ، ولوثت القسوة والوحشية التي مورست بها الثورة البلشفية حركة الثورة الألمانية ، والصقت بها . واعتقد إن حقاً أو باطلاً أن كل ما طبقه البولشفيك في روسيا سيطبقه الشيوعيون في ألمانيا . وكانت للملصقات الكبيرة تعلن أن الوطن في خطر وتضم الحركة بالعمالة لروسيا وتحذر المواطنين من الأعدام والمصادرة « وتأميم النساء » . واصدرت الحكومة نفسها بيانا حذرت فيه الشعب من أنه إذا انتصر السبرتا كوسيون فسيكون في ذلك القضاء على الأمن والحرية وردت مجلة العلم الأحمر على ذلك « اليوم لن تكون هناك رحمة لاشتراكيي ايبرت وليس إلا الضربات » .

وكأننا ما كانت للبالغة في هذه الادعاءات ، فإنها لم تخل من حقيقة . فمن الوقائع الثابتة أن السفير السوفيتي جوف كان يصرف بسخاء ، ويضع الخطط ويقدم المنظمين والمهيجين ، وعندما طرد جاء رادك الذي لم يقلع عن تشبيه الوضع في ألمانيا بالوضع في الاتحاد السوفيتي قبيل ثورة أكتوبر ، بل إن

دعوى تأميم النساء — على ما فيها من سخف وإثارة — لم تخل من أصل  
فقد ظلت دعوة « الحب الحر » تسير الدعوة الاشتراكية وتضطرب بهما ،  
ولم يبذل الاشتراكيون جهدا في إبعادها ، أو يستطيعون لها تقنيدا على  
أسس مبدئية ، وعندما انتشر الحب الحر في الاتحاد السوفيتي غداة الثورة ،  
وذاع أن الممارسة الجنسية ليست إلا كشربة من كوب ماء ، لم يبذل لينين  
إلا جهدا ضئيلا ولستر بعض المظاهر في مقاومة هذه الفكرة ، وإن ظل هو  
نفسه بعيداً عن التحلل الجنسي .

\* \* \*

وهكذا استطاعت الحكومة أن توجه قوة كبيرة تحت قيادة الميجور  
فون ستيفاني لتحتل الميدان المواجه لدار جريدة فوروارد التي اعتبرت قيادة  
الثورة ولتسد كل المنافذ إليه حتى لا يتكرر فيه ما حدث عند قصف بحارة  
الشعب . وكان ستيفاني نفسه قد تخفى في زى عامل ودخل مبنى الجريدة ، وألم  
بتحصينها ، فوجه إليها مدافعه وعندما أحدثت فجوة كبيرة في المبنى تقدمت  
دبابه وحطمت الأبواب وتبعها العربات المدرعة التي كانت تحمل الجنود  
وكان عدد المدافعين عن الجريدة ضئيلا بالنسبة لعدد الجنود ودافعوا بشراسة  
ولكن أسلحتهم الصغيرة لم تجد أمام مدافع الهاون . . ولم يرحم الجنود أحدا  
فأعدم فوراً كل أو معظم من أسرتهم .

وكان نومسكه ينظم حشد وسير القوات التي أخذت تزحف على برلين  
يوم ١١ يناير بعد أن وضعت خطة دقيقة لتطويقها وتشيطها بحيث تصفى كل  
العناصر الثورية ووزعت هذه القوات نفسها على أحياء المدينة وحدودها .  
وخلال الأيام الثلاثة ١٣ و ١٤ و ١٥ سقطت المدينة في يد الجيش وصغيت  
الجيوب الثورية جيبا جيبا وقبض على زعماء المستقلين والشيوعيين بينما عرضت

جمعية مقاومة البلشفية عشرة آلاف مارك ثمنا لرادك . ولكن رادك استطاع الفرار هو وياشورن — سبب هذه المصائب كلها .

أما الطالبان الثمينتان : روزا لوكسمبرج وكارل ليبكنشت ففقد وشى بهما فيما يبدو ، فقبض عليهما في مساء ١٥ يناير وأخذنا إلى قيادة قوة الفرسان التي كان مقرها فندق ايدن حيث ضربا . وفي الليل عند إخراجهما اكل على حدة من باب الفندق رفع جندي عتل يدعى رنج Runge بندقيته وهوى بها على رأس ليبكنشت الذي سقط لتوه ، وأصبح إلى الموت أقرب منه إلى الحياة ، فقفى به إلى عربة تقل ستة من الضباط ، سارت في اتجاه معجن مواييت Moapit ، وبعد لحظات أخرجت روزا لوكسمبرج من باب الفندق حيث كان الجندي الشرير نفسه — رنج — يترصدها — فضربها ببندقيته وقذف بها إلى عربة كانت تقل الملازم فوجل .

وأوقفت عربة ليبكنشت في الطريق حيث أطلق عليه النار بدعوى أنه حاول الهرب وعلقت جثته إلى المشرحة على أساس أنها « جثة لرجل مجهول وجد في التيرجاردن » ، أما روزا فما من أحد يعلم أكانت حية أم ميتة عندما ألهب فوجل رأسها بطلقة مباشرة وألقيت جثتها في إحدى القنوات ، ولم تستخرج إلا في ٣١ مايو .

إن نسل أين قبور العظما

فعلى الأفواه . . أوفى الأنفس . .

\* \* \*

بموت روزا لوكسمبرج فقدت ألمانيا زمامة الفكر الاشتراكي الدولي ، تلك الزمامة التي انتزعها ماركس من الاشتراكيين الفرنسيين والإنجليز ودعها أنجليز ، وكانت روزا هي « الأمازونة » التي تأتي مباشرة بعد ماركس ١٣ — سقوط وظهور

أو أنجز والشخصية النسائية الوحيدة في الفكر الاشتراكي التي وصلت إلى هذه المنزلة، وانتقلت زعامة الفكر الاشتراكي إلى روسيا بفضل فكر بليخانوف . . وعمل لينين وكتابة ترونسكي .

وفقد الحزب الشيوعي الألماني منزلته الرفيعة بعد فقد الفكرة الوحيدة التي كان يمكن أن تنصدي للينين تنصدي الند للند بل وتغلبه في حلبة الجدل المذهبي . .

وفقدت ألمانيا أيضا أملها الأخير في الثورة الشيوعية، ولم تقم لها قائمة رغم ما سيلي من محاولات كان الألمان يقومون بها عندما تصدر إليهم الأوامر من موسكو . .

واستطاع العسكريون الألمان بهذا العمل الأثيم أن يحققوا هدفًا مزدوجًا: أن يتخلصوا من أعدى أعدائهم وأن يلوثوا حكومة إبيرت، وقد نجحوا في الهدف الثاني كما نجحوا في الهدف الأول لأن الحكومة رغم استياء إبيرت عجزت عن الاقتصاص من قتلة روزا وليبيكنشت . فقد حكم على أربعة من الضباط بالموت ولكن المحكمة أفتدتهم وحكم على رنج بالسجن عامين والملازم فوجل عامين وأربعة أشهر ولكنه عبر الحدود إلى هولندا بجواز سفر مزور . وفي النهاية تمخضت العملية كلها عن سجن عسكري واحد .

ومن العسير التنبؤ بما كان يمكن أن يحدث لو قدر لروزا لو كسمبرج أن تعيش وتواصل كفاحها، فترى هل كانت الأحداث والضرورات تقهرها وتغلبها على رأيها وتجعلها تلوذ رغم أنفها بصور من السكبت والديكتاتورية . . أو هل كانت تنجح فتقدم إضافة جديده مبدعة . . ؟ إن النقد الأكبر الذي يمكن أن يوجه إلى روزا هو أشبهها الشديد وإلى النهاية بفكرة الطبيعة العالمية للثورة الاشتراكية، وكانت هذه الفكرة شائعة بين كل الاشتراكيين



تجيبيل الحرب العالمية الأولى .. وكان لينين أحد كبار المؤمنين بها ، وكان يرى أن قيامها - وفي ألمانيا بالذات - هو الذى يؤمن الثورة السوفيتية بل إنه فى بعض الأوقات كان يعلمها على الثورة السوفيتية نفسها ، وقد ظل يترقبها يوما بعد يوم قبل أن يوقع معاهدة بريست ليتوفسك المهيينة .

وفى المؤتمر السابع للحزب الشيوعى أعلن لينين يوم ٧ مارس سنة ١٩١٨ « أن الثورة الروسية ستسكون عملية ميثوس منها إذا بقيت وحيدة ، وإذا لم تقم ثورات فى الدول الأخرى . وأن الذى سوف ينقذنا - وأكرر ذلك مرة أخرى - هو الثورة الأوروبية » واستطرد « إنها حقيقة مطلقة أننا دون الثورة الألمانية سنهلك ، وقد لا يدركنا الهلاك فى بتروجراد - أو موسكو أو حتى فى غيلاديفستوك أو غيرها من المناطق النائية التى يكون علينا الانسحاب إليها . ولكننا سنهلك فى مطلق الأحوال وبالرغم من جميع التحولات الممكنة إذا لم تشمل الثورة الألمانية » ومع هذا فإنه أدرك أن الثورة الألمانية المنشودة لن تأت بالسرعة المطلوبة ، ووضع حساباته وقراراته على هذا الأساس الواقعى بالفعل .. ومن الناحية النظرية فإن فكرة الاشتراكية فى دولة واحدة لا يمكن أن تكون خطأ تماما . وقد لاحظ تروتسكى - وهو نفسه من دعاة الثورة العالمية - أن احتمالات نجاح الثورة فى ألمانيا الصناعية المتقدمة كانت أكثر من احتمالات نجاحها فى روسيا المتخلفة ، وقد دعا إلى مثل هذا رأى الاشتراكي الديمقراطى « فونار » الذى كان يعد من أعمدة التنقيحية - دع هناك أن المناخ الذى كان يحيط بروزا كان مناخا وطنيا متعصبا وأن الظرف كان ساخنا بل ملتها ولم يكن يسمح بحديث عن العالمية ، بل كان يرى فى مثل هذا الحديث خيانة ..

وفى وزننا لشخصية ومكانة روزا يجب أن لا ننسى أبدا أنها أولا وأخيرا

ماركسية وقد زج بها ليمانها بالماركسية في بعض الحالات إلى صور من الفظاظه والحلدة غريبة عن طبيعتها التي كانت تنبسط وترقش بشكل تفرق النسيم أمام الفنون والآداب والإنسانيات، ويمكن القول أن سوءاتها المحدودة تعود إلى عناصر ماركسية، بينما أنبثقت حسناتها العديدة عن طبيعتها السكرية الذكية، الشجاعة . .

بالإضافة إلى هذا كله فقد كان هناك عامل خاص تنبه إليه إيسرر ورجال الحزب الاشتراكي الديمقراطي للمستولين، بل كانوا يضعونه في صدارة الاعتبارات، ولم يظفر مع ذلك بأى اهتمام من الشيوعيين على اختلافهم، هذا العامل هو موتف الحلفاء واحتمال تدخلهم أو على الأقل استمرار فرضهم للاقتصادى الذى كان يهدد ألمانيا بالحجاعة .

ولم تكن هذه المخاوف خيالية أو وهمية وقد يوضح فكرة رجال هذا العهد وقتئذ ذلك الحديث الذى دارما بين جوليوس برونثال ورودلف هيلفردينج الذى كان من أبرز شخصيات الحزب الاشتراكي المستقل ورئيس تحرير صحيفة « فريهيت Freieit » سنة ١٩١٩ . ففي هذا الحديث سأل برونثال .

— ولكن لنفترض أن اليسار الاشتراكي في ألمانيا حصل أخيراً على السلطة — ولا يزال احتمال هذا قائماً — أفلا تسنح من ذلك فرصة لتتحول ألمانيا إلى سوفيتية وتلحق بروسيا . إن هنغاريا قد أصبحت جمهورية بلشفية . والنمسا على أبواب ذلك فإذا أصبحت ألمانيا بلشفية ، فيمكن أن تحذو حذوها بولندا وتشيكوسلوفاكيا أفلا ترى هذا .

— هذه هي اليوتوبيا الكلاسيكية التي لا يزال يتشبث بها اليسار ، ولكن بصرف النظر عما إذا كان النظام السوفييتي مغلوباً فإن تحقيق ذلك مستحيل تماماً من وجهة النظر الداخلية والخارجية على سواء . نفيًا يتغلق بالاتجاه .

الداخل للبلاد فقد قامت محاولة لذلك في نوفمبر عند البارقه الأولى للثورة ،  
ومع أننا لم ننجح ، فقد كان هناك على الأقل فرصة شريطة أن لا يتدخل  
الحلفاء وهو ما كانوا سيفعلونه وستؤدي مثل هذه المحاولة الآن إلى أعنف  
صور الحرب الأهلية ، وما تجره من عواقب وخيمة . وفيما يتعلق بالنتيجة فليس  
هناك أي شك . . فسيزحف الحلفاء على برلين وسيحتلون البلاد ، وسيقيمون  
حكومة معارضة للثورة وسيكون ذلك نهاية الأمل في التقدم للجيل المقبل .

ولاتنس أن المنتصرين في هذه الحرب ليسوا هم الشعب الفرنسي والإنجليزى  
وإنما هم الامبراليون الفرنسيون والإنجليز . إن ثورتنا كان محكوما عليها  
بالفشل من البداية . . لقد جابهنا الامبراليون القساة المتعنون بقناع ديمقراطى .  
ولما كانوا يخشون البلشفية فإنهم كانوا سيرفضون مفاوضه أى حكومة  
لا تنتخبها الجمعية الوطنية . وهذا هو السبب فى أنهم لم يرفعوا الحصار عن  
ألمانيا الثورية . . إنهم يجمعونها .

— وماذا تظن سيحدث لألمانيا .

— إنما ستصبح ديمقراطية رأسمالية ، ومن بعض النواحي فإنها قد تصبح  
أكثر الدول الرأسمالية تقدما . ولكن ستظل ألمانيا هيكلية رأسمالية —  
حتى تأتي<sup>(١)</sup> الفرصة التالية التى يمكن أن يقدمها لنا التاريخ .

وكل من يتذكر المحاولات العديدة التى بذلها الحلفاء لؤاد الثورة الروسية  
والمساعدات التى قدموها لجنرالات الجيش القيصرى والحصار الذى طوق  
روسيا وأن هذا كله كاد أن يقضى على الثورة الناشئة لولا العوامل الاستثنائية  
التي أحاطت بهالة كتفرقه كلمة الجزرالات البيض أو العوامل الخاصة

(1) In Search The of Millenium hsy Julius Braumthal p. 244

بروسيا بالذات مثل المناخ الذي كان يجعل في خدمتها قائدا لا يقهر هو « الجنرال شتاء » ومثل سعة الرقعة التي كانت تستغرق وتبتلع أى جيش مهمل كبر ومثل الموقع الجغرافى الذى كان يجعلها بعيدة عن يد الحلفاء . ولم يكن لألمانيا هذه المزايا . فقد كان مناخها هاديا بالمقاييس الأوروبية ورقعتها محدودة وهى مطوقة بالحلفاء . . وكانت فرنسا لها بالرصاد واحتلت السار بالفعل عند أول خلاف . من يقدر هذا لا بد وأن يسلم أن كلام هيلفردنج لم يكن خيالا أو وهما وإنما كان حقيقة ، وأنه كان حقيقة بالنسبة لذلك الوقت كما كان حقيقة بالنسبة لتصور المستقبل عندما جاءت الفرصة التالية وتحولت أوروبا الشرقية إلى معسكر اشتراكي . والتحفظ الوحيد هو أن العالم الغربى والرأسمالى تعلم من خطئه السابق « عندما جاءت الفرصة التالية » فلم يسمح تشرشل وروزفلت للحقد الأعمى والسخيمه السوداء أن يوصلا بهما إلى ما وصل إليه بلويد جورج وكليمنصو . إنهما غداة الانتصار أخذوا بينيان بالأوال ما هدمه بالقنابل . واستطاعا بذلك أن يستنقذا الجزء الأعظم من ألمانيا من قبضة البلشفية بعد أن كادت تذهب بها .

وبصرف النظر عن هذه الاعتبارات كلها ، فإن ثورة يناير لم يتوفر لها أقل استعداد يفترض أن يتوفر لآقل ثورة . كانت نوايا من اللعب بالنار ، والمغامرة الحماسية وقد اتخذ قرارها فجأة ودون سابق اعداد فى اجتماع ا كتستحته العاطفه . فلم تدرس عمليات الثورة . أو توضع الحلول البديله لاختلاف الاحتمالات ولم توجد اللجنة التنفيذيه المحدودة والمترابطة والحازمة . وكان لدى ألمانيا من الجماهير التى لبث نداء الثورة بالفعل أضعاف الجواهر التى أبدت البولشفيك . ولستكن لم يكن لدى الألمان أركان حرب الثورة وقد وصفت مجلة العلم الأحمر اضراب ٦ يناير .

« ومن المحتمل أن ما حدث يوم الاثنين فى برلين كان أعظم عرضا

برولينارى فى التاريخ . فمن تمثال رولاند فى مواجهة قاعة المدينة إلى تمثال النصر فى كونيغزبلاتز كان العمال يقفون كنفاء إلى كنف وقد أحضروا معهم أسلحتهم وأعلامهم الحمراء . . . وكانوا على استعداد لعمل كل شىء . . . ولتقديم كل شىء . . . حتى حياتهم . كان هناك جيش من ٢٠٠.٠٠٠ لم يشهد أى « لودندورف » من قبل .

وعندئذ حدث آخر شىء كان يخطر بالبال . لقد كانت الجماهير مجتمعة من التاسعة صباحا فى البرد والضباب بينما كان زعمائهم فى مكان ما يأترون وانتشع الضباب وهم لا يزالون واقفين وزعمائهم لا يزالون يأترون . . . وجاء الظهر وجاء معه بالإضافة إلى البرد الجوع . . . ولكن الزعماء كانوا يأترون . . . كانت الجماهير تنقد حماسه . . . تريد أى شىء . . . ولو كلمة واحدة . . . ولكن ما من أحد قال لهم شيئا لأن الزعماء كانوا يأترون وعاد الضباب مرة أخرى وجاء معه الفسق والظلام فعادوا إلى بيوتهم أسفين ، لقد أرادوا أشياء عظيمة ولكنهم لم يفعلوا شيئا لأن زعمائهم كانوا يأترون . . . لقد اجتمعوا فى « مارستال » ثم عادوا إلى مركز البوليس وهناك جلسوا الليل بطوله . . . وعندما أشرق الفجر كانوا لا يزالون يأترون . . .

ونتيجة لعدم الاستعداد وعدم وجود الكوادر الموثوق بها والتي يوكل إليها تحريك الجماهير وتوجيه الثورة فى مختلف المواقع . فقد أندس عدد من « العملاء المهيجين » بين الجماهير المستناره ، واستغلوا حماسها فى غيبة القيادات المسئولة . وقد أظهرت التحقيقات التى أجراها — فيما بعد — اللديت البروسى أن معظم النداءات التى وجهت للجماهير لاحتلال دور الصحف إنما جاءت من العملاء المهيجين ، أو على الأقل من عناصر لا علاقة لها بالثأرين وقد قاد المجموعة التى احتلت « فوروارد » الفرد رولاند الذى اكتشف فيما بعد أنه عميل مهييج .

—٢٠٠—

وكانت السلطات التي جابهت الثورة الألمانية أقوى من السلطات التي جابهت الثورة البلشفية .. ومن المحتمل أن كرايسكي كان أكثر تألقاً من ايبرت ، ولكنه لم يكن له حزب منظم مثل الحزب الاشتراكي الديمقراطي ( الأغلبية ) وكانت الأغلبية ضد الثورة في ألمانيا على عكس ما كان في روسيا . وكانت الطبقة الوسطى الألمانية مضادة للثورة ، بينما لم يكن في روسيا طبقة ووسطى تقاوم الثورة وكان نوسكه والعسكرية البروسية في ألمانيا أقدر من الجنرالات القيصريه في روسيا وأخيراً جداً فلم تتوفر لقومة يناير الشخصيات القديرة التي تدير الثورة على هدى وبصيره .

ولو أردنا تحديد مسئوليات فشل قومه يناير لوجدنا أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل الذي كان يفترض أنه المسئول الأول عنها لم يكن موجوداً فيها .. لا بجمهوره .. ولا بقياداته ..

ولوجدنا أن المندوبين الثوريين الذين يلون الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل في الوزن ، والذين أيدوا الثورة ، نجحوا في دائرة تخصصهم - تعبئة العمال والقيام بالاضراب - ولكنهم خارج هذه الدائرة لم يفعلوا شيئاً .. ولعل أكثر الزعماء مسئولية عن قيام الثورة ، وفشلها هو ليبكنشت .. والخطأ في ليبكنشت أنه لم يفهم الثورة إلا أنها استعراض جماهيري واستنارة عاطفيه ولم يذهب أبداً إلى ما هو أبعد عن ذلك .. حتى عندما تكون الثورة في متناول يده ..

وقد أوردنا شواهد عديدة .. تنبئ بأنه أنه لو سار خطوة بعد الخطوة التي وقف عندها .. لتغيرت الأحوال .

أما روزا لو كسمبرج فقد برأت صاحبها كتاباتها العديدة المعارضة للثورة .. وعندما عاد إليها ليبكنشت بقرار اللجنة قرعته وذكرته بالسياسة المقررة

الحزب التي كانت ضد افتعال الثورة . وحاول رادك أن يحمل روزا على أن تنسك للقرار « فلاخطاء يجب أن تصفي فوراً . مهما كانت النتيجة » وكان في هذا مصيباً ولكن روزا آثرت أن تقف مع الجماهير في محنتها . . . وإلى النهاية وفضلت الخطأ للنيل على الصواب الرذيل . . . ودفعت حياتها ثمناً له وأغلب الظن أنها كانت تعلم ذلك أو تحسه لأنها اعترفت أن الثورة فشلت . . . ولكنها لم تفقد أبداً إيمانها في عودتها وانتصارها . وقبل مصرعها بيوم واحد كتبت في مجله العلم الأحمر مخاطبة المنتصرين .

« أيها الحق . . . إن نظامكم يقوم على الرمال وفي الغد سترفع الثورة رأسها من جديد وستصيح بمثل دوى الرعد . . .

لقد كنت . . .

وها انذا . . .

وسأكون . . . »

فهل كان نوسكه يعلم أن هذه ليست نبؤة طائشه أو بلاغه فارغه . . . وهل كان يخطر بباله أن الثورة الشيوعية المقيته ستعود بعد عشرين عاماً . . . وبعد كل بهرة الهتلرية ، وسيكون على رأسها تلميذ روزا وزميل ليكنشت في ذلك الاجتماع المشؤم الذي قرر الثورة « ولهم بيك . وأنه سيكون قاب قوسين من الوقوع في يدها ولن يستطيع الفرار إلا في آخر لحظة . . . وبصعوبة . . .

وكثيراً ما يخطر للإنسان أن جزءاً من قمع الحركة بهذه الوحشية إنما يعود إلى الانتصار الوحشي لثورة أكتوبر السوفيتية والسياسة التي انتهجها لينين . فقد كانت العسكرية الألمانية تتأثر للعسكرية الروسية وتحى نفسها وتؤمن مستقبلها من تشريد يماثل ما تعرض له ضباط الجيش القيصري الروسي ونمة تشابه

عجيب بين الفـل والحقـد وفكرة الاستئصال التي سميت تصرف الضباط  
الألمان ازاء روزا وليبكنشت وتصرف السوفيت ازاء الأسرة القيصرية  
في سجنها . فكان نجاح الشيوعيه في روسيا استتبع بطريقة ما ٠٠ أو بنسبة  
ما هزيمة الشيوعيه في ألمانيا وكأن روزا وليبكنشت وزملاءهما كانوا شهداء  
التعصب اللينيني قدر ما كانوا شهداء التعصب العسكري الألماني ، كما أن هذا  
التعصب العسكري الألماني نفسه انقذ لينين من مصير كمصير روزا ، عندما طلب  
إليه تسليم نفسه لحكومة كرايسكي ووافق الحزب على ذلك ، ورفض هو وكأن  
الشيوعيين الألمان دفعوا ثمن انتصار الشيوعيين الروس وسددوا عنهم خطاياهم ،  
كما دفع الرأسماليون الروس ثمن استغلال الرأسماليين البريطانيين الذي سجله  
ماركس وولد النعمة على الرأسمالية حينما كانت . فكان التاريخ يجري  
مقاصه طامية لا تقف دونها اسوار الدول ولا تميز بين جيل وجيل ولا يدفع  
ثمنها الذين ظلموا فيها خاصة .

---



## الفصل العاشر

### أحداث بافاريا العجيبة

في الوقت الذي كانت برلين تضطرم بالأحداث التي عرضنا لها كانت مونيخ — عاصمة مملكة بافاريا — مسرحاً لأحداث مماثلة في كل شيء تقريباً، وإن فاقها غرابه وشططا ..

وكانت بافاريا إحدى الولايات الألمانية البارزة التي احتفظت على مر العصور بشخصيتها وإستقلالها الذاتي، وحكمتها — على إمتداد ٧٥٠ عاماً تقريباً — أسرة تسكاد تفوق في عراقها الهوهنزرن هي أسرة وينبايش وعندما أراد إسمارك تكوين الإمبراطورية الألمانية بذل جهداً خارقاً ليتمكن حل بافاريا على الإنضمام، وعندما وافقت في ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٧٠ قال إسمارك « لقد صنعنا وحدة ألمانيا وقصرها أيضاً » وكان الملك لودفيج الثاني ملك بافاريا هو الذي تقدم إلى ملك بروسيا طالباً قبول تاج القيصرية .. وعندما تحققت الوحدة احتفظت بافاريا بملكها وجيشها، وإدارة شئونها الداخلية ولم يكن مسموحاً للجيش البروسي بالدخول إلى الأرض البافارية .

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى أسهمت بافاريا فيها، وقاد ولي العهد البافاري البرنس روبرخت فرقتين، وأثبتتا شجاعة ..

ومن ناحية الميول والإتجاهات كانت بافاريا تقيضاً لبروسيا، كان شعبها

زراعيًا وادعًا، يدين بالمذهب الكاثوليكي، ويؤثر الحفاظ وكانت إشتراكيته معتدلة، وكان زعيم الإشتراكيين الديمقراطيين فيها — فولمار — يمثل اليمين الإشتراكي الذي يؤمن بالإصلاح، ويؤيد التحالف والتعاون مع بقية الأحزاب، وقد كان هو الذي توصل قبل غيره إلى إمكان إقامة نظام إشتراكي في دولة واحدة..

في هذه الظروف يسكون مما يثير الدهشة أن يحدث في مونيخ ما حدث في برلين، وأغرب من ذلك أن تسبق بفاريا برلين، وأن يتم الانقلاب كما لو كان مجرد تغيير نوبه الحرس، والحقيقة هي أنه عندما طالت الحرب واشتدت بأساؤها.. ثم حدثت الهزيمة.. تملك الإسمتياء والضيق البافاريين الذين لم يكونوا كالبروسين يؤيدون الحرب، ونما سيقوا إليها بحكم الولاء.

كما يجب أن نضع في حسابنا دائما ما أشرنا إليه أكثر من مرة من أن الفكر الإنساني يتأثر بعوامل خارجية، كما يتأثر بعوامل محلية، معنوية كما هي مادية، مستقبلية كما هي واقعية.. ونتيجة لهذا تكرر في الإشتراكيين الديمقراطيين البافاريين ما حدث في الإشتراكيين الديمقراطيين الألمان من وجود أغلبية محافظة وأقلية ثائرة ووقوع الأغلبية في التسويات التي لا تنهى وما تتطلبه من تنازلات وما تؤدي إليه من ضعف، الأمر الذي انتهى بالشقاق جناح «الإشتراكيين المستقلين» عن الأغلبية التقليدية.

وفي يوم ٧ نوفمبر سنة ١٩١٨ دعا زعيم أغلبية الإشتراكيين الديمقراطيين أهرارت إير Erhard Auer الجماهير للإجتماع للمطالبة بالسلام في السهل السفلي الذي كانت تعقد فيه الإحتفالات السنوية ويقع على مقربة من ميدان بافاريا ووقف زعيم الإشتراكيين تحت تمثال بافاريا الضخم واقترح — بعد عدة خطابات — أن تسير الجماهير في مظاهرة تأييدا للسلام، ولكن صوتا

آخر، هو صوت كورت إيزنر الاشتراكي الديمقراطي المستقل أرتفع وظالب الجماهير أن تحتل الشككنات وتأخذ الأسلحة وتضع يدها على السلطة، الأمر الذي كان يتفق مع حالة الجماهير التي لم تلبث أن سارت قدما وحققت بسهولة غير متصورة ما أمرها كورت به. وخلال بضعة ساعات سيطر كورت إيزنر على بفاريا وشكل وزارة من الأغلبية ومن المستقلين. أما الملك لودفيج الثالث ملك بفاريا الذي كان يتنزه وقتئذ في حدائقه، فما أن سمع أن إشترا كيا يهوديا أعلن الجمهورية، وأن الوزارة لا تضمن سلامته حتى عبأ حقايبه وفر بأسرته من المدينة.

بهذه التلقائية إنبثقت الثورة، وبهذه الدرجة من السهولة تمت. ولم يسكن هذا وذاك طبيعيا.

ولم يكن كورت إيزنر — الذي قاد هذه المسيرة — مواطنا بفاريا فلقد ولد في برلين من أسرة يهودية غنية واشتغل بالصحافة. وفي سنة ١٨٩٧ كتب مقالا إنتقد فيه القيصر فقبض عليه بتهمة العيب في الذات الملكية وحكم عليه بالسجن تسعة شهور، وجذب هذا إنتباه ليبكنشت (الأب) الذي أدخله الحزب وعينه محررا في جريدة «فوروارد» ولما إنحار إيزنر للمستقلين عقب ظهور حركة التنفيخ خسر وظيفته. وفي سنة ١٩٠٧ هاجر بأسرته إلى بفاريا حيث أشتغل كناقذ درامي وفرغ شيئا ما لهواياته البوهيمية ولكن الحرب انتشلته من النكر والفاقة فبرز في مظاهرات السلام في يناير ١٩١٨ وسجن<sup>(١)</sup>

(١) لاحظ أحد المؤرخين أن إيزنر أضحى مدة عقوبته في الزنازة ٧٠ في سجن ستادليم وفي هذه الزنازة نفسها سجن السكوت أركو الذي اغتال إيزنر، كما شغلها هتلر سنة ٢٣ بعد فشل توم «قاعة البيرة» وقتل أرنست روم — رئيس هتلر العسكري وزميله في الحزب ورئيس فرق العاصفة الحمرية في الزنازة نفسها.

ولم يفرج عنه إلا بفضل العفو الذى أصدره المستشار البرنس ماكس فى أكتوبر سنة ١٩١٨ .

وكان إيزنر قصيراً نحيفاً يضع نظارة ذات إطار معدنى وتغطى لحيته الكشيفة معظم وجهه ويلبس قبعة سوداء .

وأدار إيزنر حكومته ببساطة بوهيمية ، فكانت مكاتبه مفتوحة الأبواب . وأوراق الدولة على المكاتب يطلع عليها من يشاء ، وكانت بسلطانه وثقافته يكسبانه شعبية كبرى وظهر أثر الميول الفنية فى حكم إيزنر — فأمم المسرح وأوجد إلى جانب مجلس العمال والجنود ( الذى تكون تلقائياً غداة الثورة ) مجلساً للمثقفين والفنانين ، ولكن باستثناء هذا فإن الوضع فى ميونيخ شابه الوضع فى برلين ووجد إيزنر نفسه ( وهو من المستقلين ) فى مثل وضع إمبرت — دون أن توجد هذه التفرقة أثراً — فتقرر إجراء إنتخابات فى يناير . وثارت العناصر الماركسية كما ثارت العناصر الرجعية ، وكان هناك عامل أساء إلى إيزنر بوجه خاص هو أنه كان يهودياً ولم يكن بفاريا وأشاع أعداؤه أن اسمه الحقيقى هو سلمون كشنسكى وأنه ليس إلا عميلاروسيا للينين .

وعندما أجريت الإنتخابات فى ١٢ يناير فشل المستقلون ، وحازت الأغلبية نصراً مدوياً ، ومع هذا فقد أبقى على كورت إيزنر كرئيس يكاد يكون فخرياً للدولة للإفادة من شعبيته . ولم يطل به الأمر فى ٢١ فبراير ترصد له شاب من إحدى أسرى النبلاء هو الكونت أنتون أركو فالى وأطلق على رأسه رصاصتين فمات فوراً .

وكما هو الدأب فى المهزلة البشرية ، فإن الجماهير التى عزفت عن تأييده حيا جنت به ميتاً ، وتذكرت خدماته وعقدت العزم على الثأر له فأطلق صبي جزار يدعى ليندندر Lindiner النار على أرهارد أيروسط قاعة اللاندتاج على سماع

وبصر النواب . وكون العمال فرقا قبضت على كثير من النبلاء . ووضعت صور كبيرة لا يزنو على مفارق الطرق ، وكان الجنود يرغبون المارة على خلع قبعاتهم . ونظمت مسيرة كبيرة يوم ٢٦ فبراير يوم جنازة ايزير وأعلن قبل هذا الميعاد بثلاثة أيام الإضراب العام كما أعلن اليوم — يوم حداد قومي .

وسقطت الوزارة وقامت على أنقاضها وزارة إئتلافية أخرى برأسه جوهان هوفمان ولكن بعض المجموعات الثورية من مندوبى العنابر والإشتراكيين والسينديكاليين ثارت عليها ففرت الوزارة إلى يامبرج في الشمال — وكونت مجموعة من الاشتراكيين المستقلين برأسه الشاعر والكاتب المسرحى أرنست تولر وزارة ضمت عدداً من المسرحيين والفوضويين .

ودفع إعلان الجمهورية السوفيتية في المجر المجاورة لبافاريا وإستيلاء الشيوعى اليهودى بيلا كون على الحكم الجناح اليسارى في الوزارة دفعة إلى الإمام ، ففي ٦ إبريل سنة ١٩١٩ اجتمع أرنست تولر وأصدقاؤه في حجرة نوم الملكة وأعلنوا بفاريا جمهورية سوفيتية تقوم على مجالس العمال والجنود .

وأظهر تولر وأصدقاؤه من الشنوذ ما صعبت أمامه بوهيمية إيزير وما إستحق أن يطلق عليه وزملائه «فوضوى المقاهى أو المغامرون الرومانتيكيون» فدعا تولر إلى صور جديدة من النحت والدرايا والرسم والعمارة ، وأعلنت جامعة مونيخ حرة ومجانية ويمكن للجميع دخولها بعد إستبعاد دراسة التاريخ على أساس أنه «عدو للمدينة» وقرر وزير الإسكان أن لا يسكن لأى بيت أكثر من ثلاث حجرات وأن تكون حجرة المعيشة دائماً فوق المطبخ وحجرة النوم ومضت عدة أيام قبل أن يتضح أن وزير الخارجية — دكتور فرانزنزليب — رجل معتوه يشتكى لروسيا تلغرافيا من أن سلفه قد أخذ معه مفاتيح دورة المياه بالوزارة وأنه سيعلمن الحرب على ورتمبرج ومويسرا .. الخ .

وأفسح هذا الجنون المجال للشيوعيين ليحربوا حظهم ، فنزل الخلبة اثنتان من الشيوعيين كانا قد ولدا في روسيا وسكننا برلين وحللا على التعاقب اسمي ليفين Leviné وليفينه Leviné إلى جانب روسي ألماني ثالث يدعى تويلا كسلرود ليختموا المهزلة بمأسة من أشد المآسى قتلما .

ولم يكن هؤلاء الروس مندوبين رسميين عن الحزب الشيوعي الروسي ، أو الاتحاد السوفيتي أو لينين ، وإن كان أحدهم - تويلا كسلرود - قد أمضى فترة في بتروجراد مع لينين ويمكن أن يعد مندوبا للدولة وأرسل إلى برلين مع السفير الروسي جوف ، فلما أبعد جوف انتقل إلى مونيخ .

أما الروسيان الآخران فقد كان أحدهما ما كس ليفين ، أشقر طويل من أسرة يهودية غنية ، وكان يمكن أن يعد ألمانيا كما هو روسيا ، فقد هاجر إلى ألمانيا للدراسة ، ثم عاد إلى روسيا حيث قبض عليه وأبعد إلى سيبيريا ، ولكنه فر منها واستطاع أن يهرب إلى زيورخ حيث لاقى لينين عندما كان هناك وانتقل منها إلى ألمانيا وعندما شبت الحرب جند في الجيش ولكنه أخذ يبت الدعايات ضد الحرب ، وضد ألمانيا « إن من الضروري إذلال ألمانيا ، وأن تدخل جيوش المستعمرات بوابة براندنبورج وأن تصبح هليجولاند ملكا لبريطانيا وأن يؤخذ الأسطول الألماني » الخ . إلى آخر هذا الهوس الذي لا يمكن أن يفهم إلا في ضوء التمسبب الدولية وأنه كان رجل عمل لا ينشئ عن استخدام الإرهاب أو إعدام الرهائن . وكان قد درس أسلوب لينين ويريد تطبيقه .

أما الثاني - يوجين ليفينيه ، فقد كان أكثرهم مثالية . وقد ذهب إلى ألمانيا للدراسة وأصبح من أتباع روزا لوكسمبرج المتعصبين . وقبل وفاتها بفترة وجيزة انتدبته لتمثل الحزب الشيوعي الألماني في الاجتماع الأول للدولة ولينجمل

تحفظاتها على تكوين الدولية الثالثة ولكنه لم يستطع اختراق الحدود فعاد إلى برلين حيث أوفده بول ليفي لرأس الحزب الشيوعي في بياريا . ومع أنه لم يكن يقل تعصبا عن زميليه - فإنه كان أقلهما ميلا للارهاب .

وأضيف إلى هؤلاء الروس الثلاثة الذين كانوا أشبه برسل الثورة السوفيتية الظافرة - بحار ألماني من بحارة كيل يدعى رودلف اجلهوفر Rudolf Egelhofer لم يكن بالطبع مفكرا أو منظرا ولكن رجل عمل ونجح في إيجاد جيش بافاري أحمر كان كما ذكر أحد الكتاب « أعلى الجيوش أجرا للضباط والجنود على سواء . كما كان يقدم بالجان الطعام والشراب والنساء » ولم يكن ينقص هذا الجيش سوى السلاح الذي بذلت لتوفيره محاولات ووسائل جديدة من نوعها بما فيها منح الجندي الذي يستطيع الحصول على بندقية مكافأة عشرة أيام وقيل إن عدد هذا الجيش وصل إلى ثلاثين ألفا وأحيط بدعايات مفعلة للبقاء على روحه المعنوية كالزعم أن جيشا روسيا جاررا يتحرك نحوهم وأن جيش المجر يعبر الدانوب من بودا يست .

وأعلن الشيوعيون حكم الارهاب وملئوا السجون بالرهائن من الأسر البورجوازية وأغرقوا الأسواق بأوراق العملات التي كانت المطابع تصدرها ليل نهار وأرسلوا اكسلرود إلى روسيا لطلب المساعدة ، ولكن الطائرة التي استقلها ، وكان يقودها طالب طيار اضطرت للهبوط داخل بياريا .

ولم تكن الحكومة المركزية في برلين لتقف مكتوفة الأيدي أمام هذه التطورات خاصة بعد أن طلبت منها وزارة هوفمان الاشتراكية الديمقراطية المبعدة التدخل . وكانت الفرق الحرة قد نمت وتضخمت من مجرد وحدات صغيرة تلقائية لا يوصل أكبرها إلى أربعة آلاف إلى ما يبلغ في مجموعة ربما مائة ألف . فجددت حكومة برلين حملة من ثلاثين ألفا ضمت عددا من أشرس

الفرق وطعمت بعدد من الجنود الباطاريين أنفسهم ووضعت على رأسها قائد باطاري الأصل هو الجنرال فون إلب ، وفي الأسبوع الأخير من أبريل كانت هذه الفرق تطوق ميونيخ بينما كان الذعر يملك الشيوعيين واخلاف بين الروس والباطاريين يمزق البقية الباقية من المقاومة بحيث تحلل الجيش الأحمر ولم يبق منه إلا عصابات متفرقة وهرب ليفين إلى النمسا بينما اختبأ ليفنيه واكسلرود ، وعندما بدأت النهاية أخذوا يقتلون الرهائن ويمثلون بهم وترامت أنباء ذلك إلى الفرق الحرة التي كانت تتقدم بحيث أطبقت على المدينة مع أول مايو . . في الوقت الذي كان لينين يخطب في الميدان الأحمر في موسكو « إن الطبقة العاملة المحررة لا تحتفل بذكرائها في روسيا السوفيتية وحدها ، ولكن في الجهر السوفيتية ، وفي بافاريا السوفيتية » ولم تجد الجيوش الزاحفة مقاومة ، تذكر واكتشفت رودلف أبجهموفر - تروتسكي بفاريا - وهو يحاول الفرار في سيارة قُبض عليه وأعدم فوراً .

وتلا الارهاب الشيوعي الأحمر . ارهاب أبيض مارسه الفرق الحرة ، وقد يصوره الأمر الذي أصدره الميجور شولتز Schulz الضابط في فرقة لتزو Lutzu في ٤ مايو « أى واحد لا يعلم ، أولاً يفهم ، أن أماننا عملاً كبيراً يجب أن يؤدي ، أو يحس بوخز ضمير ، فإن من الخير له أن يتركنا . فمن الأفضل قتل بضعة أبرياء عن ترك مذنب واحد ، وأنتم تعلمون كيف تنصرفون أطلقوا عليهم النار وقولوا إنهم هاجموا أو حاولوا الفرار » وطبق الجنود هذا الأمر حتى دون أن يحاولوا تبرير التقتيل بحجة الهجوم أو الفرار ، كما حدث في مساء يوم ٦ مايو عندما داهمت إحدى الفرق قرابة ثلاثين عاملاً من أعضاء جمعية دينية واقتادتهم وأمرتهم بالانبطاح أرضاً وأطلقت النار على ٢١ منهم . وقبضت الفرق الحرة على ليفنيه ، وأمام المحكمة العسكرية التي مرافعة طويلة ختمها بقولة :



« لقد كنت أعلم من وقت أننا نحن الشيوعيين لسنا إلا موتى في أجازة .  
والأمر مفوض إليكم أيها السادة لتقرروا ما إذا كانت هذه الأجازة تطول  
أو أن على أن ألحق بكارل ليبكنشت وروزا لوكسمبرج إنكم تستطيعون  
قتلي ، أما أفكارى فستواصل الحياة . . » .

والحق أن الإنسان لا يستطيع إلا أن يعجب ببعض هؤلاء الشيوعيين قدر  
ما يحتقر البعض الآخر . . والجميع أدلة حية على المدى الذى تصل إليه العقيدة  
فى إصعاد أو إسفال النفس البشرية .

ولما تجاوزت الحرب كل توقع ، وناهز عدد القتلى ألفا خلال الأسبوع  
الأول ، انقلب الترحيب بالفرق الحرة إلى ضيق واستياء وظهرت الملمصقات  
التي تندد بالبروسيين ، كما ظهرت من قبل منددة بالروسيين . ورأت هذه الفرق  
أن عليها أن تسكتنى بذلك . وفى ١٣ مايو سلمت الحكم للسلطات المدنية  
وارتفعت من بافاريا ، ولكن بعد أن أصابها بجرح لم يندمل .

والحقيقة أن بفاريا قدمت بشاشتها ووداعتها ودمائها وتساحها بعد التجارب  
المديدة الماضية التي تعرضت لها ، والتي لم تنصف بالقسوة والشدة فحسب ،  
ولكن التعارض الصارخ والاختلاف المبين بحيث مست كل واحد ، مهما  
كان وضعه ، بطريقة أو أخرى ، وجعلته يصبح طرفا فى نزاع حاد لا يقبل تسوية  
أو ينتهى إلى عدالة أو تسامح ، وأصبحت ميونيخ بلد الباربات المرححة هشاً  
تلمؤامرات الخفية والدسائس من كل نوع وهرع إليها الضباط الطامعون وعلى  
رأسهم لودندورف ، وتكونت فيها الجمعيات السرية من كل نوع .

\* \* \*

ولم تكن بفاريا هى الولاية الوحيدة التي ثارت ، فالحقيقة أن الثورة امتدت  
إلى معظم الولايات الألمانية بدرجات متفاوتة . فقادت برين ثورة موافى الشمال  
ووجهت إليها الحكومة إحدى الفرق الحرة فى ٢ فبراير . وكان عدد أفراد

هذه الفيرقة يقل عن عدد الثوار . ولكن سلاحهم كان أفضل وكان لديهم عربات مدروعة ومدفعية - فاستطاعت أن تشق طريقها وتدمر مراكز المقاومة وتفرق مجلس العمال والفلاحين الذي كان يدير الأمور وخلال بضعة أيام عاد العمل مرة أخرى إلى الموانئ .

ولم تسكد الفرق الحرة تسكبت ثورة برين حق أعلن عمال المناجم الفجهم والسلطة في منطقة الرين اضربهم معلنين أنهم لن يعودوا إلى العمل قبل أن تأمر الحكومة المناجم فتطعت الحكومة عنهم امدادات الطعام ووجهت أشتاتاً من الفرق الحرة نحو منطقة الرين وفطن قائدها إلى ضعف موقفه فبدأ المفاوضات وتعهد بعدم القيام بأي إجراء من إجراءات القسفي أو الانتقام إذا سلم العمال أسلحتهم وعادوا إلى العمل . وقبل العمال مرغمين هذا العرض بعد أن أحسوا ببداية المجاعة .

وكانت هل Hale — الميناء النهرى الهام الذى يتوسط مقاطعة سكسونيا — أصعب الجميع . ففي الأيام الأخيرة من فبراير أعلن العمال الاضراب وأوقفوا القطارات التي كانت تربط ما بين برلين وفایمار وكونوا مجلساً للعمال والجنود جرد البوايس من سلاحه وسلح به العمال فأرسلت الحكومة الجنرال منكر رائد ومؤسس الفرق الحرة على رأس مجموعة من أقوى الفرق الحرة ، وبعد قتال عنيف كاد ميركر نفسه أن يفقد فيه حياته استسلمت هل . .

\* \* \*

وتوضح هذه القومات المتكررة والانبعاثات المتوالية وجود حاجة إلى تغيير اجتماعى وسياسى واقتصادى ، لم تستطع أن تعبر عن نفسها في صورة مستليمة أو مناسبة ، كما لم ترزق القيادات القديرة والتنظيم الدقيق . ومن ثم باءت بالفشل .

## الفصل الحادي عشر

### نهاية البداية

أخيرا استراحت الحكومة — ولو مؤقتا — من الجناح الشيوعي للزعيم ومطالبته الملاحية بالحكومة السوفيتية . واستخلصت القرار بعقد جمعية وطنية لتضفي الشرعية على الحكم الذي مارسه ايبيرت — على مضض — طوال الشهرين العاصفين الماضيين .

فهل لم يخطر في ذهن ايبيرت أن قوى الحفاظ القديمة من أركان الحرب في القيادة العليا والضباط البروسيين والنبلاء والملاك وبقايا المجتمع الرأسمالي كلها يمكن أن تسكده وتطيح به بمثل ما كان اليسار والشيوعيون يفعلون ..

الحق أن هذه النقطة دقت على ايبيرت ، وتصور أن كل هذه القوى لا يمكن أن تفكر في أن تعيد الساعة إلى الوراء بعدما شاهده من الأحوال وبعد أن كادت الثورة تذهب بها . وتصور أنها ستقف بجانبه وستؤيده وتدين له بالطاعة والولاء .

كان ايبيرت في هذا ساذجا ، وأساء تقدير تعقيد المجتمع وأغوار النفس البشرية . . ولم يلبث أن شاهد تلك القوى التي حماها من الأعصار وهي تتحكم فيه وتملي شروطها عليه .

فما أن أعلن عن الانتخابات حتى ظهرت هذه القوى وأعادت أحزابها

التقدمة بأسماء جديدة . ودخلت بها الانتخابات ونالت عدداً كبيراً من الأصوات . واستطاعت خلال أسبوعين أن تعيد الماعة إلى الوراء . . وأن تنال الاعتراف الرسمي والعملى بوجودها وكيانها . . ذلك أنه وإن كان الحزب الاشتراكى الديمقراطى اكتسب ٣٩٪ من مجموع الأصوات ، وأصبح له بذلك ١٦٣ نائباً ، وأن الحزب الاشتراكى المستقل حاز على ٧٪ من الأصوات وأصبح له ٢٢ نائباً ، فإن حزب الوسط الكاثولىكى حصل على ٨٩ مقعداً ، وحصل الحزب الديمقراطى الذى يمثل الأحرار والتقدميين على ٧٥ مقعداً وحصل الحزب الوطنى الذى يمثل المحافظين وأنصار الامبراطوريه على ٤٢ مقعداً . وحصل حزب الشعب وهو حزب كبار الصناعيين برأسة مترسمان على ٢١ مقعداً . وهذه الأصوات فى مجموعها تفوق أصواته الاشتراكيين ، كما أن مما يثير الانتباه عجز الحزب الاشتراكى المستقل الذى كان يمكن أن يكون أمل الاشتراكيين الراشدين عن أن ينال أكثر من النسبة الهزيلة التى حصل عليها ، وأغلب الظن أن هذا السقوط يعود إلى ما حلق به من تمزق وما ألصقه به الشيوعيون والمندوبون الثوريون من دعاية . . واضطر الحزب الاشتراكى الديمقراطى لأن يدخل فى تحالف مع الديمقراطيين والوسط عندما رفض الحزب الاشتراكى المستقل أن يدخل الوزارة واتفق معها على تشكيل الوزارة على الأسس الآتية :

(١) التأييد المطلق للجمهورية .

(ب) التعاون فى سياسة الإصلاح الاقتصادى والضربى .

(ج) وضع برنامج للإصلاح الاشتراكى يقوم على « تشريك »

Sociaciation الصناعات المهيأة ripe للتشريك .

وهكذا بدأ الاشتراكيون الديمقراطيون يحصدون الثمار المرة لسياستهم

العقيدة . وعجزوا عن تكوين وزارة تكتسب الأغلبية واضطروا للتحالف  
وبعد فترة سيفقدون أغليبتهم . ويصبحون رهينة في أيدي حلفائهم الألداء ..

\* \* \*

ووضعت هذه التطورات نهاية البداية ، بداية الثورة ، وغيرت جذرياً  
خط السير الذى شقه المال بدلائهم .. وعلتوا عليه الآمال العريضة في  
مستقبل جديد ، ومهد الجولأن يعود كل شىء كما كان .. وكأن لم تكن  
هناك ثورة أو شبه ثورة ..

حقيقة ان اليسار تعجل الأمور ، ولم يرزق الحيلة والرشد وسمح لنفسه بأن  
يتأثر بالتجربة السوفيتية .. وكان هذا خطأ ، ولكن كان من الخطأ أيضاً أن  
تعود الأمور إلى ما كانت عليه .. وأن لا يظفر الشعب من هذه التجربة  
المريرة بغير صفقة المغبون . إن واجب السياسى الحكيم أن يستفيد من التطور  
ومن التغير . وليس أن يعود بالأمور إلى ما كانت عليه ..

لقد أصبح من البدائه الآن أن الخطأ الفاحش الذى وقع فيه ايبيرت هو  
أنه — إيجابيا — لم يحاول أن يحقق الدرجة المطلوبة والسليمة من التغير  
— وسلبيا — لم يقض على العناصر التى كانت بحكم وجودها وأصولها ،  
وأوضاعها لا بد وأن تقاوم هذا التغير .

وقد وقع ايبيرت في هذا الخطأ لأنه لم يكن بحكم المزاج ثورياً أو حتى مناصراً  
للتغير كائناً ما كان . ولكن بصرف النظر عن هذا العامل الذاتى والنفسى  
الذى نفترض أنه كان يمكن أن يخضع لدوامه الأحداث فإن السبب الموضوعى  
لوقوعه في هذا الخطأ هو أنه لم يفرق بين قضيتين مختلفتين بالمرّة : القضية  
الأولى : التغير ، والقضية الثانية : الأسلوب البلشنى / اللينينى . وقد التبس  
التغير الثورى الذى كان يحتاجه المجتمع الألمانى في ذهنه بالأسلوب البلشنى

الليينى ، فحتى لو أنه سلم بالحاجة إلى التغيير الثورى ، أو حتى الحاسم ، فإن كراهيته للأسلوب الليينى ، الذى ربط ما بينه وبين التغيير دون داع موضوعى جعله يرفض التغيير ككلية . .

وقد أظهرت الأحداث التى حفلت بها جمهورية فايمار منذ أن قامت حتى سقطت واستمرار الثورات اليسارية .. أن المجتمع الألمانى كان بحاجة إلى تغيير ولو لم توجد هذه الحاجة لما استطاعت هذه العناصر أن تجذب جماهيرها المتطوعين الذين قدسوا العديد من التضحيات ، حتى عندما نضع فى اعتبارنا « المفارقة » التى يفرضها الفكر على الواقع . والتى أشرنا إليها أكثر من مرة .. كما أظهر فشل هذه الانبعثات أن التغيير السليم لم يكن التغيير الذى تصوره . . . ولكن يبقى بعد هذا كله أن هناك تغييرا مطلوبا .

وكان التصرف السليم يقضى على إيبرت بأن يتخذ اجراءات قوية وحاسمة لكي يحقق هذا التغيير المنشود ، وأن لا يتردد فى توجيه ضربات قوية أو يستخدم عمليات بتر بالقدر المطلوب ، لأن هذا هو منطق الضرورة والواجب . وأى نكوص عن ذلك هو استخذاء وجبن . . وأى سرف فيه فهو إفراط وتجاوز وقد تصور إيبرت أنه لكي يحقق التغيير ، فلا بد أن يسلك كما سلك لينين فأثر الضعف على الفجور . ولو اردنا مثالين للضعف والفجور لما وجدنا خيرا من إيبرت ولينين . . فقد أغرى لينين الجنود بقتل الضباط ، والفلاحين بقتل الملاك والعمال بقتل الرأسمالين ومن لم يقتل هؤلاء فرناجيا بجلده ، وأغرق العملة القديمة بحيث أصبحت لا قيمة لها . . ودعا العمال والفلاحين للتجمع والنظائر وترك المصانع وصفى الجهاز الادارى للدولة وأوجد محاكم الشعب للحكم بالاعدام على كل مخالف راستصنى كل الأموال وجحد كل الديون وبهذه الطريقة تهاوى النظام القديم حجرا حجرا ولم يعد هناك أى احتمال ليظهر من جديد . وقد تصورت أوروبا كلها غداة تولد الشيوعيين الحكم أنهم لن يلبثوا طويلا ، ولكن

الشيوعيين كانوا قد حطموا من أول لحظة ، وبلا رحمة ، النظام القديم ولم يقتنعوا بهدم البيت ، ولكنهم أيضا تعقبوا أخطاره فسحقوها حتى لا يمكن أن تستخدم في بناء بيت جديد ، وبذلك كتبوا لأنفسهم البقاء وأقاموا بيتهم الخالص بعرق ودم واسمنت وحديد جديد . . وكانت الوحشية التي طبق بها هذا كله من العوامل التي وصفت الشيوعية وجعلت الاشتراكيين في بقية دول العالم تنزف عن الأخذ بالنظام اللينيني . ولكن كان يجب على ايبيرت أن يفهم أنه لم يكن مطلوباً منه أن يفعل كما فعل لينين ، فإن هذا لم يكن ضرورياً ، أو حتى مطلوباً ، إن مشقة واحدة تنصب في ميدان عام في وقت مناسب وحالة مستحقة وتحاط بدعاية قوية يمكن أن تقضى عن مجزرة ، وتحدث الأثر المطلوب . أما أن يتصور ايبيرت أنه ليس في حاجة للمساس بالنظام الأمبراطوري القديم ، فهذه هي الغفلة بعينها إن الولاء - ونعني به الولاء الخالص - لا يتداول كما تتداول العملة وإنه لمن العسير على نبلاء بروسيا الفخوريين بتقاليدهم العسكرية وقبائطة الصناعة واساطين التشريع وبيروقراطى الخدمة المدنية أن يستشعروا السروجى نقابى ، ولجمهورية فرضها البخارة الغلاظ والجنود البهله وللاء عباثل وللاءهم لسليل الموهنزلن أو لامبراطورية تعود إلى « بارباروسا » في القديم وبسمارك في الحديث . .

ومما يضعف من مسئولية ايبيرت أن دعائم المجتمع الأمبراطورى ، أى الجيش والجهاز الإدارى ، والتحالف ما بين الاقطاع والرأسمالية كانت في ألمانيا حتى آخر لحظة في الحرب قوية ومتماصكة تنقسم بدقة وضبط وإحكام قلما تتوفر لمثيلاتها في أى دولة ، وكان يجب أن يعرف أن الوقت الوحيد المناسب لضرب هذا الحديد القاسى وتطويله إنما كان فتره تعالى المذ الثورى عندما أرتفعت الحرارة إلى الدرجة التي كان يمكن أن تذيب هذا الحديد ، أو تطوعه كما يريد ايبيرت .

ولو أن ابيرت اهتبل الفرصة، وسارع في الأيام الأولى للثورة فأصلح القضاء بما يحقق شعبيته ، ووضع أسس جيش شعبي من أعضاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، وحاكم عددا من الضباط الذين عرفوا بعداوتهم للجمهورية، وأعدم بعضهم - ولن يكون ظالما لهم - فما أكثر ما ظلموا ، بل وأعدوا - ودعم الحركة النقابية تجاه الرأسماليين ، وأمم عددا من الصناعات، كما أأم الاقطاعات البروسية الفسيحة محض النبالة البروسية لخضد شوكة المجتمع القديم وقلم أظافره . ولم يكن في هذا ظلما . ولا كتسب تأييد الطبقة الوسطى الصغيرة ، وجرّد الشيوعيين من دعاوهم الفارغة ، بل ولجمل موقفه أقوى أمام الحلفاء .

ولكن ابيرت لم يفعل هذا . ونسى أن الثورة البيضاء قد تكون أطول الثورات وأكثرها دوية . وأن الحكم ليس عملا بروتقاليا . ولكنه حسم وعزم .. وأنه ما أن يرفض أن يكون المطرقة التي تضرب حتى يصبح السندان الذي يتلقى الضربات وأصبح على جمهورية فايمار أن تسير في الطريق الذي اختارته لنفسها، طريق الضياع .. وأن تلتحق بثورة مارس الروسية .

ومن يراجع الثورتين - ثورة مارس الروسية وثورة نوفمبر الألمانية . . يجد وجوها عديدة للتشابه بينهما .

فقد كان للجنود والبحارة والعمال فضل المبادأة في القيام بهما .

وأدت كل واحدة منهما إلى فرار الحاكم المطلق الذي كان في الحالين يحمل لقب « قيصر » إلى مقر قيادته حيث اضطر إلى التنازل عن العرش وسلمت مقاليد الأمور في كل منهما إلى رئيس يحمل لقب برنس يرأس الحكومة الانتقالية كان هو البرنس ليفوف في روسيا والبرنس ماكس أوف بادن في ألمانيا .

وسلم هذا « البرنس » الأمور إلى رئيس ديمقراطي النزعة على الطريقة



الكلاسيكية هو كبير نسكى الروسى وايرت الألمانى .

وأظهر هذا النظام الديمقراطى الليبرالى البرلمانى عجزه ودخل فى صراع مع القوى الثورية .

ولكن كان هناك نقط للخلاف أيضاً :

فثورة مارس عجزت عن أن تحقق للشعب الروسى مطلبيه الرئيسيين :  
توزيع الأرض وإحلال السلام . فحافظت السوفيتيات على سلطاتها ، ولم تتخل عنها حتى أعلنت ثورة أكتوبر .

ولكن ثورة نوفمبر أدت للشعب الألمانى مطلبيه العاجلين السلام والحرية .  
ومن هنا سلمت سوفيتات العمال والجنود سلطاتها للجمعية الوطنية . ولم يكن هناك مبرر لثورة مثل ثورة أكتوبر اللينينية .

ولكن المفارقة التى أشرنا إليها فى الفصل الأول تحسكت فيها ولم تدع لها راحة أو تسمح لها بأن تحتل الموقع السليم ، ولم يكن رئيسها بالسياسى الحازم الذى يضرب عندما يجب الضرب . ويحدد الموقف السليم ما بين اليمين واليسار . . . فكان لابد من ثورة ثانية تنفق مع الوضع الألمانى قدر ما تباعد عن الوضع الروسى . وجاءت هذه الثورة مع النازية . .

وكان وجود الزعيم القوى فى الحالين ( فى روسيا وألمانيا ) إيذاناً بالثورة الثانية .

وكل ما فى الأمر أن عجز ثورة مارس عن أن تحقق المطلبين الأساسيين .  
للشعب الروسى مكن هذا الزعيم من العمل ومن هزيمة الثورة الأولى بعد ستة شهور من قيامها . وأن تحقيق ثورة نوفمبر للمطلبين الرئيسيين للشعب الألمانى مد فى حياة فائمار لمدة أربعة عشر عاماً - قبل أن يظهر الزعيم الذى يهزمه .  
وقبل أن يعين تحللها وعجزها هذا الزعيم على النجاح .

ولعله قد يمكن القول أن عجز ثورة مارس أوجد لينين وأفسح له المجال ولو لم يظهر لظهور من يقوم بدوره . وإن كانت الثورة وقتئذ مستختلف كثيرا عما أصبحت عليه عندما قام بها هو . وأن تحقيق ثورة نوفمبر لمطليبي الشعب حال دون أن يظهر الزعيم القوى . ولو أنه ظهر لهزم - كما حدث بالفعل لكاب سنة ١٩٢٠ ، وهتلر سنة ١٩٣٣ .

وأن تأتي نهاية البداية بهذه السرعة . أي بعد أقل من عامين من البداية هو ما يعطى الطبقات العاملة درسا لا ينسى .

فقد كانت ثورة نوفمبر ثورة قام بها العمال والجنود ، ولكنهم لم يحسنوا القيام عليها . فاستحوذت عليها الطبقة الوسطى واحتوتها . ولكن الطبقة الوسطى بدورها لم تنهأ عنها ، وكان عليها أن تدفع الثمن ، فالدين لا يبلى . . ولا يمكن لأحد أن يفلت - في المدى الطويل - من دفع الثمن ، وإن ظن ذلك .

وجاء القسط الأول من الثمن في معاهدة « فرساي » .

---

## الباب الثالث

### المسيرة المتعشرة

الفصل الثاني عشر : معاهدة فرساي المشؤمة .

الفصل الثالث عشر : مؤامرة كاب .

الفصل الرابع عشر : ثورة بالمراسلة .

## الفصل الثاني عشر

### معاهدة فرساي المشؤومة

كانت الجمعية التي جاءت بها انتخابات ١٩ يناير — تلك الانتخابات التي وضعت السطر الأخير في ثورة العمال ، تجتمع في الأسبوع الأول من فبراير في المدينة الصغيرة الهائلة « فايمار » لتضع السطر الأول في جمهورية الطبقة الوسطى .

وكانت « فايمار » التي يحتضنها نهر « ألم » وتبعد مائة وخمسين ميلا جنوب غرب برلين ، ترتبط في الأذهان بذكريات جوتة وشيلر وهردر وفانجر والتراث الإنساني الليبرالي الذي كان يمثل أمن ، ما قدمه الفكر الأوروبي وقتئذ ، وقيل إن هذه المدينة قد أختيرت بالذات لتضفي على الجمهورية الوليدة قبسا من مثلها الإنسانية ، ولنضع في ظلال هذه المثل الدستور الجديد .

ولكن كان هناك سبب آخر أقل رومانتيكية ، فقد أريد إبعاد الجمعية الوطنية عن برلين ومنأخها الثوري الوبيل وذكريات الصدام الدامي واغتيال روزا ولييكنشت وما قد يحتمل أن تتعرض له من هجوم ومضايقات فأرتوي عقد الجمعية في مكان آخر . ووقع الاختيار على فايمار خاصة وقد أضح أن فيها مسرحا فسيحا يصلح لعقد الجمعية . ومع هذا كله وبعد أن وقع الاختيار

عليها أتضح أن بها عناصر ثورية هزمت طلائع الفرق الحرة التي أرسلت في ٣٠ يناير لاهداد الترتيبات وتطلب الأمر إرسال فرقة من سبعة آلاف مقاتل همكوت في قلب المدينة ، بينما وزعت فصائلها على كل الأماكن والمراكز الهامة .

وكان أمام الجمعية الوطنية ثلاث مهام رئيسية : الأولى وضع دستور للجمهورية الجديدة والثاني تشكيل حكومة طبقا لهذا الدستور والثالث توقيع معاهدة السلام مع الحلفاء .

بالنسبة للمهمة الأولى كان أمام الجمعية مشروع دستور وضعه هوجوبروس Hugué Prevost وزير الداخلية واحد الثقات في القانون وناقشت الجمعية المشروع وأحالته إلى لجنة من ثمانية وعشرين عضوا .

وكان مشروع بروس محاولة للجمع بين أفضل العناصر في دساتير أوروبا والولايات المتحدة ، وطبقا له فإن رئيس الجمهورية ينتخب بطريق الاقتراع العام المباشر . ويمتدح سلطات تفوق السلطات التقليدية لرئيس الدولة الديمقراطية ولعل أبرزها ما نصت عليه المادة ٤٨ المشهورة التي كانت تمنح الرئيس الحق في التدخل « إذا هدد أو تعرض للخطر إلا من العاصم والنظام في الريح المائي » . وهندئذ يستطيع أن يصدر مرسوما يوقف به حريات الإجماع والخطابة الخ . . . . . ويستخدم القوات المسلحة إذا رأى ذلك . والقيد الوحيد على هذه السلطة هو أن يوقع أحد أعضاء الوزارة على المرسوم ، وأن الحريات المدنية يجب أن تمارس عند طلب الرشتاج ذلك . وقد تصور وقتئذ أن استخدام المادة ٤٨ إنما يكون وقت حرب أو ثورة شيوعية ولكن الأيام أثبتت أنه يمكن أن تستخدم لمآرب سياسية وحزبية . . . كما كان المشروع يقضى بتكوين مجلسين يكونان في مجموعهما « البرلمان » أحدهما الرشتاج وهو المجلس الرئيسى ويتكون من نواب بواقع نائب واحد عن كل ستين ألفا من السكان والثاني الربشرات

Reichsrat ويضم نوابا معينين عن مختلف الولايات وتقل سلطته عن سلطة الريشتاج. ويرشح الرئيس مستشارا يتمتع بشقة الريشتاج ويشكل هذا المستشار الوزارة ويكون هو والوزارة مسئولين أمام الريشتاج. كما كان المشروع ينص على تكوين محكمة دستورية عليا على غرار المحكمة الدستورية في الولايات المتحدة.

وكانت هناك مسائل ذات صعوبة أو حساسية خاصة ، وقد استطاعت الجمعية الوطنية أن تتغلب على معظمها ، وكان من هذه اسم الدولة وهل تكون الجمهورية الألمانية وانتهت الجمعية إلى كلمة « الريخ » ، وهو تعبير اصطلاحى يوحى بما يمكن للدولة الجديدة أن تصل إليه ، بما فى ذلك انضمام النمسا الذى كان أملا قديما ومتجددا . ومن هذه المسائل أيضا العلم فقد أراد المستقلون والإشتراكيون العلم الأحمر . بينما أراد المحافظون العلم القديم الذى حارب تحته الجنود وانتهت الجمعية إلى علم يضم الأسود والأحمر والأذهب .

ولم يخل المشروع من لمسات اشتراكية تأتت من أن صياغته بدأت من نوفمبر ، عندما كان المد الاشتراكي غالبا ، ومن أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي - كائنا ما كان حفاظه - فإنه كان يحرص على طابع اشتراكي ، فنص المشروع على أن الملكية الخاصة محمية ، ولكن على أساس أن يعمل أصحابها طبقا للمصلحة العامة ويجوز للحكومة أن تأمر بتأميم المشروعات الصناعية التى يناسبها هذا الاجراء . كما احتفظت الحكومة بحق اجبار بعض المنشآت على أن تندمج فى منشآت أخرى مثيلة .

وكان موضوع الجيش من النقاط الشائكة . وقد أرادت الجمعية البلمة أن ترجىء هذا الموضوع إذ كان من المعروف ان سيكون للحلفاء شروط وتحفظات عديدة على وضع الجيش . ولكن الفيادة العامة أوضحت للجمعية

أنه من غير المرغوب فيه تأجيل هذه النقطة الهامة . وكانت القيادة العامة تريد إجراء دمج الفرق الحرة في الجيش النظامى حتى تتخلى هذه الفرق عن صفاتها التى لا تتلاءم مع الإلتزام العسكرى ، وبقدر ما كان هذا الدمج يتأخر بقدر ما كان يصعب تأصيل عادات الإلتزام فيها وبقدر ما يزداد خطر هذه الفرق . ولهذا وضعت الجمعية « قانون الجيش المؤقت » الذى بنى على التطوع وليس التجنيد وأن يكون نظامه ديمقراطياً . ولكنه ألقى « مجالس الجنود » وأحل محلها نظاماً فضفاضاً ومبهماً يدور حول « رجال الثقة » الذين ينتخبهم رفاقهم بواقع ثلاثة لكل فرقة ، وتكون لهم سلطات إستشارية ولكن دون أن يكون لهم أى سلطة فى الأمر أو إختيار الضباط . وكانت هذه الصيغة فى مجموعها ترضى القيادة العليا .

وكان من الأعمال الأولى للجمعية الوطنية تشكيل حكومة وقد إختارت بأغلبية ٣٧٧ من ٣٧٩ صوتاً إيبرت رئيساً للجمهورية . وإختار هذا شيدمان مستشاراً وكون شيدمان وزارة إئتلافية تضم أربعة من الحزب الديمقراطى وثلاثة من حزب الشعب المسيحى وخمسة من الحزب الإشتراكى الديمقراطى (الأغلبية) وكان منهم نومسكه — وزير الدفاع .

وكان وزير الخارجية نبيلاً بروسيا هو الكونت بروكدورف رانتزو . وقد رأى إيبرت ضرورة الإستعانة به فى المهمة الخطرة المقبلة — تسوية السلام — لما أعتقده من عدم وجود ألاكفاء من الديبلوماسيين بين الإشتراكيين . وكان بروكدورف رانتزو — كسكل النبلاء ملكى الميول — ولكنه أيضاً — كالكثير منهم — كان يرى أن من الواجب عليه أن يخدم الدولة . حتى لو كان على رأسها الإشتراكيون ولم يدع هذه المشاعر سرا — فضلاً عن أنه إحتفظ بحقه فى الإستقالة إذا لم تكفل مفاوضات السلام تسوية مشرفه .

وكائنا ما كانت المقدرة الفنية المظنونة للكونت ، فإن الاختيار — كقرار سياسى — لم يكن موفقا . فلم يكن مما يسهل مهمة الوفد أن يكون على رأسه نبيل من زمره النبلاء الذين أشعلوا الحرب ، وإستهدف الحلفاء إستئصالهم تماما . والحزب الإشتراكى بعد هو الحزب الذى قاوم منذ نشأته العسكرية والتوسع الحربى . وعارض الحرب السبعينية وأحتج على ضم الألزاس واللورين وطالب بصلح مشرف مع فرنسا وتعرض فى هذا السبيل لنقمة بسمارك . ثم هو الذى قاوم — إلى حد ما — الحرب وتظاهر ضدها وأحتج خلالها بلسان هوجو هاسه على معاهدة برست ليتوفسك .

كان يجب على ايبرت أن يقدر هذه المعانى . وإن يدكر فرنسا بها ، بإيفاد شخصية إشتراكية ، فإن لم يفلح فى إعادة هذه الذكريات وما تودى إليه من تخفيف للمرارة . فعلى الأقل يبعد شبح العسكرية البروسيه المخوفة . لا أن يجابه الحلفاء بها فى شخص الكونت .

\* \* \*

وفى باريس كان مجلس العشرة ، الذى تقلص إلى مجلس الخمسة . ثم الأربعة ثم فى حقيقة الحال الثلاثة<sup>(١)</sup> (ويلسون ولويد جورج وكليمنصو) يجتمع ويمسك بيده مصائر العالم . وكان إثنان على الأقل من الثلاثة يكتنان كراهية عميقة لألمانيا ويعتزمان الإنتقام بلا رحمة وكان . كليمنصو — النمر الفرنسى — الذى لم ينس هزيمة ١٨٧٠ فى الماضى ولا قسوة المعركة فى الحاضر — يريد أن لا تكرر المأساة فى المستقبل ويعتزم أن يقلم أظافر ألمانيا ويقطع أوصالها حتى لا تصبح العدو الرهيب الخوف الذى لا قبل لفرنسا به ، كما كان لويد جورج قد تورط فى دعاياته الإنتخابية . فوعده بشنق القيصر وإعتصار ألمانيا — كالثليومونه — لآخر قطره . ولم تكن ألمانيا بعد ، وبصرف النظر عن هذه المشاعر ، بالنسبة لهما سوى دولة مهزومة مغلوبة ، وقد أعطت ألمانيا نفسها المثل



لما يجب على المغلوب أن يدفعه ، ولما يمكن للغالب أن يذهب إليه .  
عندما فرضت معاهدة بريست ليتوفسك الجائرة على الاتحاد السوفيتي المهزوم .

وكانت وزارة الخارجية الألمانية قد كونت فريقاً من الخبراء والمختصين أطلق عليه مكتب مفاوضات السلام Paxkonferenz عكف لمدة طويلة على جمع الإحصائيات وتحضير الوثائق التي يجب أن تكون معدة عندما تنتهي الحرب ، سواء انتهت بالهزيمة أو بالانتصار ، وقد دعم بركدورف وانتزوا هذا الفريق بحيث أصبح يتكون من أربعين من موظفي الخارجية رمائة من الخبراء الخارجيين في مختلف المجالات كالصناعة والزراعة والاقتصاد . الخ .

وتوقع هؤلاء الخبراء أن يطلب الحلفاء إلى ألمانيا تسليم الآلات والورق وتجريد منطقة الرين من السلاح ، وتحديد الجيش والأسطول وأن يكون هناك صراع حول منطقة حوض السار وسيليزيا العليا ودانزج ، كما تصوروا أن ستفرض على ألمانيا تعويضات قد تصل إلى خمسين ألف مليون مارك تدفع على مدة طويلة . وأنه سيسمح لألمانيا بمجرد توقيع المعاهدة بعضوية « عصبة الأمم » . بالاختصار ، كانت توقعات هؤلاء الخبراء أنه وإن كان على ألمانيا أن تدفع ثمن الهزيمة ، فإن هذا الثمن لن يكون باهظ الدرجة تعجزها عن الأداء أو يكون مهيناً لشرفها أو كرامتها . وكان في ذهن هؤلاء بالطبع ، أن ألمانيا وإن طالبت بالهدنة فعلى أساس النقطة التي وضعها الرئيس ولسن لسلام عادل ودائم .

وفي ١٨ أبريل سلم مندوب قيادة الحلفاء ألمانيا مذكرة يدعو فيها ألمانيا لإرسال مندوبها مساء ٢٥ أبريل لاستلام النص الأولي للمعاهدة .

وردت ألمانيا في اليوم التالي بأنها سترسل سفيراً ومساعدين وأربعة من الكتبة لاستلام النص ، ولكن الحلفاء ردوا بأنهم يصرون على

أن ترسل ألمانيا مفوضين لهم كافة السلطات لمعالجة موضوع السلام بأسره .  
وقبلت ألمانيا ، وفي ٢٨ أبريل غادر برلين قطاران خاصان يحملان  
١٨٠ شخصاً هم الوفد الألماني إلى مؤتمر السلام بباريس ، وكان يضم بالإضافة  
إلى وزير الخارجية عدداً من كبار الشخصيات السياسية والخبراء وقد قسم  
نفسه إلى لجان تختص كل بناحية معينة .

ولم يكد القطار المقل للوفد يغادر الحدود الألمانية ويصبح تحت رحمة  
الفرنسيين حتى بدأت أولى تصرفات الحلفاء ، فقد هبطت سرعته إلى  
١٥ كيلو ، وكان يقف لحظات طويلة عند كل موقع من مواقع المعارك  
الحربية ليرى الوفد الألماني الآثار المدمرة التي تركتها جيوشه ، والقرى  
المهدمة المهجورة . . وعندما أصبح القطار على مقربة من فرساي أنزل الوفد  
وأركب العربات حتى لا يتعرض لهجوم الشعب في محطة فرساي حتى أوصلوا  
إلى فندق دي ريسرفوار Hotel des Reservoirs .

واكتشف الألمان أن هذا الفندق كان هو الذي استقر به الوفد الفرنسي  
الذي كان يفاوض بسمارك في شروط الصلح سنة ١٨٧١ ، كما اكتشفوا أن  
السلطات الفرنسية أحاطته بسور من الأسلاك الشائكة بدعوى الحرص على  
سلامتهم وحمايتهم وإن كان الغرض الحقيقي هو منعهم من الاتصال بالخارج .

وما لم يكتشفه الوفد الألماني وقتئذ هو أن الحلفاء لم يكونوا قد أمموا  
امتداداتهم ، وأن امتداعه في هذا الوقت إنما يعود إلى أسباب دعائية تتعلق  
بمركز لويد جورج وكليمنصو ، ولتهديئة ثائرة الجماهير في فرنسا وبريطانيا ،  
ولكن نصوص المعاهدة كانت مشتتة ما بين الحلفاء بعضهم بعضاً ، وفي عدد  
كبير من المكاتب والإدارات ، وكان هناك اختلاف جسيم في وجهات نظر  
الحلفاء الثلاث حول عدد من المسائل .

وفي انتظار تسوية هذه المسائل كان أفراد الوفد الألماني يقضون نهارهم وليلهم في فندق دى « ريسرفوار » يقرأون الجرائد ، ويتبادلون الأحاديث ويتناولون العشاء ثم يأوون إلى الفراش . ومع أن الكونت كان يستمتع بالكونياك الفرنسى إلا أنه ضاق الفراغ ، واعتقد أن هذا الإجراء إهمال مقصود ، فأرسل فى ٤ مايو مذكرة بأن الشخصيات المسئولة فى الوفد ستضطر للعودة إلى ألمانيا ما لم يكن الحلفاء على استعداد لاستقبالهم ، ووضع ذلك الحلفاء فى مأزق . فلم يكن بإمكانهم استبقاء وزير الخارجية دون عمل لمدة غير محدودة ، ولم يكونوا على استعداد للسماح له بالسفر وهم كل ما بنوه من دعاية عن قرب التسوية ، لهذا قرر المجلس أن تسلم المعاهدة يوم ٧ مايو فى قصر التريانون بفرساي ، وشجرت لجنة الصياغة فجمعت ما أعدته اللجان ، وبعضها كان فى صورة توصيات ، أو مناقشات أولية ، أو نصوصا تمثل الحد الأعلى الذى يمكن النزول عنه عند المفاوضة أو يمكن تسويتها عن طريق عصبة الأمم . وكانت هذه الفوضى من العوامل التى أسهمت فى جعل معاهدة فرساي وثيقة اتهم أكثر مما كانت تسوية سلام ..

وطبعت هذه المعاهدة فى سرية تامة وسرعة بالغة بحيث سلمت قبيل فجر يوم ٧ مايو ، وأسرع بها السعاة إلى كبار المسئولين من الحلفاء الذين نزلت عليهم كالصاعقة . فعندما أيقظ هربرت هوفر فى الساعة الرابعة بعد منتصف الليل لتسلم نسخته عكف على قراءتها ، ولم يكسد يمضى فيها حتى استحال عليه النوم ، وعند أول ضوء للفجر وضع ملابسه وخرج ليلتقى بالاقتصادي البريطانى كينز ، ورئيس اتحاد جنوب أفريقيا ستمس اللذين لم يستطيعا مثله النوم ولا البقاء بعد قراءة المعاهدة ، بل حتى وزير الخارجية الأمريكى لانج كتب مذكرة يستنكر فيها قسوة وفظاظة المعاهدة وأن الكثير من نصوصها غير قابل للتحقيق .

وخلال ذلك كانت الترتيبات تسير على قدم وساق في قصر التريانون . فأعدت في القاعة الرئيسية أربع منصات كبيرة تكون في مجموعها مربعا شغل ممثلو الحلفاء ثلاثاً منها ، وترك الرابع للوفد الألماني ، وأشارت إحدى الصحف الفرنسية إلى منصة الوفد الألماني بأنها « قفص الاتهام » .

وفي ٦ مايو سلم الوفد الألماني مذكرة بجدول الأعمال . اتضح منها أن الاجتماع سيبدأ الثالثة بعد الظهر ، وأنه لن يستمر إلا بضعة دقائق يسلم بعدها الوفد الألماني المعاهدة وينصرف ، وتأكد الوفد أن هذا الاجتماع لن يكون مؤتمراً للسلام بالمعنى التقليدي ، وأنهم سيقتادون ليقفوا أمام المنتصرين في قفص الاتهام ليسمعوا « إملاء » الاتفاقية عليهم وأن كل خطوة اتخذها الحلفاء من إبطاء القطار ، وحبسهم داخل الفندق وإهمالهم فيه لمدة طويلة ، وجعل مكان تسليم المعاهدة هو المكان الذي توج فيه الامبراطور ولهم الأول . وأن مياعداها يوافق الذكرى الرابعة لإغراق « لويزيانا » كلها . . إنما أريد بها إذلالهم . .

وأعد الوفد الألماني ثلاث صيغ مختلفة للخطاب الذي سيلقيه الكونت بروكدورف رانتزو وترك له اختيار الصيغة التي تناسب مع الموقف .

وسيق الوفد الألماني إلى قصر التريانون في عدد من العربات ، وكانت وفود الحلفاء قد سبقت وأخذت أما كتبها عندما نزل الكونت بروكدورف رانتزو من عربته ، وتوقف ليتجمع بقية الوفد ورائه ، ودخل الكونت وصيحة الحاجب تدوى « السادة أعضاء الوفد الألماني » فوقف كل الحاضرين على أقدامهم . وانحنى الكونت وردت بقية الوفود بالانحناء ثم أخذ مجلسه في مواجهه كليمنصو . .

وقف كليمنصو — الذي كان من حقه بصفته رئيساً لمؤتمر السلام —

أن يبدأ الحديث فخطب الوفد الألماني قائلا «... لا الوقت ، ولا للمكان يسمحان بعبارات جوفاء، إن ساعة التسوية الثقيلة لحساباتنا قد دقت . فقد طلبتم السلام، وقد قررنا أن نمنحه لكم - وسيوضح لكم المجلد الذي سيسلمه مكرتير المجلس الشروط التي وضعت . وأنا مجبر أن أضيف ، إن هذا المؤتمر الثاني للسلام في فرساي قد اشترته الشعوب الممثلة هنا بشمن باهظ لدرجة تجعلنا نقرر بالاجماع وبكل الوسائل التي في وسعنا - ضمان الترضيات المشروعة التي هي من حقنا... » .

وختم كليمنصو كلمته القصيرة بأن أمام الوفد الألماني خمسة عشر يوما لارسال ملاحظات مكتوبة وسيعقب عليها الحلفاء بالصيغة النهائية وميعاد التوقيع . وعندما انتهى من كلمته ، رفع الكونت يده ، وانتقى إحدى الأوراق أمامه وشرع يقرأ - دون أن يقف - كما فعل كليمنصو .

« نحن لانتحاجنا أية شكوك في مدى هزيمتنا ، أو درجة عجزنا . ونحن نعلم عمق الكراهية التي تحيط بنا هنا . وقد سمعنا الطلب الملح أن يجعلنا المنتصرون ندفع كمهزومين ونعاقب كمنذنين ، وقد أريد منا أن نعترف أننا وحدنا المذنبون ، ومثل هذا الاعتراف سيكون كذبه على طرف اللسان . ونحن أبعد مانكون عن أن نبرى<sup>١</sup> ألمانيا من كل مسئوليتها . ولكننا نعارض فكرة أن ألمانيا ، التي آمن شعبها أنه يخوض حربا دفاعية - تنقل وحدها بكل عبء الادانة . قد لا تكون الجرائم في الحرب معفاة أو مبررة . ولكنها تقترف خلال الكفاح في سبيل النصر ، وفي غمرة العاطفة التي تخرس ضمير الشعوب ، إن مئات الألوف من غير المحاربين الذين هلكوا منذ ١١ نوفمبر بسبب الحصار إنما قتلوا صبرا وعمدا بعد أن اكتسب أعداؤنا النصر ، وثبتوا منه .. ففكروا في هذا عندما يتحدثون عن الادانة .

ومع أننا قد نكون وحدنا في هذا المؤتمر ، إلا أننا لسنا دون دفاع ، فأنتم أنفسكم قد اكسبتمونا حليفا هو - العدل » .

وكان لهذا الخطاب أسوأ الأثر . وأوّلَ كل شيء فيه تأويلا معينا . فعدم قيام بروكدورف - رانتزو اعتبر تحديا ، وأولت الألفاظ والمعاني وطريقة الالتقاء بأنه إصرار ، وأن ألمانيا لم تتغير ، وهامى ذى ترسل كونتا من المدرسة القديمة . وكانت هذه الظنون غير حقيقية . فالسكونت رغم ماضيه الديبلوماسى وأصله الارستقراطي لم يكن يجيد الخطابة في المحافل العامة . وكان المشهد يضاعف من حرجه وضيقه ويكفى أنه كان يضطر عند كل جملة للتوقف وتسليم الورقة الوحيدة التى يقرأ منها المترجم لى يترجم الفقرة .

ومن ناحية أخرى فقد روع الألمان بجهد المؤتمر ورغبة الانتقام وأن العملية ليست عملية تفاوض ولكنها إملاء .

كان المشهد بأسره صورة عكسية لجملة كلاوزفيتز المشهورة عن أن « الحرب هى مواصلة السياسة بطرق أخرى » . فهنا كانت السياسة مواصلة للحرب بطرق أخرى .

وما أن خرج الوفد ومعهم نسخة المعاهدة المشثومة التى سلمت لهم ، ووصلوا إلى الفندق حتى قسموها إلى عشرين جزء وسلم كل جزء إلى أحد خبراء الوفد لترجمتها وما أن انتصف الليل حتى فرغت ترجمتها وأرسلت إلى برلين . وهناك سلمت لطابع الاميراليه التى أتمت طبع بضعة آلاف منها خلال يومين ، وبعد بضعة أيام كان نص المعاهدة المطبوع يباع في شوارع برلين بما يعادل خمسين سنتا . وفي المناقشة العامة الأولى للمعاهدة التى عقدت في جامعة برلين في ١٢ مايو - أعلن المستشار شيدمان رفضه البات للمعاهدة صائحا « أى يد لا تجف يمكن أن تقيد نفسها وتقيدنا بهذه الشروط » وأكد أن ألمانيا لن توقع على هذه

المعاهدة مالم تعدل جذريا ، وأعقب شيدمان متحدثون من كل الأحزاب أجمعوا بأسرهم ، وعلى اختلاف مذاهبهم على رفض المعاهدة . وكان الاستثناء الوحيد من هذا الاجماع هو هوجو هاسه رئيس الاشتراكيين المستقلين الذى وإن انتقد المعاهدة فإنه قال إن الاشتراكيين المستقلين هم وحدهم الذين يستطيعون انتقاد المعاهدة دون تثريب ، فهى ليست أسوأ من معاهدة بريست ليتوفسك والمستقلون وحدهم هم الذين انتقدوها ، أما الاشتراكيون الديمقراطيون (الأغلبية) فقد اکتفوا بالامتناع . ولاحظ هاسه أنه من غير الطبيعى من الذين فرضوا بريست ليتوفسك أن يسألوا الرحمة .

على أن هذه الملاحظة كائنة ما كانت وجاهتها ، لم تلبث أن أغرقت فى حمام العواطف المتأججة ضد المعاهدة .

وفى فندق الرسوفوار كان المندوبون الألمان يعكفون على المواد مادة مادة ينقحون كل واحدة بما يتفق مع النقط الأربعة عشر ، ووضع ألمانيا كدولة جاءت إلى فرساي لا كدولة مقهورة ولكن كأحد الأطراف السامية المتعاقدة . وكانت الردود تأتى رافضة للملاحظات مذكرة ألمانيا بما سبق أن اتخذته مع فرنسا أيام الحرب السبعينية أو غيرها .

وأخيرا وبعد أن اكتسب الألمان مهلة أسبوع من الحلفاء أرسل الألمان ردهم عن المعاهدة بأسرها يوم ٢٩ مايو ، وكان هذا الرد ينقض أو يعدل كل مادة فى نص الحلفاء تقريبا . ولكن ثلاث نقاط أساسية استأثرت باهتمام ومدافعة الألمان . تلك هى (١) الحدود (ب) التعويضات (ج) انهم الحرب .

بالنسبة للنقطة الأولى كانت المعاهدة تقضى بتنازل ألمانيا عن شمال سلزويك للدهانرك والالزاس واللورين لفرنسا وبوزن وغرب بروسيا الشرقية لبولندا ووضع منطقة السار لمدة خمسة عشر عاما تحت إشراف عصبة الأمم ، على أن

تفريد فرنسا من مناجم الفحم بها. وكان على ألمانيا أن تتنازل عن جميع مستعمراتها وراء البحار ، وأن تبقى الضفة اليسرى لنهر الرين وجسوره محتلة ، وأن تخلى المنطقة المحاذية لها على امتداد النهر بعرض ٥٠ كيلو مترا .

وكذلك تضمنت المعاهدة مصادرة المعدات الحربية والأسطول وجميع السفن التجارية التي تزيد حمولتها على ١٦٠٠ طناً وعدداً من القطارات وأن يكون عدد أفراد الجيش النظامي مائة ألف على أن لا يسلمح بأسلحة ثقيلة أو دبابات أو طائرات أو بوارج حربية .

وكانت الدولة المستفيدة بالدرجة الأولى من هذه النصوص هي فرنسا ، وقد كافح كليمنصو حليفه كفاحاً مريراً ليحصل على كل ماأراد ، وكان وراءه - على عداوته لألمانيا - سياسى معارض له أكثر عداوة لألمانيا هو بوانكاريه الذى كان يندد بتهاون كليمنصو واستسلامه لحليفه وضعفه أمامهما .

ولم يكن موضوع التعويضات أقل أهمية من موضوع الأراضي . فقد أراد لويد جورج وكليمنصو أن تدفع ألمانيا تعويضات عن كل ما يتصور من أضرار تسببت فيها الحرب ، بما فى ذلك معاشات القتلى وتعويضات الجرحى وكان وراء كل منهما جمهور مسعور ومجلس نيابي حائق تتربص فيه المعارضة بالحزب الحاكم وتنتهز الفرصة لإقتلاعه ، وكان الطرف الوحيد الذى لم يكن له مصلحة فى التعويضات هو الولايات المتحدة التى كان يضم وفدها الإقتصادى عمالقه مثل برنارد باروخ وفيس ما كورميك ونورمان ديفيس وتوماس لامونت وجون فوستر دالاس وحاول هؤلاء أن يوضحوا أن ألمانيا مستعجز قطعاً عن دفع ما قدرته فرنسا وبريطانيا - شيئاً يقرب من ١٢٠ ألف مليون دولار لأنه يفوق كل الثروة الألمانية القومية التى قدرت وقتئذ بـ ٧٥ ألف مليون دولار ، ولكن عبثاً ، فقد قيل لهم إن ذلك ليس ذنب فرنسا أو إنجلترا ،



وأن على ألمانيا أن تدفع بالتقسيط ما تعجز عن دفعه نقداً مع إحتمساب الفوائد التي تجمعها المبلغ يتضاعف ، وأورد العضو البارز في الوفد البريطاني — المستر كينز — طريقتين ممكنتين للدفع، الأولى أن يقوم العمال الألمان بتعمير ما خربته الحرب . والثانية مساعدة ألمانيا بحيث تكون دولة صناعية قوية تفيض مواردها وتؤخذ الديون من هذه الفوائض . وبالطبع رفض الحلال . فقد كان لدى فرنسا من عملها ما يفيض عن الحاجة ، كما لم تكن مستعدة لمساعدة ألمانيا لكن تأخذ منها بعد ذلك . وإستقال كينز وكتب كتابه المشهور « النتائج الإقتصادية لمعاهدة السلام » الذي إنتقد فيه التعويضات نقداً مرا .

وعندما إستشعر لويد جورج شيئاً من الحقيقة ، لم يكن مستعداً لأن يصارح مجلس العموم بذلك — وإعتزم أن يقول إن موضوع التعويضات معقد جداً بحيث لم يمكن ألبت فيه . وعندما يأتى الوقت تكون ثائرة الشعب البريطانى قد هدأت . .

وكان مشروع المعاهدة يجبر ألمانيا على دفع خمسة آلاف مليون دولار ذهباً قبل ١ مايو سنة ١٩٢١ بجانب ما مستقدمه من الفحم والكيماويات . إلخ . . عل أن تعقد لجنة للتعويضات لتجرى حساب ما يجب أن يدفع . ، ولكن الأمريكيين رأوا أنه خلال هذين العاملين سيمحى الخنق على ألمانيا ، وأن من الخير تحديد مبلغ معين ، خاصة وأن هذا سيدفع العمال الألمان للعمل بجهد وإخلاص . ولكن فرنسا رفضت ذلك .

ولم تكن النقطة الثالثة التي أثارها حق الألمان تتعلق بأرض أو مال ، ولكنها كانت تتعلق بأثم الحرب . ففي مقدمة القسم الخاص بالتعويضات . وضع الحلفاء — كمقدمة له — مادة مختصرة هي المادة ٢٣١ أريد بها تبرير دفع ألمانيا للتعويضات . وكانت هذه المادة تنص على أن « الحلفاء والحكومات

المرتبطة بهم ، تؤكد أن ألمانيا تقبل مسئوليتها وحلفائها لكل الخسائر التي لحقت بالحلفاء والحكومات المرتبطة بهم ، ومواطنيهم نتيجة للحرب التي شنها عليهم عدوان ألمانيا وحلفائها .»

وكما لاحظ أحد المؤرخين ، فمع أن المادة لم توضع عرضا فإنه لم يتصور أن تثير ما أثارته من معارضة ، والواقع أن لجنة التعويضات لم تفكر في وضع هذه المادة حتى اقترح الفرنسيون ذلك إقامة للحق المادي على أساس أدبي أو معنوي ، ووجدت اللجنة الفكرة طيبة .

وكانت دهشة الحلفاء عظيمة ، عندما وجدوا أن هذه المادة بالذات إستأثرت بأعظم أجزاء من معارضة الألمان وأن ألمانيا لا تقبل « أثم الحرب » War Guilt Clause ورأى الحلفاء أنهم لم يذكروا كلمة إثم guilt ولكن مسئولية responsibility ، ولكن الألمان - فيما يبدو - لم يفرقوا بينهما خاصة وقد سبق هذه المادة المواد من ٢٢٧ - ٢٣٠ التي تتحدث عن العقوبات وكان منها محاكمة القيصر الخلع وتسليم مجرمي الحرب ( وقد كان منهم هندنبيرج - الذي سيصبح فيما بعد رئيسا للجمهورية ) . وفي ١٠ مايو أرسل الوفد الألماني مذكرة إلى الحلفاء يقول فيها إن ألمانيا ليست الدولة الوحيدة أو الرئيسية التي تلام على الحرب ، وبينما كان الحلفاء يعتقدون أن مسئولية ألمانيا عن الحرب مسألة لا تحتاج إلى تدليل ، فإن الألمان بتأثير دعاية الحرب الطويلة ، وتداخل الأحداث التي أدت إليها - كانوا مقتنعين أنهم دخلوا حربا دفاعية . ومع أن الحلفاء لم يكن يهمهم بوجه خاص هذه المادة ، إلا أنهم هم أيضا ، بفضل دعاتيهم الطويلة عن أنهم إنما دخلوا الحرب دفاعا عن المبادئ الإنسانية لم يكن أمامهم إلا التمسك بها . لأن التنازل عنها ، بعد أن أثبتت ، يصبح له مدلول إيجابي ، فإذا لم يكن أثم هذه الحرب المدمرة يقع على ألمانيا فعلى من يقع وكيف يمكن لأي واحد

من الثلاثة الكبار مواجهة الناخبين بمضمون هذه النتيجة ، وهكذا تمسك الحلفاء بالمادة المشنومة ورفضوا مناقشتها .

\* \* \*

بعد أن قدم الألمان ملاحظاتهم بفترة ، ونتيجة لإلحاحهم وكشفهم عن وجهة النظر الأخرى وما حفلت به المعاهدة من ثغرات ، تملكث الهواجس لويديجورج ، خاصة بعد أن كتب إليه الجنرال سمخس مندوب اتحاد جنوب أفريقيا ، وأحد الشخصيات اللامعة . ومن كانوا من أعداء الامبراطورية البريطانية ، ثم انقلبوا من أكثر أبنائها حماسة — مذكره مسهبه في ٢٢ مايو حافله بالنذر — أوضح له فيها أن احتلال الرين سيكون بداية لقلقل في المستقبل وأنه لما كان على ألمانيا أن تدفع نفقات جيش الاحتلال فلن تتردد فرنسا في أن ترسل جيشاً جراراً يستنفد مالية ألمانيا .

ولما كان هذا الاحتلال لا ينتهي إلا بعد التثبت من أداء كل التزامات المعاهدة وهو أمر مشكوك فيه . فإن هذا يعنى بقاء الاحتلال وبقاء العبء المالى والإثارة المعنوية أما التعويضات ، فحتى الدفعة المقررة من الذهب والكيماويات والفحم هي أكبر مما تطيق ألمانيا دفعه . وحذره من أن الحلفاء سينجحون الدجاجة التى تبيض بيضة الذهب . وأن ألمانيا بعد أن جردت مناجمها فى سيليزية والساار لن تستطيع أن تدفع شيئاً ، وحذر سمخس من اعطاء بولندا مزيداً من الأرض الألمانية لأن هذا سيكون خطأ بالغاً سينتقم له فى المستقبل ، كما رأى أن من الحماقة مطالبة ألمانيا بتسليم أى واحد يطلبه الحلفاء وأن تخفيض الجيش الألماني إلى مائة ألف ميسجع الثورة بالداخل باختصار طالب سمخس بتغير شامل فى المعاهدة .

وبعد ذلك بأسبوع كتب إلى الرئيس ولسن خطاباً مماثلاً ذكره فيه بالنقط الاربعة عشر وأن المعاهدة الماثلة تتناقض قلباً وقالباً مع نقاط ولسن .

ومن العجيب أن الرئيس الأمريكى الذى تملكه القرف واليأس ، والذى كان فى حالة صحية سيئة وحالة نفسية أسوأ ، لم يعن بهذه المذكرة ، على نقيض لويد جورج الذى عندما واجهته هذه الحقائق الرهيبة تملكه الذعر . وفى أول يونيو دعا أعضاء الوزارة البريطانية ومندوبى الدومينيون للاجتماع فى باريس حيث أغلقوا على أنفسهم الابواب وبقوا فى مناقشة ظلت يومين كاملين .

ولافتتح لويد جورج الاجتماع بعرض مذكرات الوفد الألمانى وردد الحلفاء ، ثم تلاه ستمس بتنديد كاسح للمعاهدة وأوضح لويد جورج أن من الممكن للحلفاء إجبار ألمانيا على توقيع المعاهدة ، ولكن ماذا يحدث لو أن الحكومة الألمانية رفضت التوقيع وإستقالت بصفة جماعية ، وحلت محلها وزارة لا قيمة لها تصدق على الإتفاقية ولا تستطيع تحقيق بنودها . إن فرنسا المستفيدة الأولى من المعاهدة ، ستجبر بريطانيا بحكم إلزامها إلى منازعات لا حد لها . وقد يتطلب الأمر الإبقاء على جيش كبير . ثم هناك حتمال أن لا توجد أى وزارة تقبل توقيع المعاهدة ، فهل بريطانيا مستعدة لتعبئة جيش جديد لإحتلال ألمانيا؟ وتلا لويد جورج وستمس الخبراء المالىون الذين أوضحوا حماقة التعويضات وإستحالة دفعها . وما سيؤدى إليه ذلك من فوضى مالىة ستهدد اقتصاد العالمى .

وصرح المجلس للويد جورج ، بل وجهه ، لأن يطالب بتعديل شامل للاتفاقية فإذا رفض ذلك فله أن يوقف الحصار الذى يفرضه الأسطول البريطانى أو العمليات العسكرية التى تقوم بها الجيوش البريطانية .

وما أن قدم لويد جورج اقتراحه بالتعديل الشامل للمعاهدة حتى هاجمه كليمينصو ، وأوضح أن بريطانيا لم تقدم شيئاً يهدأ نائرة الألمان على حساب للصالح البريطانى فلم تقترح مثلاً تخفيض عدد السفن الألمانية التى تسلم إليها .

أو إعادة الأسطول الألماني الذي يسلم إليها أو رفع القيود على التجارة الدولية لألمانيا أو إعادة مستعمراتها وبدلاً من ذلك فإنها اقترحت تنازلات على حساب المصالح الفرنسية وقال كليمنصو «نحن نعرف الألمان خيراً منكم . إن هذه التنازلات ستشجع الألمان على المقاومة وستحرم شعبنا من حقها . ولسنافى حاجة لأن نلتمس المَعذرة لانتصارنا » وعرض أن يقدم لويد جورج إلى مجموعة من النساء الفرنسيات ما بين سن ١٤ و ٦٥ اغتصبن الألمان .

ولم يكن هذا المسلك مفاجئاً للويد جورج ، فقد توقعه ، ولكن ما لم يتوقعه هو مسلك الوفد الأمريكي الذي كان عدد من أبرز شخصياته قد أظهر تعاطفاً مع ستوتس وكينز ، وكان لانسج وزير الخارجية يعارض المعاهدة . لهذا تملكك الدهشة الوفد البريطاني عندما قام الرئيس ولسن وعارض التعديل وأوضح أن إتمام المعاهدة كان معجزة وأنه يستحيل تعديلها من جديد . فقد غادرت معظم الوفود باريس وقد لا يمكن إقناع بعضها بالنصوص الجديدة . .

وأوضح الرئيس ولسن وجهة نظره الأخيرة « لست أريد أن أكون غير معقول ، ولكن مشاعري هي كالآتي . ليس علينا أن نعدل في المعاهدة بفكرة الحصول على توقيعها . إن وقت تقدير هذه الاعتبارات كان وقت كتابتها . وإنه لما يشعرني التعب أن يأتي إلى إناس يقولون إنهم يخشون من عدم توقيع ألمانيا للمعاهدة وها هو ذا فريق بريطاني يمثل كل أنماط الفكر البريطاني يملكه الهلع . إن عليهم أن يكونوا عقالاً . . فليسوا في حاجة إلى الهلع . . وليكن الله معنا » . .

وأحبط هذا الموقف آمال لويد جورج ، فلم يستطع أن يحصل إلا على تعديلات تافهة واستبعدت فكرة الإعادة الشاملة بحيث أتم الحلفاء ردودهم على الملاحظات الألمانية يوم ١٦ يونيو . وسكن روع لويد جورج ، وأُدار

سكرتيره فيليب كير Philip Kerr الذى كان يعد أ كفاً وأسرع دبلوماسى لإعداد الصياغة الأخيرة التى تضمنت أن هذا النص يمثل الكلمة الأخيرة وأن الحلفاء يريدون إعلاناً من الوفد الألمانى خلال خمسة أيام باستعداده لتوقيع المعاهدة، وفى حالة عدم إرسال مثل هذا الإخطار فإن الهدنة ستنتهى وسيقوم الحلفاء بما يرونه لازماً لتحقيق شروطهم .

وسلم هذا الرد مع نسخة واحدة من المعاهدة المعدلة إلى الوفد الألمانى الذى وجد لفجئته أن التعديلات طفيفة لدرجة لم يجد فيها الحلفاء حاجة لإعادة طبع المعاهدة . . وإنما كتبوا التعديلات على هامش المشروع الأسمى بالخط الأحمر، وعلى الفور قرر بروكدورف رانتزو أن ليس لديه ما يبقيه فى فرساي وأن قبول أو رفض المعاهدة هو ما ثبت فيه برلين . فسافر فى سواد الليل البهيم ، دون أن يتوافر العدد اللازم من العربات أو الحماية الكافية من الجمهور المعادى بعد أن اكتسب من الحلفاء مدة يومين هى فى الحقيقة مدة السفر — وبذلك أصبحت المهلة أمام ألمانيا سبعة أيام . .

وخلال يومى السفر عكف بروكدورف رانتزو على إعداد تقريره الذى انتهى فيه إلى أن شروط الحلفاء مما لا يمكن قبوله أو الوفاء به . وما كاد القطار يدخل فايمار فى صباح ٨ يونيو حتى كان التقرير قد كتب على الآلة الكاتبة . وهرع بروكدورف رانتزو الى الرئيس ايبيرت والمستشار شيدمان وبقية أعضاء الوزارة الذين كانوا فى الانتظار .

ولو جاء بروكدورف رانتزو قبل ذلك بأسبوع لوجد الوزارة مجمعة على نبذ المعاهدة ولكنه الآن وجدها منقسمة على نفسها فى خلال هذا الأسبوع استطاع رجل واحد أن يؤثر عليها بمنطقة البارد ذلك الرجل هو ماتياس ارزبرجر .

وكان ارزبرجر في الرابعة والأربعين من عمره ، وقد بدأ مستقبله في عمر مبكر واستطاع أن يشق طريقه صعوداً من نائب في حزب الوسط الكاثوليكي حتى أصبح زعيماً له . وعندما بدأت الحرب تحمس ارزبرجر لها ولكنه أدرك في صيف ١٩١٧ أن المعركة خاسرة ولم يتردد في أن يعلن في الرشتستاج أنه ألمانيا عاجزة عن الهجوم . وأن عليها أن تناور بالدفاع لحين الحصول على أفضل شروط السلام .

وفي نوفمبر سنة ١٩١٨ منه المستشار ما كس رئيساً لوفد الهدنة ولما تشكلت وزارة شيدمان كان ارزبرجر قد أعاد تشكيل حزب الوسط الكاثوليكي وغير اسمه إلى حزب الشعب للمسيحي . وجاء هذا الحزب في انتخابات يناير سنة ١٩١٩ بعد الحزب الاشتراكي الديمقراطي ( الأغلبية ) مباشرة فاختاره شيدمان وزير دولة ، ولكن مقدرته فرضته على الوزارة بحيث أصبح واحداً من أقوى أفرادها .

وكان ارزبرجر منذ أن عين رئيساً لوفد الهدنة قد استطاع أن يتفهم نفسية الحلفاء وأن يوجد بعض الصلات بهم بحيث أصبح في الوزارة العمدة فيما يتعلق بالحلفاء وكان يتكلم في اجتماعات الوزارة عن علم ودراية وصلة لا تنوفر لأي واحد آخر ، وعندما عين بروكدورف راتزو وزيراً للخارجية نشأ نوع من الصراع الخفي بينهما ، وشك بروكدورف في أن ارزبرجر يطمع في أن يحل محله ، وأنه يقوم وراء ظهره باتصالات ببعض دوائر الحلفاء .

وحقيقة الحال أن ارزبرجر كان قد قام بعدد من الاتصالات لعجم عود الحلفاء وللتعرف على حقيقة موقفهم من ألمانيا إذا رفضت ألمانيا التوقيع ، وقد بددت هذه الاتصالات كل الشكوك التي كانت تساوره في إصرار الحلفاء على احتلال ألمانيا إذا رفضت التوقيع . وعندما تأكد من هذا جابه  
١٦ — ظهور وسقوط

مجلس الوزراء بها . وأن الحلفاء ليسوا على استعداد لإجراء تعديلات جذرية في المعاهدة وأن خطتهم هي احتلال ألمانيا وتجزئتها إلى ولايات وفرض للمعاهدة على كل ولاية على حدة . وأعلن أنه يناصر توقيع المعاهدة على فداحة ذلك . وما قد يؤدي إليه من احتمال انشقاق شرق ألمانيا أو وقوع انقلاب عسكري ولكنه في الوقت نفسه سيكفل فك الحصار وعودة الأقوات والتجارة ، والاحتفاظ بوحدة الريخ . أما إذا رفضت الوزارة التوقيع فسيكون هناك الاحتلال والبطالة والجاعة وستندهم البلشفية وتتقطع أوصال الدولة الألمانية وتتحول إلى دويلات صغيرة .

وعندما قال أحد الوزراء إن التوقيع على معاهدة دون الوفاء بالتزاماتها يعد جريمة قال « إذا استطاع بعضهم أن يقيد يدي وأن يوجه إلى رأسي مسدسا طالباً أن أوقع على تعهد أن أطير إلى القمر خلال ٤٨ ساعة فإن أي واحد عاقل لا بد وأن يفضل التوقيع حرصاً على حياته » وإذا كانت الشروط فيما لا يمكن أن تطبق فسيرى الحلفاء بأنفسهم ذلك وسيترلون على حكم الضرورة أو سيكون هناك حل بطريقة أو بأخرى ، ولكن الكونت بركدورف كان يرى غير ذلك ونصح الوزارة بأن ترفض التوقيع وتثبت فالوقت في مصلحة ألمانيا .

وكان هناك جهة أخرى يجب التعرف على رأيها قبل الانتهاء إلى الرأي الأخير تلك هي القيادة العسكرية العليا . فما من مجموعة مستأثر بالمعاهدة كالجيش إذ انحطت به هذه إلى مائة ألف جندي منهم أربعة آلاف ضابط أي أن يكون الجيش الألماني العظيم أقل من جيش دويلة بلقانية . كما نصت المعاهدة على إيجاد لجان مراقبة للحلفاء للتثبت من عدم مجاوزة هذه الأرقام . وحددت صنع الأسلحة الثقيلة والدبابات وقضت بتسليم الأسطول الألماني إلى الحلفاء .



وكانت القيادة العامة قد قامت قبيل ذلك بعدة اتصالات بالوزارة عبرت فيها عن تمسكها بالجيش القوى القائم على التجنيد الإجبارى وعرض جرونر على بروكدورف خطة يقوم بمقتضاها الجيش الألمانى بعملية غزو منظم للبلشفية الروسية لحساب الحلفاء . ولكن بروكدورف رفض الفكرة من أساسها . وعندما بدأت كفة التوقيع ترجح ارتوى أولا الحصول على رد صريح من القيادة العسكرية عما إذا كان من الممكن للجيش أن يقاوم ويدخل المعركة من جديد .

كان الموقف حرجا للغاية ، فمن ناحية ما من ضابط يمكن أن يقبل هذه الشروط المهيمنة . ومن ناحية أخرى فإن الجيش لا يستطيع أبداً مقاومة جمحافل الحلفاء وستنتهى المعركة لا بهزيمة مشرفة ولكن بانتصار الفوضى والبلشفية وتفكك الجيش . وأمام هذه المعادلة توقف جرونر نفسه ، وهو أكفأ الضباط وأكثرم حكمة واتزاناً وواقعية ، ورأى أن حكمه وحده لا يكفي ، ولا بد أن يصدر المارشال هندنبرج نفسه وكتابة قراراً عن ذلك . لأن هذا وحده هو الذى يمكن أن يلزم الضباط . ولكن هندنبرج لم يكن بدوره ليجد مخرجاً وبعد ليلة نابغة لم ينم فيها المارشال . . سلم جرونر مذكرة مقتضبة جاء فيها :

« فى حالة استئناف العمليات العسكرية فيمكن للألمان أن ينتصروا فى الجبهة الشرقية . ولكنهم فى الجبهة الغربية لا يستطيعون — بالنسبة لتفوق العدو العددى واستعداده — مقاومة هجوم جدى للحلفاء . ومن هنا فمن المشكوك فيه أن نحصل على نتائج مرضية ولكنى كجندى أفضل الموت فى شرف على توقيع صالح مهن » .

وفى دوائر الجيش — ارتأى الجنرال والتر رينهارد وزير الحربية فى

بروسيا أن لا توقع ألمانيا المعاهدة أبداً . فليغزو الحلفاء ألمانيا وليجزؤونها إلى ولايات فستظل بروسيا . وسيظل جيشها وسيكون ذلك نواة ألمانيا الجديدة وإذا وقعت الحكومة المدنية المعاهدة فعلى القيادة العليا أن تتزعم ثورة شعبية عسكرية وتضع على رأسها المارشال هندنبرج ، ولكن جزؤهم رفض هذه الدعاوى ورأى أن ذلك سيكون نوعاً من الانتحار ، وأن الحلفاء أو البلاشفة سيقضون على البقية الباقية من هيئة الضباط والجيش .

وخلال هذه الفترة كانت الوزارة في اجتماعات مستمرة دون أن ترى مخرجاً فهي لا تستطيع التوقيع وهي لا تستطيع عدم التوقيع ، وقرأ نوسكه على أعضاء الوزارة مذكرة هندنبرج ، وأعلن أنه يؤيد توقيع المعاهدة رغم كل ما فيها . . وفي يوم ١٩ يونيه أجرت الوزارة أخذ الأصوات وتزعم فريق التوقيع أرزبرجر ، وتزعم فريق الرفض شيدمان ولكن النتيجة كانت متعادلة تقريبا ، فقرر الرئيس إيبرت إحالة الموضوع على الجمعية الوطنية ، وفي الوقت نفسه دعا الجنرال رينهارد كبار الضباط إلى مجلس حرب حضره كل الجنرالات المسئولين ، وعرض عليهم رينهارد فكرته في أن ينسحب الجيش إلى بروسيا ، ويعمل كل شيء للاحتفاظ بها بصرف النظر عما يحدث لبقية ألمانيا ، لكي تستطيع بروسيا بعث ألمانيا من جديد ولكن نوسكه الذي حضر هذا الاجتماع كوزير الدفاع قال لهم إنه يشك في قدرة بروسيا على الصمود أمام هجوم مزدوج من الحلفاء والبولنديين ووجه أنظارهم إلى الجانب السياسي . فالاشتراكيون المستقلون والشعبون يترصدون بالبلاد — وشيدمان وعدد كبير من الوزراء سيستقيلون بمجرد توقيع المعاهدة ، بل إن إيبرت نفسه قد يستقيل فإذا يكون حال ألمانيا ؟ إنه قد يطلب إليه تشكيل وزارة يكون له فيها سلطات مطلقة ولكنه لن يفعل هذا ما لم يتأكد أولاً من مناصرة الجيش له تماماً .

وفتحت هذه الایماة افاقا جديدة أمام الضباط ، فإذا حدث هذا وأصبح نوسكه حاكم المانيا وديكتاتورها فيمكن أن ينالوا كل شيء ، إن نوسكه هو رجلهم المفضل وهو . يجمع بين ظاهره كمدني واشتراكي وباطنه كمناصر ومؤيد للضباط على طول الخط . فعمدت صفة مضرة يؤيد بمقتضاها الضباط وزير الدفاع إذا وقعت الوزارة على المعاهدة بشرط ابعاد بند « اثم الحرب » بأمل تقلد نوسكه السلطة على أسس مطلقة .

ولكن توقعات نوسكه لم تصب . فمع أن شيدمان وبروكدورف — رانزو وأربعة من الوزراء الديمقراطيين قدموا استقالاتهم إلى الرئيس ايرت في الساعة الواحدة من صباح ١٩ — ٢٠ يونيو ، وأصبحت ألمانيا بلا وزارة ، فإن اختيار الرئيس ايرت لم يقع على نوسكه ، فعلاقته الوثيقة بالضباط وماضيه الملوث بالدماء وشططه في استخدام أساليب السكبت والقمع جعلت الرئيس ايرت يعزف عن ترشيحه ويسين شخصية أقل نفوذا وقوة ، ولكن أكثر أمنا وحرصا على التقاليد الديمقراطية والبرلمانية . فاختار جوستاف باور Gaustav Bauer وزير العمل في الوزارة السابقة واحد الشخصيات النقابية البارزة ولكنه فيما عدا هذا لم يكن له ما يشفع لتعيينه في منصب المستشار . ولم يكن نوسكه — الذي احتفظ بمنصبه كوزير للدفاع هو الوحيد الخائق ، إن ارزبرجر أيضاً استاء لأنه اعتقد أنه أجدر وأحق من باور . وناقشت الوزارة الجديدة قضية المعاهدة وبعد مناقشة مستفيضه تقدم ارزبرجر بما بدا وكأنه الحل . فقد ذكر أنه في حكم الواثق من أن الحلفاء يمكن أن يتنازلوا عن المواد المثيرة ( من ٢٢٧ إلى ٢٣١ ) الخاصة باثم الحرب ، وأن هذا التنازل ينيح للحكومة اكتساب تأييد الجمعية الوطنية والضباط معا . وطبقا لهذا أعلن باوريوم ٢٢ يونيو أمام الجمعية الوطنية أن وزارته ستوقع المعاهدة دون المواد

من ٢٢٧ إلى ٢٣١ وأيدت الجمعية الوطنية الموقف الذي اتخذته الوزارة ولكن الاشتراكيين المستقلين نددوا بربط التوقيع باستبعاد المواد ، قائم الحرب بين ، ومصير القيصر والضباط لا يهم في قليل أو كثير ، وعندما عارض نواب اليمين ذلك جاءهم باوردا عما إذا كانوا على استعداد لتقبل مسئولية الحكومة ؟ وما هو الذي يريدونه بالضبط وكيف سيدافعون عن البلاد تجاه هجوم الحلفاء الذي يمكن أن يبدأ في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي . ولما لم يكن هناك رد فقد وافقت الجمعية الوطنية بأغلبية ٢٣٧ إلى ١٣٨ على توقيع المعاهدة بشرط أن تحاول الحكومة استبعاد المواد من ٢٢٧ إلى ٢٣١ .

وما أن حصلت الوزارة على هذا التفويض حتى أبرقت إلى فرساي عن طريق خط تليفوني مباشر بقبول التوقيع على المعاهدة دون الاعتراف بأن الشعب الألماني هو الذي أغرى بهذه الحرب ودون التعهد بتسليم أشخاص طبقا للمواد من ٢٢٧ إلى ٢٣٠ . ولكن من سوء حظ ألمانيا أن بعض رجال الأسطول الألماني الراسي في ميناء سكا بافلو البريطانية اغرقوه صباح ٢١ يونيو أى قبل ذلك بيوم واحد ، واثار ذلك حنق الحلفاء وبوجه خاص لويدي جورج ، فوضع الرئيس ولسن مذكرة مقتضبه جاء فيها إن وقت المناقشة قد فات وأن المطلوب من ألمانيا هو قرار بقبول التوقيع على المعاهدة ككل . وصدرت الأوامر إلى جيش الحلفاء المرابط في الرين بالاستعداد للزحف على برلين ، كما تأهبت جيوش البولنديين والتشكيين .

ونزلت انباء رفض الحلفاء على الوزارة كالصاعقة ، فقد كانت توقعات ارزبرجر صائبة دائما ولكنها هذه المرة الهامة والحساسة أخطأها التوفيق . وارتأت الوزارة عرض الأمر على الجمعية الوطنية مرة أخرى فدعيت على عجل . في هذه الاثناء كان الجنرال ميركور رائد الفرق الحرة ومعه أركان حرب

نوسكه الميجور فون جيلسا يقابلان نوسكه ، ويعرض الأول عليه أن يرفض الاشتراك في توقيع المعاهدة . وأن يكون ديكتاتور ألمانيا ، وعندئذ تقف وراءه كل الفرق الحرة وهيئة الضباط والجيش وأنه هو وضباطه وجنود على استعداد ليموتوا ، وليقطعوا أربا في سبيله . وأصاب هذا العرض الوتر الحساس في نوسكه ، فقام واقفا وشد على بد الجنزال ووعدته بأن يكون معهم ، وذهب فعلا إلى الوزارة وقدم استقالته على أساس أن التوقيع سيؤدى إلى سقوط الوزارة - وعدم توقيع المعاهدة ، وسيادة الفوضى ، وسيكون للجيش الحرية في إقامة حكومة .

ووجد الرئيس ايبرت نفسه في مأزق ، فإذا استقال نوسكه واستقال معه عدد من الوزراء فستسقط الوزارة ، ولن يتيسر تشكيل وزارة جديدة قبل انتهاء مدة الانذار ، فالتقط التليفون واتصل بجرونر وطالب إليه افادته بصورة صريحة ما إذا كان الجيش على استعداد للمقاومة . فإذا كان فسيؤيد رفض المعاهدة وستعود ألمانيا مرة أخرى إلى الحرب . ولكن إذا لم يكن هناك أمل ، فيجب على القيادة أن تصارحه بذلك وعندئذ لا يكون هناك مناص من التوقيع . وحمل جرونر الرسالة إلى المارشال الذى قال له « إنك لتعلم - كما أعلم أنا - أن المقاومة مستحيلة » ولكن رفض الاقرار بذلك علانية وعندما جاء وقت اتصال ايبرت نظر المارشال في ساعته وقال « ليس هناك ضرورة لبقائى إنك تستطيع أن تقدم الإجابة للرئيس كما لو كنت أنا » وعندما اتصل ايبرت أخبره جرونر أن المقاومة ميثوس منها . وأن المعاهدة يجب أن توقع . وفي المساء أخطرت الجمعية العمومية بفحوى إجابة القيادة وأمكن اقناع نوسكه بالبقاء في الوزارة وقدمت الجمعية الوطنية قرارا غامضا مهتزا ، يصرح للوزارة بتوقيع المعاهدة طبقا لتصويت اليوم السابق وعندئذ أرسلت الوزارة المذكرة التالية للحلفاء .

« إن حكومة الجمهورية الألمانية - خضوعا منها للقوة القاهرة ، ولكن دون هجر لفكرتها عن الاعداله التي لم يسمع بمنحها لشروط الصلح - تعلن أنها على استعداد لقبول وتوقيع معاهدة الصلح التي فرضها الحلفاء والدول المرتبطة بهم . »

وجاءت هذه في آخر وقت ، قبل تسعين دقيقة من زحف القوات ، وكان مجلس الأربعة منعقدا وآخر سطر في محضره « أعطيت الأوامر بإطلاق النيران »  
هكذا دخل أحد الضباط يلوح في يده بإشارة الحكومة الألمانية .

\* \* \*

كانت معاهدة فرساي شثوما على العالم كله أوقعت به الفوضى والدمار والازمات. وحقت لعنتها على كل شعوب العالم وليس ألمانيا وحدها - كما حقت على المهندسين الأساسيين لها ، فاغتيل أرزبرجر الذي دعا إلى قبولها . وهزم فرسانها الثلاثة كليمنصو - ولويد جورج وويلسن في الانتخابات التي أعقبت المعاهدة . ونجى كل واحد منهم عن الحكم ، وعاش كسير القلب حتى أدركته الوفاة

## الفصل الثالث عشر

### مؤامرة كاب

وقعت معاهدة فرساي في الملايسات التي شرحناها في الفصل السابق، وبعد أن عرضت أكثر من مرة على الجمعية الوطنية وامتفيت في أمرها القيادة العليا، وبعد أن اتضح أن توقيع المعاهدة كائنة ما كانت - أفضل من أى بديل آخر. ومع هذا فلم يكبد التوقيع يتم في ٢٨ يونيو سنة ١٩٢٠ حتى ثارت الدوائر العسكرية، وانهزمتها فرصة لكي تعيد جذعة أسطورة الطعنة من الظاهر Dolchstoss التي تهنتت عنها الحيلة لتبرير طلب الهدنة، وماتلا ذلك كله من أحداث، وطبقا لهذه الأسطورة فإن اليهود والشيوعيون هم الذين قاموا بالثورة في ٩ نوفمبر في وقت كان الجيش - فيما قالوا - بعيدا عن الهزيمة ومستعدا للمقاومة.

لقد قيل إن الكلمة جاءت عرضا على لسان الجنرال سيرنيل والكولم في سياق حديث له مع لودندورف الذي ما أن سمعها حتى هب واقفا وأكدها فإذا صحت الرواية فإنها تكون رمية من غير رام. لأن التعبير يتجاوب مع أعماق الأساطير الألمانية التي تصور الدور التاريخي والقدر الألماني. بل إن له أصلا حريا في هذه الأساطير، فسيجفريد، البطل الرمزي لألمانيا قد حصن ضد الموت عندما غمس جسده في دم التنين، ولكن ورقة شجرة صغيرة لصقت

بظهره ، وحالت دون أن يغمس مكانها في الدم . وكانت هذه البقعة الصغيرة هي المقتل الذي أوتى منه .

وكان من حسن حظ أنصار هذه الدعوى أن الشواهد التي تعززها كالأضرارات وبروز العنصر اليهودي في الدعوة الشيوعية — وما قام به السفير الشيوعي جوف من جهود . . الخ معروفة ومعلنة ، وأن الشواهد التي تنفيها كاعتراف لودندورف بعجز الجيش عن المضي وطأ به الهدنة مما يصعب إثباته ، فضلا عن أنها كانت تنقذ الكبرياء القومي على حساب حفنة من الشيوعيين واليهود . ولهذا رزقت ذيوعا وانتشارا ، وآمن بها الكثيرون بما فيهم الذين ابتدعوها أنفسهم .

وكان من أبرز شروط المعاهدة تسريح الجيش والإبقاء على مائة ألف جندي وضابط وعمليا فإن الجيش كان مسرحا ، ولكن هيئة الضباط وحدها كانت تقارب المائة ألف كما كان هناك الفرق الحرة التي تكاثرت تكاثرا وبائيا في الفترة التي سبقت وعاصرت توقيع المعاهدة ، فضلا عن الفرق التي كانت تحارب في منطقة بحر البلطيق ولم تكن الحكومة لتستطيع شيئا أمامها . بل عندما حوصرت إحدى هذه الفرق تكونت قرقة حرة في برلين وشقت طريقها نحو لاتفيا لإنقاذ الفرق المحاصرة ، ضاربة عرض الحائط بأوامر الحكومة .

وعندما أمرت الحكومة بتسريح فرقة البحارة الثانية ، التي كانت تحمل اسم الكابتن إيرهاردت ، زحفت هذه وعدد أفرادها قرابة ثلاثة آلاف في مساء ١٢ مارس ١٩٢٠ على برلين واستطاعت أن تنضم إليها فلول عديدة من مختلف الفرق وفي الساعة الواحدة صباحا . . أصبحت على مشارف برلين .

وعقد نوسكه وزير الدفاع في مكتبه اجتماعا لكبار الضباط لوضع خطة رد هذا الهجوم — ولم يكده يبدأ الحديث حتى قاطعه الجنرال هانفون سيكت .



قائلاً : إن الجيش لا يطلق النار على الجيش . إذ عندما يحدث هذا فإن أواخر الزمالة بين هيئة الضباط تتلاشى ، ودهش نوسكه وتوجه إلى بقية القواد ووجد لفجئته أن اثنين فحسب من احدى عشر قائدا على استعداد لحماية الجمهورية من التمرد . أما البقية فقد أعلنوا أنهم سيكونون على الحياد ، وللمرة الأولى يكتشف نوسكه حقيقة أصدقائه الضباط وأنهم على استعداد لسحق أى تحرك يقوم به الشيوعيون ، ولكنهم ليسوا على استعداد لمقاومة احدى الفرق العسكرية المتمردة . وأنه بعد كل ما قدمه لهم لا يعنى شيئا بالنسبة لهم .

واضطر نوسكه وبقية الوزراء إلى الفرار من العاصمة أولا إلى درسدن ثم إلى استوجرت ، وفي الساعات الأولى من فجر يوم ١٣ مارس كانت الجنود المتمردة تدخل « التيرجارتن » ويقابلها الجنرال لودندورف وفي الوقت نفسه وصل إلى برلين أحد كبار الموظفين المدنيين السابقين ويدعى وفجناج كاب ليرأس الحركة وليكون المستشار .

وتملكتم الحيرة الحكومة في ملاذها القصى ماذا تفعل ، إنها لا تستطيع رد القوه بالقوه ، فقد ظهر أن « لودندورف » وراء الحركة وأن أحد مساعديه . ن . أبرز المنظمين لها . وأن أمر الزحف إنما أصدره الجنرال فون لوفتير الذى قاد حماية سحق قومة الشيوعيين فى يناير . ولم يكن ليحديها أن تصدر الأمر بإقالته . والواقع أنها نفسها كادت تصبح أميره فرقة الجنرال ميركر أثناء عملية انسحابها . وكاد الجنرال يقبض على الوزارة بأسرها ولم ينثنى عن هذا إلا بصعوبة ، وبعد أن حذر الوزراء من أن الفرق الحرة كلها تناصر الحركة وتقف وراءها .

فى هذا المأزق تحرك العملاق الذى ظل نأما طوال هذه السنين — الحركة النقابية — فدعا اتحاد النقابات الشعب إلى الاضراب العام — وأيدت الحكومة هذه الدعوة وقاد الزعيم النقابى العنيد كارل لين الاضراب من مخبئه فى برلين .

وكانت النتيجة رائعة فقد شل الاضراب كل المرافق وتوقفت كل وسائل الحركة الصناعية والحياة والمرافق والخدمة المدنية ، ووقفت الطبقة العاملة وقفة رجل واحد بحيث لم تستطع القوات الزاحفة أن تفيد من انتصارها بشيء واضطربت في يدها الأمور فاضطرت إلى أن تنسحب ، وتعود من حيث جاءت وفركاب إلى تمبلهوف حيث كانت تنتظره طائرته أقلته إلى السويد . . بينما اتجه لودندورف إلى ميونيخ .

وكانت المجموعة الشيوعية بين العمال هي الوحيدة التي رفضت الاشتراك في الاضراب بحجة أنه ليس لها من مصلحة في عدا بين فريقين رجعيين الأول لكنها تبينت خطأها قبيل نهاية الاضراب خاصة وأن اللجان المحلية رفضت أن تنصاع للتوجيهات السلبية التي أصدرتها « السنترال » أي اللجنة المركزية للحزب .

وفي رأى أحد الكتائب « لم يحدث قبل — كما لم يحدث بعد — أن ظهر تضامن الشعب الألماني واشتراكه عظيمًا كما حدث في قوبه كاب Kapp Putsch ( كما سميت ) ولم يحدث قبله كما لم يحدث بعده ، ان كانت الفرصة مهيأة أمام الشعب الألماني ليخلص نفسه من قوى العدوان والرجعية وليضع أسس ديمقراطية فعالة<sup>(١)</sup> » .

ولم يغب عن لجنة الاضراب أن تفاوض الحكومة حول شروط الوضع الجديد فدعت إلى اجتماع ووضعت عددا من المطالب تقبلتها الأحزاب المشتركة في الحكم وكان أبرز هذه المطالب :

١ — معاقبة الذين قابوا بالتمرد أو اشتركوا فيه عقابا صارما .

٢ — اجراء تطهير دقيق في الجيش .

٣ — اجراء تطهير في موظفي الدولة .

٤ — تأمين الصناعات المهيثة للتأمين .

٥ — تكوين حكومة جديدة يكون للنقابات فيها نفوذ حاسم .

والشيء العجيب الذي يدل على أن الحركة النقابية وإن أثبتت فعاليتها في العمل المهني (الاضراب) فإنها تفتقد الوعي السياسي تماماً أنها لم تنتهز هذه الفرصة للقضاء على التحالف الوزاري الذي أثبت عجزه وفر أمام تأمر العسكريين، وكان يجب إبقاء الاضراب لحين التوصل إلى تحقيق المطالب أو على الأقل تشكيل وزارة قوية من عناصر تمثل الطبقة العاملة حقاً . وإذا كان الزعيم النقابي كارل ليبكين قد استطاع أن يدير هذا الاضراب الناجح وأن يدير شبكة الحركة النقابية القوية . فإنه كان يصلح دون ريب لتفقد أى وزارة . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث واكتفت النقابات في بلاهه بقبول الحكومة لهذه المطالب .

صحيح ان نوسكه الكريه قد أجبر على الاستقالة كما أقيل أيضاً وزير الداخلية البروسي هاين ، ولكن سلبية النقابات وامتناع الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل عن الاشتراك في الوزارة نتيجة لضغط الجناح الشيوعي الذي كان يتزعمه دومينج Daumig جعل التغيير الوزاري لاقيمة لأنه جاء بوزارة ائتلافية أخرى برئاسة هرمان مولر ، وحال دون تكوين الوزارة العمالية التي أرادت النقابات .

إن الفرصة التاريخية الحاسمة قلما تسنح إلا مرة واحدة . وقد منحت الفرصة أمام الطبقة العاملة الألمانية حتى الآن مرتين ، وأضاعوها في المراتين . المرة الأولى غداة الثورة في الأيام الأولى لنوفمبر . . والمرة الثانية في آثار «قوم» .  
 . . . . . كتاب .

وفي كلتا المناسبتين عجزت عن ممارسة السلطة وسلمتها دون ضمانات .  
 أو استثمارات . .

ولاريب أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل يتحمل مسؤولية كبرى حتى وإن كان السبب في هذا الموقف هو الجناح الشيوعي الذي كان نوعا من النحس لازم الحزب منذ البداية حتى أودى به في النهاية .

إن فن السياسة لم يكن قط هكنا . . وإلا فلا .

إن هذا يكون في العقيدة وإلى حد ما في الثورة . . ولكن السياسة تتطلب الولوج من مداخل متعددة .

وفي أعقاب نجاح اضراب كارب كان يجب على الحزب الاشتراكي المستقل أن يدخل الوزارة مستندا إلى القاعد الشعبية والعمالية الضخمة والمتنصرة التي جاءت به ، وأن يقود هذه القاعده — التي لم يكن ينقصها إلا القيادة — لاستعادة الثورة . . أو على الأقل . . تصحيح مسارها بحيث تنخلص من قبضة العسكريين أو من برائن الأحزاب البورجوازية . . وكانت هذه وتلك تستحوذ على الثورة شيئا فشيئا وتحتويها .

وقد دفع العمال ، كما دفع الاشتراكيون المستقلون ، ثمنا غاليا وسريعا لهذا الغياب السياسي .

فعندما واصل عمال الرور اضرابهم أرسلت الحكومة كارل سيفرنج زعيم عمال معادن برلين للتفاوض معهم ، وتوصل سيفرنج مع العمال إلى اتفاق حمل اسم اتفاق Bielefeld Agreement في ٢٤ مارس ، وكانت تتضمن بالإضافة إلى مطالب لجنة الاضراب المركزية ، الافراج عن المسجونين وبعض المطالب الأخرى . . ولكن الاضرابات استمرت ، فأرسلت الحكومة الائتلافية الجديد الجيش إلى منطقة الرور لاختضاع العمال وقام الجيش بهذه العملية بوحشية . وعله رأى فيها فرصة للانتقام من العمال الذين ضيعوا عليه ثمرة كارب — فكانت الحكومة عاقبت حلفاءها بأيدي أعدائها .

## الفصل الرابع عشر

### ثورة بالمراسلة

لم يكن يمشى شهران على صدام يناير الدامى ( ١٩١٩ ) ، ومصرع روزا لوكسمبرج . حتى حدث الصدام الثانى الذى كان نقطة تحول فى توازن القوى ، وأوضح بما لا يدع شكاً أن القوى العسكرية قد أصبحت ذات اليد العليا والكلمة الراجحة . .

وكانت قيادة الحزب الشيوعى قد آلت بعد فقد زعيميه الملمهين روزا وليبيكنشت إلى ليوجوجيش Leo Jogiches زميل روزا وزوجها الأفلاطونى والذى كان يتولى الأمور التنظيمية والإدارية للحزب ، وكان قد قبض عليه عليه فى صدام يناير ، ولكن لم تعرف شخصيته ، فأطلقوا سراحه .

وانتهى جوجيش من تحليله للموقف إلى أن قوى الحفاظ والعسكرية تسترد قواها بسرعة بقدر ما تخسر قوة الفريق الثورى ، ففى نوفمبر ، عندما قامت الثورة لجأ القيصر المتعالى إلى هولندا ، وهرب فى آثاره لودندورف ممثل العسكرية الألمانية ، وأصبحت أزمة الأمور فى أيدى مجالس العمال والجنود ولو من الناحية الرسمية . وتحلل الجيش الامبراطورى . وتوارى الملاك والنبلاء بينما سلم أصحاب الأعمال بكل مطالب العمال .

ولكن عجز القوى الثورية عن انتهاز الفرصة السانحة لاستئصال فلول

المهد . القديم . أدى إلى عودة هذه الفلول القديمة . وتبين جوجيش أنه إذا أريد قيام ثورة شيوعية في ألمانيا فيجب أن تقوم بسرعة ، لأن كل يوم يمضي يكسب القوى الرجعية نفوذا . فضلا عن أنه يسمح للجمعية الوطنية بأن تجتمع وتضع دستورا يقوم على أسس ستكون - على أفضل الأحوال - هي أسس الديمقراطية الكلاسيكية الليبرالية وليست الأسس الشيوعية أو الماركسية ..

وانتهى جوجيتش أيضاً إلى نتيجة أخرى أكدها الوقائع ، ففي كل الانبعاثات والقومات لم تستطع جموع البلوريتاريا أن تقاوم الفرق الحرة ، وانهمزت إمام أسلوبها وتنظيمها وسلاحها ، وأنه لا ينتظر أن تتغير هذه النتيجة ، بل إن إتاحة فرصة لاشتباك مسلح مع الفرق الحرة ستؤدي إلى تصفية البقية الباقية من الحزب الشيوعي والقوى الثورية . ولهذا يجب تغاضى هذا الاشتباك .

وكانت ثمرة هاتين النتيجةين هي أن على الحزب الشيوعي أن ينظم انبعاثه جديده تشل الحكومة وتجبرها على التسليم دون الدخول معها في معركة مسلحة تنتصر فيها بفضل جيشها وسلاحها . وليس لهذا من سبيل سوى الاضراب العام . فلن تستطيع الحكومة أن تطلق النار على العمال العزل المضربين وفي الوقت نفسه ، فإن الاضراب يمكن أن يشل الحياة .

وفي يوم ٣ مارس خصصت الصفحة الأولى من مجلة العلم الأحمر لنداء وجه إلى العمال يناشداهم الاضراب العام وحثهم على الاعتصام بالمصانع في هدوء - وأن لا يسمحوا لأحد باستدراجهم إلى صدام « إن نوسكه ينتظر مثل هذه التلعة لسفك المزيد من الدماء » .

وفي يوم ٤ مارس اجتمع ١٥٠٠ مندوب من مندوبي العمال واتفقوا بأغلبية تزيد على ٩٠ ٪ على القيام بالاضراب ، ووضعوا قائمة بالمطالب التي على

أساس قبولها ينهى الاضراب . وكانت هذه المطالب تتضمن حل الحكومة للفرق الحرة ، وأن تعيد العلاقات التجارية والديبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي وأن تزيد من دور سلطات مجالس العمال ، وكانت هذه المطالب ، كما اعتزم واضعوها ، ليست إلا مقدمة فحسب . فإذا تقبلتها الحكومة فسيكون هناك مطالب أخرى ، وإن تجدد الحكومة وقد جردت من سلطاتها مناصب من القبول .

وعندما بدأ الاضراب ، بدأ وكأن كل شيء يسير طبقا للخطة المقررة ، ولكن هذا لم يستمر إلا فترة وجيزة ظهر بعدها أن من المستحيل كبح جماح العناصر الثورية في العمال ، أو في المعسكرات الأخرى ، فهاجمت مجموعات مسلحة مراكز البوليس واستولت على قرابة ثلاثين منها وزحف أفراد فرقة بحارة الشعب على مقر البوليس في السكساندر بلاتز واشترك مع البحارة والعمال فلول الميليشيا التي كان أميل ابشهورن قد كونها ، وأخذت تضع الاسلاك الشائكة وتنصب المدافع الرشاشة في للدينه وحاول جوجيش وزملاؤه عبثا مقاومة هذا الاتجاه ، فقد أفلت الزمام من أيديهم ، وأصبح في يد الثوريين المسلحين الذين أعمتهم انتصاراتهم السهلة الأولى ، أو مفاهيمهم السطحية عن الثورة .

وكانت تلك هي فرصة نوسكة والعسكريين ، فقد اجتمعت الحكومة وأعطت نوسكة سلطات مطلقة في منطقة برلين ، فأعلن هذا الأحكام العرفيه وبدأ يحرك قواته طبقا لخطة مرسومة يطوق بها برلين ، وكان القتال عنيفا خاصة في الشوارع المحيطة بميدان السكساندر بلاتز ، ولكن الفرق الحرة التي كانت تحت قيادة الجنرال فون لوتفيتز ، بدأت تتقدم وعندما استعصى عليها الاسيلاء على مقر رئاسة البوليس الذي كان الثوار قد استولوا عليه يوم ٣ مارس ١٧ — ظهور وسقوط

استدعوا طائفة قصفت المبني ، بينما ضربت المباني الأخرى بالقنابل المحرقة ، وفي ٦ مارس استولت قوات الحكومة على ميدان الكساندريلاتز والمناطق المجاورة ، وبدأت عملية تعقب الثوار المنسحبين .

ولم يعد من مبرر للاضراب ، فأعلن انتهاءه يوم ٩ مارس ولكن هذا لم يؤثر أقل تأثير على سير العمليات العسكرية ، فقد رفضت الحكومة يديها من الموضوع ، وذابت كل الذكريات الاشتراكية القديمة أمام ضرورات السلطة والمآزق التي ألحقت إليها . بل إن نوسكه أصدر هذا اليوم نفسه — ٩ مارس — امره المشهور Schiessbefehl بإطلاق النار فوراً على أى واحد يحمل السلاح ضد قوات الحكومة ، وارتكب الضباط كل جرائمهم المعبودة وافتعلت اشاعات لإثارة نفمة الجنود على العمال وغررت إحدى الفرق ببقايا فرقة بحاره الشعب فأمرتهم بالتوجه إلى مكان معين يوم ١١ مارس لاستلام أوراق تسريحهم ومكافآتهم ، وما أن وصلوا إلى هناك حتى قبض عليهم . واقتاد أحد الضباط ويدعى مارلو تسعة وعشرين منهم واطلق عليهم النار . وكاد هذا الضباط أن يعدم ١٥٠ بحارا لولا أن أوقفه ضابط آخر .

وانتهى القتال يوم ١٣ مارس عندما طبقت القوات على المكان الأخير الذي تجمع فيه الثوار ، ولما سألوا نوسكه عن شروط الصلح قال « سلموا دون قيد أو شرط . والافلست مستولاً » وسلم البعض بينما آثر الآخرون أن لا يموتوا همرا وواصلوا القتال حتى قتلوا .

وأُسفرت معارك الأيام العشرة عن قتل ما بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ من الثوار وجرح قرابة عشرة آلاف وكان من بين القتلى جوجيتش ودورانباخ زعيم فرقة بحارة الشعب وقد أطلق عليهم النار مخبر بوليس واحد يدعى تامشيك . وتكرر في مارس ، ما حدث في يناير قبل شهرين . . .



والحقيقة أن المفكر ليدش من سلوك الشيوعيين هذا المسلك مرتين  
متتاليتين في برلين وحدها . وكان لهم منأى عن ذلك ..

فإذا كان اندفاع ليبسكنشت هو الذى ورط الشيوعيين فى القومة الأولى ،  
فإن المنعلق الدقيق والمحسوب لليوجوجيتش هو الذى أدى إلى القومة الثانية ،  
التي لم تسكن بأفضل من الأولى ..

أخطأ جوجيتش عندما أعتقد أن من الممكن فى مثل الظروف الملتبهة أن  
يستمر الاضراب العام دون أن يتحول إلى اشتباك .

وأخطأ فى حساب التوقيت كذلك .

ذلك أن مد القوى العسكرية .. وانحسار القوى الثورية كان قد بدأ بالفعل ،  
وعندما يبدأ المد فإن كل محاولة لابقافه تصبح عبثا ويتعين انتظار وقت الجزر .

ولكن اذا حم القدر عى البصر ..

وليس الشيوعيون بعد بدعا فى ذلك ، فقد قرع القرآن أسلافهم فى القديم .  
« أفلا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين — ثم لا يتوبون ..  
ولا هم يذكرون » .

وقبل أن ينتهى العام كان الجناح الثورى قد فقد معظم قاداته فى يناير قتل  
روزا وليبسكنشت ، وفى فبراير قتل كورت ايزنر وفى مارس قتل  
اليوجوجيتش ودورنباخ ..

وكان فى أصل هذه الانبعاثات كلها الحزب الشيوعى ..

وكان الحزب الشيوعى قد تكون فى ٣٠ ديسمبر سنة ١٩١٨ على أساس  
برنامج وضعته روزالو كسمبرج وأشرنا إليه فى حينه ، وكانت كتلة الحزب  
هى مجموعة الاسبرتا كوس .

ولكن روزا لم تعش للحزب أكثر من أسبوعين ، وولى شتونه بمصر  
مصرعها ليوجوجيتش الذى لقي حتفه هو الآخر فى مارس . قالت القيادة  
إلى بول لىفى .

وكان بول لىفى محاميا يهوديا من الطبقة الوسطى وعلى قدر كبير من الثقافة  
والنبوغ . وكان محاميا لروزا ثم معجبا بها وتابعا لها والسكن كان ينقصه وقتئذ  
العمق الإنسانى الذى وهبته روزا وجعلها تضيق بأساليب لينين وترفض  
تكوين « الدولية » .

ولارىب فى إخلاص لىفى وتغانيه فى قضية الماركسية ، فلو أنه أراد لوصل  
إلى أعلا المراكز ولحسب مئات الآلاف بفضل نبوغه فى مهنة المحاماة . لقد  
كان مفكرا من المفكرين الذين تربهم البورجوازية فى حبرها وتغنيهم  
بلبائها ليكون لها عدوا وحزنا وليستخدم كل ما زودته به لخدمة الطبقة العاملة ..  
شأنه فى ذلك شأن ماركس وانجلز وروزا ولينين وكولونتاى .

ولكن لىفى أوتى من ناحيتين :

الأولى : أن النزعة التنظيمية التى غلبت عليه بحكم تخطيط الحزب من ناحية ،  
واستعداده الشخصى من ناحية أخرى أسلمته شيئا فشيئا إلى دوامة الضرورات  
التي اضطرتة إلى إغفال بعض القيم الثمينة التى حرصت عليها روزا ، والتى كانت  
فى أصل مقاومتها للنزعة التحكمية عند لينين .

الثانية : أن التطور الاشتراكى العالمى و بروز الدوليه الثانية جعل له  
فى المجموعة الشيوعية الألمانية شركاء منشاكسين ، وفى كثير من الحالات  
أمسك هؤلاء الشركاء على غير معرفة دقيقة بزمام الأمور أو التوجيه .

وهذه العوامل كلها : الأصل البورجوازى لىفى . ونبوغه الفكرى والمهنى .  
ومقدرته التنظيمية ، وما تركته روزا له من تراث . وما اضطرتة الأحوال من

مشاركة للكونغرس آونة ومعارضة له آونة أخرى جعلته شخصا فذا . وعندما مات في ١٤ فبراير سنة ١٩٣٠ حضر جنازته جموع غفيرة من أعلى المستويات الثقافية والفنية والاجتماعية إلى أدناها .

وورث ليفي عن روزا معارضة انبعاثات وقومات الحزب الشيوعي ومحاولاته السيطرة على الحكم بالثورة ، وكان هذا الاتجاه يتفق تماما مع اتجاهاته وميوله الخاصة . وقد انتقد كل هذه الصورة من النشاط في ميونيخ وفي الجبر . وهاجم دعوى رادك عن أن الهزائم التي حدثت في الجبر تدعم الوعي الطبقي فيه .

وفي أعقاب نكسه مارس أراد ليفي أن يشفي الحزب من دائه الانقلابي العضال . فاستبعد كل ذوى الميول السينديكالية والانقلابية وأدى هذا إلى تقلص الحزب من ١٠٧ ألف إلى أقل من نصف هذا العدد وشكلت المجموعة المنشقة الحزب الشيوعي الألماني KAPD . وعندما حدثت قومه كاب — كان ليفي في السجن . وكان الذى يشرف على الحزب هو اوجست تاير August Thalheimer الذى تردد طويلا في مناصرة الاضراب العام بحجة أن من الخطأ تأييد « اشتراكي الثورة المضادة ضد رجعي الثورة المضادة » ولم يقف موقف التأييد الاقرا به النهاية . . وانتقد ليفي هذا الموقف .

وفي هذا الوقت تقريبا كان المؤتمر الثانى للكونغرس يجتمع في يوليو سنة ١٩٢٠ ويضع خطين أساسيين لسياسته تلقاء الأحزاب الاشتراكية في مختلف دول العالم . الخط الأول تشجيع تكوين أحزاب شيوعية جماهيرية . وذلك بجذب جماهير الأحزاب اليسارية دون قياداتها ، وصهر هذه الجماهير في بوتقة الحزب بوسائل الضبط والربط « والمركزية الديمقراطية » المدعاه . والثانى جعل الأحزاب الشيوعية تابعة تبعية تامة للكونغرس بحيث يضع ( أى الكونغرس ) الخطط والتوجيهات وتصبح الأحزاب مجرد هيئات تطبيق ، ولتحقيق هذا

الهدف المزدوج وضع المؤتمر الثانى للكونغرس الواحد والعشرين نقطة المشهورة . فقد كانت من ناحية تجذب الجماهير دون القيادات لأنها تنص على استبعاد القيادات الصفراء ، العميلة ، الانتهازيه . الخ . . . ولأنها كانت تتضمن التبعية التامة للكونغرس .

وقد كانت هذه النقاط أولا تسع عشر ، ولكن لما اعترض المندوبان الفرنسيان كاستين وفروسارد على بعض ما جاء بها أضيفت نقطتان تقضى الأولى منهما بأن يعاد تنظيم كل الأحزاب الشيوعية بحيث يكون ثلثا أعضاء مجالس الإدارات من الذين أعترفوا بالكونغرس قبل المؤتمر الثانى ، وتقضى الثانية فصل كل الذين يعترضون على النقاط الواحد والعشرين .

وفى الدنيا كان الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل هو الفريسة المشتهاة من الشيوعيين التى أريد الاستحواذ عليها عن طريق هذه النقطة . وفى الانتخابات التى سبقت المؤتمر الثانى للكونغرس أكتسب الحزب قرابة خمسة ملايين صوت فى حين لم يكسب الحزب الشيوعى سوى نصف مليون . وكانت خطة الشيوعيين هى إيقاع التفرقة فى الحزب بحيث تنشق المجموعة الكبرى ، وتنضم للحزب الشيوعى . ولم يكن هذا عسيرا عليهم بحكم تداخلهم المستمر فى الحزب ، وبذلك تمكنوا من أن يقرر الحزب فى مؤتمر ليبزج ( ١٩١٩ ) الانضمام إلى الكونغرس . وفى المؤتمر الثانى ذهب وفد من الحزب إلى موسكو لمناقشة الأمر حيث عرضت عليهم الشروط الواحدة والعشرين للانضمام ، والتى كانت جملة وتفصيلا مما لا يمكن للقيادات قبولها .

وعندما نوقش هذا الأمر فى مؤتمر الحزب فى هال فى أكتوبر ١٩٢٠ أرسل الكونغرس رئيسه زينو فيف ، كما قام ليفى بدور كبير لاكتساب أغلبية الأعضاء . . .

ووصفت توني ساندر التي كانت عضوا بالحزب والرشستاج كيف أن زينوفيف حضر بنفسه ليتأكد من تزق أفضل حزب ثوري في ألمانيا، وكيف جاء مختالا «زهوا كأنه» بريما دوننا حسنة التغذية ومحاطا بشلة من المعجبين الشبان «ولاحظت ما لم يلاحظه هؤلاء : دخول الزعيم الاشتراكي والمكافح القديم «مارتوف» الذي سجنه القياصرة ثم جاء البلاشفة فأعادوا سجنه ، ونفى أخيرا ، وكان يقضى سنواته الأخيرة ضاويا عليلا يعبت به السل الذي أصيب به في سجنه .

وتحدث زينوفيف أربع ساعات في عرض البدائه الشيوعية لدرجة أثارت الغيظ وجعلت توني ساندر تمنع نفسها بصعوبة من أن تصبح «إننا لسنا موجيك»<sup>(١)</sup> ثم تحدث عن الثورة السوفيتية وأعدائها دون أن يشير إلى الشروط الواحدة والعشرين المسمومة ..

وقام رودلف هيلفردينج بالرد عليه . ولم يكن هيلفردينج خطيبا فقد كان كاتباً ومنظراً ، ورئيساً لتحرير كبرى الصحف الاشتراكية ولكن كان لديه من البواهي ما يثيره وما يجعله يفند خلال ثلاث ساعات إدعاءات زينوفيف . وحذر من استخدام الارهاب ومن أن هذه الطريقة ستبعد الحزب عن الجماهير وتخضعه للفساد والديكتاتورية .

ولكن هذه النبوءة لم تكن لتعني شيئا وقتئذ . . كان لابد أن تمر سنوات وسنوات قبل أن يفصل ليفي من السكومنترن ، ومن الحزب نفسه ، وقبل أن يواجه زينوفيف طابور الأعداء بعد الفصل والحاكمية ، وقبل أن تصبح الأحزاب الشيوعية أدوات طبعة في يد ستالين ، أما في أكتوبر

---

(١) الفلاحون الروس ، وكان يضرب بهم المثل في الغفلة والفتحة والجهاة ..

سنة ١٩٢٠ . فقد كانت شخصية زينوفيف ، ولباقة ليفي ، « وعيت » الثورة  
الباشنية المدوى من القوة بحيث أعمت أغلبية الاعضاء ، فوافقت على النقط  
المسمومة وكونت مع الحزب الشيوعى الحزب الشيوعى المتحد VKPD<sup>(١)</sup> ،  
وتحمل الحزب الاشتراكى الديمقراطى المستقل وفى ٩/٢٤/٢٢ عادت البقية منه  
إلى الحزب القديم ( الحزب اشتراكى الديمقراطى — الأغلبية ) وذابت فيه ،  
وإن رفضت ذلك قلة على رأسها ديبور ، وبهذه الطريقة فقدت فاعلها حزبا  
الموعدود والوحيد الذى كان يمكن أن يتوسط ويتصرف طبقا لما تقتضيه الحكمة ،  
وأصبح ليفي رئيسا لحزب جماهيرى يبلغ ٣٥٠ الفا وحاول أن يسير به بعيدا عن  
التورطات فى الانقلابات ، ولكن القدر كان يدخر للحزب وليفى غير  
ذلك . .

ففى يناير سنة ١٩٢١ شهد ليفى ممثلا للشيوعيين الالمان مؤتمر الحزب  
الاشتراكى الايطالى الذى عقد فى ليفورنو ، وأريد فيه إرغام « سيراتى » زعيم  
الحزب على تطبيق الشروط الواحدة والعشرين ، ولكن سيراتى لم يؤخذ  
بإرهاب الكومنترن وأدى هذا إلى تصدع الحزب وانتقد ليفى طريقة تدخل  
الكومنترن ، وإن وافق عليه من ناحية المبدأ ، وعند عودة راكوسى ،  
مندوب الكومنترن فى ايطاليا إلى روسيا بطريق المانيا توقف فى برلين  
حيث عرض موقف ليفى على اللجنة المركزية ، ولما أدانت اللجنة ، بأغلبية  
ضخيمة ، هذا الموقف . استقال ليفى من اللجنة المركزية وأستقالت معه  
كلارا زاتكن وثلاثة اعضاء آخرين ووقع لحزب مرة أخرى فى أيدي « الصقور »  
التي كانت تناصر مياسة هجومية . خاصة بعد أن اتخذ الكومنترن نفسه  
هذه السياسة .

---

(١) أسقطت الـ ٧ الأولى من اسم الحزب من أغسطس سنة ١٩٢١ .

وفي مارس سنة ١٩٢١ ظهر بلاكون مساعد زينوفيف وممثل الكومنترن في برلين حاملا تعليمات إلى الحزب الشيوعي، تلك هي أن هناك حالة ثورية في ألمانيا، وعلى الحزب أن يقبض على السلطة .

وحدث وقتئذ (١٦ مارس) أن أمر أوتو هورسنج حاكم سكسونيا البوليس بأحتلال المناجم ردا على مازعم وقوعه من اضرابات وسرقات ، وقدمت هذه الواقعة تعله لبدايه القومة الشيوعية المنشودة ونجحت الوسائل الشيوعية في حمل عمال المناجم في مانسفيلد ، والسكياويات في هال على الثورة المسلحة . ولإستحداث الحركة أعلن الحزب الشيوعي الاضراب العام في ٢٤ مارس وسيطر الشيوعيون على مباني بلدية هامبورج . وفي ليزج وبقية مدن وسط ألمانيا وجه الشيوعيون هجومهم نحو المحاكم والبنوك وأقسام البوليس بينما حفر عمال مصانع النرويجين الضخمة في ليونا الخنادق حول المصانع وتسلموا بالبنادق والقنابل اليدويه . .

ولسكن هذه الجهود رغم ما ظهر فيها من فدائية وبطولة — خاصة تحت قيادة الفوضوى ماكس هولز — كانت جزئية . وحاول الحزب الشيوعي أن يعرض ذلك بأن يدفع المتعطلين لقتال العمال الذين واصلوا العمل . وتخطب الحزب ، وفي ٣١ مارس أنهى الاضراب بعد أن قتل مئات من أخلص الشيوعيين وقبض على الآلاف وخسر الحزب ما بين نصف وثلث أعضائه بحيث هبط إلى قرابة خمسين ألفا .

وأصبح القشل في عملية مارس March Action — كما أطلق عليها —، وضوعا لصراع حزبي وجدل مذهبي . وأرسل ليفي الذي شاهد العملية كمراقب خطاباً شديداً إلى لينين يبرئ نفسه ، وعندما اجتمعت اللجنة المركزية للحزب في ٧ — ٨ أبريل لمناقشة الأمر إدعت أن الاجراء كان خطوة هامة — لكي يكون

الحزب حزباً ثوريا واضطرب ليفي - لكي يفند هذا الزعم ، وبعد أن جرد من كل سلطانه - أن يكتب رسالة نشرها على الملأ ومزق فيها دعاوى الحزب اشلاء واتهم الحزب والسكومنترن بأرتكاب « اعظم حركة انقلابية باكونينية في التاريخ » وان الحزب اساء العمل ، كما أن مندوبي السكومنترن - من نوع بيلا كون - لم يكن لهم لا الخبرة ، ولا المسكانة التي تجعلهم نافعين للحزب ، وأعتبرت اللجنة المركزية للحزب هذه المخالفة لقواعد الانضباط الحزبي خيانه للحزب . وفصلته ، وعندما أستأنف أمام السكومنترن قرار الفصل بدأت محاولات تشويه « المارق renegade » ليفي ونشر رادك مقالا ندد فيه بشخصيه ليفي ، وأدعى أنه انتهazy ، ومثقف متفسخ وأحد بلشفيك الصالونات ، وأنه لم يكن أبداً محلاً للثقة وترك مكانه كجبان . ورد ليفي في أغسطس بنشر سلسلة من الخطابات أرسلها رادك إلى بعض اتباعه من أعضاء اللجنة المركزية مثل براندار ، وثالهير وفرويش تثبت أنه كان يسعى لتكوين « عصبه » خاصة لمعارضته ، وفي المؤتمر الثالث للسكومنترن الذي اجتمع من ٢٢ يونيو إلى ١٢ يوليو عرضت كل من شيعة ليفي واللجنة المركزية دعاواها . وناصر رادك وبخارين وزينوفيف اللجنة المركزية ، بينما ناصرت كلارا زاتسكين ليفي ودافعت عنه ، وارتأى لينين وتروتسكي وكامنيف أن التطور العالمي من ناحية والأحوال في الاتحاد السوفيتي من ناحية أخرى تقتضى النكوص عن السياسة الهجومية ، والأخذ بالسياسة الدفاعية والتسلسل إلى الأحزاب البورجوازية والنقابات ودعمت قيادة الحزب الشيوعي الألماني إلى أن تقدر في المستقبل ظروف العمل مسبقاً ، وأن تلحظ المركزية الديمقراطية . وهكذا ا طرح الحزب الشيوعي الألماني والسكومنترن السياسة الهجومية ، فلما سنحت له للمرة الأخير - فرصة العمل الإيجابي تردد حتى ضاعت الفرصة .



وكانت هذه الفرسية هي احتلال فرنسا لمنطقة الرور ، وما سبق ذلك من تضخم مالى وبطالة ، وما عقبه من اجراءات استنزافية قامت بها السلطات الفرنسية بعد أن أعلن العمال المقاومة السلمية في منطقة الرور .

كان الجو مهيئاً للثورة ، وتصاعدت هذه الحالة النفسية تلقائياً إلى إضراب عام بدأ في برلين وانتشر منها إلى غيرها من المناطق ، واستهدف اسقاط حكومة كنو التي أصبحت رمزاً الكسل ما يكرهه الشعب وفي ١٢ أغسطس سقطت الوزارة . .

وفي رأى أحد الكتاب .

« بعد إضراب كواب ، يعد إضراب كنو اعظم إجراء جماهيري قامت به الطبقة العاملة الألمانية ، على أنه كان هناك فروق أساسية بين إضرابين . ففي مارس سنة ١٩٣٠ — استجابت الطبقة العاملة لنداء نقاباتها وحكومتها معا ، ولكن مثل هذا النداء لم يصدر في أغسطس سنة ١٩٣٣ لا من النقابات ، ولا من أى حزب من الأحزاب العمالية . لقد كان إضراب كنو اضراباً تلقائياً تاماً ، ويمكن لهذا السبب أن يعد فريداً في تاريخ الحركة العمالية الألمانية . فقد تقلد مندوبو العنابر والزعماء الحليون للعمال زمام المبادرة ، وقادوا الحركة ولم تظن الاحزاب إلى ما يدور إلا بعد أن أصبحت حركة هذه الجماهير واقعة . وكان لهذا نتائج هامة ، فقد استنزفت الحركة واستنفدت كل قوتها بعد أن حققت غرضها — أى استقالة الحكومة — وكان استغلال هذه الحالة الثورية والنجاح هي المهمة المدخرة للأحزاب السياسية<sup>(١)</sup> » وبالذات الحزب الشيوعى الذى كان قد أخذ ينهض من كبوة مارس ، وأخذت المواقف السياسية العقيمة للحزب الاشتراكي الديمقراطي تدفع العمال دفعا للحزب الشيوعى .

كان الحزب الشيوعي يدرك ذلك ، ولكنه خلال الفترة الحاسمة من يوليو إلى أغسطس تردد . ولم يستجمع شجاعته ، وتراءى له شبح « عملية مارس » وآثر أن يتلقى التوجيهات من الكومنترن الذى كان بدوره يراقب الحالة ، ويتخلص شيئاً من آثار الأحداث والسياسات السابقة . كما كان الروس - سادة الكومنترن بالطبع - يتخوفون من سياسته سترسمان وتقربه إلى الغرب ، وأخيراً فقد كان هناك اعتقاد تملك بعض قادة الكومنترن أن ألمانيا ستتم بتجربة « أكتوبرية » تماثل تجربة الاتحاد السوفيتى .

وفي اجتماع سرى عقده « البوليتبرو » الروسى فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٣ تقرر أن يتعاون الحزب الشيوعي الروسى والكومنترن والحزب الشيوعي الألمانى للقيام بثورة . وعينت قيادة عليا من خمسة أشخاص تضم رادك ممثل الكومنترن وبياتا كوف وانشليكمت Unshlikht ( من البوليس السرى ) وشميدت وزير العمل وكريستنسكى Krestinsky الوزير السوفيتى المفوض فى ألمانيا لتوزيع الأموال اللازمة ، وقرابة آخر الشهر استدعى براندلر للتشاور واستدعيت بعده فيشر وماسلو وتشالمان الذين يمثلون المعارضة اليسارية فى الحزب الشيوعي الألمانى واستمرت المداولات بين هؤلاء جميعاً حتى انقاد براندلر - الذى كان يتخوف المخاطرة - للحماسة الروسية والتفاؤل الذى جعل زينوفيف يثنيأ بأن ٢٢ مليوناً من العمال الألمان سيسهمون فى الثورة المقبلة ، واقترح تروتسكى جعل يوم الثورة ٧ نوفمبر ، وطلب براندلر أن يرسل تروتسكى إلى ألمانيا لقيادة الثورة ، ولكن البوليتبرو أرسل بياتا كوف .

ووضعت ترتيبات خطة كبرى يغزو فيها الشيوعيون أولاً حكومة سكسوفيا ذات الاتجاهات الاشتراكية ، ويفعل الشيء نفسه فى تورنجيا وفى الوقت نفسه تبعاً للمثلث البلوريتارىه . Proliterian hundreds وهى المليشيا التى دربها

الحزب والخبراء السوفيت ويستشار العمال بحيث يمكن للقومة أن تكون في مجموعها ثورة ناجحة .

وكانت هذه كلها مجرد تهيئوات . .

فأولا : وقبل كل شيء ، أن المد الثورى الذى كان قد تعالى في يوليو أخذ ينحسر شيئا فشيئا مع نهاية أغسطس بحيث استعادت الحكومة بسلسلة من السياسات الاقتصادية والسياسية زمام المبادرة . .

وثانيا : كانت العملية مقسمة ما بين ثلاث جهات هي الحزب الشيوعى الألمانى . والحزب الشيوعى الروسى ، والكومنترن . ولكل واحد من هؤلاء اعترازه ، ومنطقه ، وتخوفه من الآخرين . .

وقد نجحت بعض اجزاء الخطة ، فعين ثلاثة من الشيوعيين في حكومة سكسونيا . ولكن الحكومة الاتحادية أمرت الجنرال مولر بالزحف على سكسونيا وإعادة النظام إليها . وبهذا هزمت الثورة قبل أن تبدأ . .

على أن فشل هذا الجانب من الخطة لم يؤثر على مضى بقية الجوانب التى كانت الاطراف الأخرى في العملية تقوم بها . فالاتحاد السوفيتى كان قد أصدر الأمر إلى عدد من ضباط المخابرات السوفيتية بالسفر إلى ألمانيا ، وعلى رأس هؤلاء و . ج . كريفيتسكى W.G. Krivitsky الذى سجل أحداث هذه الفترة في كتابه « كنت عميلا لستالين » . .

ويقول كريفيتسكى أنه وبعده عمده على الفور إلى العمل ، وكوّنوا ثلاث أنواع من المجموعات من بين أعضاء الحزب الشيوعى هي أولا إدارة مخابرات الحزب التى كانت تحت إدارة القسم الرابع بالجيش الأحمر ثانياً تشكيلات عسكرية تصلح لتكون نواة الجيش الأحمر الألمانى ثالثاً وحدات صغيرة من الرجال مهمتها إفساد معنوية الجيش والبوليس — ووضع على رأس إدارة

مخابرات الحزب هانز كيبنبرجر<sup>(١)</sup> Hans Kiepenberger الذى استطاع أن يعمل بدأب وصبر ليضع رجاله فى كل الهيئات والمنشآت حتى فى الجيش .

وكان تكوين التشكيلات العسكرية من وحدات كل وحدة من مائة رجل . وضمت كل وحدة الأعضاء الذين حاربوا خلال سنوات ١٤ — ١٨ طبقاً لنوعيتهم العسكرية ، وبدأت عملية استخلاص الضباط والفنيين من بين هذه المجموعات كما نظمت وحدة من النساء كمرضات .

واعد الحزب الشيوعى عدته للقيام بالثورة ، وأخذ ينتظر اللحظة الحاسمة ، لحظة صدور الأمر بالثورة ، وكان الذى سيصدر هذا الأمر هو زينوفيف رئيس الكومنترن .

وأخيراً قيل إن الأمر قد صدر ، ووصل تلغراف بذلك إلى اللجنة المركزية ، وأسرع رسل الحزب إلى كل لجنة أو فرع ، واستخرجت البنادق من مخابئها استعداداً لساعة الصفر . .

ولكن قيل إن تلغرافاً من « جريشا » ، وهو اسم الشفرة لزينوفيف ، قد وصل وهو يؤجل الثورة . . ومرة أخرى أسرع الرسل بالأوامر الجديدة والانتظار لميعاد آخر قريب . .

---

(١) وكانت نهايته هى النهاية التقليدية للشيوعى . فى سنة ١٩٢٧ انتخب نائباً فى الرشتناج وعضواً فى لجنة المشتون الحربية ، ولما كان يعتبر نفسه ممثل الكومنترن فى هذه اللجنة ، فقد أمد المخابرات السوفيتية بمعلومات قيمة . وظل فى ألمانيا لفترة بعد حكم هتلر يواصل العمل السرى للحزب حتى استطاع فى خريف ١٩٣٣ الفرار إلى روسيا ، وفى سنة ١٩٣٦ قبض عليه باعتباره جاسوساً نازياً وطلب منه الاعتراف بأنه كان فى خدمة المخابرات الألمانية . ومع أنه رفض إلا أن ستة أشهر من « الاستجواب » جعلته يعترف . . بعد أن ظل يردد « إن مسماراً فى رأسى أصلونى شيئاً لأنام » .

ولم تسكد أنفاس هؤلاء الرسل تهادى حق قيل إن تلغرافا جديدا وقد وصل،  
ومرة أخرى أسرع الرسل . .

وظلت هذه اللعبة مستمرة — لعدة أسابيع . . تتوالى تلغرافات جريشا . .  
حقى بدا أن هذه الثورة بالمراسلة لن تبدأ أبدا . .

وأخيرا جدا وصل التلغراف المنتظر ، والذي اعتقد أنه الأخير ولن  
يكون بعده تأجيل . .

ولكن فى آخر دقيقة . وقبيل الميعاد بفترة قصيرة جدا فوجئ الحزب  
بتلغراف يؤجل الثورة ، فأرسلت التعليمات على وجه السرعة إلى فروع الحزب .  
ولكن هذه التعليمات لم تصل إلى فرع هامبورج قبيل الميعاد ، ونتيجة لذلك ثار  
شيوعيو هامبورج واحتلوا بالليل عددا من مراكز البوليس ، ودعوا فى الصباح  
التالى إلى الاضراب العام ، ولكن بقية عمال هامبورج الذين لم يفهموا السر  
فى هذا ، ولم يجدوا من بقية عمال المدن الأخرى ما يساعدهم على الفهم أو يشجعهم  
على التجاوب رفضوا ، فوقف شيوعيو هامبورج وحدهم ، وتعرضوا وحدهم  
لوطأة الجيش الذى سحق تمردهم بعد ثلاثة أيام من مقاومة عنيفة انتهت  
بإسئصال معظم الشيوعيين ، بينما دخل الجيش بقيادة الجنرال فون سيكت  
مدية درسدن واسقط حكومة سكسونيا الاشتراكية ولاقت حكومة تورنجيا  
المصير نفسه ، كل هذا دون أن يتحرك الشيوعيون الذين التزموا بتلغراف  
التأجيل . .

كانت قومة أكتوبر هى الفرصة الأخيرة التى منحت للشيوعيين . .  
وهو ما يعترف به التحليل الشيوعى نفسه لفترة ما بعد الحرب إذ يجعل من  
انبعاث أكتوبر الفاشلة نهاية للمرحلة الأولى التى يرمز لها بالموجة الثورية  
Revolutionary wave.

وقد كان التطور كريما أمام الشيوعيين ، وأتاح لهم ثلاث فرص سابقة في يناير ١٩ ، ومارس ١٩ ومارس ٢١ وأضاعوها جميعا بطريقة واحدة ، ودون أن يحاولوا الافادة من أخطائهم أو تغيير مواقفهم ، حتى ليسكن القول أنهم أحق من البوربون بما قيل عنهم من أنهم « لا ينسون شيئا ولا يتعاملون شيئا » . . أو ممن قال عنهم القرآن « لا يتوبون . . ولا هم يذكرون » . .

\* \* \*

إن مؤامرة كاب العسكرية وانبعاث « جريشا » الشيوعية تصوران أصدق تمثيل للموقف الذي اضطرت الجمهورية الناشئة لأن تقفه بين نارين :

نار العسكريين من اليمين .

ونار الشيوعيين من اليسار .

كان الموقف كموقف طارق القديم ما بين البحر والعدو .

وكانت الجمهورية في حاجة لمثل عزيمة طارق أو نخيلة شوقي لترى في هذا الموقف . . اليأس خاف ، والرجاء إمام

الضعف والاحجام فيه اذا هما

قتلا ، فأقتل منهما الأحجام

ولكن لم يكن لدى جمهورية فايمار عزيمة طارق أو نخيلة شوقي . .

وكان لابد أن تحترق في النهاية . .

---

## البابُ الرابع

### سنوات التحول

الفصل الخامس عشر : الديمقراطية العزلاء في معسكر الأعداء ..

الفصل السادس عشر : النقابات تدفع الثمن ..

الفصل السابع عشر : من الانهيار إلى الإزدهار ..

## الفصل الخامس عشر

### الديمقراطية العزلاء في معسكر الاعداء

ليس من العسير على من يتابع مجرى الأحداث في الجمهورية الناشئة أن يرى أن المجموعات الثورية قد استنفدت قوتها خلال السنوات الخمس الأولى للجمهورية في قومات طائشة لم ترزق التنظيم الدقيق أو التوقيت السليم ، وأنها بذلك خسرت المبادأة وسمحت للمجموعات العسكرية والرأسمالية باستعادة قواها وتنظيم صفوفها بحيث كانت سنة ١٩٢٣ سنة فاصلة ، فقد انطلق التحول الذي كان كامناً في طبيعة وملابس الثورة دون أن تقفه أو تكبح جماحه حركات جماهيرية كالتي حدثت حتى ذلك الوقت .

وأخذ هذا التحول عددا من الصور كان أبرزها تقهقر الحزب الاشتراكي الديمقراطي أمام أحزاب الوسط أو الأحزاب الرجعية ، وهيمنة العسكريين على الحياة المدنية ، وانتصار الرأسمالية على الحركة النقابية .

ومتابعة تطورات التشكيل الوزاري تعكس تقهقر الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، فحتى في الانتخابات الأولى وجد الحزب أنه ، وإن نال أكبر عدد من الأصوات ، إلا أنه وحده يعجز عن تشكيل الوزارة . وأن عليه أن يدخل في ائتلاف مع أحزاب لم تكن تؤمن تماماً بالجمهورية ، وهي حقيقة ذات مغزى لا يقتصر على المجال السياسي وحده . .



على كل حال ، كان يمكن تقبل هذه الحقيقة ، على ما فيها ، ما ظلت الأغلبية للحزب الاشتراكي . ولكن هذه الأغلبية لم تبق طويلا ، ففي الأسبوع الأول من يونيو سنة ١٩٢٠ ، وفي أعقاب موامرة كلب التي كان يمكن أن تؤدي إلى تشكيل وزارة عمالية ، فقد الحزب أغلبيته ، ولم يظفر إلا بأقل مما يظفر به من عامين . ورأس الوزارة كواستانتين فهرنباخ من حزب الوسط ، وتلاه ( من مايو ٢١ حتى نوفمبر ٢٢ ) جوزيف ويرث ثم ( من نوفمبر ٢٢ حتى أغسطس ٢٣ ) ولهدم كنو . وفي أغسطس سنة ٢٣ شكل سترسمان الوزارة وتعاقب بعد ذلك على المستشارية ولهدم ماركس . وهانز لوثر . . ولم يستعد الاشتراكيون الديمقراطيون قوتهم ، أو تشكل الوزارة برئاسة مستشار منهم إلا سنة ١٩٢٨ عندما شكل هرمان مولر وزارته ، وكانت وزارة أشخاص ، وكان وزير الخارجية فيها سترسمان وفي ٢٧ مارس سنة ١٩٣٠ استقالت . . ومن هذا التاريخ وقد فقد الحزب الاشتراكي الديمقراطي ليس فحسب الأغلبية . بل أيضا الوزن الذي يفترض أن يكون لمثل هذا الحزب وأصبح لعبة الأحداث . . . حتى اكتسح النازي النظام بأسره وقضى على جمهورية فايمار .

حقيقة إن علينا عندما نحاسب الحزب الاشتراكي الديمقراطي على ضعفه ونقهقه . أن نضع في هذا الحساب أن قسما من المسؤولية لا يعود إلى الحزب نفسه ، ولكن إلى الحرب الضارية التي شنها عليه الشيوعيون الذين جعلوا أنفسهم حلفاء متطوعين للرأسماليين في القضاء على الحزب الاشتراكي واستخدموا في هذا السبيل من الأساليب والتكتيكات الشيوعية ما كان يعجز الرأسماليون عن استخدامها ، ومع أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي مسئول — جزئيا — عن هذا أيضا إلا أن قسما كبيرا من المسؤولية لا يعود إلى الحزب قدر ما يعود إلى شأن العداوة والعنصرية المذهبية الذي أصيب به

الشيوعيون وكانوا هم أنفسهم الضحية التالية له ، بعد الحزب الاشتراكي الديمقراطي .

\* \* \*

وهناك ظاهرة أخرى تكشف عنها هذه التطورات وتظهر لنا نقصا خطيرا لا في سياسة الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، ولكن في بنية الجمهورية ونظامها الأساسي ، فقد تأثر واضعو دستورها بالنظام البرلماني في بريطانيا والولايات المتحدة ، ولكنهم نسوا أن هاتين الدولتين تأخذ بنظام الحزبين ، وأن هذا النظام بدوره يعود إلى ملاسبات وجذور تاريخية لم تتأثرت لألمانيا ، ونتيجة لهذا أفسح النظام البرلماني في ألمانيا المجال لظهور عدد من الأحزاب ، لم يكن كبيرا فحسب ، بل إنه أيضا كان يمثل تعارضا في الاتجاهات ، فالأحزاب المحافظة على اختلافها كانت تؤثر الوضع الامبراطوري القديم . والحزب الاشتراكي الديمقراطي يناصر البرلمانية الديمقراطية ، والحزب الشيوعي لا يؤمن بالابديكتاتورية البلوريتاريا . ولما لم يكن لأي حزب من هذه الأحزاب قدرة على نيل الأغلبية أو تشكيل الوزارة ، فقد كان عليها أن تدخل في ائتلاف . ولكن الائتلافات لم تكن تسمح بأن يمضى هذا الائتلاف طويلا . كان الاختلاف أكبر من الائتلاف مما أدى إلى عدم فعالية العمل ثم سقوط الوزارة . خاصة وأن الأحزاب المعارضة التي ترصد للوزارة كانت تملك — في معظم الحالات — من الأصوات ما لو اجتمعت لكونت الأغلبية وأسقطت الوزارة .

وظهر هذا جليا في تعدد الانتخابات ، وقصر مدد الوزارات بحيث لم يكن من النادر أن تجري الانتخابات مرتين في السنة الواحدة ، ولم يكن من شأن هذه اللعبة الحزبية استقرار الأمور في أي بلد ، فضلا عن ألمانيا التي كانت تمزقها الخلافات وتبطلها معاهدة فرساي

ومع أن هذه قضية لانزاع فيها ، فلكي نكون عدولا وعارضين لكل الحقيقة ، وليس لجزء منها ، فإن علينا أن نتصور موقف واضع دستور فائمار في تلك الأيام المكفهرة من عام ١٩١٩ . عندما كانوا يعكفون على مهمتهم القاسية .. فماذا كان البديل ؟ هل البديل هو مجالس العمال والجنود التي لم تكن مؤهلة للحكم بدليل تنازلها عن صفتها كهيئة حاكمة ، ومناصرتها للنظام البرلماني . ولو قدر لها البقاء لأصبحت — دون أقل ريب — مطية الشيوعيين ؟ هل يكون البديل الحزب الواحد ؟ إن هذا البديل مرفوض لأنه لم يكن يعني شيئا إلا الحزب الاليني المقيت ، والديكتاتورية .. هل كان يتصور تكوين حزبين بالأمر ؟

لقد اعتقد واضعو دستور فائمار أن ليس هناك إلا مخرج واحد هو ما اتهموا إليه ، وبالفعل فلم يكن في الفقه الدستوري الديمقراطي ما يمكن أن يقدمه غير ذلك . وقد حاولوا علاج هذا النقص بوضع المادة ٤٨ التي كانت تعزز وضع رئيس الجمهورية وتمنحه سلطات تكاد تكون مطلقة في حالات معينة ولكن هذا حل « اجرائي » . وهو أشبه بمعالجة الازمة برفع سعر الخضم أو اتباع سياسة انكماشية .. وفي كثير من الحالات يكون له أثر عكسي ..

لقد كان الحل الوحيد ، مادام الحزب الاشتراكي الديمقراطي قد أثر الديمقراطية البرلمانية أن يحكم بالأغلبية ، اعني أن يحرص على أن تكون له الأغلبية المطلقة التي تمكنه من تشكيل الوزارة دون شركاء . وأن يعمل باستمرار على كسب القاعدة الشعبية ، وبهذا يستطيع إن يحكم بقوة وفعالية دون أن يخشى المعارضة لأنه يظفر بالأغلبية .

وبالطبع فإن هذا ليس سهلا أو هينا . ولكن من قال إن الحكم سهل أو هين ؟ إنه لمقعد الشرف والخطر .. والتعب والدأب ويجب على كل من

يتصدى له أن يضع هذا نصب عينيه ، فإذا لم يكن له أهلا ، فليقعد في بيته مع القاعدين . .

وكان الحزب الاشتراكي الديمقراطي يستطيع بفضل دفعة الثورة ومدىها العالى أن يهتبل الفرصة ليتخذ الاجراءات الحاسمة التى يعزز بها مركزه ، يقدر ما يوهن بها مركز أعدائه ، ولكن سياسته المائعة خلال الشهرين الحاسمين — نوفمبر وديسمبر — كانت كافية لأن تفقده الأغلبية المطلوبة . وأن تقفل الباب فى وجهه من أول انتخاب . .

لقد ظن الاشتراكيون عادة أن كتسابهم ١٦٣ مقعدا ، وتفوقهم على أى حزب آخر فى الانتخابات الأولى ( ٥ يناير ١٩ ) أنهم انتصروا . . والحقيقة أن هذا كان أول الوهن ، إن عدم ظفرهم بالأغلبية التى تمكنهم وحدهم — من تشكيل الوزارة كان هزيمة قضت على كل الآمال . . لأنها كانت تعنى أن هزائم المستقبل ستكون أكبر وافدح ، وهذا ما حدث بالفعل .

وما من شئ كهذا يوضح جريرة التخبط والضعف والتميع . .

فى مقابل تقهقر الحزب الاشتراكي ، وبقدرة ، كان تقدم القوى العسكرية التى لم تستشعر شيئا من الخجل بعد موامرة كاب ، ولم تتعرض لمواخضة الحكومة . . .

وكانت هيئة الضباط والقيادة العسكرية العليا لا تزال تعتقد أنها الآمنة على حاضر البلاد ومستقبلها . وأن ألمانيا — كإمبراطورية — إنما قامت بفضل السيف البروسى . . وتدعمت بالانتصارات فى المعارك الثلاث الفاصلة وأترو . وسادوا وسيدان . وأن مستقبلها — كما ضيها — يجب أن يقوم على السيف ويحمى بالجيش . أما السياسيون . . فلا يستطيعون البناء والانتصار وإنما

الكلام والانهزام . وكانت شواهد الحل تؤيد ذلك ، فماذا كانت تفعل الحكومة بدونهم ؟

من أجل هذا انصرفت القيادة العسكرية الألمانية — التي لم تكن قد تحللت — لكي تعمل بكل دقة وضبط في جبهتين الأولى تدعيم الجيش والتغلب على نصوص معاهدة فرساي والثانية الهيمنة على الحياة المدنية والسياسية في الداخل والتخلص ممن سموهم « مجرمي نوفمبر » .

وكان من أغرب الوقائع التي قامت بها القيادة العليا للعمل في الجبهة الأولى تلك الاتصالات والمفاوضات التي بدأتها من سنة ١٩٢٠ مع الاتحاد السوفيتي ، وكانت هذه الاتصالات والمفاوضات على أعلا مستوى وقام بها من جانب السوفيت رادك ، وكواسين وكريستنسكي ومن جانب الألمان فون سيكت القائد العام وفون شليشر ووزير المالية في هذه الفترة جوزيف ويرث ووزير الدفاع جيسار . وكانت هذه الاتصالات التي تجرى وراء ظهر الاشتراكيين الديمقراطيين ، وتجمع بين العدوين اللدودين تنير الدهشة . فبينما كان رادك يضع سياسة الحزب الشيوعي الألماني ويسهم في انبعاثاته ويصب اللعنات على العسكريين، وبينما كان فون سيكت والضباط يتعقبون الشيوعيين ويوقعون بهم دون رحمة ، كان هؤلاء أنفسهم — رادك من ناحية وفون سيكت من ناحية أخرى وبقية أتباعهما يجتمعون ويتفقون من سبتمبر سنة ١٩٢١ على تكوين مؤسسة أطلق عليها الاسم المختصر Gofu تتولى صنع الأسلحة لحساب المنشآت الألمانية برأس مال قدر في نهاية فترة التضخم بقرابة ٧٥ مليون مارك ذهبي . واقامت هذه المؤسسة عددا من المصانع في الأورال وبتروجراد بينما بدأ إنتاج الطائرات في فيلي Fli على مقربة من موسكو لحساب الروس . وكونت شركة روسية ألمانية لإنتاج الغاز السام في تروتسك (بجوار سمارا) وأقام عمالقة الصناعة

الرأسمالية الألمانية : كروب وديملر ورينمتال . Rheinmetall فروعا في قازان لصنع الدبابات . وكان تبادل الضباط للتدريب يتم بنظام ، فيأتي الضباط الروس إلى ألمانيا ، وينذهب الضباط الألمان إلى روسيا . وقد كان الكولونيل فون بلومبرج وزير الدفاع في عهد هتلر — أحد الاساتذة الذين تولوا تدريب الضباط الروس ، وفي مقابل هذا كان الطيارون الألمان يتدربون على الطيران الذي حرم عليهم بمقتضى فرساي — في روسيا . وعندما انتهت خدمة الجنرال فون ميكت الذي تبني هذه السياسة سنة ١٩٢٦ ، وتكشفت بعض هذه الحقائق ، هاجم شيدمان الجيش والضباط ، ولكن هذا الهجوم كان يمكن أن يضر الحكومة أكثر مما كان يضر الجيش ، ولهذا لم يكن له نتيجة حاسمة . وظلت سياسة سيكت مستمرة — إلى حد ما — في عهد خليفته الجنرال كورت فون هامرستين ا كورد<sup>(١)</sup> .

وحق تولى هتلر الحكم ، كانت العلاقات ما بين الجيش الألماني والجيش الأحمر قائمة . ففي مايو سنة ١٩٣٣ زار وفد من كبار ضباط الألمان الاتحاد السوفيتي . واستقبلهم المارشال فورشيوف ، وأكد لهم ضرورة بقاء العلاقات بين الجيشين . ولكن هتلر أمر بانهاهما .

وكان من الوسائل التي استحدثتها العسكرية الألمانية للهيمنة على الحياة المدنية وبث الرعب في نفوس السياسيين أملوب الاغتيال السياسي الذي وجه ضد « مجرمي نوفمبر » وكان يدخل في هؤلاء دعاة الجمهورية على اختلافهم ، دون أن يقتصر الأمر على الشيوعيين . وبعد أن قضى هذا الاغتيال على زهرة قيادات الشيوعيين اتجه نحو الديمقراطيين مثل ارزيرجر الذي قتل في أغسطس سنة ١٩٢١ والتراتينو الذي اغتيل في ٢٤ يونيو سنة ١٩٢٢ وقد قدر أحد

الكتاب الاغتيالات السياسية التي حدثت ما بين يناير ١٩٢٢ و يونيو ١٩٢٢ ،  
والسؤولين عنها والأحكام التي صدرت على مقتريها ، مع التفرقة ما بين اليمين  
واليسار فكانت كالتالي :

### الاغتيالات السياسية

عدد الاغتيالات التي قام عدد الاغتيالات التي قام

	بها اليسار	بها اليمين
عدد الاغتيالات	٢٢	٣٥٤
عدد الأشخاص الذين حكم عليهم لهذه الاغتيالات	٣٨	٢٤
أحكام بالموت	١٠	—
قتلة اعترفوا ، وبرؤوا	—	٢٣
سياسيون نالوا ترقيات في الجيش	—	٣
متوسط مدة السجن لكل حالة اغتيال	١٥ سنة	٤ شهور
د الغرامة د د د	—	٢ مارك

وعندما اغتيل راتينو قامت اضرابات عديدة ، واتحدت النقابات  
والأحزاب الاشتراكية الثلاث وأرسلت نداء طالبت فيه بإصدار قانون لحماية  
الجمهورية يتضمن العقاب الرادع للمسؤولين كما طالبوا :

(١) بكبت التشكيلات العسكرية التي نظمت الاغتيالات السياسية .

(ب) بإجراء تطهير في الموظفين المدنيين العاملين في الجيش والمحاكم  
يخلص هذه الهيئات من العناصر المعادية للجمهورية .

( ج ) بإصدار عفو عن المسجونين السياميين باستثناء الذين تثبت ادايتهم بمقتضى القانون الجديد .

والحقيقة أن مثل هذا القانون كان موجودا بالفعل ، ولكن تحيز القضاة جعله معدوم الأثر ، ولم يكن هذا التحيز مجهولا أو طفيفا ، لقد كان معلوما وسارخا فمن بين قتلة ليبسكنشت حكم على واحد بثلاثة شهور وحكم على آخر بغرامة زهيدة . وحكم على واحد من قتلة روزا لوكسمبرج بالسجن سنتين وسمح للباقيين بالفرار ، ولم يحاكم قتلة جوجيتش ودورنباخ رغم التعرف عليهم وحكم على الضابط مارلو الذى أضر باطلاق النار على ثمانية وعشرين بحارا بثلاثة شهور من تحديد الإقامة ، وفر معظم المشتريين فى موآمرة كاب .

ولكن لم يستطع أحد أن يفعل شيئا لإصلاح النظام القضائى حتى عندما امتدت يد الاغتياى إلى شخصيات عامة ومسئولة من غير الاشتراكيين مثل راتينو وازربنجر كانت كل جرائمهم أنهم اشتركوا فى الحكم أو توقيع معاهدة فرساي . الأمر الذى دفع للمستشار ويرث زعيم الحزب الكاثوليكي لأن يقول فى الرشتاج « إن العدو يقف فى المين » .

وقد يصور زحف القوى العسكرية على الجمهورية ، مؤيدى بتعاطف القضاة ما حدث فى بافارى . . .

فبعد ثورات بافارى الاشتراكية التى قعت بارهاب أبيض غشيم، أصبحت بافارى مأوى لسكل المتأمرين، وهرع إليها عدد كبير من الروس البيض الفارين من السوفيت . وعدد آخر من ألمان البلطيق الذين كانوا قد حاربوا الاتحاد السوفيتى . بينما كان أنصار الأسرة المالكة يعيشون فى سلام ويمدون المتأمرين بالمال . وقيل إن زوجة البرنس كيريك - كوبرج المطالب بالعرش الروسى - وهى ألمانية - وضعت مبلغا كبيرا من المال فى يدى لودندورف .



ما بين عام ٢٢ و ٢٤ لتمويل الحركات الألمانية اليمينية . بينما كان الضباط  
الألماني ما كسي ايروين فوق شوبنر - ريشتر يضم الجماعات المتعددة والمتعادية  
للروس البيض ويحاول أن يوحد جهتهم .

وبينما كانت فرقة اهر هاردت Ehrhardt تحتل برلين أيام مؤامرة . كتاب  
ثار عدد من الضباط في بافاريا بزعامه الجنرال فون موهل وادغموا وزارة هوفمان  
الاشتراكية على الاستقالة وأثار ذلك الحكومة المركزية فأحالت الجنرال  
فون اب قائم الجيش في بافاريا على الاستبداد وأحلت محله فون لوسو ، وعينت  
فون كاهر حاكما عاما .

وفي هذا الوقت كان شاويز بإحدى الفرق المربطة في ميونيخ ( بافاريا )  
يستكشف ، بأمر روسائه ، أمر مجموعة سيامية مغمورة وقادته هذه المهمة لأن  
يسيطر على هذه المجموعة ، ويجعل منها حزبا ناهضا . وكان هذا الشاويز هو  
أدولف هتلر وقد استطاع أن يكسب تأييد لودندورف وعدد من الضباط بما  
فيهم رئيسه المباشر الكابتن روهم رئيس القسم السياسي بالجيش وشيئا فشيئا  
استطاع أن يكون فرق العاصفة وأصبح عددها بضعة ألوف .

ووضع هتلر خطة لانقلاب يسيطر به على الحكم ، وكانت هذه الخطة تقضى  
بأن تحاصر فرقة المسلحة مشرب بيرة كان فون كاهر سيخطب فيها في مساء  
٨ سبتمبر ١٩٢٣ ، بينما يدخل هتلر ويعلن الثورة ويدعو فون كاهر وفون لوسو  
وفون سينر ( قائد البوليس ) للتشاور معه . وتم هذا تقريبا ، واستطاع هتلر أن  
يسيطر على القاعة وأن يأخذ الثلاثة الكبار أسرى في غرفة جانبية وهناك  
ذكر لهم أنه كون حكومة جديدة بالاتفاق مع لودندورف — وعرض عليهم  
الاشترك معه ووافق هؤلاء بعد أن قال لهم هتلر إن في مسدسه أربع رصاصات  
رصاصه لكل واحد منهم والرابعة له . وهرع هتلر إلى الخارج وأعلن أنه كون

الحكومة بالاشتراك مع المسؤولين الثلاثة ، وضجت القاعة بالتصفيق خاصة بعد أن جاء لودندورف وظهر الجميع أمامهم .

واستطاع فون كاهر وفون لوسو الانصراف حيث كانت قواتهم وحيث تبينوا خطأهم . وعند الصباح تقابلت القوتان : قوة هتلر . وقوة الحكومة ، ولم تجد هذه الأخيرة صعوبة في تفريق القوة الثائرة . والقبض على هتلر . بينما ترك لودندورف ينصرف دون أن يتعرض له أحد وتبددت قومة مشرب البيرة .

وعندما علمت برلين نبأ هذه المحاولة استدعى ايبرت رئيس الجمهورية الجنرال فون سيكت القائد العام وسأله « أخبرني أيها الجنرال من ذا يطيع الجيش .. الحكومة أو المناصرين » فرد هذا ببرود « إن الجيش يعطى يامسدى الرئيس » .

وحوكم هتلر وحكم عليه بالسجن خمس سنوات في احدى القلاع حيث وضع كتابه .. كفاحي وأهداه « للذين سقطوا ضحية الحركة » .

\* \* \*

وفي فبراير سنة ١٩٢٥ مات ايبرت .

ومع أن ايبرت لم يكن في مستهل حياته جمهوريا متحمسا . وأنه تجهم لشيدمان عندما أعلن هذا الجمهورية دون مراعاة للرسميات أو الشكليات ، فإنه كان أكثر من أى شخص آخر ، يجسد جمهورية فايمار ، ولم يكن هلكه — على حد قول الشاعر :

هلك واحد . . .

ولكنه بنيان قوم تهدما

وحمل معه إلى قبره الجمهورية التى رأسها ، فمع أنها ظلمت بعد وفاته سبع

سنوات إلا أنها كانت سنوات النهاية والاحتضار ولم يكن هذا حقيقيا من ناحية اختفاء الرجل الذى حاصر الجمهورية وأخلص لها وتفانى فيها ، وكان — رغم كل ما قيل فيه — الذى جمع المعسكرات المختلفة حوله ، ولسكنه كان حقيقيا من ناحية أن اختفائه أظهر شخصا بعيدا كل البعد عن الميول الديمقراطية . شخصا كان ينظر إلى القيصر باعتباره « صاحب الجلالة سيدى ومولاي » وطلبت معاهدة فرساي تسليمه باعتباره مجرم حرب ، وأديت وراء ظهره أو باسمه كل الأدوار التى دعمت القوى العسكرية ، بقدر ما أوهنت الجمهورية الاشتراكية . بحيث يمكن القول دون مبالغة أن وفاة أوبرت وتولى هندنبرج كان يمثل نهاية سنوات التحول التى جاذبت الجمهورية .. وبداية مرحلة النهاية والتصفية .

لقد دفع أوبرت غالبا عن الموقف الذى اختاره ، من أعصابه ، ومن صحته ، ومن كرامته الشخصية ، وتعرض فى أول توليه لمنصبه ، وقرابة نهاية مدته ، وما بين هاتين لسلسلة من المآزق والمتاعب ، فى مستهل عهده كانت مشكلة تحديد المسار الشائكة وما تطلبته من تصفية لليساى الشيوعى وفكرة مجالس العمال والجنود ثم كانت فى الحقبة الأخيرة مآزق وضرورات معاهدة فرساي القاسية . وخلال هذه الفترة كلها شنت صحف اليمين ، بعد صحف اليسار — حملة شعواء عليه ولم تخالجها رحمة أو تقدير للملابسات الصعبة التى وضع فيها الرجل ، وأنه فى النهاية أثر العجز على الفجور ، وأنه كان أقرب إلى اليمين منه إلى اليسار ، وكان مستحقا لتقديرها لالتنديدها ، رغم هذا فإن هوى النفوس وغلبة الأثرة نفصت عليه حياته ، فأخذت الصحف اليمينية تنبش أبابه الأولى عندما كان صبي سروجى ، أو صاحب قهوة . وفى سنة ١٩٢٢ عندما كان يزور ميونيخ زيارة رسمية اقتحم شخص يدعى جانسر Gansser الجموع وصاح فى وجهه « خان » واضطر أوبرت لرفع قضية قذف عليه ، وشاهد الشعب رئيسه

وهو يطالب في محكمة بافاريا - باظهار الأدلة على وطنيته . ومع أن الحكم قد صدر في جانبه، فإنه تضمن أن الرئيس - من الناحية الفنية - كان خائناً للملكية عندما دعا إلى الاضراب العام يوم ٩ نوفمبر . ولم تكن هذه إلا حالة واحدة من حالات عديدة وصلت إلى ١٥٠ حالة . ولم يظهر القضاء الاحترام الواجب لرئيس الدولة ، ولا التقدير الشامل للموقف، وسمحوا للاعتبارات الضيقة والفنية أن تقودهم ، فوطنية ايبرت لم تكن أبدا محل شك . وإذا كان هناك نقد . فهو لاجتهاداته ويفترض أن يأتي من اليسار لا من اليمين ، فإن ايبرت هو أكبر مسئول عن الاتجاه اليميني الذي أخذته الثورة ، وقد يكون هذا خطأ ، ولكنه لا يكون كذلك من وجهة نظر اليمين .

وقد كان من الدناءة التي قلما تخاص منها الصحافة البورجوازية أن تتحدث هذه الصحف عن ماضيه وعصاميته بنفسكرة النيل منه أو تشويه سمعته وأن تضطره للوقوف أمام المحاكم لإثبات وطنيته . ومن الناحية الموضوعية ، فإن هذا كله يشرف ايبرت ويبدل على عدائه ، كما كان يمكن أن يشرف القضاء ويؤكد « أن في برلين قضاة » لولا الهوى واستغلال الشكليات والنصوص .

\* \* \*

حقيقة إن ايبرت - كما قلنا - هو المسئول الأول عن كبح الثورة أن تبلغ المدى الواجب . والسماح لقوى الملاك والرأسمالية بالبقاء ، ثم استعادة قواهم ومرا كزهم .

وكان هذا خطأ لا شك فيه .

ولسكن الثورة بالمعنى اللينيني - وديكتاتورية البلوريتاريا المزعومة . التي كان يطالب بها الشيوعيون .. كانت أيضا خطأ .

وقد رماه الشيوعيون بالصغار لأنه لم يكن لديه القوة والعرامة التي يفرض

بها على ألمانيا الثورة التي فرضها لينين على روسيا .

ولكنه لو فعل ذلك لما كان ذلك شجاعة ، وإنما تقليدا عقيما لنظام سوء بطبيعته وغير مطلوب لألمانيا بالذات .

كان المطلوب تغييرا حاسما . ولكن دون تلك الحماقات والمنكرات التي وصفت الثورة السوفيتية .

وكان ذلك يتطلب قائدا يتوفر له الخيال والشجاعة .

ولم تتوفر هذه الصفات في ايبيرت فغلبت عليه قوى الحفاظ التي كانت كامنة فيه .

وعزز اتجاهه هذا ، وجعله يصرح عليه ، سرف الشيوعيين في ألمانيا وجرائمهم في روسيا .

وقد حلل الكاتب والمفكر الاشتراكي هيلفردينج - وهو أحد زعماء الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل وقتئذ الموقف وشخصية ايبيرت في حديثه مع جوليس بر وتال .

« في الثورة الفرنسية والروسية كان هناك إرادة ثورية متوجهة اكتسحت البلاد كالخريق المستعر ، وكان هناك رجال تملكهم إرادة تغيير العالم ، ولكن الايرتيين والشيديمانيين لدينا لا يريدون تغيير العالم ، وكل ما يريدونه هو الحكومة البرلمانية .

إن أسوأ الحظوظ قاطبة أن يواجه مثل هؤلاء الرجال الصغار - مثل هذه الفرصة الكبيرة .. خذ مثلا ايبيرت وشميدمان وأمثالهما .. أنا لا أقول إنهم خانوا الثورة عمدا . إن هذا يستحيل لأنهم لم يكونوا ثوريين أبدا . ولهذا فإنهم لم يشعروا بأي ولاء نحو الثورة . لقد كانوا منظمين بارعين ودعاة في وقتهم ، ولكنهم ، ببساطة لم يفهموا الحاجة التي تتطلبها اليوم . إنهم مجردون

من الخيال كلبية . إنهم البورجوازية الصغيرة التي تريد قبل كل شيء النظام . وبعد كل هذا فقد أفسدتم المديح والاطراء الذي تلقوه من الطبقات المالية وأرادوا أن يرضوها .. فما هي الفكرة في أن يترك هندنبرج في القيادة لقد سعد إبيرت بأن يتقدم إليه هذا الشخص الموهول - الماريشال .. والآن فإن الجنرالات والمصرفيين ورجال الصناعة يشتملون الهر إبيرت . ست وإبيرت سعيد ويرى من واجبه أن يوافق ما بين الثورة والجنرالات ورجال الصناعة<sup>(١)</sup> .

إن النقد سهل دائماً ، خاصة إذا كان الناقد بعيداً عن مسرح الأحداث أو ثقل المسؤولية أو حميا المعركة ، ولم يكن هيلفردينج يعلم وهو ينقد إبيرت أنه هو نفسه سيصبح بعد أقل من عشر سنوات إصلاحياً أكثر من إبيرت ، وأن مدرسة مانشتير ستجعله أقرب إليها أكثر من أى مدرسة اشتراكية ، وأنه سيناصر ضغط الميزانية وتخفيض مزايا البطالة .. الخ .

وهذا لا ينفى أن نقد هيلفردينج حقيقى — ولكن يجب أن يوضع فى الحسبان أمران :

الأول : أن إرادة التغيير التي كانت تنقص إبيرت يجب أن لا تفسر بأنها الثورة اللينينية — كما يروق للشيوعيين أن يتصوروا ذلك — فالحزب الاشتراكي المستقل قد اصطلح بالشيوعيين وذاق من نخبهم ما أودى به فى النهاية ، وقد كان هيلفردينج نفسه هو الذى قاوم الانضمام الذليل إلى الدولية — كما عرضنا . إن التغيير الذى كان يريده هيلفردينج وكل المنصفين كان هو التغيير الاشتراكي وليس التغيير اللينيني وكان يمكن اقتلاع العسكريين وكبار الملاك والرأسماليين بقدر محدود من العمل وإراقة الدماء بفضل المد الثورى والتحلل العسكرى .

(1) In Search of The Millennium p. 242.

والثاني : موقف الحلفاء المتعنت من المانيا وعدواتهم المريرة للاتحاد السوفيتي وضيقهم بالشيوعيين . ومن هنا فقد كان واجبا على ايبرت أن يتحرك بكل حكمة وبصورة لا تثير شكوك الحلفاء .

وهذه الاعتبارات وإن لم تكن تبرئ ايبرت إلا أنها توضح الصعوبة التي تجابه رجل الدولة عند تحديد موقفه ، وكيف أن عليه أن يحاور ويداور ، وأن يسير بين المتناقضات التي تملأ طريقة كما لو كان يسير في حقل ألغام أو أن يعبر الطريق إلى غايته كالبهلوان على سلك أدق من الشعرة وأحد من السيف ، أو أن يبدع طريقا آخر جديدا بفضل سعة الأفق وقوة الخيلة ، طريقا يستبعد اليسار السوفيتي واليمين الرجعي على سواء .

ولم يستطع ايبرت استكشاف هذا الطريق ، كما لم يستطع أحد آخر استكشافه وقتئذ ، وكان لابد من حرب عالمية ثالثة ومخاض دموي جديد حتى يستكشف هذا الطريق الثالث .

## الفصل السادس عشر

### الحركة النقابية تدفع الثمن

أين كانت النقابات التي تعيىء جمهرة العمال وتدير حركة العمل والإنتاج خلال هذا الصراع الدامى الحافل بالأحداث الجسام ؟

لئن كان الحزب الاشتراكى الديمقراطى يمينا بعض الشيء ، فقد كانت النقابات على يمين الحزب ، وعندما أعلنت الحكومة الحرب ، يادر الزعيم النقابى « ليجين » فأهلن تأييده للحكومة والقيصر ، وعندما عارض ليبيكنشت وبعض النواب الاشتراكيين ، اعتمادات الحرب فى الرشتاج طالب ليجين بفصلهم وحدث هذا فعلا بعد مدة .

ولما تدهور الموقف العسكرى كان مندبو العنابر ، وليس القادة النقابيين ، هم الذين ظموا بالاضرابات ، التي كانت النذر الأولى للثورة وعند اشتعلت بالفعل كان البحارة والعمال هم جنودها الأوفياء ، وكونوا مجالس العمال والجنود التي ضاقت بها النقابات قدر ماضاق بها الحزب الاشتراكى الديمقراطى . وبعد أن هدأت ثورة الحماس ، ولانعدام الخبرة التنظيمية والتأهيل الفكرى فى مجالس العمال والجنود استطاعت النقابات والحزب الهيمنة على الموقف والعودة إلى الخط الذى كان الحزب ينادى به قبل الحرب .

الحقيقة أن الثورة وضعت النقابات - كما وضعت مجالس الجنود فى مأزق -



وكانت محطاً لاختبار قدراتهم ، فهل النقابات على استعداد لإدارة الصناعة؟ وهل الجنود على استعداد لليمينه على الجيش ؟ أثبتت التجربة أن النقابات ومجالس الجنود أيضاً لم يكن لديها هذا الاستعداد، أو حتى الرغبة وأن استعدادها ورغبتها إنما كان يدور حول محور العدالة .. وليس الحكم .. رغم وجود قلة سينديكالية اقترحت إحلال مجالس العمال محل النقابات والأحزاب الاشتراكية معا ، على أساس أن النقابات تعنى بالعمل المهني وحده ، وأن الأحزاب تعنى بالعمل السياسي البرلماني . وأن أي كفاح ثوري تتوفر له الطبيعة المهنية والسياسية لا يمكن أن ينبع إلا من الجماهير نفسها والأجهزة التي توجد هذه الجماهير لتحقيق هذا الغرض المزدوج.

وفي الأيام الأولى للثورة أصدرت وزارة القومسيين عدداً من القوانين دعمت بها الحركة النقابية وأرغمت أصحاب الأعمال المدعورين على أن يقابلوا العمال في منتصف الطريق . ورحب أصحاب الأعمال بذلك ووضعوا أيديهم في يد النقابات ، لاحقاً في النقابات ، ولكن حرباً للجناح الشيوعي ومجالس العمال ولأن هذا الموقف كان كرمًا من الحكومة لم يحلم به أصحاب الأعمال بعد أن أصبحوا قلب قوميين من الإعدام والمصادرة .

ونتيجة لهذا عقدت النقابات مع أصحاب الأعمال مائمي باتفاقية نوفمبر ، وتمهد أصحاب الأعمال بمقتضاها بعدم الاعتراف بنقابات المنشآت . كما وافقوا أيضاً على :

(أ) إعادة كل العمال المبشرين إلى عملهم .

(ب) ضبط كل ظروف وشروط العمل عن طريق للمفاوضة الجماعية التي تتضمن نصوصاً عن التحكيم في حالة الخلاف .

(ج) جعل الحد الأقصى لساعات العمل ثمانى ساعات .

(د) تشكيل لجنة برئاسة مندوب نقابى فى الحال التى بها خمسون عاملا فأكثر .  
(هـ) تكوين لجنة قومية من عدد متماثل من العمال وأصحاب الأعمال  
لحل كل المشكلات الصناعية .

وفى ٢٣ نوفمبر سنة ١٨ أصدرت الحكومة عددا من المراسم تجعل ساعات  
العمل ثمانية وبأن يكون للاتفاقيات الجماعية التحريرية قوة الازام القانونى  
وفى بعض الحالات التطبيق على كل الصناعة . وأن تكون قرارات مجالس  
التحكيم ملزمة للطرفين .

وفى ١١ فبراير سنة ٢٠ صدر قانون حدد حقوق وواجبات مجالس العنابر  
Works Councils وبمقتضى هذا القانون تلتخب فى كل المنشآت والحال التى  
يعمل بها أكثر من خمسين عاملا مجالس عنابر تكون مهمتها الاشتراك مع  
أصحاب الأعمال فى وضع لوائح العمل ، وملاحظة تطبيق الاتفاقيات الجماعية  
واشتراطات الأمن الصناعى . . الخ ولها حق محدود فى الاعتراض على فصل  
أحد العمال ومقاضاة أصحاب الأعمال لاعادتهم أو لنيل التعويض . ولا يمكن  
فصل قيادات هذه المجالس .

ورأت النقابات أن ومجالس العنابر يمكن أن تكون الخطوة الأولى والقاعدية  
فى تحقيق الديمقراطية الصناعية التى كانت الهدف الاسمى للنقابات الألمانية قدر  
ما كانت الديمقراطية البرلمانية الهدف الاسمى للحزب الاشتراكى الديمقراطى .  
وأن مالا يمكن أن تؤديه المجالس مباشرة سيقوم به المجلس القومى الاقتصادى .  
لذى أصرت النقابات على أن يدمج النص عليه فى صلب الدستور وكان لها  
مأثرات بمقتضى المادة ١٦٥ من دستور فايمار .

وكان تأميم بعض الصناعات من اللطالب النقابية التى وافقت عليها حكومة  
القوميسرين السنه — وفى مارس سنة ١٩ أجازت الجمعية الوطنية قانونا يمنح

الحكومة سلطة تأميم كل الصناعات التي تكون مهيئة للتأميم وبوجه خاص الصناعات الاستخراجية كما صدر قانون وضع صناعة الفحم تحت رقابة المجلس القومي للفحم الذي كون وقتئذ وضم ممثلين للنقابات وأصحاب الأعمال والمستهلكين والجمعيات التعاونية والدولة، كما كونت لجنة تأميم أو تشريك Socialisation Commission لدراسة التفاصيل ولكنها تحللت بعد شهر من انعقادها لعدم تمكن أعضائها من الوصول إلى قرار متفق عليه .

وبعد دحر مؤامرة كاب كان من المطالب التي قدمتها لجنة الاضراب تأميم بعض الصناعات ، وكونت لجنة ثانية . واحتدم النزاع بين فريق العمال وأصحاب الأعمال . وفي نوفمبر سنة ١٩٣٠ نشرت اللجنة مذكرة باسم مذكرة إسن Essen Memorandum عن تأميم صناعة الفحم موضحة وجهة نظر أصحاب الأعمال وحدهم إذ رفض العمال التوقيع وكان في هذا نهاية المحاولة الثانية .

وفي ديسمبر سنة ٣١ طالب عمال السكك الحديدية زيادة في الأجور ولكن الحكومة رفضت فأضرب العمال . وحاولت القيادات النقابية التدخل ولكنها لم تظفر برضاء العمال وفي الوقت نفسه أضرب عمال الغاز والصناعات الكهربائية فاستنجدت الحكومة بفرق الطوارئ الفنية Teno التي تكونت خلال الثورة للقيام بالخدمات عند الطوارئ ، وكانت ذات اتجاهات رجعية ويتكون معظمها من الطلبة والضباط والجنود المسرحين والمهندسين وتشبه منظمات « البنكرتون » الأمريكية التي تخصصت في تحطيم الاضرابات .

وأدان المؤتمر الحادى عشر للنقابات الذى عقد فى ليزج فى يونيو سنة ١٩٣٢ استخدام فرق الطوارئ الفنية ، وندد بتحويلها إلى منظمة لتحطيم الاضرابات واحتج على استخدام الأموال العامة لإعانة هذه الهيئات وأعلن أن أى اتصال بها لا يتمشى مع العضوية النقابية .

وتعمل أصحاب الأعمال بالتضخم الذى أخذ شكلا حادا فى أواخر عام ١٩٢٢ لاستئناف هجومهم على القوانين الاجتماعية التى أصدرتها الثورة فى أيامها الأولى فوجه ستينس عميد أصحاب الأعمال وقتئذ خطابا مفتوحا إلى المستشار ويرث يقول فيه « أن خلاص ألمانيا الوحيد إنما هو فى العودة إلى يوم عمل العشر ساعات » وبعد ذلك بأسبوعين فى الذكرى الرابعة للثورة ألقى ستينس خطابا فى المجلس الاقتصادى القومى جاء فيه :

« لست أتزد فى القول أننى مقتنع بأن على الشعب الألمانى أن يعمل ساعتين إضافيتين فى اليوم خلال العشر أو الخمس عشرة سنة القادمة فالشرط الأول لكل تثبيت ناجح هو - فى رأيى - استبعاد الاضرابات ومنازعات الأجور لمدة طويلة ويجب أن تكون لدينا الشجاعة لنقول للشعب فى الوقت الحاضر ، ولبعض الوقت الآتى ، عليك أن تعمل عملا إضافيا . . دون أن تأخذ أجراً إضافياً » .

وعرضت الهيئة الأهلية للصناعيين الألمان على الدولة فترة التضخم قرضا بشرط أن تصبح السكك الحديدية وكل المنشآت المؤتممة ملكا خاصا . وقاومت النقابات هذه المحاولة للابتزاز ونجحت فى الحيلولة دون عقد الصفقة . .

وفى الوقت الذى كان أصحاب الأعمال يحاولون الاحتلال الفرنسى للمنطقة الرور كل أوزار التضخم وسوء الحاله الاقتصاديه ، فإنهم فى حقيقة الحال كانوا يرحبون به ويمقتونه ، لأنه يقدم لهم فرصة للتستر وراءه ولتحويل غضب الجماهير عليهم إليه ، ولطمس الحقائق بحيث تمجز الطبقة العاملة عن تحديد المسوؤل عن مشقاتهم وهل هو ستينس ممثل الرأسماليين الألمان أو بوانكاريه داهية الاحتلال الفرنسى . والحقيقة انهما كانا مسئولين معا ، وان جرم الصناعيين لم يكن ليقل عن جرم المحتلين . فقد استغل هؤلاء الاحتلال الفرنسى للمنطقة

فبدأوا التفاوض مع سلطات الجيش الفرنسى لاكتساب تأييدها فى ٥ أكتوبر سنة ٢٣ اجتمعت لجنة تضم ستة من كبار رجال الصناعة فى منطقة الروهر . منهم ستينس وفوجل بالجنرال ديجوت Degoutte قائد قوات الاحتلال وقالت أن رجال الصناعة فى منطقة الرور ووستفاليا قرروا العودة إلى وقت عمل ما قبل الحرب ابتداء من الإثنين المقبل ولكنهم لا يستطيعون تحقيق ذلك دون تأييد قوات الحلفاء ولكن استمراء قوات الاحتلال الفرنسية على العمال فشلت . لأن قائد قوات الاحتلال الفرنسية رأى أنه لا يستطيع انتهاك القانون الألمانى .

ولم يثن هذا الرد الرأسماليين ، فبعد هذا الاجتماع بيومين أرسل ستينس إلى سترسمان خطابا تضمن عددا من المطالب والتعويضات منها تأييد الحكومة فى اطلالة ساعات العمل فى المناطق المحتلة وغيرها . والفناء القوانين التى تحمى العمال من الفصل وتلزم أصحاب الأعمال بإعادة المسرحين من العمال إلى وظائفهم .

وعندما علم قوى هذا الخطاب واجتماع الصناعيين بالجنرال ديجوت اجتاحت موجه من الاستياء الشعب . فسارت مظاهرات عديدة . وندد النائب الديمقراطى اركلانز Erkalans باجتماع الصناعيين بالجنرال دجوت ووصف بأنه « واحد من أكبر الأحداث المشينه فى التاريخ الألمانى الحديث » ونشرت جريدة فوروارت لسان حال الحزب الاشتراكى الديمقراطى مقالا جاء فيه « لقد حاول ستينس بمساعدته الحراب الفرنسية أن يخضع العمال لديكتاتورية الاستغلال الصناعى » ورأت هيئات أخرى عديدة أن هذا التصرف يقارب الخيانة . وقدم الحزب الشيوعى فى الرهستاج اقتراحا بمحاكمة الصناعيين الستة بتهمة الخيانة العظمى .

ولكن لم يكن لكل هذه الاجراءات من أثر عملى ، على العكس ، لقد

رد مترسمان على خطاب ستينس واعداد باجابة عدد من مطالب الصناعيين ، بما في ذلك دفع تعويضات جسيمة عن الخسائر التي أصابهم خلال المقاومة السلبية . ولم يعلم زملاء مترسمان في الوزارة بهذا الوعد ، ولم يعرف إلا بعد خمسة عشر شهرا أن الحكومة قدمت إلى الصناعيين مبلغ ٧١٥ مليون مارك ذهبي كتعويض عن الخسائر ونال ستينس وحده مائة مليون مارك .

ولم تشبع هذه المبالغ الرأسماليين بل يبدو أنها فتحت شهيتهم وشجعهم . ففي ٣٠ سبتمبر سنة ٢٣ عقد أصحاب مناجم الفحم اجتماعا في يونا Unna واتخذوا قرارا بزيادة ساعات عمل الذين يعملون داخل المناجم من سبع إلى ثمان ساعات ونصف ، والذين يعملون خارجها من ثمان إلى عشر أو اثني عشر ساعة . وحاولت النقابات أن تعارض هذا القرار . ولكنها لم تستطع ذلك فترة التضخم والمقاومة السلبية . وعندما ثبت المارك أخيرا عرض أصحاب الأعمال حدودا بخسة للأجور رفضتها النقابات فأخذ أصحاب الأعمال في تكوين نقابات صورية . وكان هذا خرقا صريحا لاحتداد بنود اتفاقية نوفمبر بحيث أعلنت النقابات في يناير سنة ١٩٢٤ انسحابها منها .

وكان يمكن أن يكسب هذا الانسحاب النقابات حرية العمل ، ولكن النقابات كانت قد فقدت الكثير من قوتها وحماستها ، ثم جاء التضخم فأودى بكل سياستها ، فلم تغد شيئا من حرية العمل ، وواصل الرأسماليون انتصاراتهم فصدر مرسوم في ٢١ ديسمبر ٢٣ يعطى أصحاب الأعمال إعفاءات عديدة من يوم عمل الثمان ساعات ، كما أزيلت كل القيود على حرية أصحاب الأعمال في فصل العمال أو اغلاق المنشآت . وهبطت هبوطا كبيرا مستويات الأجور .

كان السبب الرئيسى فى وهن النقابات هو سياستها الضيقة وأفقها المحدود الذى جعلها لا تعمل إلا للحاضر ، ولا تنظر إلا للمصالح المباشرة . وكان يمكن لهذه السياسة — على خطتها — أن تستمر ما ظلت الأمور تسيرا عاديا ، وان لم تكن هذه السياسة نفسها لتساعد على سير الأمور ميرا عاديا حتى فى الدول الأخرى التى لم تكن تتعرض لظروف استثنائية مثل المانيا فما بالك بألمانيا .. .

وعندما ظهر التضخم ، كشف عن هذا النقص ، ووضع النقابات فى مأزق ، فلم يكن ثمة مخرج من هذا المشكل القومى إلا بالمعالجة على المستوى القومى وليس على المستوى المهنى ، بمعنى معالجته باعتباره مشكلة اقتصادية تعود إلى النظام ويعانى منها كل الشعب وليست مشكلة مهنية تعنى العمال فحسب . ولكن هذا المنهج كان غريبا على الحركة النقابية الألمانية المتأثرة بتقاليدها الفنية .

وحقا إن النقابات أساسا هيئات مهنية . وان وسائلها المقررة وسائل مهنية وفنية ، ولكن هذا لا يعنى ابدا انزال النقابات عن مجرى الأحداث وتجاهلها للمتطلبات المتغيرة خاصة عندما تبلغ النقابات حجما معيناً يمكنها من التأثير على مجرى الأحداث وكما أن الانغماس فى العمل السياسى أو التبعية التامة لحزب أمر يخالف طبيعة العمل والتكوين النقابى فإن ملاحظة المرونة والتكيف مع الأوضاع وانتهاج الوسائل التى تتطابق مع المشكلات أمر لا يمكن لأى حركة نقابية حيه وواعيه ان تتجاهله . وقد كان يجب على الحركة النقابية عندما كان الجو مواتيا للعمل القومى - السياسى ، بل عندما كان - يتطلبه - أن تنوم به وتكون على مستواه . وقد تهيأت لها الفرص غداة نجاحها فى دحر قومه كاب ، وعندما أخذت الاضراب العمال ضد سياسة كنو شكل الاضراب العام الناجح الذى أدى إلى سقوط الوزارة ، وليس هاتان إلا فرصتين من فرص عديدة منحت للنقابات منذ أن بدأت الثورة - ولكن النقابات لم تنتمز هذه الفرص

وتركتها تغلت من يدها فسارت من ضعف إلى ضعف . ومن تحلل إلى تحال .  
وقد مدت شيئاً فشيئاً ثقة العمال ، فكان عجز النقابات يشبه تماماً عجز الحزب  
الاشتراكي الديمقراطي الذي كان دائماً يؤثر السلامه ، ويعزف عن الدخول في  
تجربه ومعركة ، حتى وان تطلبت الاوضاع ذلك .

والواقع أن جزءاً كبيراً من عجز كل من النقابات والحزب يعود إلى انفراد  
كل منهما بالعمل ، فقد افقدهما الانفراد العمل النقابي أى مضمون سياسى ،  
كما أفقد الحزب القاعدته الجماهيريه والعماليه العريضه . وفى تلك الفترة التى كانت  
المانيا تجنازها فإن هذا الانفراد مرفوض شكلاً وموضوعاً - وقد تنبأت روزا  
لوكسمبرج إلى عقم هذا الوضع . ولما لم تسكن ترى - كما كان يرى لينين -  
استلحاق النقابات بالحزب . فإن الفكرة التى عرضتها فى رسالتها « الاضراب  
الجماهيرى . الحزب السياسى . والنقابات » كانت جديده بالنظر ، حتى وان لم  
يؤخذ بها حرفياً بالنسبة لأنها عاجلت المشكله من منظور ماركسى فى هذه الرسالة  
كتبت روزا .

« وحقيقة الحال أن الفصل بين الكفاح السياسى والكفاح الاقتصادى  
واستقلال كل منهما عن الآخر ليس إلا ثمرة مصطنعه للفترة البرلمانية التى قد يوجد بها  
التاريخ . وفى الجرى السلمى والعادى للمجتمع البورجوازى ينشطر الكفاح  
الاقتصادى إلى حشد من الكفاحات الفردية فى كل منشأ . ويتخلل فى  
كل فرع من فروع الإنتاج ، بينما لا تقوم الجماهير بنفسها بتوجيه الكفاح  
السياسى بصورة مباشرة . ولكن بصورة غير مباشرة . بصورة تمثيلية عبر  
الهيئة التشريعية . ولكن ما أن تبدأ فترة الكفاحات الثورية ، أى ما أن  
تظهر الجماهير على مسرح الصراع حتى تنتهى تجزئة الكفاح الاقتصادى على  
أجزاء متعددة . وتنتهى كذلك طريقة الكفاح البرلمانى غير المباشر . ففى  
العمل الثورى الجماهيرى يصبح الصراع الاقتصادى والسياسى واحداً ، وتسكنسح



الحدود المصطنعة ما بين النقابية والديمقراطية الاشتراكية التي تجعل لكل واحدة منها صورة مستقلة تماما، ولكن حتى في المرحلة البرلمانية، يمكن أن توجد ترجمة صلبة للحركة الثورية الجماهيرية بقدر ما تسمح الظروف القائمة، فلا يكون هناك كفاحان طبقيان مختلفان للطبقة العاملة كفاح اقتصادي وكفاح سياسي. ولكن يكون هناك كفاح طبقي واحد يستهدف، في وقت واحد، تضيق مدى الاستغلال الرأسمالي في إطار المجتمع البورجوازي جنبا إلى جنب نحو المجتمع البورجوازي نفسه.

وعندما ينفصل هذان الجانبان للكفاح الطبقي أحدهما عن الآخر لأسباب فنية في الفترة البرلمانية، فأنهما لا يكونان عمليين متوازيين، ولكن مرحلتين أو درجتين لتحرير الطبقة العاملة، إن الكفاح النقابي يضم المصالح العاجلة للحركة العمالية، بينما تعالج الاشتراكية المصالح المستقبلية لها. والشيوعيون — كما يقول البيان الشيوعي — يمثلون في مواجهة مصالح المجموعات المتميز المصالح المشتركة للطبقة العاملة ككل في مختلف مراحل تطور الكفاح الطبقي. لأنهم يمثلون مصالح الطبقة بأسرها. أعنى الهدف النهائي: تحرير البلورياتاري. إن النقابات لا تمثل إلا مجموعة مصالح، وإلا مرحلة واحدة من تطور الحركة العمالية بينما تمثل الاشتراكية قضية التحرير ككل. ومن هنا فإن علاقة النقابات بالاشتراكية الديمقراطية هي علاقة الجزء من الكل. وعندما نجد نظرية السلطة المتساوية قبولا بين القيادات النقابية — فإن هذا يقوم على سوء فهم جوهر النقابية نفسها ودورها في الكفاح لتحرير الطبقة العاملة.

ومع هذا فإن نظرية العمل المتوازي للاشتراكية الديمقراطية والنقابات والسلطة المتساوية لكل منها ليست دون أساس. ولكن لها جذورها التاريخية، أنها تقوم على وهم المرحلة السلمية والعادية للمجتمع البورجوازي التي يبدو فيها الكفاح السياسي للاشتراكية الديمقراطية وكأنه يستند في

الكفاح البرلماني . الذي يقابل الكفاح النقابي ، والذي هو بحكم طبيعته عمل اصلاحي سياسي ، كما أن عمل النقابات عمل اصلاحي اقتصادي . وهو يمثل العمل السياسي للحاضر . كما تمثل النقابات العمل الاقتصادي للحاضر . وهما هما مرحلة ودرجة في العملية الكاملة لكفاح البروليتاريا الذي يستهدف بصورة نهائية ، ما يجاوز الكفاح البرلماني وما يجاوز الكفاح النقابي . ومن هنا ، فإن الكفاح البرلماني للاشتراكية الديمقراطية هو أيضاً جزء من كل ، وككفاح النقابات تماماً ، والاشتراكية الديمقراطية اليوم تضم الكفاح البرلماني والنقابي في كفاح طبق واحد يستهدف القضاء على نظام المجتمع البورجوازي .

إن نظرية « السلطات المتساوية » للنقابات والاشتراكية الديمقراطية ليست كذلك مجرد سوء فهم نظري ، ولا هي حالة من حالات الخلط ، ولكنها تعبير عن نزعة معروفة جيداً للجناح الانتهازي من الاشتراكية الديمقراطية الذي ينحط بالكفاح السياسي للطبقة العاملة إلى درك المناقشة البرلمانية ويريد تحويل الاشتراكية الديمقراطية من حزب بروليتاري ثوري إلى حزب من الاحزاب الاصلحية للبورجوازية الصغيرة . وإذا تقبلت الاشتراكية الديمقراطية مبدأ « السلطة المتساوية » للنقابات فإنها تتقبل — بصورة مضمره وغير مباشرة — هذا التحويل الذي عمل له طويلاً ممثلو النزعة الانتهازية .

إن التخصيص الفنى للقيادات النقابية ، والافق الضيق بطبيعته لذي يلتصق بالمنازعات المفككة يؤديان إلى تطرق البيروقراطية وضيق الافق إلى القيادات النقابية . ويظهر ذلك في سلسلة من الاتجاهات يمكن أن تكون وخيمة العاقبة على مستقبل الحركة النقابية . فهناك أولاً التقييم المبالغ فيه للتنظيم الذي تحول بالتدريج من وسيلة إلى غاية في حد ذاته . ويمكن أن تصبح مقتضيات الكفاح ثانوية بالنسبة له ، ومنها أيضاً ينبع ذلك الجنوح إلى السلام والعزوف عن

المخاطر والميل إلى الاستقرار . . وكذلك المبالغة في تقدير الوسيلة النقابية في الكفاح واحتمالاتها وإنجازاتها . والقادة النقابيون مستنفدون باستمرار في حرب المعصبات الاقتصادية التي يكون هدفها المنشود جعل العمال يمنحون قيمة كبيرة للإنجازات الضئيلة . فكل زيادة في الأجر أو تقصير في العمل يؤدي بالتدريج إلى فقد القوة على رؤية العلاقات الأكبر أو استطلاع الوضع كله ، وهذا هو الذي جعل عدداً كبيراً من القيادات النقابية يشيرون في رضا إلى إنجازات الخمسة عشر عاماً<sup>(١)</sup> الأخيرة ، بدلا من أن يبرزوا الوجه الآخر للمدالية ، أي الانحطاط الكبير في مستوى معيشة البلوريين نتيجة لاستغلال ملاك الأراضي ونظام الضرائب والجمارك وارتفاع الإيجارات وغير ذلك من ثمرات السياسة البورجوازية التي التهمت ثمرة الخمسة عشر عاماً من الكفاح النقابي .

إن ذكر الحقيقة الكاملة وإن أقتضى الاعتراف بأهمية وضرورة العمل الحالى فإنه يتطلب مقاومة التماؤل النقابى الذى يجعل النقابيين يعتقدون أن من الممكن الوصول إلى درجة لاحد لها من التقدم بفضل العمل النقابى داخل النظام الرأسمالى ، وهى النظرية التى يروج لها البروفيسور سومبارت بفسكرة وضع إسفين ما بين النقابات والاشتراكية الديمقراطية . وإغواء النقابات بالوضع البورجوازى .

## الفصل السابع عشر

### من الانهيار إلى الازدهار

ما حدث في ألمانيا سنوات التضخم شيء لم يحدث مثله في أى دولة أخرى من قبل ، ويغلب أن لا يحدث شيء مثله من بعد ، فمع أن التضخم عرض مألوف من أعراض الاقتصاد الرأسمالى ، فلم يسبق أبدا أن حدث ، أو كشف عن المفارقات المذهلة التى تصطبج به ، كما حدث ، أو كشف ، فى ألمانيا ..

فعندما اضطرت ألمانيا إلى قبول معاهدة فرساي حرصا على وحدة الريخ ، وتجنبنا لهزيمة ثانية كان عليها أن تجابه الإلزامات المديدة التى رضخت لها ، وكان بعضها قد نفذ بالفعل ووضع الحلفاء أيديهم على المصانع والسفن والقاطرات ، كما بتروا من الوطن الألمانى بعض المناطق الغنية بالفحم والمعادن ، وتأخرت عمالية التعويضات شيئا ما لأن الحلفاء ارادوا أن يحملوا ألمانيا بكل تكاليف الحرب « بما فى ذلك معاشات القتلى وتعويضات الجرحى » وإذا علمنا أن بريطانيا قد أنفقت خلال سنوات الحرب ما يعادل ما أنفقته خلال قرنين ونصف . أدركنا فداحة ما كان على ألمانيا أن تدفعه لبريطانيا وقس على ذلك أيضاً فرنسا التى كانت سخيبتها على ألمانيا تفوق نعمة بريطانيا ولما كان الحقد — وليس العقل — هو الذى يلى فاتورة الحساب فقد رفض الحلفاء كل الدفوع التى ذكرت عن عقم هذا الإجراء ، وكان من سوء حظ ألمانيا أن نفقت أمريكا يدها من كل ما يتعلق بذلك بعد أن رفض الكونجرس الأمريكى الموافقة على فرساي ،

إذ كان ينتظر أن يرأس أمريكى لجنة التعويضات ، وأن يستطيع إهو والعضو البريطانى والعضو الإيطالى السيطرة على غلواء العضوين الفرنسى والبلجيكى . ولكن انسحاب الولايات المتحدة جعل فرنسا سيدة الموقف .

وبعد مرحلة طويلة من المكاس والأخذوالرد انتهى الحلفاء إلى تحديد مبلغ رأته باريس أقل مما يجب ، ورآه العالم افدح مما يجب . وحددت مواعيد الدفع تبدأ من سنة ١٩٢١ وتنتهى سنة ١٩٦٢ ، ويكون على ألمانيا أن تدفع كل سنة خلال هذه المدة مبلغا يتفاوت ما بين ٢ مليار مارك ذهبي ( سنة ١٩٢١ ) و ٦ مليار مارك ذهبي ( سنة ١٩٦٢ ) وعندما قدمت « الفاتورة » ، كانت نسبة المارك الورقى إلى المارك الذهبى هى نسبة ١٥ إلى ١ ، أى أن كل خمسة عشر مارك ورقى كانت تعادل ماركا ذهبيا .

ولو كان لدى الحلفاء وقتئذ مسكة من العقل لأدركوا جنون ما أمضوا فى تدبيجه الأسابيع الطوال .. لأن التعويضات المطلوبة كانت تعنى أن تصدر ألمانيا مايزيد على ما تصدره بريطانيا وأمريكا ، فلو فرضنا جدلا وحةقت ألمانيا هذه المعجزة الخارقة لتقضى ذلك على صادرات أمريكا .. وبريطانيا ، ولأوقع بهما مشكلات اقتصادية ومالية لاحد لها ٠٠ كما كان على الحلفاء أن يعلموا أنهم مفتاح لا يملكون الغيب ولا يستطيعون مصادرة مقادره والتحكم فى مصيره حتى يفرضوا على أمه كبيرة ومتقدمة إرادتهم الفاشحة لمدة أربعين سنة قادمة .

وعندما جوبه الألمان سنة ١٩٢٠ بالتقدير الأول للجنة التعويضات سنة ١٩٢٠ وكان يقضى أن تدفع ألمانيا ٢٦٩٠٠٠ مليون مارك ذهبي . أحتجوا وأوضحوا استحالة ذلك وتمكنوا فى السنة التالية ( ١٩٢١ ) من تخفيض المبلغ إلى ١٣٢٠٠٠ مليون . قدر مادفع منها بالفعل بثمانية بلايين . وفى أواخر ابريل طالب الحلفاء بالدفع ودفعت ألمانيا بليوننا ذهبيا آخر . وكان هذا مع كل آثار

الحرب من اقتطاع الالزاس والورين وحرمان ألمانيا من مناجم السار ، وما أحدثته الحرب من دمار وتخريب وما استولى عليه الحلفاء من عتاد وآلات. بداية لظهور أولى عوارض التضخم ، ففي يناير سنة ١٩٢١ كانت نسبة الدولار إلى المارك ١ إلى ٤٥ وفي الربيع والصيف أصبحت ١ إلى ٦٠ ولكنها في سبتمبر أصبحت ١ إلى ١٠٠ وفي آخر العام ١ إلى ١٦٠ وكانت هذه صورة حادة للتضخم الكلاسيكي في الرأسمالية .

ولكن الأمور ساءت ٠٠ وازدادت سوءا ، ولم تستطع ألمانيا دفع القسط الثاني ، وطلبت التأجيل ووافقت بريطانيا ، ولكن فرنسا ، التي كان على رأسها وقتئذ بوانسكاريه - عدو ألمانيا اللدود - رفض - وفي أوائل عام ١٩٢٣ أرسلت فرنسا قواتها ( وكان بعضها من الفرق الأفريقية ) لتحتل منطقة الرور الغنية بالفحم ، وأخذت تحاول استغلال المنطقة وأدى توقف توفر الفحم إلى توقف المصانع ، وزيادة البطالة وبالتالي انطلاق دوامة التضخم ٠٠٠

وأخيرا انفجر الخزان وتهاوى السد وأخذت العملة تتدافع كشلال داو وفي أكتوبر ١٩٢٣ لم يعد يكفي مليون مارك ، ولا بلليون ولكن تريليونا لشراء رغيف خبز ، وفي نوفمبر أصبح ثمن كيلو خبز يعادل ٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ مارك .

فهل يمكن للإنسان أن يقدر شيئا كهذا ٠٠ شيئا يحيل مدخرات رجل غني طوال أربعين عاما إلى ملايين ، ويجعل من « جرسون » أمريكي مليونيرا لأنه يملك بضعة دولارات ٠٠ ويدفع الناس لأن يتمسكوا بأى شيء إلا النقود ٠٠ التي كانت تفقد قيمتها مع كل لحظة .

كيف تكون الحياة تجاه هذا الزلزال الرهيب ٠٠ أو الشلال الداوي الذي

أودى بالمعيار الأساسى الذى يعيش عليه المجتمع اليرجوازى ؟ وصف ستيفان زفايج هذه الحقبة فى النساء والمانيا .

« ٠٠ إن أغرب شيء هو اننى لا استطيع أن اتذكر - مهما حاولت - كيف استطعنا أن نحافظ على إدارة البيت ؟ وبأى طريقة استطاع النساء أن يواصلوا إصدار الالوف ومئات الالوف من « الكرونتن » واستطاع الألمان أن يواصلوا إصدار الملايين اللازمة من المارك كل يوم للبقاء على الرمح ؟ مهما كانت الغرابة فإنهم استطاعوا ذلك فقد تكيفت العادات . وقد يتصور البعض أنه فى الوقت الذى بلغ ثمن البيضه رقما يفوق ثمن كافة العقارات الألمانية أن النساء لا بد وأن يجرين فى الشوارع كالجئونات وأن الحال قد أغلقت أبوابها وأن المسارح أصبحت قاعا صفصفا، ولكن الحقيقة غير ذلك ، إن إرادة الحياة كانت أعظم ، وظل الخبازون يخبزون والحنائون يصنعون الأحذية والمؤلفون يضعون الروايات والمسارح تمتلأ بالمشاهدين » .

بل لقد كشف زفايج عن آثار أخرى غير متصوره للتضخم : إن سقوط قيمة النقود أعلى من قيمة العواطف . وأنه لا يذكّر أنه عمل بحماسة ونشاط كما عمل تلك الفترة .

ويشارك كل الذين كتبوا عن تلك الفترة أنهم — بعد أن فترت شئرتها وحدثها لا يذكرون كيف استطاعوا البقاء والتصرف « إننى لم أستطع أبدا أن أفهم كيف أمكن للفرد العادى أن يكون أى فكرة عن هذه الأرقام المذهلة . لقد كانت العملة لا تسكد تصل إلى يد أى واحد حتى لا يستقر أو يرتاح حتى ينفقها . فالعمله الآن أفضل منها غدا . . وكان العامل يشتري حاجاته بمجرد تسلمه لمرتبه من أقرب محل للمصنع . . فلو أنه انتظر حتى العودة وترك لزوجته مهمة التسويق لفقدت النقود معظم قيمتها .

وفي آخر أكتوبر كانت تكلفة المعيشة في فرانكفورت كالآتي:

٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ ٣٤٠ ١٤٥٨٠ مارك في السنة بدون ملابس .

٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ ٣٦٩ ٩٣٦ ١٧٠٥٠٠ مارك في السنة بدون ملابس هذه هي الأرقام الفلكية التي كان على الشعب أن يحسبها وعند هذه النقطة كان الحساب يقف والفكر يتجمد... « هكذا كتبت توفى ساندرو التي كانت عضوا الرشتاج هذه الحقة .

ورغم أن إرادة الحياة كانت أغلب من التضخم ، فقد كان للتضخم آثار بعيدة المدى على الحياة ، فقد حطم تحطيا النظام المألوف ، بل قل العمود الفقري للمجتمع البرجوازي ، وابتلع بمثل قوة الزلزال القيم والتقاليد والأوضاع الموروثة وتحللت العلاقات الإنسانية وأصبحت الحياة مزيجا غير مفهوم من الأرقام . وعندما كشف زفايج عن أن سقوط قيمة العملة أعلى من قيمة العواطف فإنه كان يصور هذا الأثر بالنسبة لرجل الفكر .. أما الفرد البرجوازي العادي فقد انحط معنى العاطفة إلى « الغريزة » فاكتسحت برلين ومعظم مناطق ألمانيا ، موجه من التحلل الجنسي والردية بصورة تكاد تعادل التضخم ، وتحدث زفايج عما كان يحدث في برلين فترة التضخم .

« كان الأطفال الذين صنعت لهم خطوط ومط وزينة نسائية يتبخثرون عبر « كورفو مستندام » وكان كل تلميذ يريد أن يريح شيتا من المال ، وفي البارات المعتمه كان يمكن رؤية كبار الموظفين والماليين يغازلون البحارة السكارى دون حياء . ولم تعرف روما حتى في متينوس Suetonius مثل مبازل برلين حيث كان الرجال يلبسون ملابس النساء والفساء يلبسن ملابس الرجال ويرقصون تحت أعين البوليس الحانية ، وكانت الشابات تفخرن بأنهن منحرفات واعتبر هارا في كل مدارس برلين أن يظن بالواحدة أنها عذراء في سن السادسة عشر »

وصور كلوزمان الجنون الجنسي الذي اكتسح برلين ودفع بالجميع إلى



ممارسه حميا الجنس « الأطفال مع البنات والأطفال مع الأطفال ، والبنات مع البنات ، والرجال مع الأطفال والبنات والنساء مع الأولاد أو الحيوانات الاليفة » .

لقد اكتسح الأعصار الملايين ودفعهم إلى ذهول المهستيريا والجونج . وأصبح الرقص نوعا من الهوس .. كل شيء يرقص ، رقص البأساء والشيزوفرونيا ورقص الشبق والرقص بأقنعه زنجيه وخوذات جوتييه .

أصبحت برلين تتحدى « أنظر إلى أننى بابل وحش المدائن اننى سدم وعمورة على الطريقة البروسية .. اننى ميرك الرذائل والانحراف » .

وانتشرت البارات وبؤر الفساد وأما كن التلاقى واندية القمار وفتح كبار للموظفين بيوتهم وأجرت أرامل الجنرالات غرف نومهم بالساعة وكانت كل هذه الأما كن تزدهم لأن برلين لم تكن لتنام . ان التوتر كان يطرد الاعياء والخوف . أما البنغايا فكان من كل نوع من فتيات فى السادسة إلى عجائز فى الستين . منهم المنكسرات ومنهن الامازونات المفترسات « حدثت فى احدهن وقالت أريد ان تكون عبيدى .. لن يكلفك هذا سوى ستة بلايين وسيجارة .. انها صفقة ... »

هذه نماذج من كتابات هذه الحقبة ، فهل حقا أن هذا الهوس قد جعل للشعب الألماني ينغمس فى مباءة قومية ؟ أو أنها مبالغات كتاب .. أو وصف لبعض القطاعات والفئات دون الأخرى ، وبعد فإن برلين ليست كل ألمانيا بل ان الميادين والأحياء التى تكرر ذكرها ليست هى كل برلين ولعل السؤال الجدير بالنظر هو هل استنفدت هذه المباءة النشاط الاجتماعى والسياسى للعاصمة خلال سنتى التضخم بحيث حال ذلك دون أن يحدث التضخم ما أحدثته لازمه لملئ جاءت بعده وكانت أقل حدة ولكنها حملت هتلر إلى الحكم؟؟

على كل حال انحصرت موجه الانحراف الجنسي بالسرعة التي انتشرت بها .  
وفي عام ١٩٢٥ أصبحت « مودة » قديمة وأصبح اغراء الرقص العارى لا يجذب  
أحدا « اينتا بربر » . لقد رأيتها منذ عهد طويل . . منذ سنتين . إن الرذيلة  
لم تعد « شيك » وأصبحت المودة هي الواقعية « وانحصرت بقايا ذلك الوباء  
القومى فى جيوب محدودة واصلت البقاء بعد انقشاع التضخم فى صورة بيوت  
التدليك التى تحدث عنها دوجلاس ريد فى كتابه Insanity Fair وكانت  
محلا لختلف أنواع الشذوذ الجنسي .

وكيف حدث هذا ؟ حدث لأن الازمة بلغت الغاية والنهاية ، كانت كحريق  
هائل ا كتسح كل ما حوله حتى انتهى إلى الغضاء أو البحر فلم يجد ما يحرقه  
وخذ من تلقاء نفسه ، أو أنها بلغت القاع الذى لا قاع تحته وبقدر ما كانت تصل  
إلى النهاية كانت تفسح المجال لبداية الانقاذ .

وكانت الوزارة التى اعتبرت مسئولة أكثر من غيرها عن التضخم هى  
وزارة كونو التى كانت تمثل رجال الصناعة والرأسماليين . وكان رجال الصناعة  
قد عارضوا على لسان ستينس محاولات التثبيت على أساس أنه سيوهن قدرة  
ألمانيا على التصدير ، دون أن يلحظوا بالطبع أنه حتى لو كان هذا صحيحا فإنه  
سيحدث على حساب فاقة العمال وبخس أجورهم وكشفوا عن زيف وطنيتهم  
باتصالهم مع الفرنسيين وضيقهم بالبقية الباقية من آثار الاشتراكية بحيث  
عرضوا على الحكومة ضمانا بخمسمائة مليون مارك ذهبي مقابل عدم التدخل  
فى ظروف الصناعة وجعل الصناعات المؤممة صناعة خاصة . ومن هنا انصبت  
على وزارة كونو نقمة الجماهير وادى الاضراب العام التلقائى إلى سقوط  
الوزارة وكلف ايبرت سترسمان بتشكيل الوزارة وأخذ سترسمان يعمل جاهدا  
لوقف التضخم بمساعدة ساحر المالىه « شاخنت » بحيث بدأت موجه التضخم .

توقف شيئاً فشيئاً وإن لم يعالج الموقف إلا بفضل مشروع داوز . فقد اقنع سترسمان الأمريكيين بالتدخل . وكان هؤلاء مصلحة مباشرة لأن دائني ألمانيا كانوا مدينين أمريكا . وسيؤثر عجز ألمانيا عن سداد ديونها لدائنيها على مقدرة هؤلاء على سداد ديون أمريكا وبهذه الطريقة وضع السكولونيل داوز الذي كان يرأس لجنة التعويضات مشروعا جديدا يقضى بتخفيف الأقساط واعطاء ألمانيا قرضا يمكنها من إصدار عملة جديدة على أساس معيار الذهب . واخلاء منطقة الرور وفي الوقت نفسه ترك المارك في الدرك الذي انحط إليه . واوجدت عملة جديدة هي « الرنتمارك » بضمان أصول ثابتة . وقبلت الحكومة الألمانية المشروع بعد معارضة عنيفة لأن المشروع كان يجعل للدول الدائنة نوا من الإشراف على إدارة بعض الموارد المالية ضمانا للقروض . وبدأت الجيوش الفرنسية تنسحب من الرور . وعندما تحسنت الأحوال اعادت الحكومة الرينمارك على أساس معيار الذهب .

وكانت الشخصية التي هيمنت على الأفق السياسي خلال هذه الفترة بل وما بعدها هي شخصية جوستاف سترسمان، وما من دليل على أن الكفاءة تفرض نفسها على الأصدقاء والاعضاء وتنحصر على الميول والتجهيزات من أن الوزارات ليست التي توالى من ٢٣ إلى ٢٩ لم تستطع أن تستغنى عنه كوزير خارجيه . وكان سترسمان « بروسيا » ومن غلاة الوطنيين في الأيام القديمة ، وارتبط أيام الحرب بلودندورف وطالب بالحق البلجيكي . وعندما سئل ماذا يترك للحلفاء استشهد بالكلمة الماثورة « اترك لهم عيونهم ليبكوا بها » .

ولكن سترسمان كان ذكيا شجاعا ، فامتناع أن يكيف سياسته طبقا لما تتطلبه الأوضاع الجديدة بعد الهزيمة ، وبعدم فرساي كون حزب الشعب . وعندما تخرجت الأمور ونفشت التضخم وتوقفت الحياة في الرور تصدى

سترسمان بشجاعة وبصيره لهذه الكوارث المتتالية وأثبت أنه كفء لها . وكان الخط الرئيسى فى سياسته هو كسب ثقة الحلفاء حتى تستطيع ألمانيا الوقوف على قدميها . ولو كان سترسمان أقل شجاعة لرأى فى مصرع ارزبرجر وراثينو نذيرا يثبطه . ولكنه كان وطنيا شجاعا فأقدم على هذه السياسة التى كان أعداؤه فيها هم الذين أراد لهم المصلحة . . أعنى الوطنيين الألمان . وتكن عبقريته فى أنه استطاع أن يستخدم أسلوبا دبلوماسيا لتحقيق أغراض امبريالية ، وأن يتبين أن هذا ممكن فى المدى البعيد . وبفضل التقدم خطوة فخطوة ، وأن يحكم هذا كله إحكاما ممكنه من أن يخدر الحلفاء وجعلهم يبتلعون دعايته بشراهه « ويطلبون المزيد » على حد تعبير سياسى بريطانى لأن سترسمان كان يشكرهم على حسن تقديرهم وتجاوبهم وبذلك يرضى غرورهم ويستل سخيمتهم ويضعف مقاومتهم وكان الشيء الوحيد الذى أنقذ الحلفاء من أن تستمر هذه اللعبة هو موت سترسمان نفسه سنة ١٩٢٩ ، إذ ايقظت جمجمة هتلر الحلفاء من دغدغة سترسمان ، وبذلك انقذتهم فى الساعة الأخيرة ، والحقيقة أن سترسمان قد مهد لهتلر ، كما مهد بسمارك لولهم ، ولكن هتلر هدم بفضائله مابناه سترسمان بكياسته كما هدم ولهم بخيالاته مابناه بسمارك بدهائه .

واستطاع سترسمان أن يقنع مختلف الدول أن فرنسا تريد أن تعاقب ألمانيا على الأخطاء الثلاثة التى أهدرت نابليون بارتسكاجها « أن تركت بروسيا تقوى ، وأبقيت على بولندا ضعيفه ، وأسأت فهم روسيا<sup>(١)</sup> » فبى تحاول الآن أن تضعف بروسيا وأن تقوى بولندا وأن تناصر دنكن وبرانجل وغيرهما ، وهى سياسة خاطئة لأن ألمانيا لا تتدخل عن بروسيا بل تتمسك بها ، ولأن بولندا سنظل ضعيفه بحكم هوامل القلق الكامنة فيها ، ولأن مناصرة

(1) The Hope of Europe py Philip Gibbs p. 199.

جنرالات الجيش القيصرى اساءة في فهم روسيا أكثر من اساءة نابليون فهمها .  
وفي الوقت نفسه كان سترسمان يقنع فرنسا بحسن نية ألمانيا وإيمانها بالسلام  
واستعدادها لدفع كل التزاماتها بقدر ما تمنح من فرص لإثبات ذلك . وكان  
من حسن حظه أن سقط بوانسكاريه وأن جاء بريان « المتفهم الذى رأى بعينه  
أن سياسة القوة والحقد والأرهاب واحتلال الرور لم تجد . وبذلك استطاع أن  
يوقع حلف لوكارنو الذى كان نقطة تحول من سياسة امتصاص ألمانيا وحربها  
إلى سياسة التسوية والمهادنة . وفي ٧ سبتمبر سنة ٢٥ عشية انتهاء مفاوضات  
لوكارنو كتب سترسمان إلى ولي العهد الامبراطورى الذى كان يعيش وقتئذ  
كمواطن عادى . ذاكرا أن المهام الرئيسية الثلاث أمام المستقبل الألماني هي :  
(١) تسوية موضوع التعويضات وتأكيده السلام الذى هو الشرط الأول  
لاستعادة ألمانيا لقوتها .

(ب) حماية الاثنى عشر مليوناً من الألمان الذين يعيشون في أرض أجنبية  
من النير الأجنبي ( وكان يقصد بذلك الألمان في تشيكوسلوفاكيا والنمسا ) .  
(ج) إعادة النظر في الحدود الشرقية الألمانية . بما يحقق استعادة دانزج  
والمر البولندى .

وكما لاحظ سير جيو فرى نو كس في كتابه « السلام الأخير والمقبل » فإن  
هذا البرنامج لم يكن ليختلف عن برنامج هتلر عندما بدأ حكمه وختم سترسمان  
خطابه بأنه يأمل أن يرى الأمير قراره في ضوء التقدير السليم الجدير به  
« ولكن إذا كان سموكم الامبراطورى يمنحني الفرصة لحديث هادئ فإنني  
سأكون تحت تصرفكم » وكما هو واضح فإن سترسمان يخاطب ابن القيصر  
المخلوع « كما لو كان ولي العهد » وكما لو لم يكن هناك جمهورية على الاطلاق .  
ووراء سترسمان كان شبح « ستينس » الهائل يقف ، وكان ستينس وقتئذ

يمثل الاقتصاد الألماني ، ووصلت شخصيته من القوة والامتداد درجة جعلت بعض الكتاب يطلقون على سترسمان « الممثل السياسي لهوجو ستينس » . وكان هوجو ستينس قد ورث عن والده من الأراضي والمناجم والمصانع ما قدرت قيمته بسبعة ملايين جنيه استرليني وليس معنى هذا أنه كان منعماً ، فقد عمل جرافاً داخل المناجم وعلى أرصفة السفن وكانت فلسفته هي فلسفة الرأسماليين البريطانيين في منتصف القرن الثامن عشر ، وقبيل التضخم أصبح ستينس مالسكلاً لامبراطورية صغيرة تضم كل شيء . صحف . فحم . صلب . موصلات . الخ يعمل فيها ٢٥٠ ألف عامل ويبلغ رأسمالها ١٢ مليون مارك . ولم يكن ستينس هو الوحيد — لقد كان هناك أوجست تيسن أحد أعمدة صناعة الفحم والحديد . والذي كان يعمل في مصانعه قرابة ١٢٥ ألف عامل منهم ٦٥ ألف في ملهم . وكان كلوكنر Kloeckner يأتي بعد بتسن مباشرة . أما كروب ومصانعه التي زودت ألمانيا طوال الحرب بأكبر مدافع عرقها الجيوش حق ذلك الوقت ، فقد واءمت بسرعة ما بين إنتاجها والظروف الجديدة . وأصبحت تنتج كل صور الصناعات المعدنية من سكك حديدية أو آلات زراعية . الخ .

ومع أن تثبيت المارك قد أودى ببعض هؤلاء مثل ستينس الذي توسع فترة التضخم توسعاً انعكس عليه فترة التثبيت ، فإن الصناعة الألمانية بدأت تنعش بفضل القروض التي انتهالت على ألمانيا وأخذت هذه القروض تتمشى في الصناعة كما يتمشى الدم في الجسد . . بحيث طوت بسرعة صفحة البأساء . وفتحت مع بداية ١٩٢٥ . العشرينات الذهبية The Golden Twenties .

\* \* \*

ولكن في هذه الفترة — فبراير ١٩٢٥ — توفي رئيس الجمهورية فردريك ايبرت وبرزت مشكلة انتخاب خلف له . .

وتقدمت الأحزاب المختلفة بسبعة مرشحين . فرشحت كتلة المحافظين (حزب الشعب الألماني والحزب الوطني الألماني) الدكتور جارس Garres الذي نال ١٠٧ مليون صوتا ورشح الاشتراكيون الديمقراطيون اوتو براون Otto Braun وهو رئيس وزراء بروسيا ونال ٧٨ مليون صوتا . ورشح حزب الوسط ويلهم ماركس وحصل على ٤ مليون صوتا ورشح الحزب الشيوعي تالمان وحصل على مليونين من الاصوات . كما حصل مرشح الديمقراطيون على مليون صوت وحصل مرشح حزب الشعب البافاري على نصف مليون صوت . أما الجنرال لودندورف الذي رشحه النازي فلم ينل سوى ربع مليون صوت .

ولما لم ينل أى واحد من هؤلاء الأغلبية المطلقة ، فقد كان يجب بحكم الدستور اجراء انتخاب ثاى بين أكبر فائزين ، وأصبح من الواضح أنه لو تكتلت الأحزاب الاشتراكية وكونت جبهة ديمقراطية لكان هناك احتمال أمامها بالفوز بالأصوات المطلوبة للأغلبية .

ولكن الذى حدث كان غير ذلك .

فقد خشى الاشتراكيون الديمقراطيون أن يعجزوا عن كسب مزيد من الأصوات البورجوازية لمرشح اشتراكي وبذلك يساعدون خصمهم المحافظ فسحبوا مرشحهم وايدوا الدكتور ويلهم ماركس مرشح حزب الوسط الكاثوليكي والذي لم يكن قد نال سوى نصف عدد أصوات مرشحهم ومن هنا فقد كان هذا التصرف من الناحية الحسابية الخسرة مثيرا للدهشة وأهم من ذلك أن ماركس كان مكروها من العمال والأحرار ، وله سجل موغل في الرجعية . وكان تأييده يعنى بالتأكييد فقد أصوات جميع اليساريين والراييكاليين .

وفي الوقت نفسه غيرت كتلة المحافظين مرشحها ، فوضعت محل الدكتور

جارس الماريشال هندنبرج وأدارت حملة من الدعاية الانتخابية بعثت فيها كل الذكريات العسكرية المجيدة للمارشال ووصفته بأنه « المخلص » لألمانيا، بينما لم تكن صحف الحزب الاشتراكي الديمقراطي تستطيع أن تسبغ على مرشحها إلا أنه « أقل الضرين » .

وأُسفرت الانتخابات عن النتيجة التالية .

نال هندنبرج ١٤٦٦٥٠٠٠ صوتا .

نال ماركس ١٣٧٥١٦١٥ صوتا .

نال تالمان ١٩٣١١٥١ صوتا .

وتبادل الاشتراكيون والشيوعيون اللوم وكل منهما محق في لومه .  
ومستحق لفشله . .

فلو لم يصر الشيوعيون على ترشيح مرشح خاص بهم رغم تأكدهم سلفا من فشله وأنه ليس هناك أى احتمال لغزهم وأن النتيجة المؤكدة الوحيدة هي إنخزال عدد من الأصوات سيؤدي إلى رجحان كفة المحافظين . ولو ضمو أصواتهم لأصوات الاشتراكيين الديمقراطيين لكان من المحتمل أن ينجح مرشح الاشتراكيين الديمقراطيين في الانتخابات الأولى ومن هنا فإن خطأهم لا يمكن تبريره، ومن ناحية أخرى فإن سحب الاشتراكيين الديمقراطيين لمرشحهم وتأييدهم لشخصية بغضبة لا تفضل هندنبرج لم يدع للشيوعيين خيارا في الانتخابات الثانية إلا الإصرار على مرشحهم .

وقد عكست المعركة الانتخابية وتلخصت مأساة فاجماركلها: تحبط الحزب الاشتراكي الديمقراطي في إتخاذ المواقف السلمية . وتحمل الجناح الشيوعي لشطر كبير في المسؤولية : ولولا ذلك لما كان يمكن أن يرأس الجمهورية التي قامت بفضل الثورة على العسكريين - كبير هؤلاء العسكريين وقائدهم الأعلى .



## الفصل الثامن عشر

### الصيف الهندي

وهكذا أصبح هندنبرج رئيسا للجمهورية ..

وكان هندنبرج قد أصبح نوعا من الأسطورة القومية ، لقد كان متقاعدا في نوفمبر سنة ١٤ عندما نشبت الحرب العالمية الأولى وأرسل تليفرافه إلى القيصر « إني مستعد » فأرسلوه إلى الجبهة الشرقية فدحر الروس وحول إنتصاراتهم إلى هزائم .. ثم استنجدوا به في الجبهة الغربية فنظم الدفاع الذي جعل الألمان قاب قوسين من الإنتصار . ولما حدثت المفاجأة ظل اسمه نظيفا بعيدا عن أى شائبة لأنه رزق مساعدين تحملا عنه كل الأعباء المباشرة ، ففي المرحلة الأولى كان لودندورف هو المخطط والمنفذ ممّا ، ولم يتردد في الظهور بهذا المظهر مدفوعاً بطموحه الخاص . وعندما لم يكن ممكنا إخفاء الهزيمة كان لودندورف هو الذي دفع الثمن وإستقال بينما ظل المارشال في منصبه ، وعين له مساعد قدير آخر هو جرونر . وحرص جرونر على إبقاء اسم هندنبرج عاليا ، وفوق كل الأحداث والضرورات الكريهة وتقدم بنفسه لإقتخاذ كل القرارات التي تليها الظروف المؤلمة حماية لاسم المارشال وشخصه وحرصا على أن يكون فوق الخلاف والشوائب والإتهامات . وتقبل المارشال من من مساعديه هذه المواقف لأنه كان مهيوّا لها بحكم المزاج ..

وعندما إنتهت الحرب قاد المارشال عملية الإنسحاب بحيث تمت بكفاية

وسرعة وصورة مشرفة وبعدها آب إلى عزلته في هانوفر كما كان قبل الحرب. ولكنه ظل رمزاً حياً لا فضل ما توحى به العسكرية الألمانية ، ولعله في عزله تلك كان يمثل في أذهان الكثيرين ، ألمانيا الحقيقية الممتزلة لتلك الأحداث المخيرة التي كانت تمر بها وتتحكم في قدرها ، وكأنها ليست من صنع يدها أو سلطان إرادتها ، وإنما فرضها الغزاة في الخارج والخونة أو الضعاف في الداخل . وأقام له الألمان تمثالا خشبيا يعادل في ضخامته تماثيل « روميسس الثاني » وكانت المسامير تشتري لحساب مشروعات البر العسكرية لتدق فيه فكاً بما هو « باب المتولى »

وعند موت ايبيرت اهتبل العسكريون الفرصة ، فدفعوا به رئيساً للجمهورية ، وبطلا قومياً ، ومنقذاً ، ونجحوا ، فأصبح رئيساً للجمهورية ، وواصل دوره في رئاسة الجمهورية ، كما كان يؤديه في القيادة العليا بحيث كان يقوم مساعدوه بالعمل ، ولولا جو المؤامرات والوضع الخاص للجمهورية لأدى هندنبرج — رغم ماضيه العسكري — دور الحاكم الذي يملك ولا يحكم أداء نموذجياً .

وقد راقب الكاتب السياسي البريطاني دوجلاس ريد الذي كان في ألمانيا في الثلاثينات — هندنبرج خلال بعض الزيارات التي قام بها في أعقاب إخلاء منطقة الرين ، ولمس كيف تجاوزت ألمانيا مع رجالها القديم ، وكيف أن عين الحب جعلت من هذا « التيتان الخشبي » الثقيل ، المترهل . الجاد ، معبودا كل شيء فيه يثير حماسهم ، وشاهد الجموع الغفيرة من مقاتلي معارك ١٨٦٤ و ١٨٦٦ و ١٨٧٠ التي شهدوها مع الماريشال ، وهم الآن في ارضل العمر .. إلى البراعم الصغيرة من الصبيان والبنات ... وما بين ذلك من رجال أعمال وضباط ومهنيين وأساتذة جامعات .. تهتف له .. وتسير وراءه واستطاع دوجلاس ريد أن يطلع على النسخة الأصلية لبعض الخطابات التي ألقاها ، وفي

هذه النسخ كانت بعض السطور قد كتبت بالحرف الكبيرة Capitals ، وبعضها الآخر بالحروف الكبيرة التي وضعت تحتها خطوط . وكانت هذه السطور هي التي يرفع فيها صوته ، أو تشتد حماسه ...

كان هندنبرج في الحقيقة هو الممثل الأخير لألمانيا فردريك الثاني .. ووليم الأول وتمسكت به الجماهير الألمانية لأن صورة الزعيم العسكري كانت هي الصورة الوحيدة التي كانت ألمانيا تألفها حتى جاءت سنوات الهزيمة والتضخم والإنيهار الاقتصادي فاجتثت هذه الصورة وكيفت الأجيال الجديدة تكييفها مختلفاً بحيث تها الجولان يبدع هتلر الصورة الجديدة للزعيم الذي لا يكون عسكرياً كما ألفت ألمانيا القديمة . ولا يكون سياسياً على غرار ساسة فايمار وإنما وطنياً قومياً من نمط جديد .

\* \* \*

كانت السنوات التي أعقبت تولية هندنبرج سنوات رخاء ظاهر ، فقد تدفقت الأموال الأجنبية لتمويل مختلف المشروعات .. فهل غفرت أوروبا لألمانيا جرمها عندما ولى أمرها « مجرم الحرب » الذي طالبت في معاهدة فرساي بمحاكمته .. أو أن كراهيتها للشيوعية وخشيتها منها كانت أعمق من كراهيتها للعسكرية الألمانية .. أو أن جهود ستراسمان وتقمصه لقميص « الأوروبية » و « الوفاء » أتي ثماره .. لقد يكون هذا كله . ولكن الحق أن السياسة المالية تختلف عن السياسة السياسية . وأن عالمية هذه السياسة المالية إنما تتأثر بالعامل الاقتصادي ومدى « رأسماليته » وربحيته أكثر مما تتأثر بالنظم السياسية أو الرجال الحاكمين .. فالمال لا يعرف الوطنية ، ولا يفرق بين دين ودين .. دولة ودولة .. وهو دائماً فوق العداوات السياسية فقد هاجمت اليابان في الحرب الثانية الولايات المتحدة بترول وحديد باعه لها رجال الصناعة الأمريكيون .. وحارب نابليون بريطانيا

بفضل أموال قدمها مصرفيو لندن بفائدة ٨٪ وكان الأخوة روتشيلد يسكنون عواصم العالم ويجرون معاملاتهم المالية فوق مستوى الحكومات .. واللواء الوحيد الذى يتبعه المال هو الربح أو سعر الفائدة ، وكانت ألمانيا تقترض بفائدة عالية تصل إلى ٨٪ فتدفقت الأموال من أمريكا إلى ألمانيا ومن هذه الأموال كانت ألمانيا تدفع ديونها لفرنسا وإنجلترا اللتين كانتا تدفعان منها ديونهما لأمريكا .. لتقدمها قروضا لألمانيا وهلم جرا .. وبفضل هذه العجلة الدائرة نهض الاقتصاد الألماني من كبوته واستطاعت ألمانيا أن تستكمل انطلاقتها الذى أوقفته الحرب والأحداث التى تلتها ، وأدخل أصحاب الأعمال طريقة «السير المتحرك» Conveyor belt التى استخدمت وقتئذ فى الولايات المتحدة ، وفتحت صناعة الكيماويات تلك الآفاق والعوالم الجديدة التى مكنتها من استخلاص الجازولين من الفحم وصناعة المطاط الصناعى والأنسجة الصناعية . وتضاعف إنتاج الفحم الذى كان قد وقف سنة ٢٠ عند ٨٥٠٠٠٠٠ طنا فوصل إلى ١٦٣٠٠٠٠٠ طنا سنة ٢٧ كما قفز إنتاج الصلب خلال المدة نفسها فقفز من ٦٣٠٠٠٠٠ طنا إلى ١٦١٠٠٠٠٠ طنا بينما وقف إنتاج بريطانيا ثابتاً عند ٩٠٠٠٠٠٠ طنا وهبط إنتاجها من الفحم من ثمانية ملايين إلى ٧٣٠٠٠٠٠ وتكون خلال هذه الفترة أكبر عمالقين صناعيين هما ترست فاربن للصباغ I. B. Farben سنة ١٩٢٥ وترست الصلب Vereinigte Stahlwerke سنة ٢٦ .

ولاحظ دوجلاس ريد الذى كان يطوف بألمانيا وقتئذ «إن ألمانيا التى حرما الحلفاء من أسطولها التجارى بأسره ، أصبح لديها بعد عشر سنوات واحد من أكبر أساطيل العالم ، وقد حرروا عليها أن تبني الطائرات الحربية ، وهبطوا بإنتاجها المدنى منها ، ولكن ألمانيا استطاعت أن تبني العديد من

من الطائرات ومنها السفينة الطائرة DOX التي تطير عبر بحيرة كونستانس وعليها ١٧٣ راكبا، وهو شيء — فيما أعلم — لم يسبق كما شيدت السفينتين « برين » و « أوروبا » اثنتين حازتا الشريط الأزرق وجعلت المنتصرين يحاولون اللحاق بها ببناء نورماندى وكوين مارى. وفي سنة ١٩٢٩ كان المنطاد زبلين يجتاز المحيط في رحلته عبر العالم .

ودهش ريد لأنه لم ير « الأكواخ » المعروفة في بريطانيا ، والتي تسود مناطق الفحم في دير هام وغيرها ، ووجد بدلا منها مدنا جميلة بجداق يسكنها عمال الفحم أو عمال كروب أو غيرهم .

وقال ريد إن مشاهد الرخاء والتقدم في ألمانيا ما بين سنتي ١٩٢٨ و ١٩٣٢ جعلته يسأل نفسه « ماذا كسبت بريطانيا خلال قرن من الازدهار والأمن والانتصار في الحرب العالمية .. وماذا خسرت ألمانيا من هزيمتها ، وهلا يكون من الأفضل — في المدى الطويل — لو هيمنت ألمانيا على أوروبا مادامت تستطيع أن تدير الشؤون بأفضل مما نديرها؟

ولارب أن جزءا كبيرا من هذا الازدهار أو على الأقل مايتعلق منه بالناحية الاجتماعية وضمان حقوق العمال يعود إلى الحزب الديمقراطي الاشتراكي الذي كان يفخر ، وله الحق ، أنه زاد هذا الميدان ، وشق طريقه فيه ، وأنه سيمضى فيه قدما رغم مضايقات الشيوعيين من اليسار والغلاة من اليمين .

صحيح إنه فقد المبادأة التي كانت له في الأيام الأولى للثورة ، ولم يصبح للمستشار منه منذ فترة طويلة، وأنه اضطر للتعاون مع أحزاب الوسط والديمقراطيين ولكن هذا لم يكن ليضيره كثيرا لأنه لا يخالف فكرته الأساسية عن الديمقراطية البرلمانية القائمة على الأحزاب ، وهو بعد يستطيع التأثير خلال أى تحالف تأثيرا يتناسب مع عدد أعضائه في الرئاستاج .

وكان الضعف الرئيسى فى مثل هذه السياسة هو فى « الروح » أكثر مما كان فى الأسلوب. فلم يكن الخطأ فى التحالف فى حد ذاته ، ولكنه كان فى التسليم ، إذ لا يكون للتحالف عندئذ من معنى إلا التبعية . وعندما كان التحالف يخير الاشتراكيين بين البقاء فى التحالف وما يقتضيه من النزول على رغبة شركائهم ، أو التمسك بأرائهم ، وما قد يقتضيه ذلك من استقالة ، فإنهم كانوا يفضلون دائماً البقاء على أساس أن ذلك هو أضعف الإيمان ، أو أقل الشرين . وفى ظل هذا المنطق سارت سياسة التسامح حتى تساحت فى حياة الجمهورية نفسها ، ولم يتنبه الاشتراكيون الديمقراطيون إلى خطتهم إلا أخيراً جداً ، وبعد أن كانت كل فرص الإصلاح قد ضاعت .

ولهذا السبب نفسه كان الحزب الاشتراكي الديمقراطى موفقاً فى المعارضة أكثر مما كان فى الحكم ، لأن بقاءه فى الحكم كان رهناً برضا شركائه ومن ثم كان عليه إذا أراد البقاء استرضاءهم الأمر ، الذى لم يكن موجوداً بالطبع فى المعارضة . وقد يصور ذلك أنه وهو فى المعارضة استطاع أن يحقق قانون التأمين من البطالة لسنة ١٩٢٧ ولكنه عندما ولى الحكم فى السنة التالية قُبِلَ الانتقاص من المزايا التى تضمنها القانون كما سيلي .

كما قد يصور هذا الموقف بطريقة دراماتيكية قضية بوارج الجيب فعندما أسفرت انتخابات سنة ١٩٢٨ عن ظفر الحزب الاشتراكي الديمقراطى بأغلبية المقاعد ( ١٥٢ مقعداً ) هلى حين لم يظفر الحزب الشيوعى بسوى ٤٥ مقعداً وحزب الوسط بسوى ٦١ مقعداً الف هرمان مولر وزارة ائتلافية ضمت كتلة الوسط والديمقراطيين وكان من الموضوعات الأولى التى جوبهت بها الوزارة الجديدة قضية بوارج الجيب التى كلن الرشستاج قد أقرها فى الدور السابعة ولكنها كانت موضوع معارضة شديدة من الاشتراكيين وبرزت هذه المعارضة فى المعركة الانتخابية وأخذت صورة التساؤل « بوارج الجيب .. أم مرا كز تنفيذ الأبطال » .

وكان فوز الاشتراكيين يعنى استبعاد موضوع البوارج ، ولكن العناصر العسكرية القوية أصرت على ضرورة صناعة هذه البوارج وأصبح مولر أمام أمرين : إما أن يثير أزمة وزارية تعرض الوزارة الجديدة للسقوط إذا أصر على عدم صناعة هذه البوارج ، وإما أن يتنكر للدعاية الانتخابية المعلنة للحزب . وانتهى إلى معارضة المشروع على أساس أن وزراء الأحزاب المؤلفة لن تقبل ، وعندئذ يقبلون بفكرة ضغط الأغلبية عليهم ، بيد أن الوزراء الديمقراطيون أيدوا الاشتراكيين ، ولم يعد هؤلاء عذر . ولكن لو أن مولر وقف موقف المعارضة لاستقال عدد من الوزراء — منهم سترسمان الثمين ، والذي رأى مولر أنه لا يستطيع الاستغناء عنه فضلاً عن اكتساب عداوة العسكريين ، ولهذا أثر مولر أن لا يعترض على بناء البوارج . وأثار هذا — كما هو منتظر — موجة من الاحتجاج والاستياء ، ورفضت الهيئة البرلمانية للحزب في الرشتاج هذا القرار ، وعرضت للتصويت قراراً مضاداً برفض صنع البوارج . . . ولكن القرار لم يظفر بالأغلبية . . . وكشفت هذه القضية عن ضعف الحزب ، وعدم ثقته في نفسه وعدم تملكه لأزمة القيادة بالحسم والعزم المطلوبين .

\* \* \*

وكانت السياسة التي انتهجتها النقابات — وهي بعد كل شيء القاعدة الشعبية للحزب تماثل في روحها سياسة الحزب الاشتراكي ، فمع أن النقابات بدأت تستشعر شيئاً من القوة بعد انحسار موجة التضخم وعودة الازدهار ، إلا أن هذا الإحساس لم يكن مطلقاً. فقد كان قبل التضخم أقوى منه بعده . كانت النقابات سنة ١٩٢٢ تضم ٧٨٠٠٠٠ عضواً ولكنها سنة ٢٤ كانت تضم ٦٠٠٠٠٠ رءوساً ، ولكن أهم من هذا الانخفاض في العضوية الذي لم يكن ملحوظاً فترة الازدهار لأنه جاء بعد انسحاق التضخم ، أن سياسة العمل النقابي كانت

تبتعد شيئاً فشيئاً عن العمل الذاتى والكفاحى الذى تمارسه النقابات نفسها عن طريق الاتفاقيات الجماعية ، وتتوصل به إلى تقرير شروط وظروف العمل ، قدر ما كانت تقترب إلى سياسة التحكيم والاعتماد على الدولة . وهى سياسة مهما كانت حسناتها ، فإنها تشعر العمال أن النقابات ليست هى الأداة الفعالة والحاسمة فى الموضوع ، وإنما هى أجهزة الدولة فيبدأ احساسهم بالحاجة إليها والتمسك بها فى الضعف ، وقد أدت النقابات دوراً كبيراً فى وضع وإقرار قانون تأمين البطالة سنة ١٩٢٧ ، ولكن هذا الدور لم يبرز تماماً لأنه ذاب فى فى القالب التشريعى الذى تتولاه سلطات الدولة .

وحاولت النقابات أن تعوض هذا النقص بالنشاط فى مجالات أخرى كالرعاية الاجتماعية والإسكان والتأمين الاجتماعى على أساس تعاونى . ومامن شك فى أن هذه الجهود قدمت خدمات ومساعدات لعدد كبير من العمال ، ولكن أثرها على الاقتصاد القومى كان معدوماً فضلاً عن أن عناية النقابات بهذا الجانب من النشاط كان بالطبع على حساب مهامها الأصلية .

ومما يثير الدهشة أن النقابات والحزب واصلوا سياسة الاحتفاظ بالشعارات الثورية فى المؤتمرات والبرامج رغم سياسة التهدئة والتدريج والمساومة التى كان يتبعها عملياً ، فقد تضمن برنامج الحزب الذى وضع فى مؤتمر هيدلبرج التعبيرات الماركسية القديمة مثل « إن عدد البلوريين يتزايد » والصراع ما بين المستغلين والمستغلين يزداد عنفاً وتصبح الحرب الطبقة ما بين الرأسماليين الحاكمين والعمال المكبوتين أشد وحشية ، وهى كلمات لم يكن لها أى صدى عملى .

وبالمثل قرر مؤتمر النقابات الذى عقد فى برسلو Breslau سنة ١٩٢٥ تحويل مجلس الاقتصاد القومى المؤقت Provisional National Economic Council إلى « برلمان إقتصادى سليم » وطالب بترشيد الصناعة ولم يكن من



ناحية العمال على الاقل لهذه المطالب صدى على . وأهم من هذا أن البرلمان الاقتصادي المنشود لم يكن ليفيد العمال كثيرا مادامت أعنة الصناعة في أيدي الرأسماليين، إذ ستكون النقابات فيه في موقف يشابه الحزب الاشتراكي الديمقراطي في الوزارة ، وأن الدعوة للتشديد على ما فيها من وجهة موضوعية، إلا أن هناك احتمال أن يؤدي التشديد ، مادام النظام الاقتصادي رأسماليا ، ومع ضعف الحركة النقابية إلى الاضرار بالعمال حتى مع انتعاش الصناعة والاقتصاد.

وماذا كانت مواقف الشيوعيين وهم القوة العمالية الثالثة بعد الحزب الاشتراكي الديمقراطي والنقابات؟ كان النحس النظري لا يزال يلاحق الشيوعيين فعلى أثر القومة الشيوعية الفاشلة سنة ٢٣ التي راح ضحيتها براندلر ، وثب على زعامة الحزب روث فيشر وماسلو وهم من دعاة اليسار الهجومي ، فنبذا سياسة الجبهة المتحدة وشنا حملات متوالية على الحركة النقابية والحزب الاشتراكي الديمقراطي ، ولكن سقوط الأصوات الشيوعية في الرشتاج هذه الفترة حكم على السياسة بالفشل ، وهكذا ضحى بفيفر وماسلو وطردا ( كما طرد ليفي وبراندلر من قبل ) وانفرد تايلمان بالزعامة وبدأ يعود مرة أخرى إلى سياسة الجبهة المتحدة ، ولكن عندما كون الحزب الاشتراكي الديمقراطي وزارة مولر الائتلافية عادت مرة أخرى حملات الشيوعيين على «الفاشست الاشتراكيين» وكانت الظروف السياسية في الاتحاد السوفيتي وراء ذلك. ومع أن أنصار براندلر حصلوا على أغلبية في اللجنة المركزية وأسقطوا تايلمان إلا أن الأوامر صدرت من موسكو بإعادة تايلمان على رأس اللجنة . ونفذ الأمر بالطبع فوراً .

وحدث وقتئذ بضعة حوادث كانت ذات آثار بعيدة المدى على الحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي الديمقراطي .

ففي خريف سنة ١٩٢٨ طالب عمال الصلب والحديد في المنطقة الغربية من

المانيا بزيادات في الأجور ، ورفض أصحاب الأعمال كالعادة ، فعرض الأمر على التحكيم الذى قضى بزيادة تبلغ خمس (٥/١٠) الزيادة التى طلبوها ، وقبل العمال ولكن أصحاب الأعمال رفضوا رغم أن حكم التحكيم ملزم قانونا ، وبدلا من الانصياع لجأوا إلى الإغلاق ، وهو فى مثل هذه الحالة يعد عملا غير مشروع فتعطل مائتا ألف عامل ، فضلا عن ألوف أخرى من العمال الذين يعملون فى صناعات تتوقف على الصلب والحديد . ولما كان القانون يحكم للعمال فى مثل هذه الحالة باعانة بطالة من الدولة ، فقد تدخلت الحكومة فى شخص وزير الداخلية سيفرنج الذى أمكنه اقناع أصحاب الأعمال بقبول زيادة طفيفة فى الأجر تقل عن زيادة الخمسين المحكوم بها للعمال . وكان هذا انتصارا لأصحاب الأعمال على العمال الذين تملكهم المرارة خاصة وأن الذى أشرف على هذه النهاية الفاشلة كان وزير الداخلية الاشتراكى الديمقراطى ولم يقصر الشيوعيون فى استغلال هذه الفرصة للتنديد بالاشتراكيين الديمقراطيين . وعندما أخذ أصحاب الأعمال فى الامتناع عن العمال نتيجة للأخذ بنظم الترشيد والاحساس بأولى بوادر الأزمة بدأ الشيوعيون فى تنظيم مظاهرات العمال العاطلين الذين جاوز عددهم ثلاثة ملايين استثنى منهم قرابة نصف مليون من حق تقاضى إعانة البطالة ، فأصبحوا أعداء دأبيين للنظام . . وأصدقاء مقربين للشيوعيين . . ومع أن هذه المظاهرات التى استهدفت اجتذاب العمال للاضراب كانت فاشلة لأنها كانت خارج إطار التنظيم النقابى ، الذى ينظم الاضرابات ، إلا أنها على حد تعبير كتاب « المطرقة أو السندان » تبلور كلمات بيرنشتين عن أن « الحركة هى كل شئ . . والهدف لا شئ » وكانت النتيجة الوحيدة هى فصل العمال الشيوعيين بحيث أصبح الحزب الشيوعى حزبا من العمال المتعطلين .

فى هذا الجو المسكنمحل أول مايو سنة ٢٩ وكان الاحتفال بيوم أول مايو من التقاليد العريقة فى الحركة النقابية الألمانية التى حاربت فى سبيلها من

أيام بسمارك . ولكن زورجيل Zorgebel مدير بوليس برلين الاشتراكي الديمقراطي الذي خشي هذه المظاهرات أصدر أمراً بمنع المظاهرات في الميادين العامة . واهتبل الشيوعيون هذه الفرصة لتحدي أوامر البوليس ودعوا العمال للتظاهر . ولبي العمال الدعوة فاكتملت أحياء عديدة بالعمال وأطلق البوليس النار على العمال المتظاهرين والعزل الذين دافعوا عن أنفسهم بقدر استطاعتهم ، وظلت المناوشات يومين بعد اليوم الأول ، وقتل خمسة وعشرون عاملاً وأصيب عدد آخر كبير . وحاول زورجيل تبرير إطلاق البوليس النار على العمال ، بأن العمال هم الذين بدأوا وأنهم أصابوا عشرين بندقية من بنادق البوليس ، وإن لم يصب البوليس نفسه بسوء . واستولت الصحف على هذا القول وأخذت تتندر بقدرة العمال الفائقة على التصويب .. وأعاد هذا الحادث ذكرى نوسكه ، وأطلق الشيوعيون اسم « زورجيل » على القيادات النقابية والاشتراكية . وبقدر ما أدى هذا الحادث إلى انحياز عدد كبير من العمال إلى الشيوعيين ، فإنه عمق الهوة ما بين الشيوعيين والاشتراكيين ، وزاد في العداوة بينهما بحيث استحال اتفاقهما لمحاربة العدو المشترك - النازية .

ولم تكن مناهب الجمهورية والحزب الاشتراكي الديمقراطي تقتصر على هذه المواقف من الشيوعيين والنازيين . إذ برزت ظاهرة أخرى لم تكن مألوفة في المجتمع الألماني ، حتى جمهورية فايمار ، أو على الأقل لم تكن معلنة . تلك هي « الفساد » الذي سمحت به بيئة الجمهورية من حرية أو تسامح ، على نقیض ما كان يأخذ المجتمع الألماني نفسه به قبلاً من ضبط والتزام وتدقيق . ولم تكن بيئة الجمهورية تسمح بظهور هذا الفساد فحسب ، بل أنها أيضاً كانت تعمل على إعلانه وعلى أن يأخذ شكل الفضائح العامة التي تقتنصها الصحف المعلومة وتأخذ وتعيد فيها أو تتناولها المحاكم بالدراسة ومناقشة التفاصيل والاستماع إلى الشهود والمرافعات الخ . . مما يضاعف من أثرها السوء . وقد

لا تكون بيئة الجمهورية ونظامها الديمقراطي الحر هو الوحيد المسئول ، إذ من المؤكد أن الحصار الذي تلى الحرب ، والحرب الأهلية ، والتضخم الذي أدى إلى تحلل خلقى جاوز كل الحدود المعروفة وقتئذ كلها ساعدت على إبراز الفضائح العامة ، ولكن كائناً ما كانت الأسباب ، فقد وضعت تحت عنوان واحد هو جمهورية فايمار .

وكانت أولى القضايا الدائمة قضية أرزبرجر ، فبعد أن تناول بالنقد اللاذع السياسة المالية لأحد رجال الدولة السابقين ويدعى كارل هلفريش ، اتهمه هلفريش ببعض التصرفات الشائنة . وأدانت إحدى محاكم برلين أرزبرجر بالفساد البرلمانى .

وبعدها جاءت فضيحة الأخوة سكلارز Sklarz وهم أخوة أربعة بدأوا من سنة ١٩١٨ فى بيع مخلفات الحرب . وكان فى هذه المخلفات قلاع وحصون كاملة مثل هيجولاند ودانزيج . وساعدهم فى هذه الصفقات عدد من النواب والموظفين حتى أثروا ثراء فاحشاً وأخذوا يقيمون حفلات باذخة فى قصرهم . وأخيراً كشفت الفضيحة وأدانهم القضاء .

ومن القضايا التى رزقت شهرة كبيرة قضية الأخوة بارماتس Barmats وهم ثلاثة جوليوس ، وسالمون وهرشل . وقد استطاعوا بحكم صلاتهم السياسية أن يحصلوا على اعتمادات وقروض لا تتناسب مع الضمانات التى قدموها ، أو بدون ضمانات ، فاقترضوا من بنك بروسيا ٤٣ مليون ماركا لقاء ضمانات لا تساوى أكثر من مليونين ونصف مليون كما أقرضتهم هيئة البريد أربعة عشر مليوناً مقابل أوراق مالية لا تتعدى أربعة ملايين . واستمرت هذه العمليات المالية عدة سنين قبل أن تكتشف ويحكم بالسجن على الأخوة بارماتس .

وتمثل القضيتين السابقتين قضية الاخوة سكلارك Sklarek . وهم ثلاثة كذلك . ما كس وليو وويلي وقد جاءوا بعد الثورة من بوسترا ، وبتعبير « إدجار مورر » مؤلف كتاب « المانيا تعيد الساعة إلى الوراء » فقد شاء جيوهوا أن تكون لهم صلات عرضية ببعض رجال الادارة في برلين . ولما كانوا موهوبين في فن « الانبساط » فلم يعسر عليهم أن يظفروا بمعظم عقود ملابس وأقشة الهيئات الحكومية والمستشفيات ، كما تلقوا مبالغ جسيمة لقاء عقود وهمية ، وفي مقابل هذا كانوا يزودون كل موظفي بلدية العاصمة تقريبا بالملابس مجانا .. ويعقدون حفلات باذخة تقدم فيها « لال من الكافيار وبراميل من الشمبانيا » .. كما كانوا يحتفظون بأسطبل خاص لخيول السباق .. وبعد حكمة استمرت ثلاث سنوات حكم على الاخوة سكلارك بالأشغال الشاقة .

ومع أن سجل الفضائح والفساد لا يقف عند هذا ، وأنه يحفل بقضايا مثل قضية د.ك Dumke المدير العام لإحدى شركات التأمين . ورجل المال لودفيج كاتز تليوجين Katzenellenbogen المصرفي المغامر . الخ .. إلا أن الحالات الثلاث الأولى لها أهمية خاصة لأنها كلها تدور حول عدد من الاخوة اليهود الذين استطاعوا بالرشوة والفساد واصطناع رجال الادارة تكوين ثروات ضخمة . وكانت مثل هذه الحالات تعد لقيه ثمينة للصحافة النازية بوجه خاص لأنها تمكنها من أن تضرب عصفورين بحجر واحد ، أعنى أنها تمكنها من مهاجمة اليهود ، والجمهورية معاً ، خاصة وأن بعض المتسبيين فيها ، أو المتورطين معها كانوا أعضاء في الحزب الاشتراكي الديمقراطي .

كانت هذه المشكلات والمنازعات تتداخل ، فمشكلة التعويضات الاقتصادية كانت ترتبط بمشكلة فرساي السياسية واحتلال الرين ضمناً للدفع ، كما

كانت ترتبط بالمشكلات الداخلية ، كمشكلة البطالة والتأمينات وغيرها . وكان في الوزارة شخص واحد على الأقل يعرف ما يريد ، ويعمل بكل قوة ليخلص من هذه المتاهات ، ذلكم هو سترسمان وزير الخارجية ، وكان مايريد هو أن يحقق السيادة الألمانية وتطهير التراب الألماني من احتلال الحلفاء له وكانت معاهدة فرساي قد قضت باحتلال منطقة الرين « الرينلاند » وقسمتها إلى ثلاثة أقسام تجلى القوات منها ما بين ١٩٢٥ و ١٩٣٥ ، وتم الجلاء بالفعل عن المنطقة الأولى . ولما كان من أهم أسباب هذا الاحتلال ضمان دفع التعويضات ولم يكن مشروع داوز يعالج هذه النقطة بطريقة حاسمة ، فقد أراد سترسمان الاتفاق مع الحلفاء عليها ، وفي الوقت نفسه فقد كان هناك احتمال توقف هذا التيار المتدفق من القروض الخارجية . وفي منتصف ديسمبر سنة ٢٨ وبعد اتصالات متوالية ومكثفة من سترسمان وافقت فرنسا وبريطانيا على تكوين لجنة من الخبراء للنظر في الموضوع ، ووافقت الولايات المتحدة على الاشتراك واجتمعت اللجنة المختصة في فبراير سنة ٢٩ وضمت فردين عن كل دولة ورأسها العضو الأمريكي أوين . د . يونج . وفي ٧ يونيو سنة ٢٩ وضعت المشروع الذي أطلق عليه مشروع يونج وكفل لألمانيا السيادة التامة على أرضها مقابل أن تدفع أقساطا سنوية تصاعدية تبدأ من ١٧٢ بليون مارك في السنة الأولى إلى ٢٥٠ بليون سنة ١٩٦٦ ثم تنزل بعدها إلى ١٥٠ بليون حتى سنة ١٩٨٨ . وتقرر تشكيل بنك للتسويات الدولية يتلقى هذه الأقساط ويوزعها . وكانت هذه التقديرات على جسامتها أقل من أي تقدير آخر . وإن كان يعيها أنها لم تربط المدفوعات بمستويات المعيشة أو أرقامها القياسية وإنما بمعيار الذهب . ولكن هذا لم يكن ليثبط سترسمان بل لقد أبدى تنازلا آخر في سبيل استحثاث الجلاء الأمر الذي تذرعه به شاخنت الذي اشترك في المفاوضات لكي ينصل من الاتفاقية وينحاز إلى اليمين المعارض . كان سترسمان يكافح أيامه

الأخيرة ضد المرض ليمتدح أمل حياته وفي أكتوبر سنة ٢٩ مات بالفعل ،  
ولكن بعد أن وضع الأساس لجلاء القوات الأجنبية وفي ٣٠ يونيو سنة ١٩٣٠  
غادر آخر جندي فرنسي وبريطاني منطقة الرينلاند وتحجرت ألمانيا من أسوأ  
آثار الهزيمة .

على أن مشروع يونج لم يقابل بترحاب أو برضا من المعسكرات اليمينية  
التي بدأ حزب النازي يظهر فيها ، كما خضع الحزب الوطني الألماني لنفوذ هوجنبرج  
وطموحه . ونظمت هذه المجموعات معارضة قوية للمشروع واستطاعت في  
سبتمبر سنة ٢٩ أن تجبر الحكومة على إجراء استفتاء على قبول مشروع يونج ،  
وأظهر الاستفتاء أن أقل من ستة ملايين من قرابة ٤٥ مليوناً هي التي أيدت  
معارضة المشروع .

وكانت الصخرة التي تصدع عليها الائتلاف الوزاري هي المشكلات الداخلية  
فقد كانت سنة ١٩٢٨ هي قمة الازدهار الألماني ، وبدأت بعده نذر الانحسار  
فوراء هذا الازدهار كانت القروض التي انتهت على ألمانيا ، وكان يمكن  
لألمانيا أن تبنى بفضلها صناعاتها من جديد ، لولا أن ألمانيا كانت مطالبة  
في الوقت نفسه بتسديد أقساط التعويضات الباهظة فكانت تأخذ من  
أمريكا لتعطي فرنسا وإنجلترا ، وكانت تسدد فوائد القروض القديمة بقروض  
جديدة ولم تترك لها « فترة سماح » تمكّنها من استثمار القروض استثماراً طويلاً ،  
أو إعادة الاستثمار . ولم يكن هذا الوضع بالوضع السليم أو الذي يمكن أن يدوم  
ولكن لم يكن لألمانيا خيار فضت تستمتع به .. وتفيد منه ، حتى جاءت  
سنة ١٩٢٩ فتقلصت القروض التي قدمتها أمريكا لألمانيا من بليون دولار  
في السنة السابقة إلى ٢٢١ مليون دولار . كان هوس المضاربات المالية على  
أشده في الولايات المتحدة وقتئذٍ وأغراء الأثراء السريع هناك يفوق أي أغراء

آخر ، كما وقفت عملية الترشيد في الصناعة الألمانية بعد أن خلفت عددا كبيرا من العاطلين . . وتضافرت هذه العوامل كلها على الحكومة . فعجزت عن موازنة مصروفاتها وإيراداتها ، وتمسك شركاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي في الوزارة بخفض مزايا التأمينات ، وخاصة تأمين البطالة ، ولم يكن المستشار مولر يستطيع تخفيض تأمينات البطالة للمعارضة العنيفة التي أبدتها النقابات والجنح اليساري للحزب الذي كان يقوده الشيوعي القديم « بول ليفي » الذي عاد إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي بعد حياته العاصفة في المعسكر الشيوعي .

ومع أن هيلفريد نيج المنظر الاقتصادي للحزب والذي كان يتمتع بنفوذ كبير أيد التخفيض كأمر لا محيص منه ، فإن أغلبية الحزب وقفت ضد الفكرة . وعندما طلب مولر من الرئيس هندنبرج استخدام سلطات الطوارئ الاستثنائية التي كانت تجيز قرارات الحكومة رغم معارضة الرشتاج سأل هندنبرج القادة العسكريين عن مدى صواب اتخاذ هذا الاجراء ، فنصح جرونر ، وزير الدفاع ومساعد المارشال أيام الحرب ، وشليشر الذي كان يأتي في الدوائر العسكرية بعد جرونر . برفض الطلب وذكر شليشر أن هناك مرشحا لرئاسة الوزارة يمكنه أن يكسب أغلبية البرلمان للتردية هو هيريش بروننج . ونتيجة لذلك رفض هندنبرج طلب مولر . ولما كان مولر يعلم أنه ليس له الأغلبية في الرشتاج فلم يعد أمامه إلا الاستقالة ، فاستقال وكان آخر اشتراكي ديمقراطي يشغل منصب المستشار .

ومن هذه اللحظة فقد الحزب الاشتراكي الديمقراطي صفته كأكبر الأحزاب الألمانية وانحسح الطريق أمام العودة إلى الورا . . وانتهت تلك الحقبة القصيرة التي اشبهت الصيف الهندي في حياة الاشتراكية الديمقراطية . . ولم تلبث أن تحطمت على صخور اليقظة .



## الفصل التاسع عشر

### المستشار البرلماني الاخير

كان المستشار بروننج رجلا قديرا ، وعلى جانب كبير من الشجاعة والنزاهة اعترف له بها الأصدقاء والأعداء . ولو كان بمكنة رجل واحد أن يوقف التيار أو يجمد المد لكان من المحتمل أن ينجح بروننج ، ولكن تجربة التاريخ توضح لنا أن هذا أمر بعيد ، وأن رجال الدولة وعباقر السياسة إنما ينجحون في دفع التيار أو توجيهه وليس وقفه أو تجميده ، وأن قصارى ما يمكن أن ينجحوا فيه لو أرادوا الوقف هو التأخير وقتا ما . . ليأتى بعد ذلك الطوفان بدفع مضاعف .

بالإضافة إلى هذا العامل الموضوعي ، فإن بروننج كان رجلا من المدرسة القديمة يعمل بالطرق التقليدية ويحاول أن ينتقد الميزانية على حساب الدين وضعت من أجلهم هذه الميزانية . ولم يتبين خطأ ذلك لأنه لم يكن رجلا شعبيا فخر صداقة الطبقة العاملة دون أن يكسب تأييد الطبقات المميزه التي كان يفترض أن تقف بجانبه .

وبدأ بروننج عمله بالحلمة على الأسلوب السياسي الذي أدى بالبلاد إلى هذه الحالة ، واتهم الأحزاب بتمزيق وحدة البلاد ودعا أعضاء الرشتاج لأن يجدوا سبيلا للعمل وإلا فإن الرشتاج سيحفر قبره بنفسه .

وكان هذا حقيقيا ، ولكنه كان ثمرة النظام الحزبي الذي كان بروننج نفسه باعتباره زعيم الحزب الكاثوليكي ، جزءا منه ، وكان من المستحيل أن يخلص ، هو أو سياسته منه ، مازل كذلك ، ولم يكن هو من الشعبية بحيث يجمع الشعب حوله ، وقد وجد نفسه بحكم الظروف المعقدة ، وتبعاً للأفكار السائدة منساقاً للعمل بطرق ديكتاتورية ولأهداف تضاد رغبات وآمال الجماهير ، وربما تختلف عن طبيعته عندما كان يقرع الرشتاج ويحذره أن يحفر قبره بيديه ، وأن يكون هو — بروننج — المستشار البرلماني الأخير .

كان بروننج يسابق الزمن فانهيار البورصة في الولايات المتحدة كان بداية للانهايار المالي والمصرفي أوقف التيار الذهبي الذي كان يتدفق على ألمانيا ويحمل إليها الحياة ويمكنها من دفع التعويضات . واستهدف بروننج ضغط المصروفات بكل طريقة فخفضت الأجور ومزايا التأمينات وزيدت الضرائب الموجودة ، كما أضيفت ضرائب جديدة كان بعضها يسوى بين الغنى والفقير كضريبة المواطن Citizen Tax التي أطلق عليها الشعب ضريبة العبد Nigger Tax وكانت تفرض على كل ألماني مبلغا واحدا سواء كان شحاذاً أو مليونيراً ، وأشبهت بذلك ضريبة الرؤوس Poll Tax التي كانت السبب المباشر في اشتعال ثورة الفلاحين في القرن الرابع عشر في بريطانيا وعندما ضاق الرشتاج بهذه الاجراءات استصدر بروننج قراراً بحله وواصل الحكم بمراسيم الطوارئ الاستثنائية التي كانت المادة ٤٨ تعطيها للرئيس الجمهورية .

ولم يكن حل المشكلة الاقتصادية لينتأى بزيادة الضرائب وضغط الانفاق فقد تنبه المجددون من رجال الاقتصاد الرأسمالي وقتئذ إلى عقم هذه السياسة وعجزها عن تخليص المجتمع من الأزمة واهتدوا إلى فكرة «الأشغال العامة» وكان يمكن للنقابات أن تنبه إلى مثل هذه الفكرة التي كانت تعالج أول ماتعالج البطالة ، وهناك مايدل على أن النقابات الألمانية فكرت في هذا ولكن

الحزب الاشتراكي الديمقراطي الذي كان يفترض أن يكون أكثر تقدمية من النقابات رفض الفكرة ، لأنه كان أسيراً للأوضاع المائلة بحيث سلك هيلفودنج منظر الحزب السلوك الذي سلكه سنودن وزير مالية حكومة العمال البريطانية سنة ٢٩ عندما تمسك بانقاذ الجنيه . . وليس بانقاذ العمال وسلك المسلك الانكاشي بما يقتضيه من ضغط النقابات والتأمينات . . الامر الذي لم ينقذ الاقتصاد وإن كان قد أسقط الوزارة ، وكما فعل هو في الولايات المتحدة أيضاً .

وتحدث و . س . ويتنسكي الذي كان يعمل وقتئذ في خدمة اتحاد النقابات الحرة « الادجيب » عن خطة للمشروعات العامة تقدم بها إلى النقابات ومالت هذه إلى تقبلها ، ولكن أوتوفيلز ، رئيس الحزب الاشتراكي الذي حضر الاجتماع عارض الفكرة وسأل الخبير الاقتصادي الذي احضره ويتنسكي .

— وما الذي سنبنيه ؟ لدينا ما فيه الكفاية من الطرق والبيوت هل تريد منا أن نبني أهرامات كما كانوا يفعلون في مصر .

واجاب الخبير :

— هذه فكرة ممتازة ياسيدى النائب في الرשמناج يجب على البلد الذي لا يستطيع أن يفكر في شيء أفضل أن يبني أهرامات لنسكون تمثالا خالدا لغبائه . ولكني آمل فعلا وببعض الجهود أن تجد ألمانيا مشروعاً أفضل .

ومع أن المشروع ظفر بموافقة النقابات إلا أن الحزب رفضه وكان من المبررات العجيبة التي ذكر ويتنسكي أن الحزب ساقها لتبرير ذلك أن عليه أن يعنى بالعمال المشغلين بالفعل « إن العاطلين يعطون أصواتهم للشيوعيين والنازي ، ويجب أن ندع لهذه الأحزاب أن تفكر فيما تعمله لهم » .

فإذا كانت هذه الأفكار بدت جديدة وغريبة للاشتراكيين الديمقراطيين فمن الطبيعي أن تبدو كذلك أو أكثر لبروننج ، ومن ثم فقد فكر هذا

في اجراء اتحاد جرركى بين ألمانيا والنمسا التى كانت تعانى من الضائقة التى تعانيها ألمانيا وكان هذا يحقق نوعاً من الانتماء الاقتصادى والسياسى للبلدين، ولكن فرنسا رفضت الموافقة على مثل هذا الاجراء خشية أن يكون خطوة نحو وحدة البلدين، وفي الوقت نفسه فان عدوى الانهيار المصرفى أصابت النمسا عندما تهاوى بنك كريدت انستالت Credit Anstalt الذى كان يهيمن على ثلاثة أرباع بنوكها، وعندما طلب البنك مساعدة البنوك الأجنبية اشترطت فرنسا أن لا تتخذ النمسا أى خطوة نحو التوحيد الجرركى، فاستقالت الوزارة النمساوية وأعلن «موراتوريوم». وهكذا، فبدلاً من أن يأتى الانقاذ من النمسا، فإن تهاوى النظام المصرفى فى النمسا عجل بتهاوى البنوك الألمانية. فخلال أربعة أسابيع سحب من الريبشبنك أكثر من خمسين مليون جنيه استرلينى ذهباً. وكان عليه أن يقبض يديه عن مساعدة البنوك الأخرى التى أغلقت أبوابها وأخذت البنوك الخارجية فى لندن ونيويورك وباريس تطلب ودائعها قصيره الأجل. وتهددت العملة الألمانية بأن تبلغ ما بلغته سنة ٢٣ فأرسل الرئيس هند نبرج نداءً مؤثراً إلى رؤساء الدول، وأيد الرئيس هوفر رئيس الولايات المتحدة هذا النداء مقترحاً اعلان «موراتوريوم» لمدة سنة يمكن خلالها لألمانيا أن تلتقط أنفاسها، وتنظم أمورها، ووافقت معظم الدول ولكن فرنسا تلكأت لمدة ثلاثة أسابيع قبل أن توافق بتحفظات واضاع هذا وذاك الاثر الطيب الذى كان يمكن للموارةوريوم أن يحدثه لو وافقت عليه فرنسا تواءم.

وتجلت فوراً أعراض الأزمة التى كانت كامنه فزاد عدد العاطلين من ١٨٣٠٠٠ سنة ٢٨ إلى ٢٨٥١٠٠٠ سنة ٢٩ إلى ٤٣٨٤٠٠٠ مع نهاية عام ٣٠ إلى ٥٦٦٨٠٠٠ مع نهاية عام ٣١، وانخفضت الصادرات بنسبة ١٣٪. وبلغ العجز أكثر من بليون مارك وكان يجب بالإضافة إلى هذا كله دفع ما يقارب مائة مليون جنيه استرلينى سنوياً طبقاً لمشروع يونج وهو مبلغ

كان يمكن أن يشتري من المنتجات والمواد ثلاثة أمثال ما كان يشتريه قبل ذلك .

ودعا بروننج الحلفاء للاجتماع للنظر في قدرة ألمانيا على الدفع كما أمل أن يتجاوب معه مؤتمر نزع السلاح الذي تقرر أن يعقد في فبراير سنة ١٩٣٢ وأن يكسبه انتصارا دبلوماسيا يعزز مركزه في ألمانيا، ولكن اجراءات مؤتمر التعويضات طالت وأخذت تمتد من شهر إلى آخر لماطلة فرنسا . . كما دل التغيير الوزاري في بريطانيا واستقالة وزير الخارجية هندرسون . . على أنه لا أمل يرجى من مؤتمر نزع السلاح .

وفي الداخل — كان المسرح السياسي يعرض رواية المفارقات والمتناقضات السياسية ، فلم يكن الذين تصدوا لمعارضة بروننج من النقابات أو العمال الذين كانوا ضحية قراراته الجائرة ، إذ قضت الرواية عليهم أن يمثلوا دور الحلفاء له، بينما تصدى للمعارضة من هم أقرب إليه . . الوطنيون بقيادة الفرد هوجنبرج ، والخطوة الحديدية بزعامة سيلدت وفون سيكت والنازي ورجال المال بقيادة شاخت . وفي أكتوبر سنة ٣١ اجتمع هؤلاء في هارزبورج Harzburg وكونوا ماسمي جبهة هارزبورج لمعارضة بروننج .

وكان هذه المشكلات كلها لم تكف . . فقد كانت مدة الرئيس هندنبرج تنتهي مع آخر مارس سنة ١٩٣٢ . . وكان المرشح الوحيد سواء هو هتلر . وكان هذا يعني النهاية لبروننج ولكل جمهورية فايمار فعلم بروننج بكل قوة وأيدته معظم الأحزاب — وعلى رأسها الحزب الاشتراكي الديمقراطي — لاقتناع الماريشال الشيخ الذي كان قد بلغ من العمر عتيا وسرى إليه وهن الشيخوخة بترشيح نفسه ، واستجاب هندنبرج لنداء الواجب ورشح نفسه ونال ١٨٦٦١٧٣٦ر صوتا مقابل ١١٣٣٨٥٩١ر صوتا نالها هتلر و ٩٨٤٠٧٩ر صوتا نالها تالمان .

(مرشح الشيوعيين) ولما لم تكن الأصوات التي نالها هندنبرج تبلغ الأغلبية المطلوبة فقد أجريت انتخابات ثانية نال فيها الأغلبية .

ولم تكن هذه النتيجة انتصارا شخصيا خالصا لبروننج ، لأن هندنبرج وإن كان أفضل من هتلر فإنه لم يكن يضمم ودا خاصا لبروننج وتوالت الأحداث السيئة ، فلم يحقق بروننج نجاحا في مؤتمر نزع السلاح لمعارضة فرنسا ، وفي أبريل سنة ٣٣ طرحت بريطانيا قاعدة حرية التجارة وفرضت ضرائب جمركية متفاوتة ما بين ١٠ ٪ / ٣٣ ٪ فأضاف هذا عبئا جديدا على الصادرات الألمانية التي كان معظمها يدخل بريطانيا دون ضرائب .

وتوترت العلاقات ما بين بروننج وهندنبرج عندما فكر بروننج في المساس بأملاك الاقطاعيين والبروسيين . وكان هندنبرج قد حصل من مولر - كشرط لتصديقه على مشروع يونج - على مبلغ كبير لتعويض كبار الملاك عما حاق بضيايعهم من خسائر . وكان ثمة تقارب طبيعي بين هؤلاء الملاك وهندنبرج زاد عندما أهدوا إليه ضيعة نيودك Neudeck . وعندما دفعت الضرورات بروننج لأن يفكر في استخدام بعض هذه الضياع لتوظيف عدد من العاطلين ثار هندنبرج وتحركت حاشيته « الكاماريللا » Camarilla التي كانت في الفترة الأخيرة قد اكتسبت نفوذا كبيرا ، واوعزت إليه بأن بروننج قد خضع لتأثير البولشفيك والاشتراكيين . وقام ابنه « أوسكار » بدور كبير بحيث أصبح المارشال المسن على امتداد لاقالة بروننج .

وفي هذا الوقت كان شليشر الضابط السياسي المتأمر ينسج خيوط موأمرة جديدة ، لقد كان هو المستول بالدرجة الأولى عن إختيار بروننج ، وقد فشلت تجربة بروننج ، فلم يستطع أن يخضع الرשמستاج أو أن يكتسب تجاوب الشعب . وأصبح عليه أن يبعث عن رجل آخر يحقق له المعادلة التي يريد بها . . والتي

كان يجب بمقتضاها اكتساب تأييد الجيش وثقة النازي النجم الصاعد في سماء  
السياسة الألمانية الذي كسف شمس المجموعة الاشتراكية - الشيوعية،  
واخضاع الرشتناج بحيث يصبح هيئة تصدق على القرارات التي تضعها الوزارة  
كان شليشر يريد وزارة رآسية، تستمد سلطاتها الأساسية من الرئيس، ولكنها  
في الوقت نفسه تتركز على تأييد أو على الأقل قبول الرشتناج، وكانت هذه  
في الحقيقة عودة إلى الطريقة الامبراطورية مع تغيير طفيف يتمثل في وضع  
« رئيس الجمهورية » محل « الامبراطور » واعتقد شليشر أنه وجد الشخص  
المناسب في « فون بابين » وهو ضابط من الفرسان، ينتهي إلى فصيلة « الجونكرز »  
البروسيين وفي الوقت نفسه فإنه يمت بصلة إلى كبار الصناعيين الذين أصبح  
إليهم فتزوج بنت أحد كبارهم. وظن شليشر أن فون بابين بحكم كونه ضابطا  
بروميا وكاثوليكيا ميكنسب تأييد الوسط في الرشتناج. أما بالنسبة للنازي  
فلم يكن خافيا أنه على علاقات وثيقة بعدد من زعماء النازي وخاصة الضابط  
« روم » قائد فرق العاصفة. وفي الأسبوع الأخير من أبريل عام ٣٢ أجرى  
شليشر اتصالاته مع روم وهيلدورف وأخيرا مع هتلر، واستمرت هذه  
الاتصالات حتى الأسبوع الأول من مايو عندما عقدت الصفة في بيت شليشر  
ما بين حاشية هندنبرج (أو سكار هندنبرج - أو توميسنر) وبين هتلر على  
رفع التحريم الذي كان جرونر وزير الدفاع قد فرضه على فرق العاصفة بعد أن  
اقنع هتلر هؤلاء أن فرق العاصفة ليست جيشاً أو ميليشيا لحرب أهلية، وإنما  
هي تنظيم حزبي للدعاية الانتخابية، وانقاذ الديمقراطية البرلمانية يتطلب الإبقاء  
عليها، وفي مقابل هذا تعهد هتلر بأن يؤيد في الرشتناج الوزارة التي سيعينها  
الرئيس بعد سقوط برونيج. وكان على شليشر أن يطيح بجرونر وزير الدفاع  
ومساعد هندنبرج في الأيام الأولى. ولم يثن شليشر عن ذلك أن جرونر كان  
« الأب الروحي » له الذي رجاه وأحبه منذ وقت طويل. واستطاع شليشر  
٢٣ — ظهور وسقوط

أن يشوه صفحة جرونر لدى هندنبرج وأخبره أن من الممكن تشكيل وزارة تكتسب تأييد الرشتاج وتحكم بطريقة مشروعة ، وفي الوقت نفسه لا تكون من ممثلي الأحزاب وإنما من أشخاص يأنتمهم ويثق فيهم شخصيا ، فماد هندنبرج إلى برلين ، وفي ٢٩ مايو طلب بروننج - الذي وإن أحس بخيوط المؤامرة ، إلا أنه لم يتصور أنها قد سارت إلى هذا المدى - ولما أدخل عليه قرأ المارشال من أوراق كتبت بحروف غليظة ليكنه قراءتها وراء نظارتيه « بلغنى أن لديك في الوزارة وزراء لهم خطط بلشفية . وهذا أمر لا يمكن أن يمضى طويلا » . وطلب منه إن لا يسأله اقرار مراسيم طوارئ بعد الآن . وكان معنى هذا أن يقلل الرشتاج بروننج إن لم يستقل هو . وفي اليوم التالي استقال بروننج واتصل أوسكار هندنبرج بجورنج وطلب منه إحضار هتلر فجاء هذا ، وأخبره هندنبرج أنه عين فون بابن مستشارا فهل يعتزم حقا تأييده فرد بالاجاب .

ولم يكن لدى فون بابن مقدرة إدارية أو سياسية خاصة ولكن توفرت له مجموعة من « المواصفات » المطلوبة . فقد كان ضابطا بروسيا من ضباط الفرسان يحظى بثقة وهطف المارشال الذي رأى فيه صورة من شبابه ، كما كان بشوشا ، دبلوماسيا ، ناجحا في الدوائر والنوادي الارستقراطية ، ولكنه لم يكذب يبدأ العمل حتى اصطدم بالصعوبات . فقد رفض الوسط الكاثوليكي شروط بابن واقترح الدكتور كاس Kasse زعيم الوسط أن يقحم بالنازي في السلطة وأن يقوموا بمسؤوليتهم عمليا وعلنيا حتى يحرموا من وضع المعارضة الذي يمكنهم من النقد دون أن يوقعهم في ضرورات التطبيق ، أو يلزمهم تحقيق وعودهم المسرفة ، ولكن هذا كان يختلف عن الصيغة التي أرادها هندنبرج وجاء فون بابن على أساسها . ووجد هندنبرج نفسه في مأزق لا يستطيع التراجع فيه ، فأمر بتشكيل الوزارة من شخصيات سبق لمظلمها العمل تحت امرته ،



هوت هذه العملية بسرعة . فعين كونستانس فون نورات السفير في لندن  
وزيرا للخارجية ، وعين شليشر وزيرا للحربية وعين الكونت فون شورين  
كروميك Schwiren Krosigk وزيرا للمالية . واختير فرانز جرتز وزيرا  
للعدل . وبهذه الطريقة تكونت في الأسبوع الأول من يونيو « وزارة  
البارونات » كما أطلق عليها . وحل الرشتاج . .

وكانت الصعوبة الحقيقية التي واجهها بابين هي موقف النازي فقد كان  
يجب طبقا لشروط الصيغة اعفاء فرق العاصفة من الحظر الذي كان مفروضا  
عليها وإطلاق حريتها ومنح رجالات النازي بعض المناصب الوزارية ، ولكن  
هون بابين تردد في إطلاق حرية فرق العاصفة ، وطلب تأييدا مكتوبا من هتلر  
بتأييد الوزارة حتى بعد الانتخابات ولم يكن هتلر مستعدا لتقديم مثل هذا  
التأييد . وفي خلال هذا الوقت كانت فرق العاصفة تستعد لامتعيد حريتها  
كاملة ولتحتفل بانتصار « الفوهرر » بحيث ساد جو محوم ، ووقعت  
المصطدمات بين مجموعات من النازي ومجموعات من الشيوعيين والاشتراكيين  
في بعض المناطق بحيث أعلنت الحكومة يوم ٩ أغسطس سنة ٣٣ الأحكام  
العرفية . وفي منتصف ليل هذا اليوم نفسه عمد خمسة من النازي إلى قرية بوتبا  
Potempa من أعمال سيليزيا العليا واقتحموا بيت فحام شيوعي وانتزعوه  
من فراشه وأنهاوا عليه أمام أمه وأخيه ضربا وركلا حتى فاضت روحه وقبض  
على الجناة وأبرق إليهم هتلر مؤيدا ومشجعا . وكان لهذا أسوء الأثر لدى كل  
الدوائر السياسية - باستثناء النازي بالطبع .

وتعددت الاتصالات ما بين هتلر وأعوانه من ناحية ، وبين بابين وشليشر  
من ناحية أخرى ، وفي هذه الاتصالات طالب هتلر بالمستشارية فيما أبدى شليشر  
استعداده لمنح النازي منصب نائب المستشار ورأسه بروسيا وعددا من المناصب  
الأخرى . وقام صراع داخل بين النازي الذين يقولون « نصف الرغيف » ويفضلونه

على لا شيء والذين يُرفضون هذا النصف انتظارا للاستئثار بالرغيف كاملا في مستقبل قريب . وفي بعض هذه الاتصالات أوضح هنار أنه لا يريد السلطة حبا في السلطة، ولكن ليستطيع القضاء على الماركسية . وكان هندنبرج يضمّر نوعا من المزوف والزاوية لهنا ويضيق بأدعاءاته ويحس نحوه أحساس الضابط الارستقراطي البروسي نحو «عسكري» تمساوى فلما لم تسفر الاتصالات عن طائل تدخل هو ، وطلب هنار فجاء هذا وفي رفقته روم وفريك . وكان هندنبرج إلى جانب حبه المفقود لهنا يضمّر كراهية لروم . فاستقبل الثلاثة واقفا ومتسكئا على عصاه حتى يضطروهم للوقوف ، وليعطي الحديث معنى الاقتضاب ووقف وراء هندنبرج ابنه أوسكار ، وميسنر وبابن وشليشر وبادر هندنبرج الحديث قائلا :

— هر هنار : إن لدى موالا واحدا أحب أن أوجهه إليك : هل أنت مستعد لتقديم تعاونك مع حكومة بابن .

وفوجيء هنار بهذا الاستقبال المقتضب فتمتم بأنه عرض شروطه فسأل هندنبرج . . . وهكذا فأنت تطلب السلطة بأسرها . .

وذكر البيان الرسمي الذي صدر عن المقابلة أن هندنبرج رفض ذلك لأن ضميره وواجبه نحو الوطن لا يسمحان له بتسليم السلطة كاملة لحركة الاشتراكية الوطنية ، وأن الرئيس «يأسف لأن هر هنار لا يرى نفسه في وضع يؤيد فيه حكومة وطنية تتمتع بثقة الرئيس الأمر الذي قبله من قبل ، وما لم يذكره البيان الرسمي بالطبع هو أن هندنبرج زجر وهنار يخفى من أمامه . . « هذا الرجل مستشارا . . سأجعله » بوسطحي » يلصق الطوايح التي تحمل رسمي » . .

وفي هذا الوقت كلن بابن يحاول أن يثبت وجوده على طريقته الخاصة

ماستطاع في مؤتمر لوزان أن يخفف التعويضات المطلوبة من ألمانيا إلى قرابة ثلاثة بلايين مارك ( ١٥٠ مليون جنيه استرليني ) تدفع بعد مهلة ثلاث سنوات وبذلك انتهت قصة التعويضات الشائكة التي أريد لها أن تستمر ستين سنة أخرى . وطالب بمحو « اثم الحرب » وأن تكون ألمانيا على قدم المساواة مع الدول في التسليم ، وعندما رفض الحلفاء ذلك انسحب من المؤتمر .

وفي الداخل أوجد لإدارة للعمل التطوعي في انشاءات عامة امتصت ٢٨٠ ألفا من العاطلين ، وإن لم يقدم إليهم إلا المأوى والطعام وحاول أن يشجع المنشآت الخاصة باثباتات من الدولة بأن أصدر « شهادات ضريبية » قيمتها قرابة سبعة ملايين مارك تعطى كقروض للمنشآت التي تستخدم مزيدا من العمال بواقع شهادات قيمتها ربعمائة مارك لكل عامل يستخدم ويمكن للمنشأة أن تسدد بها ماعليها من ضرائب . وأمل باين أب ذلك سيؤدي إلى تشغيل مليون وسبعمائة وخمسين ألف عامل ، وفي الوقت نفسه سمح لأصحاب الأعمال الذين يستخدمون العاطلين بتخفيض الأجور المتفق عليها مع النقابات .

ولكن هذه السياسة حسنة أو سيئة لم تحظ بأي نوع من التأييد أو النجاح فحتى ذلك الانجاز الضخم في مجال التعويضات أطلق عليه هتلر « فشل باين » لأنه رأى أن الالتزام بدفع ثلاثة بلايين - إذا كان من الممكن عدم الدفع إطلاقا - نوع من الفشل ، وقال « إن اتفاقية لوزان لن تساوى بعد ثلاثة أسابيع ثلاثة ماركات » .

وعندما أجريت الانتخابات في نوفمبر سنة ٣٢ هبطت أغلبية النازي في الرشتاج من ٢٣٠ نائبا إلى ١٩٧ ولكنه ظل مع هذا أقوى الأحزاب ، وتطلب الأمر أن يقابل هتلر هندنبرج مرة أخرى للظفر في الوزارة المقبلة . واصطحب هتلر معه جورنج الذي كان هندنبرج يتقبله . وفي هذه المرة تطلب منه الجلوس

وسمح له بالحديث لمدة ساعة . وبدأ لأول مرة يشير اهتمام الماريشال ، وفي المرة الثانية التي رجا فيها هتلر أن تكون المناقشة مكتوبة قرأ الماريشال « إنك لتعلم أنى أناصر فكره الوزارة الرأسية . وأنا أعنى بالوزارة الرأسية وزارة لا يقودها زعيم حزبي، ولكن رجل يقف فوق الأحزاب، ويتمتع بثقوى الخاصة » وأوضح ميسنر ، الذى كان نوعاً من رئيس الديوان ، أن هذا لا يعنى الحكم ضد البرلمان « كقاعدة فإن الوزارة الرأسية يمكن أن تقوم بالاجراءات الوزارية اللازمة دون الموافقة المسبقة من البرلمان ولكنها بصفة عامة تريد تصديق ، أو تقبل البرلمان ومن ثم يفترض أن تحصل على تأييد الأغلبية » وقال هيندنبرج لهتلر إنه لما كان قد أعلن أن حركته لا تؤيد إلا وزارة يرؤسها هو ( أى هتلر ) فإن عليه أن يحصل على الأغلبية ، فإذا حصل عليها فليخطر في ظرف خمسة أيام .

وفي الوقت نفسه فقد اتضح بما لا يدع مجالاً للشك أن مغامرة فون بابن في رئاسة الوزارة - رغم ما يحق لها الادعاء به - قوبات بعداوة كل الأحزاب باستثناء حزب الشعب الذى نال خمسين صوتاً ، وأنه وقد يأس من نيل تأييد هذه الأغلبية ، أصبح يفكر في فرض دستور جديد نصف اقطاعي ، ورأى شليشر أن عليه أن يقلبه من المنصب الذى رشحه له . وهكذا فعندما اجتمعت الوزارة في صباح ديسمبر أعلن نصف الوزراء أنهم سيستقيلون ما لم يستقل بابن نفسه ، واضطر هيندنبرج رغم ميوله الخاصة وتعاطفه مع بابن أن يعفيه من الوزارة على أن يظل مستشاره الخاص . ولم يكن هناك مرشح الا شليشر الذى كان بتعبير بابن نفسه الوحيد الذى يستطيع أن يرخى التوتر ويتجنب الخلاف مع الرشتاج ، ومع أن شليشر كان يفضل الحكم وراء الستار وأن يحرك الخيوط دون أن يظهر على المسرح ، فإن هيندنبرج أصر على أن يتحمل المسئولية كاملة وعلناً . ودخل شليشر الحلبة ، كما دخلها بروننج وبابن من قبل ، آملاً التغلب على

الأزمة وخاصة «لعبة الأغلبية» ولعل شليشر يحكم أنه الأخير والأكثر خبرة. كان أقدر من غيره، ومع ذلك فقد كان القدر ياتمر بهذا المتآمر الكبير ويدخر له فشلا ذريعا... ونهاية شنيعة.

حاول شليشر أن يكسب النازي بطريقته النأمرية، فعرض على أقوى شخصية جماهيرية في الحزب - جريجور ستراسر - وليس على هتلر منصب نائب المستشار ورئيس بروسيا وكان ستراسر أحد منظمى الحزب القدامى ومن أصحاب الاتجاهات الاشتراكية والعمالية فيه. وكان قد استطاع أن يكون داخل الحزب تشكيبا عماليا يقوم على خلايا العنابر ويحمل الحروف الأولى N. S. B. O. ولكنه أضاع الفرصة السائحة. وبدلا من أن يعمل بسرعة، فإنه عندما اختلف مع هتلر قدم استقالته وسافر إلى إيطاليا حيث الشمس الساطعة وأخذ يمضى أوقاته فى الشراب متصورا أن هتلر لابد وأن يأتى إليه معتذرا.

وبالطبع لم يأبه هتلر حتى وإن اعتبر جريز وغيره أن الاستقالة كانت بمثابة «قنبلة» وعلى العكس لقد مكّنه هذا التصرف من أن يحكم قبضته على الحزب وأن يحصل على توقيعات كل قيادات الحزب، بما فيهم أصدقاء ستراسر نفسه الذين أوهنهم غيابهم - بتأييد هتلر وإدانة ستراسر. وبهذه الطريقة فشل مخطط شليشر للحصول على تأييد النازي من وراء ظهر هتلر.

وحاول شليشر اكتساب تأييد النقابات، فاتصل بتيودور ليبارت رئيس النقابات الاشتراكية الديمقراطية وتعهده برفع كل الغبن الذى أوقعه بآبن بالعمال - وبوجه خاص الانتقاص من الأجور، بحيث كتب ليبارت إلى القيادات النقابية «إن الهدف الأخير للطبقة العاملة هو تحقيق الاشتراكية، ولكنكم تعلمون أن النقابات إنما قامت لتحسين حال الطبقة العاملة فى إطار النظام الاقتصادى القائم» ومع أن قيادة الحزب الاشتراكي الديمقراطى أدانت

هذا الاتجاه ، فقد ظهرت في صحف الحزب نفسها مقالات تنادى «دعوا شليسر يعمل» وارتأى ليبارت «إن الشيء الوحيد الذى نحن الآن فى حاجة إليه هو سياسة إنتاجية وعمل حازم لتحسين وضع العمال الألمانين . وشليسر يحاول أن يحقق بعض مطالبنا . إن هذه الحكومة لن تأتينا بالاشتراكية ، نحن عالمون بذلك . ولكن هل نستطيع فى هذه الحالة أن نرفض نداءً للحكومة للمساعدة فى توفير العماله » .

وتحدث و . س . ويتنسكى عن مقابلة شليسر وليبارت فقال « ورددت الاشاعات أن رئيس الحكومة الجديد يميل إلى انتهاج سياسة وسط ، وعندما خاطب الصحافة أبدى بعض ملاحظات يراد بها كسب عطف العمال ثم دعا ليبارت إلى المستشارية وعقدت لجنة الادجيب اجتماعا طارئا للاستماع إلى تقرير ليبارت عن مقابلته مع الجنرال فقال ، « جلس قبالتى على المكتب ، ولكنه لم ينظر لى أبدا ، وبدا كأننا يحدث نفسه وقال إنه بوصفه رجلا عسكريا يفضل أن يخدم امبراطوره فى ساحة القتال ، ولكنه مستعد للدفاع عن الجمهورية ضد الشيوعيين والنازى ، وفى إمكانه أن يبعدهم إذا كانت لديه قوى يعتمد عليها ، وسألتى عما إذا كانت النقابات تؤيده إذا التزم تنفيذ برنامجها الاقتصادى أم لا .

وسألته عن نوع التأييد الذى يتوقعه منا فأجاب قائلا إن ذهنه كان يتجه للعمل المباشر والاضراب والقتال فى الشوارع ، وأخبرته أنه كان ينبغي أن يتوجه بكلامه إلى الرشستاج والحزب فقال إنه لا يثق بالسياسيين ، ولكنه على استعداد للعمل معنا ، لأنه يعتبرنا ألمانا طيبين وأمناء ، وكان يبدو مخلصا فى أقواله وقد تحمل خطرا جديا وهو يتحدث معى على هذا النحو ، ولكنى لأثق به . . إنه ليس متآمرا ينفذ أهدافه فى هدوء ، ولكنه قد يكون من أصحاب أحلام اليقظة » .

والحقيقة أن شليشر ، هذا المزيج الغريب من العسكرية والذكاء ، الانتهازية والنبالة ، هذا الجنرال الاشتراكي كما سعى نفسه كان جادا في إقامة مشروعات كبيرة من الأشغال العامة لتحقيق العمالة تبلغ قيمتها بليون مارك ، ومع أنه اضطر لخفض هذا الرقم إلى النصف ، فقد كان واضحا أنه ليس بالذي ينثنى أمام القداسات المدعاة للقوانين الاقتصادية أو الملكية أو الرأسمالية أو الاشتراكية وأنه في هذا كان أكثر استعداداً للعمل من معظم المنظرين الاشتراكيين . وليس أدل على ذلك من أنه بدأ يخالس النظر «النابو» الذي تحقق الأمانة على كل من يمسه أو يقربه : أراضى كبار الملاك في بروسيا الشرقية .

ولكن كائنة ما كانت شجاعة شليشر ، فإنها كانت منبئة ، ودون جذور وتفقد جدواها تجاه المذهب النظري والتنظيم الجماهيري ونحن لا نستطيع أن نقاوم المذاهب إلا بالمذاهب وليس بالجهود الفردية أو الاجراءات الجزئية .. إن الاجراءات لا تبلغ أبدا نهاية الطريق .. ولا تنسج أبدا لكل المجالات .. وهي توقفتنا في نصف الطريق .. أو في أحد المنعطفات .. ولا يكفي أن يكفر الإنسان بالقوانين الاقتصادية السائدة ، أو تكون لديه شجاعة لتجاهلها أو معارضتها ، لابد أن يكون لديه أيضا قوانين اقتصادية أخرى لا تقل في تماسكها عن القوانين القديمة وهذا ما كان ينقص شليشر ، ومن هنا استطاعت القوانين الاقتصادية أن تنتقم منه .

فقد شهد العام الزراعي ٣٢ — ٣٣ محصولا زراعيا وافرأ لم تشهده ألمانيا لعقود خلت وزادت الحبوب والبطاطس واللحم والزبد زيادات كبيرة ، كما كان الجو لطيفا ، وكان يجب أن يسعد هذا الشعب الألماني الذي طال جوعه وقرص برده ، ولكن الاقتصاديين تملكهم الهلع . فالشتاء اللطيف أدى إلى سقوط في استهلاك الفحم كما أدت وفرة المحاصيل إلى سقوط في أسعار الحاصلات ،

وفي هذا الوقت بالذات، بدأت أولى نتائج اتفاقية أوتواوا تظهر فقد أرغمت الضرائب البريطانية منتجي الزبدة الدنمركية على تصديرها إلى ألمانيا بأثمان رخيصة مفرقة ، فارتفع صراخ منتجي الزبدة الألمانية وطالبوا الحكومة بوضع ضريبة جمركية حامية ولم يكن شليشر راغبا في هذا حتى لا تترد الدنمرك بالمثل فتغلق الباب في وجه الصادرات الألمانية إليها ونصح منتجي الزبدة بأن يخلعوا خمسة عشر ألف طن من الزبدة الدانماركية الممتازة بزبدتهم ، ورفض المنتجون هذه النصيحة ، ورفض هو أيضا الضريبة . فأخذوا يشنون الحملات عليه ويتهمون به بمعاودة المصالح الزراعية الألمانية وادعوا أمام هيندنبرج أنه يعاملهم معاملة أسوأ مما كان يمكن أن تعاملهم به أي حكومة ماركسية وبدأوا في التآمر عليه وعندما علم شليشر بتآمر فون بابن عليه واجتماعه بهنر كشف عن بعض الفضائح في تعويض ومعونة كبار الملاك اقترفها بابن فضاغف ذلك من حق كبار الملاك وتنديدهم به .

على كل حال لم تكن القضية الزراعية هي القضية الحاسمة في وزارة شليشر رغم ما أثارته له من ضيق ، أما القضية الحاسمة فقد كانت هي قضية النازي التي لم تحل نتيجة لفشل خطة احتواء ستراسر ، وأخذت شكلا حادا عندما تدخل بابن ، المستشار الخاص لهيندنبرج والذي كان لا يزال يحتفظ بحبه وتقديره فعندما علم أن النازي يجتاز أزمة مالية عمل على الجمع ما بين هنر وبعض ممثلي المصالح المالية والصناعية الكبرى ، وبهذه الطريقة تم اللقاء المشهور بين هنر والبارون كورت فون شرويدر ، المصرفي في كولون حيث تمت تسوية تعهد بمقتضاها رجال المال بمساندة الحزب ماليا ، وتعهد هنر بالابتعاد عن الاتجاهات الاقتصادية ذات الطابع الاشتراكي - والتي كان يرفعها بعض قيادات الحزب ، كما كان هناك تقارب بين بعض دوائر الجيش والنازي اكتسبها النازي بفضل تأييد الجنرال فون بلومبرج وعدد آخر من الضباط .



وضاعفت هذه التطورات من الصعوبات أمام شليشر ووجد نفسه في مأزق ضيق ، فإما أن يحكم ديمقراطيا ، ويكون عليه عندئذ أن يستعين بالنازي وهو آخر من يؤمن بالديمقراطية. وإما أن يدمر النازي ويحل الريستناج ، وعندئذ سيوقف الجهاز الديمقراطي ويحكم بالطرق الديكتاتورية ، وفي الوقت نفسه فإن الأزمة بينه وبين الريستناج ستتحول إلى أزمة بينه وبين هندنبرج ، إذ أن شليشر إنما جاء لاكتساب تجارب أو تقبل الريستناج لسياسته ، الأمر الذي فشل فيه بابين ، وكان سببا في استعفائه .

وقد احتفظ شليشر حتى الآن بتأييد هندنبرج ، ولكن أزمة الريستناج كانت تشير له الضيق ، ثم جاءت سعايات بابين الأخيرة فبدأت تحول هندنبرج شيئا فشيئا عن شليشر وفي ٢٧ يناير اجتمع شليشر بوزرائه للنظر في الموقف - وقيل إن بعضهم اقترح أخذ بابين وهو جنبرج ووضعهما في معزل ما لتخليص الماريشال العجوز من تأثيرهما الضار كما أشيع أن فكرة تسيير الجيش من بوتسدام إلى برلين قد عرضت ، فإذا كانت هذه الاقتراحات قد ذكرت بالفعل ، فأغلب الظن أنها لم تكن أكثر من أقاويل ، ولكنها كانت كافية لتدفع أحد صغار الضباط ليهرع إلى أوسكار ( ابن هندنبرج ) ويخبره بها .

وفي اليوم التالي ( ٢٨ يناير ١٩٣٣ ) ذهب شليشر إلى هندنبرج ليطلب منه وضع أمر حل المجلس تحت يده . وطبقا لما جاء في البيان الرسمي فإن شليشر قال « إن حكومة الريخ الحالية ، بالنسبة لطبيعتها الرأسية لا تكون في وضع يمكنها من الدفاع عن برنامجها في الريستناج ما لم يضع رئيس الريخ أمر الحل تحت تصرفها » ولكن هندنبرج رفض الموافقة ، وعندئذ قال شليشر إنه لم يحل المجلس فإنه لن يستطيع أن يمنع مناقشة موضوع إعانة كبار الملاك في بروسيا الشرقية ، ولكن هذا لم يخف الماريشال الشيخ ، وإنما أثار غضبه وبعد هذا

لم يكن ثمة مجال للبقاء .. فحسر هذا الجندي الذكي الطموح المتآمر كل شيء ..  
وبعد فترة قصيرة خسر حياته نفسها على أيدي أعوان هتلر ..

أن مأساة شليشر هي أنه حاول في وقت ضيق وظروف غير مواتية أن يبني  
مأمضى طوال حياته الماضية في هدمه عندما سلط الجيش على الحركات العمالية  
والاشتراكية ، وعندما دفع بابن ليقنم الحكومة الاشتراكية في بروسيا ،  
وعندما أودى بحرونر وزير الدفاع الذي كان لديه الشجاعة لتحريم فرق  
العاصفة . ولم يكن ذلك مستطاعا .. ليس فحسب لأن البناء أصعب من الهدم ،  
ولأن الوقت ضيق ، والظرف حرج . ولكن أيضا لأنه ليس من السهل التخلص  
من لعنة الماضي وذكراه التي لاحقته ولبدت سماء العلاقات ما بينه وبين أعداء  
الأمس وحلفاء اليوم ، ومن هنا فإنه أخفق في أن يجعل من أعداء الأمس حلفاء ..  
ونجح في أن يجعل من حلفاء الأمس أعداء . ولم يكن يستطيع باعتباره  
وزير الدفاع أن يحرك الجيش ضد أعدائه .. فقد كان من بين هؤلاء الأعداء  
عدد من كبار الضباط ، بل كبير العسكريين قاطبه - هندنبرج - وهكذا  
سدت في وجهه الطرق . فلم يكن له حزب يعتمد عليه ولم يستطع أن يكسب  
تأييد النقابات ولم يكن يستطيع أن يحرك الجيش .

وعادت مرة أخرى المشكلة ، مشكلة اختيار مستشار يتمتع بثقة هندنبرج  
وتأييد الرشتاج . وكان النازي هو أقوى الأحزاب ولكن هندنبرج لم يكن  
قد تغلب بعد على كراهيته لهتلر ، وفوض هندنبرج الأمر مرة أخرى إلى  
فون بابن الذي استأنف مفاوضاته التي كانت قد بدأت منذ اجتماع كولون ،  
وفي بعض الروايات أن النقاش حول النقطة الشائكة نقطة أن يكون هتلر هو  
المستشار استمر طول الليل ولم يحسم إلا بعد أن سرت إليهم إشاعة تحرك  
الجيش من بوتسدام إلى برلين بناء على أوامر شليشر ، وأن هذا وحده هو

الذى جعل جناح فون بابين يقبل أن يكون هتلر مستشارا ، وكائنا ما كان الأمر فإن الورقة الرابعة كانت فى يد هتلر فهو زعيم الحزب الذى كسب فى انتخابات نوفمبر ١٩٣٠ نائبا وعليهم أن يخضعوا له ، ما ظلوا يتمسكون بالرشتناج . وأمكن أخيرا التوصل إلى تسوية يكون هتلر بمقتضاها مستشارا ولكن لا يدخل الوزارة سوى اثنين فحسب من النازى هما فريك وعين وزيرا للداخلية وجورنج وعين وزيرا للطيران ( وفيما بعد وزيرا للداخلية بروسيا ) أما باقى الوزراء ( وقد كان عدد الوزارات عشرة ) فقد كان أبرزهم كونستاس فون نورات وهو أحد مستشارى هندنبرج وزيرا للخارجية والجنرال فون بلومبرج وزيرا للدفاع ( ولم تكن قد اكتشفت بعد علاقته بهتلر ) وهو جنبرج وزيرا للاقتصاد والزراعة وفراز سيلت أحد زعماء الخوذة الحديدية وزيرا للعمل وفون بابين نائبا للمستشار .

وحتى آخر لحظة عندما دخل هتلر وبقية أعضاء الوزارة على هندنبرج لم يكن الشيخ العجوز قد حزم أمره ، ولكنه رضح أخيرا الضغط بابين وبقية الحاشية التى لم يكن يخالفها شك أنها أوقعت هتلر فى مأزق وأنها عرضته للمسئولية العامة دون أن تمنحه السلطة الحقيقية وكان الجميع يسهون بأن الشخص القوى والخوف فى الوزارة هو هو جنبرج ، أما هتلر فإن نفوذه ان يمدى نسبة ٣٠ ٪ ، وروى هيودالتن فى كتابه « حرب هتلر » (١) .

ان أستاذاً جامعياً جاء من المانيا وقتئذ ، وصف كيف أن فون بابين قاد هتلر « مكبلا بالأغلال » إلى حضرة هندنبرج ، وأن هذه الفكرة البارعة ، فكرة إيقال الداعية غير المسئول بضرورات السلطة كانت استثناءً سيكشف سرياً عجز هتلر عن تحقيق وعوده الانتخابية ولم تكن لتخطر لغير فون بابين الذاهية !

(1) Hitter's War, Before and After by Hugh Dalton Penquin Special p. 49.

كان هذا هو اعتقاد بابن وأنصاره ، وهو اعتقاد جعل أحد النقاد يتساءل . . ألم يسمع رجل النوادي الرشيق هذا بالسيدة الصغيرة التي ذهبت في نزهة إلى ريجا راكبة على ظهر نمر ؟ وبلا ريب فإنه كان أجدر — من الخليفة العباسي — بتحذير المتنبي :

فيا عجبا من دائل أنت سيفه أما يتوقى شفرتي ما تقلدا  
ومن يجعل الضرغام في الصيد بازه تصيده الضرغام فيا تصيدا

\* \* \*

وأين كان الحزب الاشتراكي الديمقراطي أكبر أحزاب الجمهورية وأولاهها بها خلال تلك السنوات الحاسمة . .

كان آخر العهد به عندما استقال — أو أقيل — هرمان مولر إثر تصدع الائتلاف الوزاري ورفض هندنبرج منحه سلطات استثنائية ثم جاء بروننج بسياسة إئتمال الفقير بأوزار الأغنياء ، والهبوط بالأجور والتأمينات . الخ . و أثر الحزب النفاضي عن هذا كله وتحمله وقد يصور موقفه كلام توني ساندر « لقد جوبهنا — نحن أعضاء الرشتاج الذين كن علينا أن نقرر استمرار سياسة التساح تجاه وزارة الدكتور بروننج — باختبار رهيب فإن مواصلة التساح معه كان يتطلب تضحيات جسيمة من الطبقات العاملة ، ولكنه يعني أيضا إبقاء النظام الجمهوري حتى ينقشع الكساد ، ويمكن لتحسن الاقتصاد أن يؤدي لانتخاب مجلس أفضل والقضاء على وزارة بروننج — بينما كان عدم تأييد وزارة بروننج يفسح المجال لوزارة أكثر رجعية وديكتاتورية .

ولهذا رأينا أن نحاول أولا التساح ، ولكن عندما جاء الدكتور بروننج بمرسوم لتخفيض كبير في الأجور والتأمينات والخدمات الاجتماعية شعرت أنني لا أستطيع أن أتحمل مسئولية المشاركة في تأييد هذه السياسة . إن التبشير

الوحيد للتساح كان هو الابقاء على الديمقراطية والجمهورية . ولكن من هم الناس الذين يريدون ويؤيدون الديمقراطية ؟ انهم بالدرجة الأولى الطبقات العاملة ، وتخفيض قوتهم الشرائية وإلغاء القوانين التي اكتسبوها بكفاحهم لحماية ظروف عملهم سينفرهم من الديمقراطية وسيكون تهديدا مباشراً لها . ومن هنا فإن تقبل حكومة بروننج فقد كل المعاني التي كان يتضمنها . وقد كافحت في سبيل إبراز هذه النقطة وسط فريقنا البرلماني ، محذرة من الخسائر الكبيرة في الانتخابات القادمة ، وتوهين الروح الكفاحية لدى أعضائنا ، ولكن الأغلبية — كما كان يحدث — كانت ضدي ، ومن ثم مضت سياسة التساح قدما .

وقد سنحت للاشتراكيين الديمقراطيين فرصتان كان يمكن فيهما استعادة زمام المبادرة الذي فقدوه مع سقوط وزارة مولر الأولى هي الإطاحة بالحكومة الاشتراكية في بروسيا والثانية هي مساندة شليشر ضد القوى القائمة .

وقد كانت ألمانيا جمهورية اتحادية تمثل بروسيا أقوى ولاياتها وتبلغ ثلاثة أخماس الدولة الاتحادية كلها . وكانت هي التي تولت تحقيق الوحدة الألمانية وتكوين الامبراطورية كما رأينا في الفصول السابقة . ومن الأيام الأولى للجمهورية وقد قام الحكم في بروسيا على أساس ائتلاف ما بين الاشتراكيين الديمقراطيين والكاثوليك والديمقراطيين . وفي عام ١٩٣٢ كان أوتوبرون Otto Braun الاشتراكي الديمقراطي يرأس الوزارة . وحاولت القوى الرجعية أن تفرى بروننج بالبطش بالوزارة ، ولكنه رفض . وقيل إنه هذا كان من الأسباب التي بررت استبعاده .

ما أن ولي بابين حتى أصدر في ٢٠ يوليو سنة ٣٢ مرسوما جعل به نفسه « قوميسيرا » للريخ في بروسيا ، واستدعى الوزراء إلى دار المستشارية وأخبرهم

بإعلان الأحكام العرفية ، وبتولية مهام السلطة في بروسيا ، وأن الجنرال فون دندستدت Von Rundstedt قائد قوات برلين قد أعطى سلطة تامة لتحقيق ذلك ، وأن عليهم أن يعتبروا أنفسهم مقالين .

وفي رأى أحد الكتاب ان قليلا من الأحداث في عهد ما بعد الحرب في العالم بأسره كان أ أكثر أهمية من هذا الحدث . ويمكن القول أنه قبل هذا الحدث كان الاشتراكيون الديمقراطيون ومعهم الحركة النقابية يسكون مصابر العالم بأيديهم<sup>(١)</sup> فقد كانت بروسيا هي القلعة الاشتراكية الأخيرة فهل يتمسك بها أو يفرط فيها الاشتراكيون ؟ لو أرادوا التمسك بها لما كان هناك مناص من حرب أهلية . وقد قدر أن الاشتراكيين كانوا يستطيعون تعبئة مليون وستائة وخمسين ألفا . منهم مائة ألف من المليشيا الشيوعية وأن بابن كان يستطيع تعبئة مليون وثلثمائة ألف منها مائة ألف هم الجيش النظامي ومليون من الخوذة الفولاذية ومائتي ألف من فرق الهجوم الهتلرية . ولكن قوة هذه المجموعات لا تتناسب مع أعدادها فالجيش النظامي مثلا كان أكثر قوة وتسليحا من أى تنظيم آخر ، كما أن مدى تجاوب بعض هذه الفئات ( كالشيوعيين ) مثلا كان محل مساءلة ، وفي مقابل هذا كان يمكن للثقابات أن تجرد سلاحها الرهيب « الاضراب العام » الذى شل من قبل مؤامرة كواب .

وما أن أعلن مرسوم بابن حتى توتر وتقطب ما بين العمال والحكومة ، فتجمهرت جماعات العمال في المصانع والميادين العامة وعززت الحكومة بوليسها ووزعته في مختلف المواقع وتحفز الفريقان في انتظار القرار الذى سيتخذه الاشتراكيون .

ولكن هذا القرار لم يصدر ، واضطرت الجماعات التى احتشدت حول

« انشتراس Insistrasse مقر رئاسة النقابات ولندستراس Lindenstrasse مقر مكاتب الفورواردس لأن تنصرف بعد أن نال منها التعب ، وغربت الشمس .

إن قرارا يتناسب مع حجم المشكلة وتعقيدها لم يكن ليتمكن أن يتخذ في ساعات . . لم تكن النقابات تستطيع إعلان الاضراب العام عندما كان هناك قرابة ستة ملايين متعطّل إن هذا وحده يجعل العامل المشتغل يتردد في الاستجابة ويجعل العامل المتعطّل أداة طبيعية لتحطيم الاضراب لو تم . .

ولم يكن الاشتراكيون الديمقراطيون يستطيعون الاعتماد على الشيوعيين . وحتى لو أمكن ، فإن انضمام الشيوعيين كان سيؤدي إلى تنفيذ مجموعات عديدة من الشعب وتصديقهم لدعايات الحكومة الاتحادية وقد كان الشيوعيون ، بعد ، هم أول من يريد الأطاحة بالاشتراكيين .

صحيح كان من الممكن للمقاومة أن تهجول إلى منطقة «الرينلاند» التي كانت معاهدة فرساي ولوكارنو تحرم على الجيش دخولها — وكان من الممكن الاعتماد ، ولو مؤقتا ، على البوليس الذي كان حسن التسليح وتحت إدارة اشتراكية ، وكان من الممكن أيضاً الاتصال بالولايات الجنوبية التي كانت تضيق بسياسة الجنونكرز . . ولكن هذه كلها كانت تتطلب إعدادات وترتيبات وعزيمة ولم تكن هذه موجودة . .

وقد كان التقرير الذي قدمه سيفريشج لعدم المقاومة هو أنه لم يجد من حقه أن يسفك دماء الوف العمال في معركة يحتمل أن يدخل فيها الجيش ، وهو تمييز إنساني ، وقد يستحق عليه شكر الألوف المؤلفة من زوجات وأبناء العمال الذين كان يمكن أن يكونوا أرامل أو يتامى ، ولكنه — بصرف النظر عن

مدى وجهته بالنسبة لهذه الحالة بالذات — ليس بتبرير رجل الدولة . .  
أو الدعوة ، إن الدول والدعوات لا تقوم بإيثار السلامة . . ولكن بتقديم  
التضحيات . .

وكانت المقاومة الوحيدة التي استطاعها الاشتراكيون مقاومة رمزية ،  
فعندما ذهب الدكتور براشت Dr. Bracht عمدة مدينة إسن ، الذي عينه بان  
محل سيفرينج إلى مكتب سيفرينج وأخبره أنه خليفته ، وإنه حضر لاستلام  
مهام وظيفته قال سيفرينج إنه لن يرضخ إلا للقوة ، وفي المساء حضر براشت  
وفي صحبته رئيس البوليس وضابطان واعاد طلبه ، فاعاد سيفرينج قوله ، فاضطر  
رجال البوليس إلى المسالك بسيفرينج عنوة وإخراجه من المكتب . وحدثت  
مثل هذه المشاهد في مكاتب أخرى . .

وكان سيفرينج اشتراكيا ديمقراطيا قديما ، ولكنه في الأيام الأولى للحرب  
كان هو الذي قال إن من حق القيصر أن يرسل ضابطا وعشرة جنود ليحلوا  
الرشستاج وادخله القدر هذه القولة في ضمير الغيب عشرين عاما حتى طبقها  
عليه ، بأقل من عشرة جنود .

وكانت المناسبة الثانية هي عندما سأل شليشر ، وقد ضاقت في وجه  
المسالك — زعيم الهيئة البرلمانية للاشتراكيين الديمقراطيون بريتشلد  
Breitscheid ما إذا كان الاشتراكيون الديمقراطيون على استعداد لإقامة  
المناريس في الشوارع إذا ما حل الرشستاج ولم تجر انتخابات جديدة ورد  
بريتشيلدردا عاما غير محدد ، فاتصل بليبارت زعيم النقابات وسأله السؤال  
نفسه فبلغ ليبارت وقال « ماذا عسى بك Bumke أن يظن في هذا » وبمك  
هو رئيس المحكمة الدستورية في ليبزج الذي قدم إليه الوزراء الاشتراكيون  
المقاتلون طعنا في دستورية إقالتهم .



حقيقة إن ماضى شليشر لم يكن مشجعاً ، ولكنه قدم عرضاً مغرياً ، وكان جديراً بالنظر لا بالملح ، وبدلاً من ذلك فإن سياسة التسامح التي نهجها الحزب جعلته يتحمل ويؤيد بروننج ، ثم يستسلم أمام بابن . . حتى بلغت آخر ما يمكن أن يتصور : أن يعلق الحزب الاشتراكي الديمقراطي أمله في المحافظة على الجمهورية على حرص هندبرج على الدستور وأنه ما أن ينسكت هتلر بقسمه أو ينتهك الدستور حتى يطلب هندبرج مساعدتهم في الاطاحة به ولم تكن تلك إلا إحدى التعللات التي يدفع بها المعجز إلى العقل . .

فإذا كان الضعف المتوطن في الحزب الاشتراكي الديمقراطي وإثاره السلامة قد جعله يقف موقف التسامح والسلبية فماذا كان موقف الشيوعيين الذين ظلوا من الأيام الأولى للجمهورية يشعلون الثورات الواحدة تلو الأخرى .

كان من شأن التضخم والأزمة والبطالة أن تدعم الأفكار الشيوعية عن تناقضات الرأسمالية وإفلاسها الوشيك . وكانت ألمانيا وقتئذ تقدم المثل الكلاسيكي لما تكون عليه الدولة الرأسمالية المتقدمة المهيأة للثورة الماركسية . ففي أعقاب التضخم والأزمة المالية وصل عدد العمال المتعطلين إلى ستة ملايين وكان معظم العمال الآخرين يعملون بعض الوقت وكانت المصانع الممردة والمناجم الغنية تقف عاطلة . ويعرض توزيع الثروة صورة من المفارقة تتجاوز ما تعرضه بريطانيا أو الولايات المتحدة ، ولكن كل محاولات الشيوعيين لتطبيق النظرية على الواقع أعنى القيام بالثورة باءت بالفشل ، ومن هنا فقد حدث تحول جاء مع الفاشية وكان يقدم تبريراً للفشل القديم وتأميلاً في نصر قريب ويقوم في الوقت نفسه على قطعه أخرى من قطع النظرية ، وقد صور هذا التحول متالين في خطاب له إلفي زينو فيف وبخارين « لقد يكون من الأفضل

لنا أن يضرب الفاشست أولاً - فإن هذا سيجعل كل الطبقة العاملة تلتف حول الشيوعيين » وتعمقت هذه الفكرة شيئاً فشيئاً في أذهان الشيوعيين . وعندما حذر بروننج الرأسماليين في خطاب القاه في الرشتاج في ١٣ أكتوبر سنة ٣١ أن لا يعضوا بعيداً حتى لا يدفعوا الطبقة العاملة لعمل موحد ، عقب في اليوم التالي - رمل Remmelé المتحدث باسم الشيوعيين في الرشتاج « لقد تحدث المر بروننج بكل جلاء ، فما أن يكون الفاشست في الحكم » تكون الجبهة المتحدة المضادة للفاشية وتكتسح كل شيء حولها ( تصفيق . حاد من مقاعد الشيوعيين ) من سيضرب من ؟ تلك هي القضية التي تقررته بالفعل والسؤال الباقي هو : في أي وقت سنطيح بالبورجوازية إن الفاشست لا يخيفونا .. أنهم سينتهون بأسرع من أي حكمه أخرى (صيحات حقاً<sup>(١)</sup>)

وعقب انتخابات سبتمبر سنة ٣٠ التي اكتسب النازي فيها ستة ملايين ونصف مليون صوت بعد أن لم يزد ما نالوه قبل ذلك بمائتين عن ثمانمائة ألف صوت كتبت مجلة « روت فاغن » « أمس كان اليوم العظيم لتهتلر ، ولكن هذا الانتصار الانتخابي المزعوم للنازي ليس إلا بداية النهاية » وقال تالمان زعيم الحزب الشيوعي « عقب الانتصار المذهل للاشتراكيين الوطنيين ، توقع أتباعهم الشيء الكثير منهم ، ولكننا لم نسمح لأنفسنا بأن نفضل بحالة الذعر التي سادت الدوائر العمالية وبالذات دوائر الحزب الاشتراكي الديمقراطي وقد قررنا بجديّة وإيمان إن ١٤ سبتمبر كان يعني أفضل أيام هتلر ، ولن يكون بعدها ما هو أفضل منه ، ولكن أسوأ ، وصدقت اللجنة التنفيذية بالسكومنترن على هذا ، وهنأته<sup>(٢)</sup> » .

(1) Der Fuhrer by Konrad Heiden p. 363.

(2) The Prophet Out Cast by Gassac Deutscher p. 131.

وكانت قيادة الحزب الشيوعي قد واصلت تدهورها من قمة روزا لوكسمبرج المبدعه إلى حضيض تالمان المستعبد . وحقا إن براندلر الذى خلف ليني كان قد بدأ سياسة الازدعان للكومنترن وكذلك روث فيشر التى ثارت على براندلر ، ولكن هؤلاء كانوا يملكون حتى النهاية قدرا من الشجاعة يمكنهم من تحمل طرد الكومنترن ، الأمر الذى حدث لهم جميعا وجعل الحزب الاشتراكي الديمقراطي يستعيد معظم زعماء الحزب الشيوعي الذين انشقوا عليه ، ثم وجدوا أن سياسة الحزب - على عيوبها - أفضل في النهاية من جنون الكومنترن وتمسكه بالطاعة العمياء ، ولكن هذه الصفات لم تتوفر في تالمان ولم يكن لديه الشجاعة والثقافة التى تمكنه من التصدى للكومنترن . وكانت ميزته الكبرى هي الطاعة العمياء والثقة المطلقة ، وعلى كل حال فلم يكن لديه خيار . فحلقة الطغيان الستاليني كانت تضيق شيئا فشيئا ، وتقضى على كل آثار وبقايا الحرية القديمة مهما كانت هذه الحرية محدودة أو محصورة في دائرة الحزب .

ومع سابقة الفاشية في إيطاليا والسياسة الشرسة التى أظهرها النازي بجلاء وأنه لم ينكر أبدا أن هدفه الأول هو القضاء على الشيوعية ، فإن هذه النمر كلها لم تستطع أن تنقذ الشيوعيين من عبوديتهم للنظرية أو توقعهم من أحلامهم الوردية ، على العكس لقد دفعتهم لتشديد الكرة على « الفاشست الاشتراكيين » وتعريضهم لدرجة الاتفاق مع النازي عليهم .

وعندما افتتح الرشتاج الجديد يوم ١٢ سبتمبر سنة ٣٣ استدعى الشيوعيون النائبة الشيوعية والمكافحة العنيدة « كلارا زيتكين » رفيقة روزا لوكسمبرج في الأيام القديمة من روسيا حيث كانت تقيم وتقضى سنواتها الأخيرة على الادوية .. وبالكاد تستطيع أن تتحرك .. لترأس الجلسة الاولى

للمجلس بحكم كونها أكبر الأعضاء سنا ( ٨٤ سنة ) كما كانت تقضى بذلك  
لوائح المجلس .

وتقدمت كلارا زتكن وهي تسير بصعوبة متوكلته على عصا ومستندة على  
النائب الشيوعي « تورجلر » وسط ٢٣٠ نائبا نازيا يرتدون الزي الرسمي  
والزمتهم المناسبة الصمت رغم أنهم .

واعلمت كلارا زتكن المنبر بصعوبة وفيما يشبه المعجزة استعادت هذه  
المكافحة العجوز من قواها القديمة ما جعلها ترتجل خطبة ملتبه ، سردت  
فيها كل مخازي وأخطاء الرشتاج ، ورئيس الجمهورية . وقالت إنه كن يجب  
أن يحاكم أمام الرشتاج لولا أن ذلك كاتهام الشيطان إلى جدته ، وأنها لتأمل  
أن يكون لها في القريب العاجل شرف افتتاح المؤتمر الأول للسوفيت الألمان .  
وأسفاه ! لقد كان ذلك حلما من أحلام الماضي السحيق . . وكانت ألمانيا كما  
كانت كلارا زتكن نفسها أبعد ماتكون عنه . . فقد ماتت كلارا بعد ذلك  
بقليل — كما لحقتها جمهورية فايمار في السنة التالية .

---

## الفصل العشرون

### ذلك للرجل أدولف هتلر

من كان ذلك الرجل أدولف هتلر الذي قدر له أن يقضى على جمهورية فايمار،  
ويقيم على أنقاضها دولة الحسك المطلق ويشعل أ كبر حرب عرقها البشرية  
ويمثل على مسرح العالم بأسره مأساة تصغر أمامها كل المآسى التى تصورها  
الخيال الإنسانى .

لقد ولد فى برونو على الحدود النمساوية البافارية فى أبريل سنة ١٨٨٩ من  
أب كان موظفا صغيرا فى الجمرى ، وأم تصغره بثلاثة وعشرين عاما وذهب إلى  
المدرسة فى لينز حيث وقع تحت تأثير مدرس التاريخ لودفيج بوتش . وفى سن  
الحادية عشر أعلن أنه يريد - أن يكون فنانا وأثار ذلك والده الذى كان يريد  
له أن ينشأ موظفا ولكن وفاة أبيه ثم وفاة أمه حالا دون أن يستمر فى الدراسة،  
أو يبق فى تلك البلدة الصغيرة ، فشد رحاله إلى فينا ، حاملا مجموعة من  
الرسوم والصور .

وكانت سنوات فينا - ١٩٠٩ - ١٩١٣ من أقسى السنوات على هذا الفقير  
الحائر المضطرب اليتيم فقد رفضت الأكاديمية رسومه ، واضطر لأن يواجه  
حياة العاصمة المائجة دون أن يملك مفتاحا واحدا يفتح به بابا من أبواب المجتمع  
الذى لا يفتح إلا بها ، من مال أو أسرة أو شهادة دراسية أو حرفة فتلقته  
الشوارع والنزل والأعمال العرضية يوم بعد يوم واما سنة بعد سنة دون أن يجد حيلة

أو يهتدى سبيلا ، وحز في نفسه أن يضطر لأن يعيش مع عامة العمال . ليس فحسب لما في ذلك من فاقة مدقمة ، ولكن أيضا لما اعتبره جهالة ، ورفض بشدة أن ينضم إلى « النقابة » ضارباً عرض الحائط بكل أقوالهم عن المطالب والحرفة إلخ وتحمل اضطهاداتهم ومقاطعتهم . .

ولفت فشله خلال هذه السنوات وعجزه عن الاستقرار أنظار بعض المؤرخين ، ولكن هذا لا يدل على عجز أو جبن أو ضعف ، ولكنه بإيجاز يدل على شخصية لم تتلاءم مع المقاييس والمعايير المقررة ، ولما لم يكن المجتمع البورجوازي هو المجتمع الأمثل ، فإن عدم التلاؤم هذا لا يمكن أن يحسب ضرورة عليه أو يعد نقیصة فيه .

وجاءت الحرب ، فأثقت من تلك الحياة العقيمة ، السقيمة ، المتخبطة وهيأت له مناخا يتجاوب مع مشاعره فتطوع في الجيش البافاري واشترك في القتال وأثبت بطولة ونال نشان « الصليب الحديدي » وإن لم يترق إلا إلى رتبة « جاویش » في وقت كان يمكن أن يترقى كل جندي ينبت شجاعة أو كفاية إلى رتب الضباط ، ولكن هذا أيضا لا يمكن أن يكون له دلالة سيئة ، وإنما هو يسير مع خط شخصيته العام ، فخيأوه وانطواؤه حالا دون أن يظفر برعاية رؤسائه وإن قام بواجبه خير قيام .

وعندما انتهت الحرب تلك النهاية التراجيدية المفجعة ، لم يقطع هتلر صلته بفرقته ، وعهد إليه رؤساؤه بالاستعلام عن جماعة سياسية مغمورة تعمل في ميونيخ وتحمل اسم « حزب العمال الألماني » .

كانت تلك هي اللحظة التاريخية التي أدرجها القدر لهتلر ، فالمرة الأولى بعد سنوات التيه والتخبط الطويلة يجد هتلر نفسه ، ويجد « المعامل » الذي يفجر طاقاته التي ظلت مخبوءة مجهولة ، فإذا كان حقاً أن تلك المجموعة المغمورة التي تسمى نفسها « حزب العمال الألماني » قد ولدت من جديد عندما جاءها

هتلر متجسسا عليها ، ثم مشتركا فيها ، فإن هتلر نفسه قد ولد من جديد عندما اهتدى إليها .

وكانت هذه الجماعة التي تعد على الأصابع ، وتجتمع في مقاهي ميونيخ الصغيرة تضم انتون دركسلر صانع الأقفال الذي يريد أن يجمع ما بين الاشتراكية والعمالية وجوتفريد فيدر المهندس المدني ، الذي كان يرى في « الفائدة » لعنة النظام الاقتصادي وديتريش ايكارت الكاتب وكارل هرر الصحفي ، وجاء فيما بعد روزنبرج والكابتن روم — الذي كان إلى حد ما رئيس هتلر في الجيش .

ومن الأيام الأولى وجد هتلر نفسه وهو ينغمس في هذه المجموعة التي جاء ليتجسس عليها وأصبح العضو رقم « ٧ » ولم يلبث أن أصبح زعيم المجموعة وانفرد بالإدارة بعد أن كانت تقوم بها لجنة وغير اسمها إلى « الحزب الوطني الاشتراكي للعمال الألمان » ووضع لها برنامجا من ٢٥ نقطة أذاعه بنفسه في فبراير سنة ١٩٢٠ .

وكان البرنامج يتضمن الوحدة بين كل الألمان ، وإلغاء معاهدة فرساي . وسان جرماني ، وحرمان اليهود والأجانب من الجنسية الألمانية ، وإخراج الذين جاءوا منهم بعد سنة ١٩١٤ ، وإلغاء الكسب غير المشروع ومراقبة الدولة للتسككلات الاقتصادية والإعدام للخونة .. الخ .

ولم يكن هذا إلا بداية .. فقد خرج مرة واحدة الزعيم الموهوب من جلدته المواطن المغمور وكشف فجأة عن مواهبه وأخذ يصعد ويتقدم بأسرع مما كان يفشل ويتخبط أيام فينا ، وظهر أن له قوة خارقة في التأثير على الجماهير وتحريكهم ومقدرة فذة على التنظيم وما هو أهم من هذا كله : ذكاء فطرياً وحاسة غريزية تهدي صاحبها دون علم أو ممارسة إلى اختيار المواقف السلمية .

وفي الأيام الأولى كان تقدم الحزب محدودا واضطر هتلر لأن يكسب سامعيه واحدا فواحدا ، ولكنه تقدم فخرج من دائرة العشرات إلى المئات ومن المئات إلى الآلاف وغرفه السكاكين رومهم بعدد من الشخصيات المدنية البارزة في ميونيخ ، كما اكتسب له أيضا تأييد الجنرال فون اب ، وبهذه الطرق أمكنه شراء جريدة «الفولكسبيتر» وتوصل إلى شعار الصليب المعقوف ونظم فرق العاصفة واختار لها طريقتهما في التحية وتولى تدريبها رومهم وجريجور ستراسر

وفي سنة ١٩٢٣ كادت مؤامرة هتلر في ميونيخ أن تنجح لولا أن سمح بافلات مؤن كاهن وفون سلو على ما أوضحنا ، وعندما فشلت قبض عليه وحوكم وحكم عليه بالسجن خمس سنوات في قلعة لاندسبرج واستغل هتلر المحاكمة في الإعلان عن مبادئه ، كما استغل الفترة التي أمضاها من مدة العقوبة في القلعة ، وهي تسعة شهور ، في كتابة كتابه « كفاحي » . ولكن التجربة شفت هتلر من داء الثورات والانقلابات وكانت المؤامرة هي نهاية المتآمر الثوري ، وبداية المنظم الحزبي .

وعندما مات ايبتر سنة ١٩٢٥ لم يرشح النازي هتلر للرأسه ولكنه رشح لودندورف ولم ينل لودندورف سوى قرابة ربع مليون صوت وأعطى هذا مؤشرا آخر لهتلر الذكى عن أن عهد الانقلابات العسكرية قد انتهى .

وعكف هتلر منذ أن خرج من محبسه سنة ٢٤ على بناء حزبه من جديد وكفالة التوجيه السليم له وتحقيق التوازن ما بين عنصرى الحزب : العنصر الوطنى والعنصر الاشتراكى ، ولم يكن هذا هينا بالطبع ولم يقد به هتلر إلا بعناء شديد ، وعلى حساب أحد العنصرين ضد الآخر لفترة ما - فضلا عن تزايد نفوذ فرق العاصفة وضرورة كبح جماحها بعد أن كادت الصفة العسكرية تعطى على الصفة الايديولوجية لها .



ومع هذا كله كان الحزب ينمو. ففي سنة ٢٥ كان عدد الأعضاء ٢٧ ألف. وعند نهاية سنة ٢٩ قارب ١٧٨ ألفا، وخلال هذه الفترة عقد الحزب عددا من المؤتمرات التي كانت تؤدي أغراضا متعددة فهي تثير الحماسة في نفوس الأعضاء وهي تبث الخوف والرغبة في نفوس الأعداء وتقدم دعاية عملية ولملمة على قوة الدعوة الهتلرية، كما نظمت تشكيلات نوعية وفرعية للمعلمين أو النساء أو المحامين... الخ.

على أن آثار هذا النشاط كانت إقليمية أكثر مما كانت قومية، وفي انتخابات مايو ١٩٢٨ لم يحز النازي سوى ٨٠٠ ألف صوت و ١٣ مقعدا بينما نال الاشتراكيون الديمقراطيون أكثر من تسعة ملايين، ويعود جزء كبير من عدم تجاوب الشعب مع هتلر وقتئذ إلى عودة الرخاء بفضل سياسة سترسمان ومشروع داووز.

وكان من حسن حظ هتلر أن أثارت سياسة «بروننج» الاستياء في جميع الأوساط، وأن تخوف الرأسماليون التطورات السياسية، ورأوا في هتلر حليفا قويا فتقربوا إليه، وقدموا إليه المساعدات المالية التي تكفل النهضة بحزبه والوفاء بمصروفات الدعاية الضخمة فقدم فريتز تيسن كبيرا صحاب مصانع الحديد في منطقة الرور، ورشبرج Reichberg الذي كان يطلق عليه ملك البوتاس، وكان عدوا لدودا للشيوخيين ومؤيدا لكل دعاية ضدهم، وإيفار كروجرج رجل الأعمال السويدي، كما قدمت شركة جنرال موتورز، التي كانت قد اشترت شركة أويل وبيوت الاصدار الأمريكية تسهيلات ومساعدات كبيرة. وفيما بين سنة ٢٧، ٢٨ وضع أميل كيردورف صندوق تحطيم الاضراب تحت تصرف الحزب وقدرت ميزانية الحزب من سنة ١٩٢٨ إلى آخر سنة ١٩٣٢ بأكثر من ٢٥٠ مليون مارك خصص معظمها لعمليات

الدعاية ، والاحتفاظ بقوات خاصة وصل عددها إلى ٤٠٠ ألف . .

وقد يجوز لنا أن نقطع السياق لنقول إن هذه الصلة المالية المريبة ما بين حزب النازي ورجال الصناعة تقابلها صلة مالية مريبة أخرى ما بين الحزب الشيوعي والكومنترن ، فالحزب الشيوعي كان يستمد موارده المالية من الكومنترن ، وروى كريفتينيسكى - وهو ثقة في هذه الناحية - أن الكومنترن يدفع ما بين ٩٠ ٪ و ٩٥ ٪ من مصروفات الأحزاب الشيوعية خارج الاتحاد السوفيتي وأن هذا يتم بطرق دبلوماسية أو بالوكالات التجارية ، وعندما فشلت قومة الحزب الشيوعي الألماني سنة ٣٣ تملك الحيرة ميروف - ابراموف Mirov - Abramov وكيل قسم الاتصال الدولي بالكومنترن الذي يرزله بالحروف O M S والذي يتولى تمويل الأحزاب الشيوعية الخارجية فيمن يأتئنه على توصيل الأموال للحزب حتى ظهر ولهم بيك الذي كان محل ثقة ميروف ابراموف . وكان ميروف هذا هو ممثل قسم الاتصال في ألمانيا خلال ١٩٢١ حتى ١٩٣٠ ، وكان عمله الظاهري في إدارة الصحافة بالسفارة السوفيتية في برلين ، وكان يستخدم قرابه ٣٥ شخصا من معاونين (١) .

وبالطبع ، فإن كلا من الحزب النازي والشيوعي كان يتكتم هذه الاتصالات عن جمهوره الذي كان يساعده بكل قوة بالاشتراكات ولكن هذه الاشتراكات لم تسكن لتفي بالمصروفات الضخمة لهما . وكشفت انتخابات سنة ١٩٣٠ عن التقدم الذي بلغه الحزب وصعد بالأصوات

---

(١) وقد لاقى النهاية الممودة ، فقد استدعى إلى موسكو ليعلن مساعداً لبياتنسكى Piatnisky رئيس قسم الاتصال الدولي واحد رفاق لينين المقربين وعند تصفية الحرس القديم استبعد بياتنسكى ومساعداه وفي سنة ٣٢ أعدم في التطهير .

التي نالها من ٨٠٠ ألف في انتخابات ٢٨ سنة إلى ستة ملايين ونصف . وعدد المقاعد من ١٣ إلى ١٠٧ .

\* \* \*

الحقيقة التي لا ريب فيها أن هتلر كان مهيمًا لقدره ، وأن كل الأحداث كانت تسوقه إلى هذا القدر . .

ففي الوقت الذي كان أقرانه من الفتيان يعنون بالرياضة، والبنات والدراسة والمستقبل المهني ويبدأون أولى خطواتهم على الطريق البورجوازي المقرر ، كان هتلر ، بحكم وراثته ونتيجة لبيئته ، وفاقته ومزاجه ، يجتر أحلامه ويعيش في عالم لا يمت إلى الرياضة أو اللهو وأرهفت هذه العوامل المبكرة حسه ، ونمت خياله وجعلت مشاعره تدور حول الميثولوجيا والبطولة وتأثر عميقًا بما قرأه في طفولته عن الحرب الألمانية الفرنسية في كتاب مصور ضخيم من مجلدين وجدته في مكتبة أبيه . ثم جاءت موسيقى واجتر وأبطاله . فوجدت له ألمانيا المجيدة الأسطورية وكان كل ما يقرأه — عندما كانت القراءة هي المتعة الوحيدة المتاحة له — يضرم فيه المشاعر . ويحول شيئًا فشيئًا الطموح الفني الذي ساوره في مستهل شبابه إلى رؤى البطولة التاريخية . وقد يصور هذا التأثير أنه ، وهو في قمة مجده ، قص على المستر تشمبرلين أسطورة بافاديه شائعة عن الامبراطور شارلمان الذي يجلس في كهف مستغرقًا في النوم — وقد أخذت لحيته البيضاء تسرمل في النمو وعندما تطول لدرجة تلف حول المائدة الصخرية أمامه ثلاث لغات — فإنه سوف يستيقظ وبحكم ألمانيا من جديد .

وبالإضافة إلى هذه العوامل الخاصة بالطفولة والنشأة والقراءة والثقافة فقد حفرت المعاناة القاسية التي عاناها فترات تشرده خطوطها العميقة ، وبذلك كله انتهى إلى ماعجز غيره عن الانتهاء إليه : أن من الضروري لأي مذهب

سياسى ألماني من عنصرين متكاملين الأول العنصر التاريخي البطولي الذي يمثل العنصر الذاتي في الأمة الألمانية والثاني العنصر الاجتماعي - الاشتراكي الذي يمثل العنصر الموضوعي والضروري التي يملها التعقيد الاجتماعي المعصر. وهذا منافات معظم الدعاة ورجال السياسة الألمان الذين كان كل واحد منهم يمثل عنصرا من العنصرين، أو لم يكن جمعهم للعنصرين جميعا مثاليا وبالنسب الواجبه ، أو بالعمق الذي وصل إليه هتلر .

على أن الأهم من ذلك والأكثر أصالة بالنسبة لإضافة هتلر هو أسلوب العمل الذي أحكمه ، وكان يقوم على فهمه الغريزي لنفسية الجماهير وحاسته المرفهة التي كانت تهديه إلى القرارات السليمة. وبفضل فهمه الغريزي لنفسية الجماهير أصبح الخطيب ورجل الدعاية الذي لا يشق غباره ولا يبلغ شأوه ولا يمكن الاستغناء عنه ، وبذلك استطاع أن يقهر كل المنافسين له أو المؤتلفين معه ، وأن ينفرد بالزعامة والرأسة ، ولم يكن هؤلاء ليستطيعوا شيئا مهما ضاقوا به ، ما دامت الجماهير مقتونة به ...

ولم يكن الأثر العميق لخطابة هتلر يعود إلى إحكامه للأسلوب أو اللغة الألمانية ، أو تعمقه في فهم أسرارها ، أو ثقافته الرفيعة أو منطقته السليم . الخ فهذا كله لا علاقة له البتة بعالم الإثارة . بل من الحق أنها تكون على حساب الإثارة . إن مصدر تأثير خطابة هتلر يعود إلى إيمانه التام بالمانيا وثقته المفرطة في نفسه ، وقدرته على التبسيط ، وتقديمه لحلول جذرية ، ووعود وردية ، وتركيزه وتكراره للمعاني المبسطة والوعود المؤكدة ، ولعبه على الأوتار الحساسة من حب أو بغض أو أمل . وكان إيمانه العميق يجعله يصدر هذا كله بصوت واثق وتأكيد قاطع وطاقفة متأججة ..

وتحدث أحد الذين سمعوه في عام ١٩٣٣ د كانت ألفاظه كالسياط ، ولما

تحدث عن المهانة التي لحقت بألمانيا شعرت كأني أريد أن أنقض على عدو،  
والتفت حولى فوجدت أن هذه المغناطيسية قد جذبت الآلاف كفرد  
واحد .. وأحسست بنفسوة تماثل نشوة الإيمان الدينى . وإني لمتأكد أنه ما من  
واحد سمع هتلر هذا المساء يمكن أن يشك أنه رجل القدر . والقوة التي  
سنتبث الحياة في مستقبل ألمانيا . فأعطيته روحى » .

إلى جانب هذه المقدرة الخطابية التي جعلت هتلر يؤثر في الجماهير أكثر  
مما يؤثر أى نجم سينمائى أو مسرحى ، وجعلت اجتماعات الحزب مورداً من  
الموارد المالية له ، فإن إحكامه للدعاية وفنيها لم يكن يقل عن إحكامه للخطابة .  
فالشعارات والملمصقات والأعلام والطبول والعروض الرياضية والعسكرية هي مما  
يدين به العمل السياسى لهتلر . ومما لم يكن للعالم به عهد من قبل باستثناء  
موسوليني ، ولكن هتلر فاق موسوليني في هذا كله ..

كانت السياسة في يد السياميين البرلمانيين أسلوباً روتيشيا رتبيا ، مملا ،  
يشير النوم ويبعث على الضجر ، وكانت في يد الشيوعيين علما جافاً ، وفكرة  
جبرية فجاء هتلر فجعل من السياسة فنا مثيراً ، وأعطاهم لونا قوياً .. بحيث  
أصبحت مفعمة بالعاطفة والحماة والحياة والآمال التي تنتقل من الزعيم  
إلى الجماهير ..

ووصفت ا. أ. لوريمر E. O. Loimer أحد الاجتماعات الانتخابية التي  
شهدتها في ٥ نوفمبر ١٩٣٢ في كولون فقالت « كان مكان الاجتماع قاعة  
عظيمة في أحد أبنية المعرض شرق الرين في الساحة الثامنة والنصف ، ولكن  
الأبواب فتحت من الساعة السابعة ، ووصلت المكان الساعة السابعة والدقيقة  
العاشرة فوجدت البناء قد أضاءته الأنوار وزينته الأعلام وغطيت الحوائط  
بإعلانات كبيرة كتب عليها :

## الألمان يتحدثون في هتلر حيث تعيش ألمانيا يجب أن تموت الماركسية هتلر للحرية والعمل والطعام

ازدحم البناء بالوافدين رجالا ونساء ، وبينما كانت الجموع لا تزال مستمرة في قدومها كانت موسيقى النازي تعزف ، وكان الحشد ينشد مارش الفروسيّة « فردريك الأكبر » وعيونهم مغرورة بالدموع بينما كان الرجال الطاعنون في السن يتحدثون عن الذكريات التي تثيرها في نفوسهم هذه النغمات . وكان الأطفال بائعو الجرائد يعرضون الصحف الهتلرية . وجاء أطفال في ملابس رسمية يعرضون للبيع أعلاماً وصوراً فوتوغرافية والنقود تنتقل أثناء كل هذا من يد إلى يد ونحن في صمت كصمت القبور ..

وكان مقدراً أن يأتي « الزعيم » في الثامنة والنصف ، ولكن جاء قادم يعلن أن الزعيم قرر أن يخطب اليوم في مدينة امن علاوة على خطبته التي ألقاها في بر وثام ، لهذا فإنه سيتأخر ساعة ولم تبد علامة واحدة تدل على خيبة الأمل وتقدم رجل يتحدث عن تاريخ الحركة النازية . وطال انتظارنا ساعتين ونصف وأخيراً ارتفعت الأ كف بالتصفيق فالزعيم قادم .

وما أن ظهر الزعيم وهو يسير بين صفين من أتباعه وقد انعقدت فوق رأسه الأعلام حتى هب الجميع هبة رجل واحد ، وتعالّت صيحة واحدة من ١٢٥ ألف حنجرة « هايل هتلر » واستمرت الصيحات تتعالى حتى لوح الزعيم بيده ، فخل الصمت وعاد الناس إلى مقاعدهم وأخيراً تقدم رجل من هتلر ثم قال في إيجاز « أهلاً بك في مدينتنا المقدسة كولون » حينئذ رفع الزعيم يده بالتحية النازية ثم بدأ يتكلم ..

لقد صرت ثلاثة أرباع الساعة دون أن يسعل شخص واحد وهكذا كان الجمع صامت .. الخ .

فإذا أردنا أن نقيم الإضافة الهتلرية إلى عالم السياسة لرأينا أن هتلر لم يضع نظرية ، ولم يكن منظرًا . ولكنه أنشأ حركة وقدم نظاما وأقامه على عدد محدود من الأمس السيكولوجية ، وكانت هذه الأمس تتجاوب مع نفسية الشعب الألماني وظروف مجتمعه وقتئذ كما لم يكن معظمها يخلو من أصل صحيح ، أو على الأقل بعض الصحة والسلامة وإن كان شطط هتلر في بعضها وهو شطط لم يكن منه ، فر ما دامت السياسة فنا واستثارة وديماغوجية وفي غيبة الضوابط الموضوعية ، قد أخل بالتوازن الواجب وأساء إلى ما فيها من صحة وسلامة ، فقاومة هتلر للماركسية ، ونظرته إليها كالعدو الأول الذي يهدد أمن ألمانيا وشنه لتلك الحرب العنيفة على الحزب الشيوعي أمر طبيعي تماما لأن قيادة الحزب الشيوعي كانت تتلقى أوامرها وتعليماتها وأموالها من موسكو ، ولا ينال من هذه الحقيقة جهل جمهور الأعضاء بها ، وهو أمر مشكوك فيه ، لأنه حتى جمهور الأعضاء لم يكونوا ليروا حرجاً في مثل هذه التبعية ، فلم يكن الحزب قيادة وجمهوراً في نظر كل الوطنيين سوى عميل « يتخابر » لحساب دولة أجنبية ، ولأن المثل الايديولوجي السياسي الذي تمسك به الحزب من بدأ الثورة حتى خطاب كلارا زيتكن الدراماتيكي في الرشتاج ، وهو — سوفينات العمال — كان غريباً على المجتمع الألماني وتقليداً للتجربة الروسية ، وقد سلمت السوفينات الألمانية طائفة مختارة السلطة إلى جمهورية فايمار . ولم يكن موقف هتلر صحيحاً من الناحية الموضوعية فحسب ، بل كان صحيحاً من ناحية الأسلوب والتسكتيك لأن الشيوعيين ، منذ أن كتب ماركس سطورته الملتهبة في الرين الجديدة ، ومنذ ٢٤ — ظهور وسقوط

أن ظهرت الأحزاب الشيوعية حتى الآن — وهم ينادون بسياسة « اللارحة » ويرفضون لواء البنفس وشنآن العداوة ، ويرون جميع المعسكرات غيرهم « ملة واحدة » ولا يمكن أن يفهموا العدالة كعدالة ، ولكن كضعف وهم على استعداد — يكاد يكون غريزيا — لاستغلال كل كرم نخوهم على أساس أنه « كسب من الرجعية » فسياسة هتلر الباطشة نخوهم كانت نوعا من المعاملة بالمثل ، فضلا عن أنها كانت قصاصا لموقفهم من الحزب الاشتراكي الديمقراطي وعقابا على قصر نظرهم وعقم تقديرهم .

ومن المواقف التي وقفها هتلر وعارض فيها التيار السائد دعوته المرأة لأن تعود إلى البيت وأن تعنى بالأسرة ، وكانت جمهورية فايمار قد أعطت المرأة الحقوق السياسية والاجتماعية كما دفع الاتجاه الليبرالي والرأسمالي بها إلى المصانع والمكاتب . . الخ . . ونشأت بذلك مجموعة من المشكلات التي لا بد وأن يظهرها السير وراء ماتروى الأنفس وبجفاف الطباع وتقديم الرغبات الفردية على المقتضيات الاجتماعية من منافسة بين الرجال والنساء على موارد الرزق ، وتجميع خصائص كل جنس ، وافتقاد الشهامة والرجولة في الرجال ، والدعة والعطاء في النساء ، وتهدم البيت ، وتشرد الأبناء لعدم كفاية أو فعالية دور الحضانة . فعارض هتلر هذا كله ، واستطاع أن يجعل المرأة تعود إلى البيت وتمارس وظيفتها الطبيعية السامية ، الأمومة ، وإشباع الحب والعطاء . وكان في هذا أمد نظرا من دعة التحررية وأنصار المرأة . . وأرضى الرجال والنساء معا وحل إلى حد ما مشكلة المتعطلين ، كما أقام البيت على أسسه الطبيعية من تخصص كل من الأبوين تخصصا يحقق التكامل والتعاطف ، وليس التنافس والتعارض .

واعلاء هتلر لشأن الدم قد يكون له ما يبرره لا من الناحية البيولوجية ،



والفسيولوجية فحسب ، ولكن لأن الدم له سره الخاص الذى لم يتوصل إليه العلم بعد ، وإن حامت حوله ، أو استشفته بعض الأقوال أو الأمثال الدارجة التى تنبئ عن أصل ما ولكن هتلر أخطأ دون ريب فى ما زعمه عن رقى الجنس الآرى ، لأن أرقى شئ خص الله به البشرية ، وهو الأديان السابوية الكبرى . هو مما لم يكن - فيما نعلم - للجنس الآرى نصيب فيه ، ولم يكن أسمى نموذج للأبطال - الأنبياء - من الجنس الآرى . ولم يشترك الجنس الآرى فى وضع أصول التاريخ والحضارة ، فهذا ما قامت به مصر والعراق والصين والهند . وجاء بعد ذلك اليونان والرومان ، وحتى الفضائل التى زعمها هتلر للجنس الآرى ، فإنها لا يمكن أن تعد على إطلاقها فضائل ..

كما قد يكون لهتلر مبرر فى حملته على اليهود ، ولعله لا يعدم أسبابا موضوعية وأخرى ذاتية لمثل هذه الحملة . فهذا الجنس العريق الذى جمع ما بين الملوك والأنبياء ، والقردة والخنازير . والذى ضرب الله به المثل فى كفر النعمة التى أضفاها عليه ، مقسم الولاء وهو يعود بمشاعره وعواطفه إلى اسرائيل ، وإلى ذلك التاريخ الموغل فى القدم ، والغريب تماما على المناخ الأوروبى . وقد لا تتغير هذه المشاعر حتى عندما ينتصر اليهودى ، فقد لا نجد شخصا مثل دزرائيل يصل إلى اعلaque فى المجتمع فى بريطانيا عندما كان التمسك بالمثل الفيسكتورية يكاد يكون ديننا ، يكشف فى رواياته عن مشاعر كلها اسرائيلية . . ويثبت أن فبنه للديانة الموسوية ، واكتسابه للديانة المسيحية لا يغير الحقيقة الواقعة : أنه يمت بجنوده إلى جنس غير الجنس البريطانى ، جنس آمن وصرح أنه أعرق واسمى من الجنس البريطانى نفسه ، فإذا كان المجتمع البريطانى وقتئذ من القوة وفى مرحلة من النمو والصعود ، بحيث لم يأخذ هذه المشاعر مأخذ الجد ، وأن دزرائيل نفسه كان من الذكاء بحيث يحتفظ بها رواياته ، وليس لعمله السياسى ، فإن هذا قد لا ينطبق على ألمانيا المهيضة المهزومة . وقد تحدى اليهود بعد كل المثل

الحضارية الأوروبية المعاصرة عندما أقاموا دولة « دينية » وفرضوها فرضاً على المجتمع الدولي . ومن الناحية الذاتية فقد كان اليهود في ألمانيا يشغلون مجالات الآداب والفنون ، بل يكادون يحتكرونها لدرجة دفعت هتلر لأن يقول « كل الكتاب يهود ، وكل اليهود كتاب » وكانوا يسيطرون على أجهزة الأعلام والسينما والمهن الأدبية والمحاماة والطب ، وكانوا يحتكرون صناعات بأسرها ويتحكمون في البنوك ، وكان من المستحيل التخلص منهم بغير الوسائل الهتلرية لأنهم نجحوا في فرض شبكته من الحماية Protection على أنفسهم ضد أى منافسة غير يهودية ، وأخيراً فإن التخلص من اليهود لم يكن يحل مشكلة العاطلين وتحرير الاقتصاد الألماني فمحسب ، ولكنه كان يحل عدداً من المشكلات في وقت واحد ، على أن المبرر « النظرى » للحملة على اليهود كان فيما رأى هتلر قضية الدم ومع أنه كان مخططاً فإن آخر من يجبهه بذلك هم اليهود الذين هم أول جنس عنصري في التاريخ وقد بدأت الصيحة العنصرية في العالم بأسره على لسان سارة عندما قالت « أبعد هذه المرأة الجارية - هاجر وابنها - » ونتيجة لذلك أبعد إبراهيم هاجر وابنه اسماعيل منها إلى صحراء الحجاز واستأثر اسرائيل بكرامة الاعتراف والرعاية وظلت شئنة الدم على لسان عدد كبير من المفكرين اليهود بما فيهم دزرائيلى وغيره .

وربط هتلر ما بين الشيوعية واليهودية العالمية أمر لا يخلو من الصحة بمنطق الوقائع نفسها فقد كانت الأغلبية العظمى من زعماء الشيوعيين من ماركس فنارلا من اليهود ومنطق القسمة المشتركة ما بين السياسة اليهودية والسياسة الشيوعية كما أبرزتها ممارسات اليهود والشيوعيين على مدار التاريخ فهما يتسمان بالقسوة والجبروت والذاتية قدر ما يمدان عن العدالة أو النزاهة أو الموضوعية وينميان الحقد ويتسمان بالتحلل الخلقى والانتهازية .

وبالمثل فإن التركيز على مبدأ « القيادة » والزعيم وإن كان يتجاوب تماما مع العقليّة الألمانية ، وأنه عمليا المبدأ الذى لا مناص عنه لإدارة الأمور بحزم وسرعة ، فإن المغالاة فيه إلى درجة تقديس الزعيم كانت نوعا من الردة بالإنسانية إلى اليهود الوثنية التى كان فيها القيصر أو الفرعون نوعا من الآلهة المعصوم المعبود . . وأدى هذا إلى تفشى الأخطاء وتضخمها دون أن تسكون هناك وسيلة أو محاوله لكشفها أو علاجها .

وفى المجال السياسى أنكر النازى معاهدة فرساي التى أملت على ألمانيا واستلمت الانتقام والثأر أكثر مما استلمت العدالة والحكمة وجحد التعويضات جملة وتفصيلا وكان فى هذين محقا ورزق من الشجاعة ما جعله يحققهما — الأمر الذى لم يستطعه غيره — وسار على سنن الرأسماليين والعسكريين الذين لم يجدوا وسيلة لحياة الشعب الألمانى الكثير العدد فى رقعة المحدوده إلا التوسع وبالأذات التوسع شرقا ، ولم يكن فى هذا شئ جديد ، فهو التصور البروسى — الرأسمالى التقليدى ولعله كان من الصعب وسط السياسة الأوروبية الخارجية التى قامت على الغزو والقرصنة أن نطالب هتلر بالتفكير فى حلول أخرى كتنظيم النسل أو الهجرة أو زيادة فنية العمل — وهتلر بعد أفضل من غيره عندما رفض التركيز على المستعمرات الخارجية وعنى بالتوسع شرقا .

من هذا يتضح أن معظم الأفكار التى اصطنعها هتلر لم يكن تخلو من صحة ووجاهه تدرر الأخذ بها ولم تكن كما صورها أعداؤه جنونا مطبقا . إن الجنون المعلق كان فى أسلوب الحكم . فأى حكم ديكتاتورى لابد وأن يتسم بالشطط والسرفه والتعصب الذى يجنى على الفكره أو يحملها ما ليس فيها حق يصل بها إلى الجنون . . وما تتميز به ديكتاتورية هتلر عن بقية الديكتاتوريات هى المزيد من الدقة والضبط والالتزام والتفانى . وهى كلها صفات يتميز بها الشعب الألمانى .

وعندما وضع برنامج الحزب أول مره سنة ٢٠ تضمنت نقاطه بعض النقاط ذات الطبيعة الاشتراكية وكانت تلك النقاط ثمرة تلاقى الفكر الاشتراكي للذين أسسوا الحزب قبل ظهور هتلر مع تجربة هتلر المرة في المجتمع الرأسمالى ، ولمسه المباشر لسؤات الاقتصاد الطليق وما يؤدى إليه من بطلاله وفاقه وأزمه الخ . . . وخدع الجناح الاشتراكي في الحزب بذلك بدون أن ينتبهه إلى أن هتلر كان يرى في هذه النقاط مجرد شعارات وليست مبادئ . . . وأنها لما كانت أصلا إنطبعاغاً شخصيا ، فقد أخذت تبهت وتشعب مع انفراد هتلر بزعامه الحزب، وابتعاده في الوقت نفسه عن واقع المعاناة والبطاله المؤلم ولذلك فعندما تمسك بها الجناح الاشتراكي تمسكا نظريا تصدى لهم وانسحب أوتوسر اسر زعيم هذا الجناح ونشر الانسحاب تحت عنوان الاشتراكيون ينسحبون من النازي « فخدع ذلك الرأسماليين الذين أغدقوا المساعدات على الحزب دون أن ينتبهوا إلى أن هتلر وإن تنكر للاتجاه الاشتراكي فليس لديه أقل استعداد للتشكر لمبادئه الخاصة وعندما ولى الحكم أتضح أنه ليس الألعوبه في يدهم كما تصوروا وأن عليهم أن يرضوا بما يقدمه لهم دون أن يفكروا في الاقتصاد الرأسمالى الطليق . . . وإن كان من المؤكد أن النظام النازي ، لعدد كبير من العوامل ، كان يعلى يد أصحاب الأعمال على العمال وفي التحليل الأخير فقد لا تختلف النارية الاختلاف المظنون عما هو واقع بالفعل في الدول الاشتراكية .

\* \* \*

والحقيقة أن هتلر تأثر تأثرا عميقا بمختلف الأفكار الماركسية والشيوعية والاشتراكية التي كانت تموج بها فينا وميونخ وقتئذ ، ولا ريب أنه قرأ الكثير من الكتابات الحزبية وأنه فكر طويلا في الأساليب والوسائل الشيوعية ويمكن القول دون مبالغه أن الشيوعية كانت المدرسة السياسية

لهتلر وأن لينين كان استاذ الأول ، وصحيح أن موسوليني يبدو أكثر قربا ومباشرة ولكن موسوليني بدوره تعلم في مدرسة الشيوعية وكانت التي أبرزته من عالم الخمول والنكر ، ودفعته إلى الإمام هي الشيوعية الدولية البارزة انجيليكا بالابانوف وليس عجيبا أن يتعلم هتلر على يد الشيوعيين ثم يتنكر لهم فإن هذا هو ألف باء التكتيك الشيوعي الذي بدأه ماركس عندما تعلمه على يد هيجيل واستعار أسلوبه . . ولكن ليقلب فكرته الرئيسي . .

ولس بعض الكتاب تأثر النازي بالأساليب الشيوعية فكتب السير جيوفري نوكنس « إن مظاهر وأساليب النازيه نقلت نقلا ذليلا من البلشفيك<sup>(١)</sup> » وأنه سمع الكثير في الدوائر الداخلية يتحدثون عن الجستابو باعتباره « الشيكا » وأن الجناح اليساري في النازي لم يكن يختلف عن الحزب الشيوعي إلا في اختلافات واهيه وأن التنقل بينهما كان ملحوظا كما جذب انتباهه ما جذب انتباه الكثيرين من الاتفاق في الارتفاع والانخفاض في عدد الأصوات التي ينالها الحزبان معا . . وتجاوب ذلك مع درجة الارتفاع أو الانخفاض التي تسجلها أسعار البورصة فكان الحزبان يتأثران بصفه عكسية بدرجة الازدهار ، فبقدر ما يسود الازدهار بقدر ما يهبط عدد الأصوات التي ينالها الحزبان . وقد أعاد أحد المؤرخين تسليم الشيوعيين ازاء هتلر إلى أن عددا كبيرا من أكثر العناصر عدوانيه في الشيوعيين قد انضم إلى فرق العاصفه ورحب بهم روم بفكرة أنه من الأسهل ضبطهم داخل الصفوف عن ضبطهم خارجها وأنهم لا يستطيعون الأضرار بالفرق وأن بعضا من أفضل رجاله من الشيوعيين السابقين وقال روم « دعهم يطمعون عليهم » بفتيك Beefsteakes « - أي أحمر من الداخل بني من الخارج ، كما أطلق عليهم

في برلين - فيأني أفضلهم ثوريين radicals .

ويمكن القول أنه حتى لو لم يتأثر هتلر بالتكستيك الشيوعي وهو فرض جدلي لأنه لا يمكن أن يغوت مثل هذا التكستيك ذكاء هتلر وحاسته المرهبة فإنه كان ولا بد سيسلك السبيل نفسه الذي سلكه الحزب الشيوعي - لأن الفكرتين معا شموليتان ولا بد أن تكون الوسائل واحدة أو متقاربة وإن اختلفت المصادر ...

وقد يتقارب الوصفان جدا . . . وموصوفاهما متباعدان . . .

وكل ما يمكن أن يقال أن هتلر كان يستلهم حاسته أكثر مما كان يستلهم ثقافته وإن لينين كان يستلهم ثقافته أكثر مما كان يستلهم حاسته ومن هنا فإن الوسائل التي ابتدعها لينين كانت في بعض الحالات مغلفة بطبقة من التهذيب أو النظم تجردت منها الوسائل التي وضعها هتلر فعندما جوبه لينين بمشكلة الإدارة والحسم ابتدع فكرة المركزية الديمقراطية ومع أنها كما ذكرنا في بعض كتاباتنا تسعة أعشار مركزية وعشر ديمقراطية فإنها على كل حال لم تتجرد تماما من قدر من التشاور لم يكن القاعد المثقف الذي درس التاريخ الاجتماعي والسياسي وألم في أكثر من مثل تاريخي بجزيرة الانفراد بالرأي ليسكن أن يتجاهله . ومثل هذا القدر أو الألام لم يكن متوفرا لهتلر الذي كان يستلهم حواسه وليس ثقافته ولم يكن يعنيه في شيء تجربة التاريخ ومن هنا كان المبدأ الذي يتلاءم مع هتلر هو مبدأ القيادة وما يفترضه من تسليم وطاعة عمياء ولم يكن في ذلك شيء جديد أو ما يمكن أن يعد إضافة أو إبداع أو تقدم وبالتالي فمع أن الشيوعيين كانوا سابقين في عمليات الاعتقال ، فإنهم اقتصروا على استغلال المعتقلين في العمل الجبري بينما سمح النازيون لأنفسهم باستخدام وسائل تعذيب مادية لغلبة العاطفة عليهم .

وفي صراع هتلر نحو السلطة دخل في عدد من المناورات وخاض العديد من المؤامرات مع معظم قيادات حزبه ، أو مع الذين كانوا في السلطة من هندنبرج إلى بروننج وشليشر وبابن وهو جنبرج، كما كان عليه أن يحدد موقفه من رجال الصناعة والعسكريين وفرقة الخوذة الفولاذية وأن يكبح جماح فرق الحزب . . ومع أن كل هؤلاء كانوا في فترة ما أقوى منه واعتقد كل فريق منهم أنه أذكى وأنه سيربح الصفقة ، إلا أن هتلر أثبت أنه أذكى منهم جميعا في النهاية . . وكفلت له حاسته المدهقة الانتصار عليهم .

---

## الفصل الحادي عشر

### خمس دقائق قبل الثانية عشر

أخيرا حقق هتلر حلم حياته . . وأصبح ، وهو الشاويش المساوي الذي لم يكتسب الجنسية الألمانية إلا عندما منحته إياها ولاية برونزويك ليرشح نفسه للرئاسة سنة ٣٢ مستشار الرايخ .

ولكن هتلر كان يعلم أن انتصاره ذاك ليس خالصا لوجهه ، وأن شركائه في الوزارة يترقبون به ، وأنهم يتصورون أنه سيقوم عنهم « بالعمل القذر » الذي يفقده الشعبية ويضعه أمام المواقف المستعصية والمعقدة . . ومن هنا فإن عليه أن يعمل فورا وبكل قوة .

فبعد احتفالات النصر التي سار فيها ٢٥ ألفا من شباب فرق العاصفة ما بين فندق « كيزرهوف » المقابل لدار المستشارية والذي كان يقيم فيه هتلر ، ودار الرئاسة حيث المارشال العجوز . . بدأ العمل .

كان هتلر يختلف عن بقية زعماء الأحزاب في أنه لا يعتمد على الطرق البرلمانية وحدها كقيادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، ولا يضطر إلى الوسائل التأممية كفون باين . . لأن له جيشا خاصا كان يستطيع به أن يكتسح الشوارع وكان أعداء هتلر متفرقين يعادون بعضهم بعضا . فالشيوعيون ، والحزب الاشتراكي والنقابات هم في الوقت نفسه أعداء العسكريين والملاك والوطنيين ، فإذا ضرب هتلر الأولين ، فإن يتحرك الآخرون بأمل أن يخلصهم منهم ، فإذا فعل جاء الدور



عليه ، بينما كان هو يفكر بنفس الطريقة تقريبا ، أن يتركه يقضى على الشيوعيين والاشتراكيين والنقابات ليندار عليهم بعد ذلك .

كانت عملية سباق وخداع ينتصر فيها الأسرع عملا والأكثر دهاء .

وكان ينتظر أن تتحرك القوى التي سيوجه إليها هتلر ضربته الأولى وكانت هذه القوى هي الحزب الشيوعي ، والحزب الاشتراكي الديمقراطي والنقابات .

ولم يكن خافيا أبدا أن هتلر يعتزم أن يوجه ضربته الأولى للشيوعيين الذين اعتبرهم وباء يهوديا تفتش بين الألمان ويجب استئصالهم بالارحة . وقد كانوا هم الهدف الأول لهجمات فرق العاصفة ، وفي يوم ٢٤ يناير ، أى قبل أسبوع من تشكيل الوزارة حاصرت قوات العاصفة الأحياء الشيوعية ومركز رأسه الحزب « دار كارل ليبكنشت » دون أن يستطيع الشيوعيون شيئا .

ولكن الشيوعيين كانوا ، حتى هذه اللحظة ، أسرى الفكرة المنحوسة عن أن دورهم في الحكم إنما سيكون بعد النازي ، ومن هنا فبقدر ما يتحقق هذا بسرعة بقدر ما يحين دورهم التاريخي بسرعة ، وفي ٢٣ فبراير سنة ٣٢ اتصل ماكس براور Max Brauer وهو أحد أقطاب الحزب الاشتراكي الديمقراطي وعمدة التونا بأرنست تورجلر زعيم الهيئة البرلمانية الشيوعية وأشار إلى أنها « خمسة دقائق قبل الثانية عشر » وأنه قد آن الأوان للشيوعيين أن يكفوا عن حرب الاشتراكيين الديمقراطيين ويكونوا معهم جهة متحدة أو متحالفة فقال تورجلر إن هذا لا يخطر ببالنا فيجب أن يلي النازي الحكم ، وعندئذ فخلال أربعة أسابيع ستشهد الطبقة العاملة بأسرها تحت لواء الحزب الشيوعي وظن براور أن تورجلر يعانى من بعض آثار التوتر ، ولكنه بعد عدة أيام قابل السفير السوفيتي شينشوك Chinchook في هامبورج فسأله السؤال نفسه ليتلقى الرد نفسه ، ولم يكن هناك شيء يزعزع إيمان الشيوعيين بتلك

الفكرة التي قامت على فهمهم لمبدأ « الحتمية التاريخية » والتي تماثل صورة مشبوهة للقضاء والقدر ، وفاتهم أنه حتى لو كان المبدأ نفسه صحيحا فلا يجوز الاعتماد عليه وترك الأسباب ، وأن حسابات الحتمية التاريخية المزعومة قد لا تكون بالصورة التي تصورها ، فقد تكون أبعد مدى ، كما يمكن أن تتدخل عناصر عارضة لا تؤثر هذه الحتمية فحسب ، ولكن تبعها أيضا ، وأن الحتمى وحدهم هم الذين يبيعون حاضرا مؤكدا لحساب مستقبل مظلون .

وليس أدل على تأصل تلك الفكرة في أذهان الشيوعيين من أنهم لم يتخلوا عنها حتى بعد أن شردهم الارهاب ، وظهرت أولى خصائص النازية المميزة لها فنشرت مجلة Rundschau الناطقة بلسانهم في براج في العدد ٢٣٥ الصادر في ٧ يوليو سنة ١٩٣٣ « إن الابعاد التام للفاشية الاشتراكيين<sup>(١)</sup> من جهاز الدولة والسكبت الوحشى له ولصحافته ، لا يغير من حقيقة أنهم يمثلون الآن ، كما مثلوا من قبل ، القلعة الكبرى لديكتاتورية رأس المال » وحتى نوفمبر سنة ١٩٣٣ تحدثت المجلة عن الانتخابات التي أسفرت عن أغلبية ٩٢.٢٪ نازية فقالت « إن الانتخابات التي أسفرت تمثل انتصارا كبيرا لحزب تالمان . أن الجيش الجرار للملايين الشجعان المعارضين للفاشية يؤكد صحة ماأيده اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى أكتوبر من أن دفعة ثورية جديدة قد بدأت فى ألمانيا » .

وقد يفسر « الانتصار الكبير » فقرة جاءت فى صحيفة أخرى علقت على انتخابات السار تحت ما نشأت كبير هو « هزيمة هتلر فى السار » وأوضح المقال أن هتلر يبعد — من الزارية الجدليه — مهزوما لأنه لم يحصل على نسبة ٩.٨٪ التى ادعى أنه سيحصل عليها ولم ينل سوى ٩.٠٪ وأمام هذا السخف الجدلى

(١) أى الاشتراكيين الديمقراطيين .

لا يجدى أى كلام ولا ينفع إلا منطق العمل . وكان منطق العمل أن محررى هذه المجلة ، رغم بحاجتهم النظرية أسرعوا ففلاذوا بالفرار إلى فرنسا .

وكان قرار هكركت Heckert sresolution سنة ١٩٣٣ م يدعى أن هتلر لم يهزم الطبقة العاملة ، وإنما قامت هذه « بانسحاب استراتيجى » وأن انتصار هتلر شيء حسن لأنه « شفى » الجماهير من تأثير الاشتراكيين ، وبذلك استحث خطا المانيا نحو الثورة البروتارية .

وأهم من هذه الاجتهادات الفردية ، الفتوى التى قضت بها اللجنة المركزية للكونترن عندما اجتمعت فى ديسمبر سنة ١٩٣٣ إذ جاء فيها تحت عنوان « افتراضات ديسمبر » .

« ليس العدو فى الدول الفاشية هو الفاشية ، والسكن الديمقراطية الاشتراكية إن الأزمة الثورية وتدمير جماهير غفيرة لسيطرة رأس المال يزداد ونتيجة لذلك اضطرت الرأسمالية لأن تلوذ بالديكتاتورية والإرهاب والشوفونزم المطلقة ، وقد رأى الرأسماليون فى الفاشية التى نمت فى رحم الديمقراطية البورجوازية وسيلة لإيقاد رأسمالياتهم من الانهيار . ولا تزال الديمقراطية الاشتراكية تواصل أداء دور المؤيد الأكبر للبورجوازية حتى فى الدول الخاضعة للديكتاتورية الغشيمة وذلك بمقاومتها الوحدة الثورية ما بين البلوريتاريا والاتحاد السوفيتى »

ولم يزعزع الفشل الظاهر والقاطع لهذه التحليلات والسياسات من ثقة الشيوعيين فى مبادئهم . لأن موسكو على حد تعبير كريفينسكى أحكمت وضع المبررات النظرية والإيضاحات لفشل محاولاتها فى بولندا ، والمجر و المانيا وأستونيا وبلغاريا ، وهى تملأ مجلدات دون أن يتطرق إليها احتمال خطأ قيادتها ، فقد أبقت على خرافة عصمة قيادة الكومنتر باصرار كئسى .

وبصرف النظر عن المبررات النظرية التى وضعها الحزب الشيوعى والاتحاد

السوفييتي لسلوك هذا المسلك المشبوه الخطر ، فلا يملك الإنسان إلا أن يسأل نفسه أليس هناك دوافع « نفعية » وذاتية كانت أكثر تأثيراً من المبررات النظرية التي ادعاهها الحزب الشيوعي والاتحاد السوفييتي . ومعنى آخر أليس من المحتمل أن تكون غير الحزب الشيوعي من الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، كائناً ما تلبسته هذه الغيرة من صور مذهبية هي السبب في معاداة الحزب الشيوعي للحزب الاشتراكي الديمقراطي ، خاصة وأن هذا الموقف هو الموقف التقليدي الذي وقفه قبل أن يظهر هتلر وقبل أن يتخذ دعوى « الحتمية التاريخية » سبباً لمعاداة الحزب الاشتراكي . . ؟ أليس معقولاً أن مجرد وجود حزب اشتراكي يرفع لواء الاشتراكية ويعد التسلسل المنتظم والمباشر من ماركس وإنجلز إلى كاوتسكي ويضم العمال باسم الاشتراكية كان يكفي لكي يضرر نار العداوة في الحزب الشيوعي ؟ وبالمثل فمن الواضح أن الاتحاد السوفيتي والكومنترن يهمن بالدرجة الأولى المصلحة السياسية للاتحاد السوفيتي ، وأن يكون الحزب الألماني خاضعاً له ومنصاعاً لأوامره . . ولم يكن هذا أو ذاك ليتوفران في الحزب الاشتراكي الديمقراطي وفي سياسته . . ولأن من الواضح أن سياسة النازي كانت تتفق مع مصلحة الاتحاد السوفيتي من ناحية أن النازي كان سيبدأ بشق معاهدة فرساي وجهد الديون ، وبذلك سيشتبك في عداوة مع الغرب ، الأمر الذي يتفق مع سياسة الاتحاد السوفيتي ، ومن ناحية أخرى فبقدر ما كان يمكن أن يساعد الاتحاد السوفيتي ، والكومنترن أن يكون الحزب الشيوعي الألماني قوياً بقدر ما قد يريد أن لا يكون من القوة بحيث يستغنى عنهما أو يتمرد عليهما ، وقد رأى عدد كبير من الشيوعيين السابقين أن الكرملين كان يريد بالفعل أن يعاني الحزب الشيوعي الهزيمة ، وأنه حاول هذا عمداً بأمل مواصلة وتكثيف سياسة رابالو مع هتلر . كما أن من الثابت أن الهماع تملك الاتحاد السوفيتي عندما بدأت مفاوضات ستراسمان مع بريان والتقارب الألماني الفرنسي . . ومن

الواضح أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي كان يؤيد هذه السياسة ، بل واشترك فيها ، بينما كان « الوطنيون » الألمان يحاربون هذا الاتجاه .

مثل هذه الدوافع التي تبرز فيها المصلحة المبدأ ، والذاتية بالموضوعية لا بد وأنها كانت وراء سياسة الحزب الشيوعي ، ولا بد أنها كانت من القوة بحيث تجعل الحجة المسائية للحزب الشيوعي Welt am Abend تدعو جوبلز واتوستراسر للكتابة فيها ، بينما تتصور الجماهير المدعوة « إن الاتحاد السوفيتي لن يتركنا ، إن ألمانيا ليست إيطاليا أو بلغاريا »

. . .

فإذا كان النحس النظري أو المصلحة الذاتية قد ساقط الشيوعيين على علم إلى هذا المسلك الذي لم يكن أصدقاء النازي وأعدى أعداء الحزب الاشتراكي ليقف موقفاً أكثر تشدداً منه ، فما هو عند الحزب الاشتراكي الديمقراطي نفسه الذي لم يكن لديه أي مبرر نظري أو نفسي لمسألة النازي .

الأمر الذي لا ريب فيه أن الحزب لم يستطع أن يدخل معركة بعد سنوات السلام والدعه والعمل البرلماني . فحاول أن يرجئها وأرد أن يترك النازي ماتركوه ، وأمل بطريقة ما أن ينجح في ذلك ، وفي آخر اجتماع في الهواء الطلق سمح للحزب امتشيد أوتو فيلز بالحكمة المريحة «الحكام الأشداء لا يستمرون طويلاً» .

ولكن النازي لم يكن ليترك الاشتراكيين الديمقراطيين حتى لو تركه الاشتراكيون الديمقراطيون ، وآمن بذلك عدم القيادات الصغرى التي كانت لاتزال تحتفظ بقدر من الكفاحية ، وروت توني ساند ، عضو الحزب ، وعضو الرشتاج والتي كان بها الأمر بوجه خاص . لأنها فضلاً عن هذه الصفات كلها كانت يهودية — أنها قابلت أوتو فيلز واستحثته على العمل وأن

الطبقة العاملة تفتظر أوامرهم وأن الحزب حتى لو دخل المعركة وهزم — فإن هذا أفضل من الاستسلام المهين فقال فيلر «إننا سنسكافح، ويحتمل قبل ٥ مارس». والحقيقة أن الحزب في الشهور القليلة التي سبقت تسلم هنار للحكم توصل إلى ضرورة إعادة النظر في موقفه وروى. وُلّف «الحزب الاشتراكي الديمقراطي» أنه عتد سلسلة من الاجتماعات الاستثنائية بمعدل ثلاثة اجتماعات كل أسبوع واتخذ عددا من القرارات منها استحداث الفروع للعمل على حماية الجمهورية والنظام الديمقراطي والاتصال باتحاد النقابات لتوحيد صفوفه وتنظيم حملة صحفية ضد الحزب النازي وفضح سياسته وأساليبه.

ويستطرد، وُلّف «الحزب الاشتراكي الديمقراطي» بتاريخ ٢٩-٣٠/١/١٩٣٣ عقد الحزب الاشتراكي اجتماعا موسعا برئاسة أوتوفيلز (رئيس الحزب) اشتركت فيه القيادة والكتلة البرلمانية (نواب الحزب) ولجان الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية وأعضاء مكتب الجبهة الحديدية في الحزب. وذلك لدراسة موضوع استعداد الحزب للانتخابات البرلمانية القادمة التي ستقام في شهر مارس ١٩٣٣، وموضوع موقف الحزب في حالة فوز الحزب النازي بالأغلبية المطلقة (أكثر من مجموع نصف الأعضاء).

وبعد مناقشات طويلة استغرقت أكثر من ١٥ ساعة متواصله وافق المجتمعون على اقتراح أوتوفيلز الذي ينص على مايلي : ( في حالة فوز الحزب النازي بأغلبية عادية في الانتخابات البرلمانية وتمسكن الحزب الاشتراكي في نفس الوقت من زيادة عدد مقاعده في البرلمان بنسبة ١٥٪ على الأقل عندئذ سيعلم الحزب والمنظمات التابعة له بالتعاون مع نقابات العمال الاضراب العام في البلاد وإجبار رئيس الجمهورية على عدم اختيار أدولف هنار لمنصب للمستشار، وتقرر أن يعلم هذا الاضراب تحت شعار الجبهة الحديدية لاعضاء

هذا الاضراب الصفة الشعبية، ومن ثم للمبادرة إلى تغيير القواعد العامة وإيجاد النظام الديمقراطي إلى وضعه الطبيعي) وبالفعل تم إبلاغ هذا القرار السري إلى منظمات وفروع الحزب في كافة أنحاء ألمانيا لكي تتخذ الاستعدادات لتنفيذ أوامر قيادة الحزب بهذا الخصوص.

وقبل الإتياء من هذا الاجتماع وصل إلى قيادة الحزب خبر مفاده أن المارشال هندنبورج رئيس الجمهورية ينوى غداً (١٩٣٣/١/٣١) تعيين هتلر بمنصب المستشار بسبب الضغط الهائل الذي مارسته القوى اليمينية وبعض الشخصيات السياسية المستقلة ورجال الجيش عليه ورغبته أي رغبة هندنبورج بإشراك الحزب النازي في الحكم لكي تتمكن الحكومة من معالجة الوضع الإقتصادي وضمان الاستقرار والأمن الداخلي.

وبالفعل استلم هتلر بتاريخ ١٩٣٣/١/٣١ مهام المستشار، وعلق أوتوفيلز على هذا الخبر بقوله أن هذا يدل بوضوح على مدى صحة القرار الذي اتخذناه وضرورة تنفيذه) وبعد انتهاء المؤتمر رسمياً عهد أوتوفيلز إلى هانس فوجل H. Vogel عضو قيادة الحزب مهمة القيام بجولة على المنظمات الحزبية والنقابات العمالية في كافة أنحاء ألمانيا وبحث موضوع الإضراب إنما بالتفصيل ومن ثم نقل آراء ومقترحات هذه المنظمات والنقابات بأسرع وقت ممكن إلى القيادة لدراستها قبل حلول موعد الانتخابات. وبعد عودة فوجل من جولته قدم تقريراً مفصلاً إلى قيادة الحزب تضمن أن كل شيء على مايرام وأن المنظمات الحزبية والنقابات العمالية على استعداد لتنفيذ قرار قيادة الحزب.

ووصف فوجل هذا الاستعداد بالقول: (كل ما نحتاجه هو الضغط على الزر الرئيسي لتنفيذ الإضراب العام)، ولكن فيلر كان متحفظاً تجاه هذا الوصف لأن حزب النازي بدأ هو الآخر ضمن إطار الدعاية الانتخابية اتخاذ ٢٥ - ظهور وسط

الاستعدادات اللازمة لمواجهة الطوارئ وبالذات في حالة خسارته في الانتخابات وفوز الحزب الاشتراكي الديمقراطي وقد أخذت هذه الاستعدادات الطابع العسكري وتوزيع السلاح على أعضاء الحزب وغير ذلك .

النقطة الهامة التي كان على الحزب الاشتراكي الديمقراطي أن يزنّها تماماً قبل التفكير في أي عمل هو . موقف النقابات ومدى تجاوبها الصادق وإستعدادها لدخول معركة ..

وكانت النقابات — وإن لم تتبين وقتئذ ذلك — في وضع الحزب نفسه بتسريباً ، بمعنى أن إستقلالها وكيانها ، والحقوق العمالية التي تحميها والمكاسب التي حازتها .. كلها كانت في مهب الريح ، وعرضه للضياع إذا سمح للنازي بالإنتلاق والحكم بما يريد ومن هنا ، فقد كان هناك مصلحة مباشرة للنقابات ، وعندما كانت تضع يدها في يد الحزب فإن ذلك لم يكن إنقاذاً لشعارات سياسية .. ولكن دفاعاً عن حقوق ومصالح عمالية ومادية بل وعن صميم كيانها نفسه .

ولكن النقابات الألمانية لم تكن تخضع لقيادة واحدة ، أو حتى موحدة ، لقد كانت هناك النقابات الاشتراكية الحرة التي ناصرت الحزب الاشتراكي الديمقراطي من البداية ، وكان هذا القسم هو وحده الذي كان يمكن أن يفكر في الإضراب .. أما القسم الثاني فهو النقابات الكاثوليكية التي كانت تكتسب أهميتها الخاصة من أن معظم أعضائها هم من عمال المناطق الثلاث الفنية بالفحم والحديد ، ألا وهي السار ، والروور ، وسيليزيا العليا . وكان التوجيه السياسي لهذه النقابات في يد حزب الوسط الكاثوليكي الذي رأى — حينما — أن الحزب النازي مهدد لدود للشيوعية ، وبالتالي يمكن أن يكون حليفاً للكنيسة . ومن هنا فلم يكن ينتظر أن تدخل هذه النقابات في معركة ضارية مع النازي ..



وبقدر ما أوهنت هذه النجزة قوة ووحدة الحركة النقابية ، فقد كانت هناك عوامل أخرى مشبطة عن العمل ، فلم تكن الحالة الاقتصادية سنة ٣٣ و ٣٤ كما كانت عليه سنة ٢٠ عندما قامت النقابات بإضرابها العام الناجح ضد مؤامرة كاب ، فقد كانت زيادة عدد الماطلين تضعف من فعالية أى إضراب ، بل وتهدد بتحويله إل حرب أهلية ..

وفي الوقت نفسه فإن هتلر وحركته كان لها تأثيرها الخاص على العمال لا كعمال — ولكن كألمان ومواطنين . وكان هذا الأثر يجعلهم ، وإن لم ينجحوا من صراحة إلى النازي — فإن مقاومتهم له لن تكون على أفضلها .

باختصار ، وجدت النقابات — حتى لو أرادته — أن القيام بالإضراب عمل صعب وأن نتيجته مشكوك فيها .. وأن السكاسب الوحيد في هذه المعركة ، إن لم يكن النازي فهو الحزب الشيوعي .

لقد أضعفت النقابات فرصا عديدة . كانت تمكنها من العمل ، ولكنها لم تعمل .. وعندما أرادت العمل .. لم تكن هناك فرصة .. وأصبح عليها أن تمددق الثمن .

## الفصل الثاني والعشرون

### النهاية

في ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٣ اندلعت فجأة السنة اللهب في مبنى الرشستاج  
حق كادت أن تأتي عليه .

وكل مؤرخ يلم بوقائع التاريخ يعلم أن حرائق المنشآت القومية الكبرى  
كانت من الذرائع السياسية المشهورة للقيام بإجراءات معينة أو اتخاذ مواقف  
كان يعسر اتخاذها بغير الوهج المشتعل ، ولو سجلت كل وقائع التاريخ  
لسكان من المحتمل المؤرخ أن يجد قبل حريق روما سنة ٥٠ قبل الميلاد . وبعد  
حريق القاهرة سنة ١٩٥٢ بعد الميلاد من الحرائق المأثورة ما اتخذ سبباً  
لتحقيق مآرب خاصة ...

وفي معظم هذه الحرائق عسر الوصول إلى الدليل اليقيني الذي يثبت  
الجرم على الفاعل ، ، ويكشف عن السبب الحقيقي وراء النعلة الظاهرة ولكن  
للمؤرخين عرضوا الأقوال الدائمة والشائعات المنتشرة التي وإن أعوزها دليل  
الوقائع المحكمة أو الثبوت المؤكد ، فإنه لا ينقصها دليل الوجهة ، ويصدق  
هذا على حريق روما قبل الميلاد ، كما يصدق على حريق القاهرة لمعقود خاتمة ،  
وهو أيضاً ما يصدق على حريق الرشستاج ، ففي هذه الحالات كلها ، وسواء  
كان الحريق قد تم - من البداية حتى النهاية - عمداً وقصداً ، وبتقدير محكم  
ولغايات معينة ، أو أنه حدث عرضاً ثم أحسن استغلاله .. فإن

التيبة واحدة ، استقلال الحريق لفرض ميامي غطى على الحادث نفسه  
وألقى أسبابه .

وبالنسبة لحريق مبنى الرشتاج ، فمن المعروف أن النازي كان في ٢٤ فبراير  
قد أجرى تفتيشاً لمقر الحزب الشيوعي « دار ليبكنشت » ، وأعلن جورج  
العشور على أوراق تكشف عن « واسرة لذسف وإحراق المباني الرسمية ،  
وأن ذلك سيكون إعلاناً بالثورة التي سيقوم بها الحزب ، ولكن جورج  
لم يقدم هذه الأوراق .

ولم يقبض البوليس في مكان الجريمة إلا على شخص واحد هو مارينوس  
فان درلوب وهو عامل بناء في الرابعة والعشرين من عمره ، معتوه ، وعاطل ،  
هولندي الجنسية ، وقيل إنه ينتمي إلى الحزب الشيوعي الهولندي ، وإنه قد  
خبطت معه كتيبات شيوعية ، ولكن رواية أخرى تنفي هذا على أساس أنه  
قبض عليه عند الباب لم يكن يرتدي سوى « البنطلون ويبدو أنه عندما استخدم  
أسماله في الحريق . وادعى جورج أمام مجلس الوزراء أن النائب الشيوعي  
تورجلر كان قد تحدث مع فان درلوب لعدة ساعات بمبنى الرشتاج قبل ذلك  
وأعلن أن لديه أدلة لا تقبل النقص ، وفي صباح اليوم التالي ذهب تورجلر  
بنفسه إلى البوليس وأعلن أنه لا يعرف فان درلوب ولم يقابله أبداً وأن  
اتهامه أو اتهام الحزب الشيوعي لا نصيب له من الصحة ، فقبض عليه فوراً ،  
كما قبض أيضاً على شيوعي بارز هو جورجى ديتريوف ، وهو بلغاري  
الجنسية ، وبلغاريين آخرين أيضاً أقل شأنًا هما بوبوف وثانوف .

وكان ديتريوف من أخطر عملاء الشيوعية الدولية ، وله سجل حافل في  
العمل السرى فقد كان هو الذى دبر سنة ١٩٢٥ نسف كاتدرائية صوفيا في  
اليوم الذى كان مقرراً أن يشهد القديس فيها كل زعماء الحكومة . وقد نسفت

الكاتدرائية نسفاً مروعا أدى إلى مقتل ١٥٠ شخصاً، لم يكن بينهم الأشخاص المطلوبون ، وكان ديمتريوف يعمل في ألمانيا بصفته ممثل « الكومنترن » وكان قد تلقى الأوامر من موسكو بالعودة إليها . ومع أن القبض عليه قد حال دون تحقيق هذه الرغبة في وقتها ، فقد حققها بعد ذلك على ما سنرى ، وأصبح فيما بعد سكرتيراً للدولية الحمراء الرهيبة (الكومنترن) ومن الأبطال المالمين للشيوعية ..

ودافع ديمتريوف عن نفسه دفاعاً مجيداً يتسم بالجرأة ، وهدوء الأعصاب ، وأخرج جورج الذي لم يجد للرد على أسئلته إلا الشتائم وفي النهاية برأته المحكمة ، كما برأت جميع المتهمين ، باستثناء فان درلوب الذي وجد متلبساً بالجريمة ، فقد حكم عليه بالموت .. وأعدم ..

ومع أن من حق ديمتريوف أن نعترف له بالصلاية والشجاعة في المحاكمة ، فيجب أيضاً أن نضع في حسابنا ليكون تقدير هذه الشجاعة دقيقاً الوقائع التالية :

الأولى : أن بعض الروايات تؤكد أن ديمتريوف كان من أول المحاكمة علماً بوجود اتفاق سري بين الجستابو وبين الاتحاد السوفيتي يقضى بأن ينقل ديمتريوف سالماً إلى الاتحاد السوفيتي كائناً ما كانت المحاكمة ، الأمر الذي حدث بالفعل — سواء صحت هذه الرواية أو لم تصح — إذ أركب ديمتريوف طائرة نقلته إلى الاتحاد السوفيتي<sup>(١)</sup>.

---

(١) أورد هذه الرواية «أورخان الكومنترن هاروث فيشر» ، وفرانز بوركناو في كتابين صدر الأولى سنة ٤٨ وثاني سنة ٥٣ ، وأورد هذه الآراء أرتوركوسنر في كتابه «الكتابة غير المرئية» The Invisible Writing by Artur Kosler وهو الجزء الثاني من ترجمته القذائية ص ٧٠٣ .

الثانية : أن الدور الذي قام به كسكرتير عام للكونغرس في النزاع ما بين ستالين وتيتو يوضح — على حد تعبير الكاتب ارثوكونسلو — « أن الشيوعي يميل لأن يتصرف كأحد تجاه أعدائه .. وكفأرتجاه رؤسائه في التنظيم الحزبي » .

الثالثة : إن من الخطأ أن نعتقد أن ديمتريوف كان يتصدى للنازي — كما عرف بعد — نازي الجستابو والتعذيب والحكم المطلق .. الخ .. إن هذا النازي لم يكن وقتئذ قد وجد ، بل إن ديمتريوف لم يحاكم أصلاً أمام محكمة نازية ، لقد حوكم أمام محكمة من محاكم جمهورية فيمار . ومن هنا سمحت له بحريات الدفاع التقليدية ، وضماناته أيضاً ، وأصدرت حكمها بمقتضى قانون العدالة الديمقراطية . ولو حوكم أمام محكمة نازية لاختلف الأمر سواء في موقفه ، أو في موقف المحكمة ، ولم يكن لتفديده وقتئذ شجاعته ، إذا سمح له بإظهارها ، وفي الواقع فإن هذا هو ما حدث بالفعل فيما بعد . إذ أدخل النازي طريقة تشبه محاكم الشعب ، يكون أغلبية القضاة فيها غير فنيين حتى لا تقف في سبيلهم الاعتبارات الفقهية أو الفنية أو الدفوع أو الاستشكالات ، وأخذت تصدر الأحكام على الشيوعيين والاشتراكيين .

وذكر دوجلاس ريد الذي تابع هذه القصة من اندلاع النيران حتى صدور الحكم أن الحارس الليلى للرشمتاج « البرت وندت » شهد أنه رأى أحد النواب يخرج من الرشمتاج والحريق مشتمل ويجرى دون قبة أو ياقة كما سما هو هارب . واتضح أنه الدكتور البرشت أحد نواب النازي . وعند استجواب المحكمة له ادعى أنه كان قد نسى أوراقا هامة ، فلما رأى الحريق اقتبحم طريقه لأخذها ثم عاد مسرعاً ، ولم تعلق المحكمة على هذا الزعم ، ولا على نفي وندت لرؤيته البرشت داخلاً ، كما اتضح أن نفقا يستخدم

للتكليف يصل ما بين قاعة الاجتماعات ، وقصر جورج ( رئيس المجلس )  
وأن هناك احتمالاً قوياً لاستخدام هذا النفق في إدخال المواد المتفجرة التي  
أدت إلى اشتعال الحريق ، خاصة وقد ثبت أن النفق استخدم قبل الحريق  
بفترة قصيرة عدة مرات .

ورأت المحكمة أن فان درلوب قد يكون هو المتسبب في الحريق الصغير  
الذي شب بمطعم الرشستاج ، أما الحريق الضخم بقاعة الاجتماعات فلا بد  
أنه من عمل أيدي عديدة وكميات ضخمة من المواد الملتهبة وضعت تحت  
مقاعد القاعة وربط ما بينها ، بخيوط من السيلولويد وأوقد فيها النار . .

فإذا كانت العدالة قد عجزت عن أن تهتدى إلى الفاعل مثلبساً بحكم الأدلة  
المادية ، فإن حكم المنطق ، وخاصة الرد على التساؤل التقليدي في كل جريمة  
« من المستفيد ؟ » يوضح أن المستفيد الأول هو النازي ، وأن هذا الحريق كان  
بمثابة « نجدة من السماء » كما ذكر هتلر نفسه لستيفون دلمر محرر الديلي  
تايمس ، لأنه كان التعللة المباشرة التي مكنت النازي من القضاء على الشيوعيين  
والإشتراكيين وإشاعة حكم الارهاب وإجراء الانتخابات بوسائل تحقق له  
الفوز ، وتعهد عنه منافسة الأعداء الألداء ..

وأمرع هتلر إلى المارشال الشيخ الذي روعه الأمر ، فاستصدر منه مرسوماً  
« لحماية الشعب الألماني » كان يسمح باعتقال الأفراد ، وبمصادرة الصحف  
وإيقاف الحريات ..

وواصل جورج إجراءاته التي كان قد بدأها في اليوم التالي لتعيينه وزير  
داخلية بروسيا ، فظهر الجهاز المدني وإدارة البوليس بحيث فصل كل الذين  
شك في ولائهم للنازي ، وكون فوق مساعدة Auxiliary لبوليس من فرق

العاصفة وأصدر أوامره للبوليس بإطلاق النار دون نظر إلى العواقب ، أو كما صورها بعض الكتاب « بإطلاق النار ثم التحقيق بعد ذلك » وأعتقل النواب الشيوعيين وعددا من نواب الحزب الاشتراكي ، ولكنه لم يحل الحزب الشيوعي « فن الأفضل تركه ليفتت الأصوات العمالية في الانتخابات » وبسطت فرق العاصفة جوا من الارهاب وأعلن جورنج في أحد الإجتماعات أنه لن يقف في طريقه أى حائل قانونى أو يتعلق بالعدالة ، وأنه لن يتردد فى تسخير أجهزة الدولة وبوليسها و فرق العاصفة فى صراع حتى الموت ..

ومن ناحية أخرى كان هتلر يكتسح المدن والأقاليم الألمانية بخطاباته الملتهبة ، وكان جوبلز يكتشف ويركز كل وسائل الدعاية والتأثير وكان وزير الداخلية « فريك » يحرك كل أجهزة الدولة .. حتى يأخذ النازى أغلبية ساحقة فى الانتخابات التى أجريت فى ٥ مارس .

ليس من المعجيب أن ينال النازى أكثر من ١٧ مليون صوت بزيادة خمسة ملايين ونصف مليون صوت من مجموع الأصوات التى بلغت ٣٩ مليوناً . ولكن المعجيب أنه فى هذا الجو الأرهابى والدعائى الذى يثبط العزائم ، ويخدر الحواس . ورغم كل وسائل القسر والضغط التى اتخذت ضد الحزب الشيوعى والحزب الاشتراكي الديمقراطى . فإن هذين الحزبين لم يخسرا إلا عدداً محدوداً من المقاعد ، فالحزب الشيوعى ، وإن كان قد خسر مليوناً من الأصوات ، فإنه نال خمسة ملايين وأصبح من حقه أن يمثل بواحد وثمانين نائباً ، كما نال الحزب الاشتراكي الديمقراطى ، أكثر من سبعة ملايين صوت ، وأصبح له مائة وعشرين نائباً (بخسارة مقعد واحد عن الانتخابات السابقة) .

هذه هى فضيلة ظيماز التى يجب أن تذكرها لها عند ما يلونها الآخرون بالوحل ، إن أربعة عشر عاماً من الديمقراطية والحرية الكلاسيكية والتحكك

بالشرعية والقانون قد غرست في نفوس الألمان المستسلمين الإرادة والقوة بحيث تصدوا للطغيان النازي وإرهاب فرق العاصفة . . . وكان لابد أن تخضع ألمانيا سنوات طوال ، وليس شهورا ، لأرهاب نظام شمولي محكم ، قبل أن يذوب ما غرسته الجمهورية من مثل . . . ويتبدد ما أرسنه من أسس . . . وتصبح الحكومة هي السالطة العليا الحاكمة والمهيمنة على كل شيء . . .

ولم تكن الأصوات التي نالها النازي تعطيه الأغلبية المطلوبة في الرشتاج ، وإن كان إتفاقه مع الوطنيين في الرشتاج يمكنه من الحصول عليها ولكن هتلر لم يكن بالذي يضع نفسه موضع بروننج ، وبابن . . . كان يريد أن يستريح من التحالف الحزبي ومن باب أولى وأن يعمل حراً ، وحيدا بسلطات مطلقة . . . وأراد أن يظفر من المجلس نفسه بقانون يخوله ذلك حتى لا يعد معتصباً وليحقق الديكتاتورية . . . بوسيلة ديمقراطية ، محتذياً في ذلك حذو الأسلوب الذي وضعه وعمقه الشيوعيون ، ومن هنا رسم خطة ليحصل من المجلس على قانون التمكين Enabling Bill ليطلق يده لمدة أربع سنوات . . .

وقبض النازي على النواب الشيوعيين ، وزج بهم إلى السجون بحجة الاشتراك في حريق الريشتاج ، واستراح بذلك من معارضتهم المحتملة ، ولكن بقي هناك احتمال معارضة الاشتراكيين الديمقراطيين والوسط السكاثوليكي . ومن هنا فقد وضع النازي ترتيبات انعقاد الرشتاج الذي تقرر أن يعقد يوم ٢٣ / ٣ / ٣٣ في أوبرا كرول بعناية .

وقبل الاجتماع بيوم عقد نواب الحزب الاشتراكي الديمقراطي اجتماعاً اتفقوا فيه على معارضة القانون المطلوب ومهاجمة النازي ، وكان يجب أن يلقى كلمة الحزب «برايتشايد» رئيس الهيئة البرلمانية للحزب ، ولكنه كان مريضاً ، فأصر أوتو فيلز رئيس الحزب على القيام بهذه المهمة الخطرة ، وهندسا



انعقد الاجتماع قام أوتوفيلز فهاجم هتلر ورماه بأنه يريد تجييد البرلمان كخطوة أولى نحو فرض الإرهاب، وحيا الذين رفضوا الاستسلام وتعرضوا للإرهاب والانتقام ويجب أن نذكر أن هذا الخطاب ألقى في بهرة الانتصار النازي ووسط مظاهر إرهاب لاحد لها وجماعات مدججة بالسلاح ، حتى لكان مكان الاجتماع قلعة تشن حربا ، وليس برلمانا يعقد اجتماعا ، وأن الحزب الاشتراكي الديمقراطي كان الحزب الوحيد المعارض ، لأن نواب الحزب الشيوعي كانوا في السجون . وهو إنذار لكل من يجرؤ على المعارضه ، إذا وضعنا هذا كله في حسابنا ، أدركنا أن الشجاعة لم تعوز الحزب الاشتراكي الديمقراطي حتى في أيامه الأخيرة ، وأن ما كان ينقصه في الحقيقة هو « وضوح الرؤية » التي تمكنه من تحديد الموقف ، وأنه ما أن تتوفر له حتى يجد الشجاعة التي تمكنه من الوقوف موقفا سليما ، ومن هنا فإن موقفه في ٢٣ مارس سنة ٣٣ كان أعظم دلالة من موقفه يوم ٤ أغسطس سنة ١٤ .

ومع أن السياسة التي اصطنعها هتلر كانت تقضى عليه بأن يظهر بمظهر المتساح والذي يحاول التوفيق ويعرض التعاون ، إلا أن خطاب فيلز أثاره ، فلم يكده يترك المنبر حتى اعتلاه هتلر وصب جام غضبه على الاشتراكيين ، وعندما أتم كلمته نهض « كاس » ممثل الكاثوليك وأعلن وافته حزبه ، وبذلك أكتسب القانون الأغلبية المطلوبة ، وأصبح من الممكن لهتلر أن يحكم — بنفويض من الرشتاج — حكما مطلقا لمدة أربع سنوات ..

ومن الناحية الرسمية يمكن أن يعد إصدار هذا القانون نهاية لجمهورية فايمار إلى حد كبير لولا وجود بعض النظم والاجهزة المتبقية من النظام الجمهوري التي ما عثم النازي أن أخذ يعمل للقضاء عليها ، وكان في المقدمة ، بالطبع الحزب الاشتراكي الديمقراطي .. والنقابات ..

وكان الحزب الاشتراكي الديمقراطي قد أجس بما يراديه . وبتاريخ ١٩٣٣/٤/٢٦ ، عقد الحزب الاشتراكي الديمقراطي مؤتمرا استثنائيا سرىادعا إليه قادة المنظمات والفروع الحزبية ..  
وتذكر بعض المراجع :

« ومن خلال المناقشات التي دارت في المؤتمر لاحظ فيلز أن هناك اراء جديدة أخذت تسود جو المؤتمر تنادى بضرورة ايجاد حل وسط مع النازيين لكي تخف الحملة المعادية ضد الحزب ، وبالتالي التمكن من المحافظة على كيان الحزب ومنظماته القديمة ، وهذا معناه التنازل عن بعض الأهداف والمبادئ الاشتراكية .. »

وعلق فيلز على هذا الرأي بقوله « من الواضح لدينا أن حزبنا الاشتراكي هو عبارة عن فكر وكيان ، وعلى ما يظهر إن بعض الرفاق يريدون إنقاذ كيان الحزب على حساب أفكاره وعقيدته ولكنني أقول لهؤلاء إنه إذا ماتت أو اندثرت أفكار الحزب أندثر معها كيانه التنظيمي أيضا .. »

وأضاف فيلز قائلاً إن الذين يعتقدون من رفاقنا وأنصارنا أن الفرق ما بين الحزب النازي والحزب الاشتراكي الديمقراطي ليس كبيراً فهم على خطأ تام .  
إن الفرق بين الحزبين هو كبعد السماء عن الأرض ..

أما بالنسبة للذين يعتقدون أنه كان بالإمكان إيقاف زحف النازية عن طريق العمل والنشاط الحزبي فقط فهم على خطأ أيضا ، إن الذي جاء بحزب النازي إلى الحكم في ألمانيا هو الأزمة الاقتصادية الدولية ، بالإضافة إلى عدم اتفاق الأحزاب الاشتراكية والديمقراطية فيما بينها ..

ثم توجه بحديثه إلى ممثلي النقابات العمالية وقال إن هذا ينطبق على منظماتكم أيضاً ( إذا مات الفكر مات معه التنظيم ) .

وكلام فيلز صحيح في جوهره ، ولكنه لا يبرىء الحزب الاشتراكي الديمقراطي الذي ما أن انتهت مرحلته الكفاحية مع سقوط القوانين المضادة للاشتراكية وأيام بسمارك، حتى أصبح همه الأول تغذية الكيان على حساب الفكر، وحقيقة أن الأزمة العالمية هي التي جاءت بالنازي إلى الحكم تعني ضمناً أن النازي كان أحسن استفادة منها وفهما لها من الحزب الاشتراكي الذي كان يجب عليه بسرعة أن يكيّف سياساته ومواقفه طبقاً للتطورات . فبالنسبة للازمة ، والبطالة .. الخ .. كان يمكن أن يتبنى قضية « الأشغال العامة » كأضعف الإيمان وأن ينهج السياسة التي تدافع عن الإنسان .. وليس عن العملة .. ومع ان هتلر كان ديماجوجياً إلا ان مسلكه الاقتصادي كان أكثر قرباً إلى الأمنى الجماهيرية والشمعية منها إلى مسلك الاقتصاديين الاكاديميين الذين يدخلون الميدان بعدد من المفاهيم التقليدية المقررة سلفاً . وكان اوتوفيلز بالذات - إذا صحت رواية ويتنسكى التي ذكرناها في مكان سابق - هو الذي عارض مشروعات الأشغال العامة الخ .. لانتصاص البطالة .

وكان موقف النقابات اسوأ من موقف الحزب الاشتراكي فقد تملكها الذعر ، كما لو لم تكن تملك سلاحاً ، او لم تخض معاركه . وفي غيبة المبدأ القوي والمقيمة المهمة التي تدفع إلى العمل والنضال، سادت رغبة الابتلاء على الحياة . وسلك اتحاد النقابات مسلكاً يحاول ان يثبت به بعدم عن العمل السياسي وعكوفه على العمل المهنى ، فرفض قبيل مارس ان يؤيد انتخاب الاشتراكيين الديمقراطيين وترك لكل عضو انتخاب من يراه .. وفي ١٣ إبريل اعلان هانز اهرنتيت Hans Ehrenteit في المؤتمر الإقليمي للنقابات في هامبورج « إننا على استعداد ، ومقدرة لتحقيق آمال ورغبات البلوريناريافي المناطق الاقتصادية - الاجتماعية بالاتفاق مع الحكام الراهنين ، ونحن لا نخلجنا

أقل شك أن أحداث مارس تمثل ثورة ذات عمق ، ونطاق كبير ، ثورة  
ستكتسح النظام الاقتصاد الرأسمالى الليبرالى وتضع نهاية للديمقراطية البرلمانية  
التي كانت فى السنوات القليلة الماضية مضلة وقد أقامت النقابات جسورا ما بينها  
وبين الدولة وحكامها. وعلينا الآن أن نعلن عن مسلكنا تجاه الدولة والشعب،  
ولهذا المسلك أساسه ، وأفضل الطرق فيما نرى هى أن نقيم جسورا للذين  
يريدون — بدافع من الجهالة — أن يمحطوا النقابات اليوم أكثر مما كانوا  
يريدون بالأمس . ونأمل أن يكون لدينا المقدرة للمساعدة فى ذلك . ويجب أن  
تواصل النقابات مهمتها الاجتماعية والاقتصادية . وهذه المهمة نفسها هى ما تقوم  
به الحكومة الحاضرة للريخ ، ومن هنا فإن التعاون ما بين النقابات والحكومة  
ممكّن .

وفى ٢٠ مارس سنة ١٩٣٣ نشرت الصحيفة الرسمية للاتحاد بيانا جاء فيه :  
« إن كل ما يهم سكرتارية الاتحاد العام للنقابات هو تنفيذ مطالب العمال  
وتحقيق مبدأ العدالة الاجتماعية لهم ، وليس من يتسلم مسئولية فى البلاد<sup>(١)</sup> » .  
وعلى المتحدث الرسمى باسم الحزب الاشتراكى الديمقراطى بأن هذا البيان  
لا يمثل رأى النقابات والعمال فى ألمانيا ، وإنما رأى السكرتارية فقط ، ولكن  
هذا لم يمنع السكرتارية من إرسال أحد أقطابها « لايبارت » فى اليوم التالى  
٢٠ / ٣ / ١٩٣٣ ) إلى هنر لتسليمه نسخة من البيان<sup>(٢)</sup> ..

ونشرت الصحيفة نفسها مقالا بقلم والتر باهل Pahl جاء فيه :

« إن من المؤكد أننا لا ننسكرك لجاهيرنا عندما اعترف أن انتصار  
الوطنية الاشتراكية وإن كسب فى كفاح ضد حزب ألفنا أن نراه تجسيدا

---

(٢٤١) ص ١٢٠ كتاب الحزب الاشتراكى الديمقراطى الألمانى « المشهدانى »

للاشتراكية (أى الحزب الاشتراكي الديمقراطي) فإنه يعد انتصاراً لنا أيضاً لأن الرسالة الاشتراكية وضعت لكل الشعب .

وبالطبع فإن هذا الموقف لم يكن فعلاً موقف النقابات الألمانية كلها ولا ريب أن عدداً كبيراً من القيادات النقابية — على الأقل اليهود منهم — تاروا عليه وراوا أنه لا يمثل وجهة نظرم . ولكن هذا لا يمنع أنه يمثل وجهة نظر الأغلبية التي اعتقدت أن ليس أمامها من خيار آخر .

ووصف ويتسكى نفسية القيادة النقابية هذه الأيام الفاصلة .

«وواصلنا عملنا الروتيني في الأدجيب في انتظار الضربة القادمة . ولم تعرض النقابات في مستهل عهد الريخ الثالث لاضطهاد خاص ، وكان الهجوم الذي وجه إلى أعضائها وموظفيها راجعاً أساساً إلى علاقاتهم بنشاط الحزب الاشتراكي الديمقراطي وأصبح توتر الأعصاب الناشئ عن القلق والتوقعات الغامضة من الأمور التي لا تطاق ، وذهبت إلى ليبارت وسألته عن رأيه فيما ينبغي أن تفعله الحركة العمالية المنظمة فأجاب « ليتنى أعرف لعلك تعرف الجواب » .

وقلت مقترحاً ربما لإضراب عام ..

ولكنه كان يفكر في إمكانية القيام بإضراب محلي في حالة هجوم مباشر على النقابات المحلية ، وأثار هذه المسألة في أحد اجتماعات اللجنة ، فوافق الكل بوجه عام على أنه يجب أن تكون النقابات مستعدة لمواجهة التحدى ، ولكن كيف ومتى ، واين .. كان نفس الشعور يساور جميع رؤساء النقابات « لقد فاتنا الوقت » وفي إبريل احتلت القمصان السمراء مقار نقابات عدة ، لم يبد أن مثل هذه الخطوة تبرر القيام بإضراب عام . وربما يكون إضراباً محلياً ، ولكن من الذى يأمر به ويتولى قيادته .

لقد كان يوم مايو ، وهو يوم العمل التقليدى في أوروبا يقترب حين تلقت

اللجنة خطابا من وزارة الداخلية الجديدة : لقد قررت الحكومة ان تحمل من اول مايو يوم وحدة الشعب الألماني . وسوف يرأس الفوهور نفسه الاحتفالات التي تقام بهذه المناسبة . وسوف تتاح للعامل فرصة اظهار وطنيتهم وولائهم للنظام الجديد . ودعى اتحادنا للإشتراك في العرض مع جميع الرجال والنساء الألمان الآخرين ، وسيسير اعضاء النقابات الحرة في طوابير مستقلة تحت اعلامها ، ولا شك ان اشتراكهم في العرض القومي سوف يكون شاهدا على التنسيق بينها وبين النظام الجديد .

قرأ لبيارت الخطاب في اجتماع اللجنة . وقد كان رجلا مسنا محطما ، ولهذا ارتعش صوته حين قال « هذا موقفنا ليس أمامنا خيار » .

وجلس الجميع في صمت ، والتفت لبيارت نحوى وظل هل أمامنا سبيل للاختيار ؟ لقد نصحتنا منذ عامين ياويتنسكي فاذا تقول الآن ؟

وأجبت « إن اختيارك هو أن تسلم نقاباتك إلى النازي أو تدعهم يأتون ويستولون عليها . وليس بين الأمرين فارق كبير الآن . . . ولكن سيأتي اليوم الذي يكون فيه الفارق كبيرا » .

وأخ لبيارت « بماذا تشير » .

— بعدم التسليم .

وطلب لبيارت رأى رؤساء النقابات ، فكانت إجابتهم الجماعية « ليس أمامنا خيار »

وختم لبيارت الاجتماع قائلا « سأرد على الوزارة بأن الاتحاد سوف يشترك في العرض » .

وفي أول مايو صارت النقابات كما لو كانت الأسرى الذين يسرون وراء

عربة الفاتح ، ولم يسكد ينتهى اليوم حتى داهم جورنچ النقابات في ٢ مايو واحتل جنود العاصفة مقارها واعتقلوا قادتها وزعماءها ، وفي ١٣ مايو صدرت الأوامر بمصادرة كل أموال ومقتنيات النقابات .

وتهاوت النقابات الألمانية الحرة .. وطويت صفحاتها .

\* \* \*

لم يكن الاشتراكيون والشيوعيون هم الذين يقلقون هتلر بالدرجة الأولى، إذ كان هتلر يضيق بحلفائه الداخليين أكثر مما كان يضيق بأعدائه الخارجيين وكان عليه قبل أن يصبح صاحب الكلمة الوحيدة المسموعة أن يخلص من حلفائه في الوزارة .. ومن بعض العناصر النائرة في الحزب .

وقد قام هتلر بهذه المهمة ، في المدة ما بين مارس سنة ٣٣ ويونيو سنة ٣٤ وانتهت بتلك المذبحة التي أشرف بنفسه على تنفيذها في ٣٠ يونيو ، ووضعت خاتمة لكل صورة من صور المنافسة أو المشاركة ، فضلا عن المعارضة .

ففي الفترة ما بين ٥ مارس و ١٦ مارس عني هتلر باخضاع كل الولايات لحكم مركزي قوى ، وهدم ههنا تلك الحقوق التي توارثتها الولايات الألمانية من القرون الوسطى . فكانت بروسيا في قبضة جورنچ ، وأرسل إلى بافاريا ، التي دارت فيها بعض الأحاديث عن الانشقاق وإعادة الأسرة المالكة ، الجنرال فون إيب فحكمها بيد من حديد، وأرسل إلى كل الولايات محافظين لهم سلطات كاملة .. وأخذت هذه الاجراءات شكلها الرسمي في ٣٠ يناير سنة ٣٤ عندما صدر قانون ألغى برلمانات ووزارات الولايات ، وجعلها محافظات تتبع إدارياً وزارة الداخلية ، وبصرف النظر عن الغرض الدائى للمعين ، أو النية وراء هذا الإجراء ، فيمكن أن يعد من أعظم الانجازات التي لم تظفر بعناية المؤرخين ، والتي حقق هتلر بها ما عجز عنه حتى إسبارك - رجل الدم والحديد ، وكان في ٢٦ - ظهور وسقوط

هذا أيضا - على ما في ذلك من مفارقة - محققاً لأحد الأهداف التي وضعها في بيانها « اتحاد سبورتا كوس » .

وأخذت الأحزاب المشتركة مع هتلر في الحكم ، وبوجه خاص هوجنبرج وبابن بتطور الأحداث وأدركت خطأها، ولكن بعد أن فات الأوان، ووجدت نفسها في موقف الحزب الاشتراكي الديمقراطي نفسه فاستسلمت وفضلت أن تحل نفسها بيدها .

وما بين يونيو ويوليو حل الحزب الديمقراطي ، وحزب الشعب ، وحزب الوسط الكاثوليكي ، ودفع هوجنبرج الفخور لأن يحل حزبه « الحزب الوطني » أما سيلدت رئيس الخوذة الفولاذية فقد انضم بفرقة إلى فرق العاصفة ، وفي ١٤ يوليو أصدرت الحكومة أمرا رسميا أعلنت أن « النازي هو الحزب السياسي الوحيد في ألمانيا » .

وبذلك طويت صفحة الأحزاب كما طويت بالمثل صفحة الولايات وكما طويت من قبل صفحة النقابات .

وفي دوائر النازي نفسه كان نوع من التحفز والتقطب يحدث ما بين القوى المحافظة وما بين العناصر التي احتفظت بطابع اشتراكي .. ما بين الصفة السيامية المدنية للحزب والصفة العسكرية التي تضخمت بتضخم فرق العاصفة ، وما كانت تقوم به من دور كبير في حراسة الحزب وإرهاب خصومه ، وكان على رأس فرق العاصفة أرنست روم ، الرئيس العسكري المباشر « للشاويش » هتلر في الجيش ثم زميله في الحزب .. والرجل الذي بنا الفرق وأشرف على تدريبها وكان يمكن لروم أن يقتنع بأن يكون جمع رأس جيش شعبي يبلغ تعداداه ما بين ٢ و ٣ مليون وأن يقف إلى جانب الزعيم . ولكن مشاعر روم كانت غير ذلك سواء لأنه عاشر هتلر معاشرة رئيس لمروؤس . أو زميل لزميل، أو لأنه



كان يؤمن بأفكار اشتراكية أبعد مما كان هتلر على استعداد لأن يمضي إليها . . أو لأنه كان يضيق بتشهير بعض قيادات الحزب بانحرافه الجنسي . . أو لغيرته من هؤلاء الأقران الذين كان بعضهم مثل جورنج ، يتقلدون بحكم صفاتهم السياسية والمدنية مناصب المسؤولية في الدولة . . في المحصلة الأخيرة ظهر أن روهم يداعب فكرة « الثورة الثانية » وأنه يختلف مع هتلر فهتلر اعتبر وصوله إلى الحكم تكليلاً للثورة . . ولم يعد يريد إلا العمل . . والتنفيذ ، وهذا بالطبع لأن فكره كان يدور حول نفسه ، ولكن روهم الذي كان فكره لا يدور حول الزعيم ولكن حول مبادئ موضوعية أو نظريات معينة ، أو حول نفسه هو ، رأى أن ما وصل إليه هتلر لا يمثل إلا المرحلة الأولى من الثورة ، وأنه لابد من مرحلة ثانية ، أو حتى ثورة ثانية . . وتفكير روهم في ذلك أمر ثابت تاريخياً ، ولا يمكن الطعن فيه وقد تحدث معه في هذا ، وبأدله روهم الحديث « لوديك » عضو الحزب القديم ، وحاول أن يجمع ما بين روهم وجريجور ستراسر . وفي يونيو سنة ٣٣ دار حديث طويل بينهما عن تعظيم الحزب ، واطلع روهم محدثه (لوديك) على إحدى صحف الحزب الشهرية التي نشرت مقالاً بعنوان « فرق العاصفة والثورة الألمانية » جاء فيه « لقد اكتسب انتصار واحد على طريق الثورة الألمانية . ولن تسمح فرق العاصفة ولا فرق الهجوم التي تتحمل المسؤولية الكبرى في دفع الثورة الألمانية — بأن تنام الثورة أو أن تخضع في منتصف الطريق ، فإذا كان الغلاة يعتقدون أن الثورة الوطنية قد بقيت أكثر من اللازم ، فقد آن الأوان لأن تنتهى الثورة الوطنية ، وأن تصبح ثورة وطنية اشتراكية . إننا سنواصل كفاحنا بهم أو بدونهم ، وعند الضرورة ، ضدهم . . إننا الحماة الذين لم يتطرق إليهم الفساد للثورة الألمانية » كما كان روهم قد ألقى خطاباً في إبريل ١٩٣٤ قال فيه « إن الثورة الألمانية ليست وطنية ، ولكنها وطنية اشتراكية ، مع تركيز خاص

على كلمة اشتراكية . ويوجد رجال في مناصب مشغولة ليس لديهم أقل فكرة عن روح هذه الثورة، ومستخلص منهم بلا رحمة إذا جرؤا على وضع أفكارهم الرجعية موضع التنفيذ » .

ومن المحتمل أن يعود هذا التطور الأخير في أفكار روم إلى تطور وضعه ، منذ أن كان « كابتن » في الجيش الرسمي إلى قائد لفيالق العاصفة ، وأن هذا التطور وضعه وفرقه موضع المنافسة للجيش الرسمي الذي كان يمثل التقاليد البروسية الوطنية والذي أخذ يضيق بفرق العاصفة ، ولما لم يكن روم يستطيع أن ينافس الجيش في اصطناع الوطنية ، فإنه ، تدريجياً وشيئاً فشيئاً اصطنع الاشتراكية وأصبح يؤمن بسياسة التحالف مع روسيا ضد الرأسمالية والغرب وهذا - في غيبة احتمال أى إيمان نظرى أو مبدئى بأصول الاشتراكية - هو المبرر الوحيد لاتجاه روم ، هذا الاتجاه الجديد الذى جعله « كابتن اشتراكى » قدر ما كان شليشر « جنرال اشتراكى » .

ومن المحتمل ان روم في تحوله من اليمين إلى اليسار كان متأثراً ، ولو حتى دون ان يشعر ، بواقعة معينة هى ان فرق الهجوم فى الفترة الأخيرة امتصت عدداً كبيراً من الشيوعيين الذين عمدوا منذ أوحى قبل أن حل حزبهم سنة ١٩٣٣ إلى التسلل إليها . وكان روم عالماً بهذا التسلل ، وكان يفخر به كدلالة على تسليم الشيوعيين بانتصاره كما سبق وذ كرنا فى الوقت الذى كان للشيوعيين مأرب أخرى . وفى هذه اللعبة الخطرة كثيراً ما يصبح الصائد هو الصيد ، وليس من العجيب ان يجد روم نفسه ، وقد حرم مما يعتقد انه حقه من مناصب السلطة ومرا كز النفوذ ، وهو ينحاز شيئاً فشيئاً إلى افكار اعدائه السابقين ، ومن المسلم به على كل حال ان انضمام الشيوعيين إلى فرق العاصفة استمر حتى بعد تصفية روم ، وكان سبباً فى تصفية الفرق نفسها فى خريف ١٩٤١ على

ماروى مؤلف قطار برلين الأخير عندما اكده البعض له ان ٤٠٪ من أعضاء الفرق كانوا من الشيوعيين السابقين ، وان بعض هؤلاء وصلوا إلى أعلى المناصب فى الفرق . ومع ان هوارد .ك. سميت مؤلف قطار برلين الأخير استبعد صحة هذا الرقم ، فإنه ذكر ان فرق منطقتين كاملتين قد حلا عندما اكتشف ان الأغلبية الساحقة من عضويتهم شيوعية .

كما ان من الثابت ان دوائر الجيش كانت قد ابدت تخوفها صراحة من فرق العاصفة ، وان موضوع انضمام هذه الفرق إلى الجيش بكامل عددها ، ورتبها عرض على الجيش ورفضه فون بلومبرج وفون فريتش الأمر الذى اثار روهم . وان هتلر آثر ان يرضخ للجيش خاصة وانه وجد فى التنظيم الجديد الذى نظمه همار وحمل اسم S.S. (Schutz Staffeln) حرسا خاصا ، اى يؤمن به شخصيا كقائد وزعيم ويتفانى فى طاعته ، ولا يعلق بذهنه شئ من الذكريات القديمة ، او يكون له من « الدالة » ما يقضى ان يشركه فى الأمر . وعالج هتلر هذه المشكلة بحذر مستلها حواسه المرهفة ، كان أشبه بالحيوان الذى يتشمم آثار الفريسة .. واتجاه الريح .. ومواقع الاقدام .. فأولا كانت فرق العاصفة ثمينة ولازمة له ليكتسح الشوارع ويستطيع الضغط بها على القوى المعارضة بما فى ذلك الجيش ورجال الصناعة والاشتراكيين ، وكان روهم بالذات محل ثقته . وعندما تمرت بعض وحدات هذه الفرق سنة ٣٠ فى برلين ، واضطر هتلر للاستنجاد بالبوليس كان الحل هو أنه طلب إلى روهم ، الذى كان يعمل وقتئذ فى خدمة جيش بوليفيا ، العودة وضبط الفرق ، وفى الوقت نفسه فإنه لم يكن مستعدا لسماع أى شئ عن الثورة الثانية ، وحاول هتلر اجتذاب روهم فعينه وزيرا فى حكومة الريخ فى ديسمبر سنة ١٩٣٣ ، وفى الذكرى الأولى لانتصاره ( ٣٠ يناير ١٩٣٤ ) أرسل إليه خطابا خاصا رقيقا يشكره على خدماته

« التي لا تنسى » وقيادته لفرق العاصفة وختم خطابه بأنه يشكر القدر إذ جعل من بين أصدقائه وزملائه في السلاح . . أفرادا مثله . ولكن لم يكن لهذا الخطاب من أثر . وفي ٤ يونيو أمضى هتلر مع روهم خمس ساعات قال عنها فيما بعد لقد توسلت إليه لأخر مرة أن يقلع عن هذا الجنون ، وأن يستخدم سلطاته لإيقاف هذا التطور الذي لن يسفر إلا عن كارثة ، ولكن هتلر ، فيما يبدو لم يقنعه ، ولم يرهبه . . ولهذا فعندما بدأت الأجازات ، وسافر روهم في ٧ يونيو أعلن لفرق العاصفة « أنهم سيتلقون في الساعة ، وبالصورة اللازمة الرد المناسب . . »

وفي ١٧ يونيو ألقى فون بابن ، الذي نحى جانبا طوال هذه الفترة خطاباً في جامعة ماربورج كشف فيه عن المخاوف التي تعتمل في رؤوس الكثيرين والذي كان يمكن أن يعد موجهاً ضد روهم وأفكاره عن الثورة الثانية ، كما يمكن أن يكون موجهاً ضد جوبلز ، لسان حال العهد والحاكم بأمره في مجال الاعلام .

في هذا الخطاب قال بابن إن صحافة حرة يجب أن توجد لتبلغ الحكومة علنا وبرجولة عن المواقع التي يعيش فيها الفساد وترتكب فيها الأخطاء وحيث يشغل الرجال المناصب التي لا يصلحون لها ، وحيث ترتكب الجرائم باسم الثورة الألمانية .

وأشار إلى « الثورة الثانية » فقال :

« أن أي واحد يسمح لنفسه بأن تعبث به مثل هذه الأفكار يجب أن ألا ينسى أن للموجة الثانية قد تستتبع موجة ثالثة ، وأن من يهدد باستخدام الجيولتين . . قد يكون هو أول ضحاياها . . . »

فضلا عن أنه من غير المعروف إلى اين تنتهي هذه للموجة الثانية فهناك

أحاديث كثيره عن « التشرىك Sociaeilization ، فهل قمنا بالثورة ضد الماركسية . . لى . لى نطبق برنامجا ماركسيا . . وهل سيكون الشعب الألمانى أفضل نتيجة لها ، إن الحركة يجب أن تنتهى ، بعد فترة مالم يظهر البناء الإجتماعى الصل . . ولن يكون هناك بناء خلال الاضطرابات المتلاحقة . »

بالإضافة إلى هذا التوتر الداخلى الذى كان يهدد وحدة الحزب فقد كان هناك عامل آخر كان يقض مضجع هتلر . ذلك هو مستقبل المانيا بعد وفاة المارشال الشىخ الذى كان قد بلغ من العمر عتيا وأصبح على أبواب القبر ، واحتمال التمزق الذى تتعرض له البلاد ، بوجه خاص لأن الجيش لم يكن يخفى امتعاضه من وجود فرق العاصفة وفرق الهجوم ، وبوجه خاص عندما يكون على رأس الفرق الأولى شخص يعلن اتجاهات اشتراكية ويضمم اراء عن جيش شعبى من فرق العاصفة ، وفى مثل هذا المأزق لم يكن هتلر ليستطيع الاعتماد تماما على إحدى هاتين القوتين : الجيش بسبب فرق العاصفة ، وفرق العاصفة بسبب اتجاهات روهم ، ولو ثارت عليه إحدى هاتين لما استطاع أن يستنجد بالثانية ضدها ، إلا على شروطها ، وبأن يصبح هو نفسه أسيرها ، وهذه الهواجس التى لم يتعرض لها معظم المؤرخين ، كانت فى نظرنا ، السبب الأول لتلك المذبحة التى قام بها هتلر فى ٣٠ يونيو سنة ٣٤ ، ووضعت حدا لكل القلاقل الماثلة والمحتملة وضمن بها هتلر ولاء الجيش . .

وعندما انتهى هتلر من تفكيره الطويل بدأ العمل فوراً فسادف بالطائرة من بون إلى ميونيخ فى مساء ٢٩ يونيو ، وفى صباح ٣٠ يونيو انطلق هتلر بحرمه من الفرق الخاصة فى عربات مدرعة ومصطحباً جوبلز إلى الفندق الذى كان يأوى إليه روم فى فيز Weisse وانتزع من سريره وألقى القبض توا على كل زعماء فرق العاصفة من بيوتهم ونقلوا إلى ميونيخ حيث كان هيس فى انتظارهم وأودعوا سجن ستادلهم حيث ضربوا بالرصاص ووضع أمام روم مسدس

ليفتجر، ولكننه رفض وقال إنه يؤثر أن يقتله هتلر واعوانه . . الأمر الذى حدث بالفعل واستمرت عملية الاعتقالات والاغتيالات يومين متتابعين لم يقتصر القتل والاعتقال فيهما على روم وصحبه ، ولكن على كل الذين اشتبه في ولائهم فقتل فون شليشر وزوجته ، وقتل ستراسر وقتل فون كاهر حاكم بافاريا أيام ٠٠. و أمرة هتلر سنة ٢٣ وقتل اثنان من مكتب فون بابن ها فون بوز وادجار يوبخ ونجا بابن نفسه باعجوبة — وقتل دكتور كلوزنر Klausener العضو البارز في الحزب الكاثوليكي .

وكان من بين القتلى سكرتير روم الخالص الشاب كونت سبرتي Count Spreiti وهو شاب اشقروسيم اطلق عليه الصحفيون الأجانب Count Pretty وكان شريكه في انحرافه الجنسي ؛ كما كان من القتلى رئيس برسلو وقائد فرق العاصفة فيها هينز الذى اشترك في عدد من الاغتيالات السياسية في اعقاب ثورة نوفمبر وقد قتل في سريره ، وإلى جانبه شريكه في انحرافه الجنسي الذى دفع بحياته ثمن هذا الانحراف ٠٠ كما كان هناك ابرياء لا ذنب لهم الا تشابه الاسم . وهكذا انتقض هتلر في هذه الليلة « كفهد اسود في ليلة مظلمة » على اعدائه وأخذهم بقتة . . . . . وقد عدد الذين قتلوا في مذبحه هاتين الليلتين بما بين ٣٠٠ و ١١٧٦ ، والعدد الأخير أقرب إلى الصحة لدى بعض المؤرخين . .

وفي ١٣ يوليو وجد هتلر أن عليه أن يقدم تفسيراً للشعب الألماني ممثلاً في مندوبيه الذين اجتمعوا في دار أوبرا كرول . . وفي هذا الاجتماع ادعى هتلر أنه علم أن روم تأمر على الحكومة و اراد السيطرة على الجيش ووضع خطة للقيام بانقلاب في عصر يوم ٣٠ يونية والقبض على هتلر . .

ولاشك أن روم كان لديه نوايا من هذا النوع ، ولكن يكاد يكون من المؤكد أيضاً أنه لم يكن قد حول هذه النوايا إلى عمل محدد ، فقد كان زعماء

فرق العاصفة بعيداً عن برلين ، وعن مراكز قياداتهم ، وعندما قبض عليهم كانوا يغطون في نوم عميق .. . وكان « أرنست » الذى أدعى هتلر أنه سيقود المقاومة ، فى طريقه لقضاء شهر العسل وقد قتل شهيداً لهتلر ، وليس ثأراً عليه أو خائناً له ..

ولكن قد يوضح سر الحركة تلك الكلمات التى جاءت فى خطاب هتلر وهو بصدد الحديث عن تأمر روهم مع شليشر لى يجعله هذا الأخير وزيراً للحربية بدلاً من الجنرال فون بلومبرج ..

« لقد كان مستحيلاً هلى أن اوافق على تغيير وزير الحربية أو احلال روهم . وان تعهدى للرئيس فون هندنبرج عن أن الجيش يجب ان يظل اداة غير سياسية للريخ بأسره ينبع من ايمانى العميق ، وكما فى المعلمة . كما أن هذا العمل بالنسبة لوزير الحربية لم يكن ليعمل عملاً من أعمال الرجولة . فأنا ، ونحن جميعاً سعداء بأن نرى فيه رجلاً شريفاً من الرأس إلى القدم ، وأى عمل من هذا النوع يعد خيانته للفيلد مارشال هندنبرج ، ولوزير الحربية ، وللجيش ايضاً . ففي الدولة يجب أن لا يوجد سوى هيئة واحدة تحمل السلاح . تلك هى الجيش » .

ورد الجنرال فون بلومبرج قائد الجيش هذه التحية بأحسن منها ، ففي الأمر العسكرى الموجه للجيش امتدح « الشجاعة النموذجية التى قضى بها هتلر على الخونة والمتآمرين » وأكد ولاء و إخلاص الجيش .

بهذا العمل أكتسب هتلر صداقة الجيش ، وأمن نهائياً من أى إنقلاب يمكن أن يحدث فى الجيش أو فى الحزب نفسه .

\* \* \*

بعد سنة ونصف من الحكم الهتلرى كادت جمهورية فايمار أن تصبح أثراً من

الماضى البعيد والشئ الوحيد الذى كان يحفظ لها وجودا رسميا وهنا هو الرئيس.  
« هند نهرج » ..

وكان واضحا أن المارشال العجوز يسير نحو قبره ، وان الأيام الباقية له  
معدودة .

ولسكن هتلر لم يسكن ليسمح لهذا الرمز من رموز فايما ر أن يمضى دون أن  
يفيد منه فى تدعيم مركزه .

إذ رأى ببداهته الحاضره ما يمكن أن يفيد من المارشال العجوز ، وعقب  
انتخابات مارس أسّر لاحد أصفياه «لوديك» اننى أريد هند نهرج ، أريد هذا  
الثور العجوز الضئيل العقل إنه يمثل شهره خرافيه يجب استثمارها ، إن هنا  
صورة رمزية يجب أن لا تفوتنى . فقد مارشال العجوز .. والامبائى الشاب من  
الخنادق يضعان أنفسهما تحت الصليب المعقوف فى بلاط فردريك الثانى ..  
إننى سأقوم بتنفيذ هذا الدور فى بوتسدام .. »

وفى ٢١ مارس أقيم فى بوتسدام حفل مهيب حضره المارشال العجوز الذى  
كان قد جاوز الثمانين ، ومضت ستة عقود ونيف من السنين منذ أن زار هذا  
المكان لأول مره وهو ملازم سنة ١٨٦٦ . وحضر الحفل كل القواد والضباط  
والجنود الذين اصطفوا والمارشال يستعرضهم وإلى جانبه هتلر ، وكان منهم  
اثنان من ابناء القيصر فى لباس جندى عادى كالذى يلبسه كل افراد « الفرقة  
الفولاذيه » .. وتحدث هند نهرج عن الحكومة الجديدة ، وأمله فيها ، والمهام  
الثقيلة امامها ورد هتلر بكلمة أشار فيها إلى ١٩١٨ وشكر المارشال لأنه بفضل  
تحقق هذا الزواج ما بين المجد القديم .. والفتوة الجديدة ، وشد هتلر على يد  
هند نهرج بينما تقدم هذا ليضع اكليل من الزهور على قبر فردريك ..  
وفى مساء أول أغسطس فاضت روح هند نهرج .. وانقطع بذلك الخيط



الدقيق الذى كان يربط فايما بالخاص ، وعقد احتفال بجنائزه بعث مرة أخرى « روح يوتسدام » وتصور دوجلاس ريد أن جيش ١٩١٤ قد قام من قبره فقد اقتعدت الخوذات الغولاذية رؤوسا لم يعد فيها شعرة واحدة وحضر كل الحرس القديم ليؤدى التحية الأخيرة ، وأمام التابوت وقف فى الصف الأول جورنج فى بدلة جنرال ، واومسكار هندنبرج والماريشال ما كنزن وفون بلومبرج .. ثم جاء هتلر ، والعيون كلها عليه ليرثى الماريشال . ويبدو أنه أخذ خطا با غير خطاب النعي ، فبعد قراءة عدة جمل انطلق يرتجل ، ولكن لما كانت المناسبة تختلف عن تلك المناسبات التى تسمح له بالارتجال فإنه لم يطل .. وبعد عدة عبارات ختم مراثيه « إن المارشال الآن يذهب إلى « فالاهالا »<sup>(١)</sup>

وجنى هتلر ثمرة ضربة يونيو ، إذ لم يكد المارشال يموت حتى اعلن جوبلز أن منصب رئيس الريخ ومنصب مستشار الريخ أصبحا منصبيا واحدا وأن سلطتهما معا يتمثلان فى « الفوهرر » ، ومستشار الريخ أدولف هتلر . واستبعدت كلمة « الرئيس » التى امتدحتها الجمهورية وارتبطت فى الأذهان بها ، واصطنعت كلمة « الفوهرر » التى يجتمع لها الجدة والاصالة من ناحية والتشئ مع فكرة هتلر عن الزامة والقيادة كمحور للنظام الجديد ، واقسم الجيش كله جنودا وضباطا بمن « الطاعة بلا حدود » للفوهرر ادولف هتلر وفى ١٩ أغسطس استلقى الشعب الألماني على هذا الوضع الجديد وأيدته الأغلبية الساحقة التى لم تسبق : ٣٨ مليون صوتا من جملة ٤٥ مليوناً .

وبموت المارشال انمحق ، رسميا وعمليا ، آخر أثر من آثار الجمهورية ثم جاء هذا الاستفتاء فوضع النهاية التامة لها . . . وأسدل عليها الستار . . .

---

(١) هى الدار الآخرة فى الأساطير الجرمانية .

## الفصل الثالث والعشرون

### الفصل بعد الأخير

كيف حدث هذا .. ؟ كيف لم يقدر لهذه التجربة الغدة أن تستمر لأكثر من أربعة عشر عاما .. ثم يأتي هنر فيممسك بيد هندنبرج كأن لم توجد ما بين ألمانيا النازية ، وألمانيا «الوهمية» تلك الإشرقة المرحية بأدائها وحريلاتها ، وفنونها ومبازلها ، والآمال الطموحة التي تعلقت بها .. والدماء الغزيرة التي سفكت في سبيلها .

كانت جمهورية فايمار مقضى عليها من يومها الأول .. كانت شقية من بطن أمها ، فقد ولدت من الهزيمة ، وألصق بها الشعب كل ما جرته الهزيمة من بأساء . ومهانة حتى وإن كانت هي في حقيقة الحال ضحية الهزيمة نفسها .. ولم تسكن في نظر الشعب الألماني بداية عهد جديد . ولكن نهاية عهد مجيد .. عهد رفع رأس ألمانيا في كبرياء ، فجاءت الهزيمة فرغتها بالتراب ..

لم يغفر الناس لفايمار الظرف التعس الذي ولدت فيه وكرهوها لأنها كانت تذكيرا دائما لهم بالهزيمة . وغلب هذا الشعور عامة الشعب الذين يصعب عليهم التقصى والتحصيل ، يأخذون الأمور على علاتها وظواهرها .. وقد يصور ذلك ما رواه سير جيوفري نو كس عن سائق سيارته في برلين سنة ١٩٢٤ . وكان أحد الاشتراكيين الديمقراطيين النشطين الذين يتحدثون عما يلاقيه الناس من صعب .. أو عن دور الاشتراكية لإنقاذهم ولكنه

كان يشير إلى جمهورية فايمار «هذه الجمهورية الخنزيرة diese Saurepublik» وكان يطلق عليها هذا اللقب بهدوء وكشء طبيعي ، بينما كان يتصلب وهو يحكي العلم الإمبراطوري القديم الذي كان وقتئذ شعار الحزب الوطني والجنونكر .

وروى الكاتب المشهور والترلاكير في مقال بمجلة إنكوثر كيف أن أحد الشبان الذين كانوا يسبحون في نهر الاودر تسلى إلى قاربهم في أحد أمسيات الأحد عام ١٩٣٢ ، وكيف أنه أخذ يمسح مؤخرته بعلم فايمار «الأسود ، والأحمر ، والذهبي» وكيف أن هذا العمل أثار عاصفة من الضحك ..

وكانت الأسس التي قامت عليها الجمهورية نفسها تقف ضدها .. وتعمل لحربها ..

كان نظام الأحزاب الذي سلمت به كأمر مقرر يؤدي إلى الفروقة ويمنح الاتجاهات المعارضة لها سلاحاً لا يقل عن السلاح الذي في يد أنصارها ، ولم يكن من شأنه أن يحقق الوحدة والتركيز اللازمين لبناء عهد جديد . وحتى في أول وزارة ، وبأ كبر أغلبية ا كتسبها الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، فقد كان عليه أن يضع يده في يد حلفاء مشاكسين ، فشبوا سيره وعرقوا خطوه ثم لم يلبثوا أن انتزعوا القيادة . وأصبحت سياستهم هي تقض بناء الجمهورية حجراً حجراً حتى جاء هتلر فأتى عليها من القواعد .

وجاءت الجمهورية بالحرية وأشاعتها كما لم يشعها عهد ألماني آخر .. مسبقاً أو لاحقاً . ولكن الشعب الألماني لم يكن مهيباً لها ولم يقدر هذه الهدية الثمينة لأن وشائج الماضي الطبقي كانت قوية ، وكانت أكثر تجاوباً مع نفسية الناس .. وكانت هذه الوشائج تجعل الالتزام المتبادل ما بين طبقات

الشعب ، وليس الحرية الفردية ، هي أساس العلاقات الاجتماعية وروى  
و. وتينسكى واقعة لا ريب أنها تصور مشاعر الشعب الألماني في المقاطعات  
والقرى وإن لم تكن مشاعره في برلين أو في بعض المناطق الصناعية . .

قال ويتنسكى » .. خلال أجازتنا الصيفية عام ١٩٢٣ ذهبنا إلى مدينة  
صغيرة تجثم في تلال ثورا نجيا . وكانت الحطة مزينة بالأعلام الإمبراطورية ،  
والمدينة تتلألأ بالأنوار ، وأقامت الجماهير المبهجة الاستعراضات في الشوارع  
تتقدمها الفرق الموسيقية وأقننا في حجرة بأحد البيوت المعدة للسياح وسألنا  
ربة البيت المتقدمة في السن عن هذه المظاهرات فقالت أوه . . إننا في غاية  
السعادة لقد استرجع أمراؤنا المحبوبون قصرهم .

كانت هذه المدينة مقر أحد الدوقيات الصغيرة . وكان الكثيرون من  
أهلها وثيق الصلة بالبلاط إن يكونوا من موظفي قصر الدوق أو الموردين  
له — فعلى الأقل أقارب أو جيران أو معارف موردى القصر أو موظفيه .  
وبعد الثورة هرب الدوق إلى خارج بلاده ، وصادرت الحكومة ضيعته وحولت  
جزءاً من القصر إلى مدرسة وفتحت أبواب حديقته الفخمة للجمهور . ولجأ  
محامو الدوق إلى المحكمة وكسبوا القضية في النهاية . لم يكن الناس متأكدين  
من أن الدوق سيعود ولكن كان يكففيهم أن يعرفوا أن حديقته سوف تغلق  
من جديد . وأن المدرسة ستطرد من القصر . ومن هنا كانوا يحتفلون  
بانتصار الدوق . .

واعتقد أن ويتنسكى لم يكن دقيقاً في تصويره هذا . أو أنه سمح لمشاعره  
الخاصة بتأويل الموقف ، ولكن حتى مع هذا التأويل المغرض . فلا ريب في

أن المثل يقدم نموذجاً فذاً لعرايط اجتماعي يتمناه أى نظام ، وعندما تقابل مشاعر الولاء من القاعدة مشاعر الالتزام من القيادة . فلا ريب أن هذا النسيج المترابط سدى ولحمه يفضل الآحاد « الفرط » التي تقوم عليها الفكرة الديمقراطية التي يكون الفرد فيها هو النواة .. والمصلحة الذاتية هي الهدف . والحرية هي الأسلوب . إذ يغلب أن ينحدر هذا المجتمع إلى الفوضى .. وعندئذ ينطبق على المجتمع ما قاله الشاعر القديم ..

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم

ولا سراة ، إذا جهلهم سادوا . .

والحقيقة أن فكرة « الالتزام الطبقي » لم تكن متصلة في نفوس الريفيين لأنهم سذج أو لأنهم كانوا « موردين أو موظفين في بلاط الدوق » ولكنها كانت جزءاً من العقلية الألمانية تجدها لدى أساتذة الجامعة ، وطلبتها والمهنيين والكتاب ، كما تجدها في جبار الفكر الألماني « سبنجلر » فهو لاء جميعاً كانوا ينظرون في زراية إلى مبدأ مانشستر .. وفكرة الربح والفرد .. يضعون في مواجعتها الجماعة ، والالتزام ، وكان الشيء الوحيد الذي أعجب سبنجلر في حزب « بيبيل » هو التغاى في سبيل العقيدة . ولكنه رأى أن ذلك يمثل البرعة البروسية « وأن هذه الاشتراكية ليست ماركسية ، فلما ركسية مادية ، » وهي بهذا المعنى تتناقض مع كل مشاعر التغاى والتضحية .

كما يمكن الإشارة إلى أن المرأة الألمانية - كما ذكرنا في فصل سابق - لم ترحب كثيراً بالحرية التي أعطتها لها فايمار ، وآثرت عليها الأمومة والبيت ، ومرة أخرى ، فلا يمكن القول إن إشار المرأة - كفرد - للحرية أفضل من التزامها - كأنتى - بالأمومة والعكس أقرب . وعندما آثرت المرأة الألمانية التزام هتلر على حرية فايمار كانت أكثر انساقاً مع طبيعتها ، ومع مصلحة المجتمع .

وعملياً كان المستفيد الوحيد من حرية فائمار هم أصحاب الأعمال والعسكريون والملاك . ففي ظل هذه الحرية ، وحمايتها بدأوا معركتهم ضد فائمار . . . وضد الحرية نفسها ، واستطاعوا في النهاية أن يجندوها وبسقوطها صريعة . . . وكان جديراً بالحزب الاشتراكي الديمقراطي أن يعلم هذا الدرس لأنه أول فصل في كتاب الاشتراكية .

ولم يكن العمال - شأنهم في هذا شأن الريفيين وأساتذة الجامعات والنساء - من الذين يرحبون بالحرية . لأنهم يعلمون أنهم في المباراة التي تحكمها الحرية يغلبون . وتدور عليهم الدائرة . . . وليسوا هم بدعاة الحرية . . . ولكنهم دعاة العدالة . . .

ومن بين كل فئات الشعب الألماني ، كانت الفئة الوحيدة التي يمكن أن تناصر الجمهورية هي للعمال ولكن العناصر الأكثر وعياً وحماسة من العمال انحازت إلى الشيوعيين ووقعت أسيرة للنظرية الماركسية اللامعة واجبولة التكتيك الشيوعي وأصبحت لاتقل عداوة للجمهورية عن الجونكر والنازيين

وهذا ما يجرنا إلى الحديث عن مسئولية الشيوعيين عن تدمير فائمار ، وقد أشرنا إلى ذلك في أكثر من موضع وما يمكن أن نضيفه هنا هو أنه حتى هذه القارة التي أودت بالحزب الشيوعي كما أودت بجمهورية فائمار لم تكن كافية لتعيد الشيوعيين إلى صوابهم وتجعلهم يحسون بخطأ ميامتهم ، وظلموا حتى الأربعينات وما بعدها متمسكين بشنشة معاداة الديمقراطيين وشهدا السكومنفورم كما شهدا السكومنترن من قبله وربما كان تروتسكي - هذا البسمارك الشيوعي الذي بنى الاتحاد السوفيتي بالدم والحديد - هو الذي رأى في منفاه البعيد ما لم يره في أوج السلطة . . . لأن نور السلطة المبهري يعمي عيون القادة فلا يرون شيئاً سواها . . . وهكذا انتقد تروتسكي بقسوة مسلك الحزب الشيوعي الألماني والسياسة الستالينية « أن تذهبوا إلى الشوارع بشعار «ليستقط برونج وبرون.

إنما سيؤدى إلى إحلال حكومة هتلر وهو جنزيرج « ولكن هذا النداء لم يصدر من زعيم البلوريتاريا القوى .. ولكن من طريد البروليتاريا .. المبعد إلى ركن قصى فى العالم ..

وعندما وقف الحلفاء موقفهم المتصلب من جمهورية فايمار وأصرروا على توقيع معاهدة « فرساي » وعلى أن تتحمل الجمهورية الناشئة أوزار القيصر والعسكريين وتدفع ثمن أخطائهم فإنهم أوصدوا باب المستقبل فى وجهها . وقضوا على أى أمل لها وجملوها تقف عزلاء وحيدة أمام أعدائها .. وأعدائهم .. وحتى عندما عرض جرونر عرضه الجريء على الحلفاء .. أن يقوم الجيش الألماني باكتساح الشيوعية فى الاتحاد السوفيتى لحساب الحلفاء . فإن المصلحة العاجلة غلبت المصلحة الآجلة .. وكان على الحلفاء وحكوماتهم أن يدفعوا « فوائد » ربوية فاحشة لهذا القرار طوال فترة ما بين الحربين فى صورة قلائل داخلية مزقت السلام القومى والدولى ثم لا يصلون إلى بيت الداء . وعلى النقيض فقد أدى رفضهم ذلك لأن يضعوا أيديهم فى أيدي الشيوعيين وأن يعزّزوا بسلاحهم وعتادهم حليفاً سيصبح فى المستقبل القريب شوكة فى جنبهم ..

إذا وضعنا هذه الملابس كلها نصب أعيننا لرأينا أن النقص الرئيسى كان بالدرجة الأولى فى النظام والأوضاع والظروف التى أحاطت بالجمهورية الناشئة أكثر مما كان عجزاً أو تقصيراً من قيادات الجمهورية ، وأن الجمهورية كانت فى جميع الحالات مقضى عليها وزائلة لأنها من الناحية الزمنية سبقت وقتها ومن الناحية البيئية كانت غريبة على ألمانيا ، وكانت مثلها مستوردة ومستلزمة من مثل خارجية أكثر مما كانت تقوم على أسس قومية . وهذا لاينفى على كل حال مسئولية القيادات ، ولكنه فى جميع الفشل يضعها فى ضحضاح من النار ٢٧ — ظهور وسقوط

ويجعلها المسئولة بالدرجة الثانية ، وليس بالدرجة الأولى ، وينفي عنها صفة  
 الصغار والعقم والمجز بالدرجة التي يطلقها عليها بعض المؤرخين والكتاب ..  
 فقد كان معظم قادة الجمهورية من الرجال الأمناء الذين يسيطر عليهم الضمير .  
 وقد عملوا أكثر من العهد الذي سبقهم والذي لحقهم ، والذي كان يعدم به  
 الشيوعيون ، لأن يتمتع الشعب الألماني بعيشة رغده وحياة حرة وأن يأمن على  
 حاضره ومستقبله . وعندما تطلبت منهم الظروف الخليلار ما بين التضحية  
 بالجمهير .. أو بالنظام الذي هم على رأسه فضلوا الثاني .. وآثروا  
 الجماهير .. وفي الوقت الذي كان لينين يدعو الجماهير للخروج إلى الشوارع  
 والانخراط في المظاهرات ، وكان ستالين يحكم بالموت على ملايين الروس جوعا  
 في سبيل تحقيق المزارع الجماعية أو إحكام قبضة الدولة ، كان إبيرت يدعو  
 الناس إلى إخلاء الشوارع « حرصا على وصول الأقوات إلى الجماهير الجائعة »  
 وكان سيفرنج وبرون يسلمان حكومة بوءوسيا وهي القلعة الأخيرة للاشتراكيين  
 الديمقراطيين حتى لا ينسبوا في معركة تسيل فيها دماء العمال أنهاراً . وقد  
 آثرت جمهورية فيمار أن تكون كالمسيح فيما ترويه الأناجيل فتحمل صليها ..  
 وتسير بتقديمها إلى مصرعها .. وأن تضحي بنفسها بدلا من أن تضحي بالآخرين  
 وكأنه ما كانت نسبة العجز إلى الإيثار في اتخاذها لهذا القرار ، فإنه من  
 الناحية الموضوعية المجردة خطأ ، فلا تقوم النظم على العواطف سواء كانت  
 إيثاراً أو عداوياً أو رحمة .. وإنما تقوم على العدل ، فالعدل وحده وليس  
 الحرية التي أرادتها الجمهورية ، أو الحب الذي نشرته المسيحية أو القوة التي طمع  
 فيها هتلر أو الثروة التي استهدفتها الرأسمالية .. أو غير ذلك يمكن أن تقوم  
 عليه دمايم نظام دائم وثابت .



فإذا ذكرنا مسئولية قادة الجمهورية عن اندثار فايمار ، فعلينا أن نذكر أيضا مسئولية هتلر في انتصار النازي .

وقد اعتبر هتلر وحشا وعدوا للبشرية ومسئولا عن قتل وتشريد الملايين من الناس وهدم وتدمير الألوف من المدن، ولو أنه انتصر لاختلقت النظرة .. ولربما اعتبر مجدد العالم ، وفي كل الحالات ، فإنه في حربه تلك، لم يأت بمجديده . إن تاريخ أوروبا هو تاريخ الحروب ، ولم ينثن أعداء هتلر عن استخدام السلاح الذي عمل له - بمجرد أن وصلوا إليه قبله - القنبلة الذرية .. فلتصمت أوروبا عن التنديد بالحرب .. لأنها واقعة فيها من رأسها إلى القدم .

والذي لا ريب فيه أن هتلر لم يكن شخصا عاديا، وأنه أوتى مالم يؤت غيره، وأن عملية مقاومته أو التصدي له لم تكن سهلة ، أو حتى ممكنة ، للحزب الاشتراكي الديمقراطي أو للاشيوعيين أو لرجال الصناعة والجيش الذين ساندوه في بداية أمره لاستخدامه في مآربهم ، فاستخدمهم هو في مآربه ولم يستطيعوا أمامه شيئا ، وكانت القوة الحقيقية التي تميز بها على نظرائه هي جماهيرنا ، وأن له قاعدة شعبية تؤمن به شخصيا ، وترى فيه - بلحمه وشحمه - رمز المانيا الناهضة التي تحطم أغلالها وترفع رأسها .. وتنحدي العالم . وبدون هذا لانفهم كيف يمكن أن تكون « هایل هتلر » تحية يتبادلها الملايين . وكان هتلر يعرف ذلك ، ويعلم أن هذه الجماهير هي قوته الحقيقية التي ستجعله يلتصر على غيره من السياسيين وزعماء الأحزاب . ورجال الصناعة والجيش . وفي إحدى خطبه الانتخابية قال « إنني ابن الشعب .. وسأظل كذلك » وكان لديه من الفطنة والذكاء ما يجعله يرفض اغراء منصب يقل من منصب المنشار ، ونأى بنفسه أن يكون مثل « عيصو » الذي باع حق « البكورية » بطبق من العدس . وفي الوقت الذي كان معظم قيادات النازي تتقبل « نصف الرغيف » ، أعلن هو

« لقد قررت قرارا لارجعة فيه أن لأبيع حق ميلاد الحركة بطبق الشوربة الذي يعرضونه — الاشتراك في الحكم » .

ولنما استطاع هتلر أن يتملك هذه القاعدة الجماهيرية الضخمة لأنه كان بفضل إيمانه بألمانيا ، وثقته نفسه يصيب صميم الوجدان الألماني ، بينما كان الشيوعيون يصلون ويجولون في مناقشات « عقلانية » مجردة . .

وأثبت هتلر أنه يستطيع أن يعمل بحسم وعزم، وأن يضرب بقوة وقسوة . . وأنه يهتدى — عندما يتطلب الأمر اختيارا خطيرا — إلى الحل الأفضل . وظلت حاسته تقوده من نصر إلى نصر ، ومن توفيق إلى توفيق حتى ميونيخ التي رسمت قمة ما وصل إليه ، وكان لابد أن ينزل منها ، وكانت اللحظة الحاسمة التي وضعت نهايته هي التي تخلى فيها عن حذره وخالف القاعدة التي وضعها هو نفسه : أن لا يحارب في جهتين فقرر أن يفزو الاتحاد السوفيتي ، وبذلك وضع نفسه تحت رحمة أقسى أعدائه .

ومع أن بداية ونهاية هتلر ليست في جوهرها إلا المأساة للمعادة لكل ديكتاتور تقريبا : النجاح للمبدئي ، ثم المقامرة والكسب دورا بعد دور حتى يأتي الدور الأخير الذي يخسر فيه كل ما كسبه ، إلا أنها اتسمت بالعديد من التفاصيل المبتكرة والمبدعة التي تضافر عليها ذكاء هتلر ومهارة الشعب الألماني وصبره وطاعته وحققت إنجازات رائعة وتقدم لم يسبق في مجالات العلوم والفنون ، وعندما قامت الحرب ابرزت تضحيات وبطولات من الجنود ، والضباط والمدنيين . .

ولم يخل الأمر مع هذا من السفاهات التي لابد وأن تأت بها الديكتاتورية ، واتسم الكثير منها بطابع القسوة والدناءة والضمه ، فقد زج بكل المحالفين إلى السجون والاعتقالات ، وكان من هؤلاء أحد أبناء « ايرت » وحاولوا

أن يجهلوه يهين ذكرى أبيه ، فرفض وتعرض لتعذيب شديد ، بينما أرغم  
عسجونون آخرون على أن يقلدوا القطط أو الكلاب أو يسيروا على أربع .. الخ  
وكانت هذه كلها نذالات لم يكن لظهورها من مبرر سوى أنها الجانب المظلم  
للحكم المطلق ، وعندما بدأ هتلر غزوه لروسيا كان يمكن أن يعمل لاكتساب  
بعض القوميات التي بطش بها متالين — وكان هناك احتمال — رغم ضآلته  
— لنجاحه في ذلك لو حاول . ولكن هبها . . إنه لم يكن « عمرا » ولم يكن  
بين قاذته « أبو عبيدة » ولم تكن نسمة واحدة من نسبات سماحة الفتح  
الإسلامي ليتمكن أن تتخلل التعصب النازي المصمت والطبيعة القاسية له .  
وهكذا جعل كل المناطق التي فتحها أعداء له ، وكان لا بد أن ينهزم . .

ومع هذا كله فلم يكن هتلر بالوحش الذي يروق لليهود أن يصوروه . وقد  
تعرض لعذاب نفسي خلال سنوات الحرب الأخيرة لم يتعرض له ألماني آخر  
لأنه لم يكن بالجندى المحترف الذي يعلم أن عليه أن يذسحب أو يسلم سيفه  
هكذا تفرض الظروف ذلك ، لقد كان مستعدا لأن يضحي بنفسه . . وطالب  
الألمان بأن يحدو حدوه . وهذا الشعور المسرف بالبطولة هو الذي رفعه من  
الخصيصة إلى القمة ، كما أنه أيضاً هو الذي أنزله من القمة إلى الخصيصة ولم يفهم ،  
إلا عندما أصبح الروس على بعد مئات الأمتار من مقره ، أن الأمر ليس بالخطأ  
هدد من « الجنرالات » ، ولكن أن تصوره الخاص للبطولة لا يمكن أن يطبق  
على ستين مليوناً ، ولعله في ساعاته الأخيرة قد لقن درساً أشد مرارة من كل  
المدرس التي سبقته ، فعندما انتهى هتلر إلى قرار الانتحار . . وعلم بقية الذين  
في مخبأ المستشارية بذلك ، وبقرّب بزوال الرجل الذي تمسك بالحرب حتى  
النهاية اشتدت فرحتهم وتعالّت ضجعتهم حتى أرسل إليهم بعض معاوني هتلر  
أن يخافتوا من صخبهم ليمشطهم هتلر الانتحار في هدوء . .

وفي الأيام الأولى للهنارية ، تصور المجتمع الأوروبي أن حكم النازي لن يطول ، وأن الشيوعيين والاشتراكيين الديمقراطيين لن يلبثوا أن ينظموا حركة مقاومة تودي به ، وكان عجز هؤلاء عن ذلك أمرا لم تفهمه وقتئذ الدوائر الأوروبية أو تتمكن من إساغته وعندما أعلنت ألمانيا أن أغلبية المسجونين في معسكر داشاو الرهيب الذي كان يضم المعارضين السياسيين قد أعطوا أصواتهم لهنر في انتخابات مارس سنة ١٩٣٣ راو في ذلك مفارقة غير مفهومة ، ولو أن هذه الدوائر قرأت رواية « ديربارم » لستندال لوجدت فيها ما يساعدها على الفهم . ففي هذه الرواية تحدث ستندال عن مسجون في القلعة في الولاية الذين كانوا يعيشون مكبلين بالأغلال لا يستطيعون الجلوس ولا يتمكنون من الوقوف لأن زناياتهم لا ترتفع عن ثلاثة أقدام وعرضها ثلاثة وطولها ثمانية أقدام ومع ذلك فأنهم أقاموا صلاة شكر لشفاء معجائهم القاسى فايو كوتى ونظم أثنان أو ثلاثة منهم مقطوعات شعرية تعبد السجن الذي كانوا جميعا يمتقونونه مقتا شديدا .

وفي الوقت نفسه فيجب أن لا ننسى أن هنر قد أخذ كثيرا من الأوراق الراجعة من يد الاشتراكية والشيوعية ، ولم يكن عليه من حرج في هذا لأن هذه الأوراق بدورها لم تكن حكر الاشتراكية أو الشيوعية وحدها ، ولكنها كانت إرث الحضارة الإنسانية كلها ، والفكر البشرى بأسره ، بحيث أشبه النظام النازي تحت حكم هنر ، في التحليل الأخير ، النظام الاشتراكي تحت حكم ستالين .. ففي كل من ألمانيا والاتحاد السوفيتي وجد نظام شمولي يحكم يتدخل كل ناحية من نواحي الحياة ويتسلح بالقوة الباطنة والأرهاب المنظم ، وفي كل من الدولتين وضع مشروع لأربع أو خمس سنوات يجسد النشاط الاقتصادي والإنتاجي للدولة . وفي كل من الدولتين تولى حزب رائد التوجيه الإيديولوجي وفي كل من الدولتين حرم الاضراب والأغلاق

وخضع العمال لتوجيه الحزب مع فارق شكلى . فالاتحاد السوفيتى أبقى على النقابات بعد أن أفرغها - تماما من أى مضمون تقابى بالمفهوم التقليدى وادمج وزارة العمل فى الاتحاد العام للعمال ليغرقه فى المسئوليات الإدارية ويفقده طبيعته الشعبية وال جماهيرية . وفى ألمانيا النازيه حلت النقابات وانظم العمال فى جبهة العمل ، وفى كلتا البلدين أصبحت التنظيمات العمالية اجتماعية وفنية أكثر مما هى اقتصادية ، هيئات إنتاج ومساهمة أكثر مما هى هيئات ضغط ومطالبة واشبهت الطوائف القديمة فى عنايتها بالأعياد والمواسم وأفراح المجتمع واطراحه وتوجيه اهتمامها نحو العناية بالمجالات الاجتماعية والثقافية وفنية الصناعة والحرص على أسانة « وأدبيات » الاداء ..

وهذه القسمات فى النظام النازى جعلته أكثر من انقلاب ديكى تاتورى ، بل إنها جعلته - إلى حد ما - طبعة من الاشتراكية تتلاءم مع نفسية الشعب الألمانى وظروفه وقتئذ . ولم يكن ثمة مبرر يدفع الاشتراكيين للثورة اللهم إلا الاشتراكيين الذين لا يطلبون مضمون الاشتراكية ، ولكن الصنف المعين من الاشتراكية الذى أمنوا به ورنوا عليه وأفنوا ماضيهم كله فيه . وهؤلاء بالطبع قلة . وقد خفيت هذه الحقائق على الدوائر الخارجية كما لم تبدي فى ألمانيا نفسها فى الأيام الأولى للهتلرية وإن لم تدق على فطنة هيئة واحدة حملت اسم بداية جديدة Neu - Beginnen يعود تكوينها إلى سنة ١٩٣١ عندما امتشعرت مجموعة من الاشتراكيين الديمقراطيين وبعض الشيوعيين الخطر الماثل واحسّت بضرورة توحيد جبهة العمال من شيوعيين واشتراكيين وانتقدت تصرفات حزبيهم ، ولكنها كانت أضعف من أن تؤثر على سياسة أى من الحزبين ، وبقدر ما كان الخطر يتزايد بقدر ما كانت تتماسك وترى ضرورة تكوين تنظيم سرى يمكن الاعتصام به عند هبوب العاصفة وفى العدد الأول من نشرتها التى إصدارتها فى سنة ١٩٣٣ أرست الجماعة المبادئ الآتية :

١ — إن الحكومة الهتلرية ليست إحدى الحكومات الرجعية التي يمكن أن تختفي بالسرعة التي جاءت بها - ولكن الفاشية تعنى تحولا جذريا في المجتمع الرأسمالى ستجمل لفترة طويلة فرص الاشتراكية ضئيلة للغاية .

٢ — إن من أكبر الفروق بين الفاشية والنظم الرجعية الأخرى أن الأولى إنما جاءت بها إلى الحكم حركة جماهيرية عريضة جذبت أعضائها من مختلف قطاعات المجتمع .

٣ — أنه ما ظل بقاء النظام الفاشى مكفولا بتأييد شعبي حقيقى فإن الدعاية الجماعية ضد الفاشية ( كما تقوم بها بعض المجموعات ) لا تعنى إلا توضيحات لا مبرر لها دون تحقيق أية نتائج ملموسة .

٤ — إن المهمة الحيوية هي بناء تنظيم قوى من افراد مختارين بدقة يتوفر في كل منهم المقدرة على الحكم السيامى المستقل والتكهن من تحمل المسئولية ويجب ان يمرن الأعضاء تماما نظريا وعمليا على الاتصال بمناطق نفوذ في أكبر عدد ممكن من المراكز الصناعية الهامة وكذلك في الأقسام الأخرى للمجتمع .

٥ — إن مهمة هذا التنظيم هي أساسا الأعداد الايجابية لافاق الازمات العامة عندما تتيقظ المقاومة التلقائية للجماهير ويمكن تنسيقها وتوجيهها .

٦ — أنه لهذا الانتصار المرتقب — فإن إعادة توحيد الاحزاب العمالية المتنازعة إنما هو مطلب هام . ومع أن « الوحدة » قد أصبحت الشعار الأول في معظم التنظيمات السرية ، فإن « البداية الجديدة » ترى أنه من الحيوى أن تتخذ الخطوات الأولى العاجلة لتنسيق كل القوى المكافحة داخل اطار اشتراكية ديمقراطية تبعث من جديد .

وترى البداية الجديدة أن الاشتراكية الديمقراطية رغم كل قصورها في الماضي فإن ملايين من العمال الألمان يواصلون أو يجب أن يواصلوا الاحتفاظ بانخلاصهم لهذا الحزب الذي ساعدوا في بنائه والذي يمثل في عيونهم التجسيد لعرف الطبقة العاملة وبجانب هذا فإن البناء الديمقراطي للحزب الاشتراكي الديمقراطي ( الذي يختلف في هذا عن الحزب الشيوعي ) يمكن أن يثبت إمكانية النمو الحر للأفكار الجديدة والتقدمية . . .

٧ — إن استمرار المعارضة المنظمة للنظام النازي هي على أعظم جانب من الأهمية للمحافظة على تقاليد وخبرات الطبقة العاملة التي إذا تركت لشأنها فإنها يمكن أن تذوى ، ومن هنا فلا بد من أن ينمى بوعى تكسبك سرى لمجابهة الاجراءات المنهجية والدقيقة للجستابو . .

وكانت هذه الامس تختلف عن تصورات تجمعات المقاومة التي ظهرت بعد الصدمة الأولى وحاولت أن تثبت وجودها بمنطق العمل المباشر من دعاية أو تخريب، ولكن العوامل التي أشرنا إليها والتي مكنت النازي من قمع كل صور للمقاومة أولا بأول واشاعة جو من الارهاب الوبيل ، أوضحت سلامة مبادئ حركة « بداية جديدة » وأصبح من المسلم به أن غرض أى حركة للمقاومة يجب أن يتركز حول الحفاظ في نفوس الاعضاء على التقاليد الثورية والمبادئ الشعبية التي أصبحت في خطر الزوال بتأثير الدعاية المنهجية للمنظمة والمتواليات للنازي وتكوين نواة من الأفراد المؤمنين يمكن أن يتحركوا عندما يتون الأوان حتى لا تتكرر المأساة مرة أخرى . أى أن تأتى نهاية الهتلرية دون أن يكون هناك قيادة ثورية رشيدة مستعدة للعمل ولتقلد زمام الأمور والحيلولة دون التخبط ، وكانت هذه السياسة سليمة في ظل الظروف الاستثنائية ونقطة الضعف فيها أن من العسير الحفاظ على النفسية الثورية في بيئة سلمية ، وكلما طال

الامد .. كلما استكانت النفس ووهنت قوى وقابلية المقاومة الأمر الذى حدث بالفعل وجعل مصير كل حركات المقاومة محكوما عليه وإلما الاختلاف هو فى المدى ، فتجمعات العمل المباشرة تكتشف وتقمع وتجمعات التكوين والتنظيم فى انتظار انخلاص تطول ، ولسكنها قلما تدرك ساعة الخلاص ..

\* \* \*

وعندما أعلنت الحرب تصور المراقبون أن ساعة ثورة الشعب الألمانى قد حانت ولكنهم أخطأوا فما أن أعلنت الحرب حتى شدد الجستابو قبضته على البلاد بحيث زادت صعوبة القيام بأى عمل وفى الوقت نفسه ، فلم تكن الاحتمالات التى تتمخض عن المقاومة بأفضل من احتمالات الاستسلام ، فلو هزمت المانيا فسيحاربها المنتصرون حسابا عسيرا ، وسيدفع شعبها بمن هزيمة هتلر ، وليس فى هذا ما يشجع على الثورة . ومع قسوة الحرب ، فإن احتمالات سلام الهزيمة كانت اقصى .. ومن هنا ذاعت فى السنة الأخيرة للحرب تلك القالة « تمتع بالحرب فإن السلام قريب ... »

لم يكن هناك من سبيل إلا الاستسلام ، فقد كانت المانيا محكومة بملابساتها التاريخية كما كانت محصورة فى موقعها الجغرافى ، وكان لابد لهذه الرواية التى بدأت بالاندفاع الوطنى ، وما اعقبه من هزيمة ، وتعتز فإيمار وظهور هتلر ، والاندفاع الهتلرى والهزيمة الثانية . أن تتم فصولا ... ولكن ثمة فصل بعد لما يتحقق تماما - الفصل بعد الأخير . فمع أن الحزب الاشتراكى الديمقراطى بمتقضى برنامج جودسبيرج ( ١٩٥٩ ) أقبل أخيرا عن الشعارات التى ظل يتمسك بها فى الظاهر .. ويخالفها فى الواقع بفضل شجاعة « شوماخر » مجدد الحزب ، وبفضل العوامل المواتية الأخرى عندما كشف الاتحاد السوفيتى النقب عن مطامعه .. ومع أن التطورات الإجتماعية والحضارية للفترة المعاصرة أبعدت الشعب الألمانى عن تلك الجنور العسكرية البروسية التى تحكمته فيه



من ظهور بروسيا حتى ظهور هتلر .. مع كل هذا .. فإن تقسيم المانيا إلى شرقية وغربية يفسح المجال أمام فصل جديد .. وما يمكن أن يأتي به .. . وهناك ثلاثة احتمالات .. فإما أن تكون المانيا هي الصعيد الأول الذي يثبت التطور فيه إمكان التلاقى ما بين الماركسية .. والديمقراطية بعد أن تفقد كل واحد منها شغفيتها الفاعلة .. وإما أن يقتصر النظام الديمقراطي ويثبت أفضليته .. وإما أن يحدث العكس والاحتمال الأول أفضلهما .. وعندما يتحقق فستعود المانيا الموحدة لتقوم بدورها في المجتمع الدولي .. بقيم جديدة تبرأ من البروسية والماركسية على سواء .

والحقيقة أن السنوات التي أعقبت الحرب كانت بعيدة الأثر في كشف الشيوعية وتعرية الاتحاد السوفيتي فبعد أن كان حكمه الشمولي الغاشم مقصورا على شعبه ، فإنه امتد في اعتقابه انتصاره إلى شعوب أوروبا الشرقية ، وذاقت هذه الشعوب طعمه المر ، كما رأت بعينها مظامعه واستعماره الجديد واصطدامه مع المجر وبولندا وتشيكوسلوفاكيا فكان ذلك بداية اليقظة وتبدد أو هامها عن النعيم الشيوعي ، ثم جاء المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي الروسي وكشفه مخازي ستالين فكان سببا في أن يعيد الكثير من الشيوعيين الألمان حساباتهم وافكارهم .

ومن الدعوات التي تمثل هذا الاتجاه دعوة ولفجانج هاريش العضو المنشق على الحزب الشيوعي بألمانيا الشرقية وكن ولفجانج هاريش يقوم بتدريس العلوم الإجتماعية في جامعة برلين الشرقية وتجمعه أواخر الفكر المشترك بعدد من المثقفين والأدباء مثل الكاتب المسرحي برثولد برخت . وفي سنة ١٩٥٧ حكم على هاريش بالسجن عشر سنوات بتهمة الخيانة وقبيل القبض عليه استطاع أن يصور فسكرته في وثيقة حملت اسم « وصية ثأر حزبي » هربت إلى الاشتراكية الديمقراطية في المانيا الغربية وطبعت هناك .. .

والخط الرئيسى فى هذه الوصية « هو التخلص نهائيا من كل الآثار الستالينية والانبعية للاتحاد السوفيتى والعودة إلى منابع الفكر الماركسى التى أغلقها ستالين روزا لوكسمبرج يخاربن ، تروتسكى ، كاوتسكى ، وكذلك المحدثين منهم مثل فرتر ستيربرج والإفادة من التجارب الصينية واليوجوسلافية .

وترى الوثيقة أن الحزب الشيوعى الألمانى عندما يتخلص من الرواسب والقيود الستالينية فإنه يمكن أن يكون جناحا يساريا للحزب الاشتراكى الديمقراطى ويمكن لهذا أن يكون بداية توحيد المانيا .

ولا تؤمن الوصية بالرأسمالية ولكنها لا ترى أن انتصار الاشتراكية يتطلب ثورة . إنها متسود بطريقة سلمية بل حتى دون دفع الحزب الشيوعى لأن ظهورها أمر موضوعى .

والناظر فى هذه الوثيقة يرى أنها تشبه شيها كبيرا « بداية جديدة » التى ظهرت مع ظهور هتلر ، كما تشبه الأفكار الاشتراكية التى سادت فى مستهل القرن حتى وإن لم تذكر اسم برنشتين .

والنقص الوحيد هو أنها لما تتوصل بعد إلى التخلص من الوهم اللينينى ، وإن تخلصت من الوهم الستالينى . الأمر الذى نعتقد أنه سيكون نهاية المطاف . وأن اقتلاع ستالين سيؤدى حتما إلى التخلص من لينين لأن ما يمكن أن يؤخذ على ستالين إنما هو فجاجة الأسلوب وليس خطأ الغاية ، ولو كان لينين محله لاستهدف الغاية نفسها حتى وإن كان الأسلوب مذهباً أو مغلفاً بغلاف من الظاهر . وعندما يحدث هذا فسيكون المجال منفسحا أمام تجديد الفكر الاشتراكى ، وإعادة الديمقراطية إليه ، كما سينفتح المجال للوحدة الألمانية .

# فهرس

٣

مقدمة :

## الباب الاول : ألمانيا حتى الحرب العالمية الاولى

- ١٣ الفصل الأول : التطور السياسى
- ٣٢ الفصل الثانى : الحركات التحررية والشعبية حتى ثورة ١٨٤٨
- ٤٤ الفصل الثالث : تطور الحركة الاشتراكية الألمانية حتى نهاية القرن التاسع عشر
- ٧٤ الفصل الرابع : صراع الأفكار والوقائع
- تطور الاشتراكية الألمانية من بداية القرن العشرين حتى الحرب العالمية الأولى .

## الباب الثانى : تحديد المسار

- ٩٥ الفصل الخامس : ودارت رحى الحرب ...
- ١١٧ الفصل السادس : الثورة وإعلان الجمهورية
- ١٣٥ الفصل السابع : المعسكرات تنقلب
- ١٦٥ الفصل الثامن : الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى ظلل الغمام
- ١٨٧ الفصل التاسع : سبارتا كوس يصاب من جديد
- ٢٠٢ الفصل العاشر : أحداث بافاريا المعجبية
- ٢١٣ الفصل الحادى عشر : نهاية البداية

## الباب الثالث : المسيرة المتعثرة

- ٢٢٢ الفصل الثانى عشر : معاهدة فرساي المشثومة

— ٤٣٠ —

٢٤٩ الفصل الثالث عشر : مؤامرة كاب

٢٧٣ الفصل الرابع عشر : ثورة بالمراسلة

الباب الرابع : سنوات التحول

٢٧٤ الفصل الخامس عشر : الديمقراطية العزلاء في معسكر الأعداء

٢٩٠ الفصل السادس عشر : الحركة النقابية تدفع الثمن

٣٢٧ الفصل السابع عشر : من الانهيار إلى الازدهار

الباب الخامس : النهاية

الفصل الثامن عشر : الصيف الهندي

٣٣١ الفصل التاسع عشر : للمستشار الألمانى الأخير

٣٥٩ الفصل العشرون : ذلك الرجل أدولف هتلر

٣٧٧ الفصل الحادى والعشرون : خمس دقائق قبل الثانية عشر

٣٨٨ الفصل الثانى والعشرون : النهاية

٣٨٨ الفصل الثالث والعشرون : الفصل بعد الأخير

## بقلم المؤلف مؤلفات

- ثلاث عقبات في الطريق إلى المجد (١٩٤٥)  
ديمقراطية جديدة (١٩٤٦)  
مسئولية الانحلال بين الشعوب والقادة (١٩٥٢)  
ترشيد النهضة [سودر قبل التوزيع] (١٩٥٣)  
الأزمة والبطالة في الرأسمالية (١٩٥٧)  
موقف المفكر العربي تجاه المذاهب السياسية المعاصرة (١٩٥٧)  
قصة فرسان العمل (١٩٦٢)  
القانون والقضاء في المجتمع الاشتراكي (١٩٦٣)  
التنظيم والليدان النقابي (١٩٦٦)  
نشأة الحركة النقابية وتطورها (١٩٦٧)  
في التاريخ النقابي المقارن (١٩٦٧)  
دور النقابات في المجتمع الاشتراكي (١٩٦٧)  
الثقافة العمالية بين حاضرها ومستقبلها (١٩٦٩)  
منظمة العمل الدولية ملحق مجلة العمل العدد ٦٤ سنة ١٩٦٩  
الحركة العمالية الدولية ملحق مجلة العمل العدد ٧٢ سنة ١٩٦٥  
العمل في الإسلام ملحق مجلة العمل العدد ٨٥ سنة ١٩٧١  
محاضرات في الإدارة النقابية (١٩٧٢)  
روح الإسلام (١٩٧٢)  
الحرية النقابية ملحق مجلة العمل عدد مارس سنة ١٩٧٣  
قضية الإنتاج (١٩٧٣)  
العمال والدولة المعاصرة ملحق مجلة العمل عدد مايو سنة ١٩٧٥

## مترجمات ومراجعات

- النقابات في الولايات المتحدة (١٩٦٢)
  - » د المملكة المتحدة (١٩٦٢)
  - » د الاتحاد السوفيتي (١٩٦٢)
  - » د السويد (١٩٦٣)
  - » د بورما (١٩٦٣)
  - » د الملايو (١٩٦٣)
  - الأزمة المقبلة (١٩٦٢)
  - العمالة والتنمية الاقتصادية (١٩٦٦)
  - مدخل لتنمية الأجور (١٩٦٦)
  - الادارة العمالية في يوجوسلافيا (١٩٦٧)
  - العمل يجابه عصرأ جديداً (١٩٦٨)
  - الديمقراطية للنقابية (١٩٦٩)
  - دستور منظمة العمل الدولية (١٩٧٠)
  - اتفاقيات العمل الدولية « مجلدين » (١٩٧١)
  - توصيات العمل الدولية (١٩٧١)
  - البرنامج العالمي للعمالة (١٩٧١)
  - » تقرير المدير العام لمنظمة العمل الدولية «
-



## الكتابات والمؤلفات

عندما حاققت الهزيمة بألمانيا في الحرب العالمية الأولى ثار العمال والجنود وأسسوا سنة ١٩١٨ جمهورية أرادوا لها أن تكون اشتراكية ، ولكن الجمهورية الناشئة تمزقت ما بين سرف الشيوعيين وتشدد الرأسماليين .

وقد قدم المؤلف كتابه هذا تحت شعار « تعلموا السياسة » وأهداه لقيادات الهيئات الجماهيرية لايمانه بأهمية الثقافة السياسية لهم وجريرة الجهل بها عليهم .

وقد كان يستطيع أن يقول ما هو أعظم : ان مأساة فايما ر هي مأساة المجتمع العربي الذي يدفع غالبا ثمن التخبط في تحديد الموقف .

وقد عرض المؤلف بأسلوب رفيع ، ومقدرة على التحليل والمقارنة . وتمكن من المادة مسيرة فايما ر من ظهورها سنة ١٩١٨ حتى إسقوطها سنة ١٩٣٣ والمازق الذي وضعته الأقمار فيه والدروس المستفادة من تجربتها الديمقراطية البرلمانية . كما عرض للنازية - وما أسهمت به في مجال السياسة والدور البارز للفكر الماركسي في ظهور وسقوط جمهورية فايما ر .

والكتاب دراسة سياسية أصيلة حافلة بالأفكار المهمة التي عني المؤلف بأبرازها ليفيد منها كل مفكر ، وكاتب ، وعامل في المجال العام .

وليسست الكتابة السياسية جديدة على المؤلف ، فمنذ ثلاثين عاما أصدر كتابه « ديمقراطية جديدة » (١٩٤٦) وفي سنة ١٩٥٣ وأدت الرقابة العسكرية كتابه « ترشيح النهضة » الذي تنبأ فيه بالمخاطر التي تتعرض لها حركة ٢٣ يوليو ، وكيف يمكن مواجهتها . وفي سنة ١٩٥٧ أصدر كتابه « موقف المفكر العربي تجاه المذاهب السياسية المعاصرة » وان كان من المعروف عن المؤلف أنه يحكم التخصص كاتب عمالي ونقابي استكمل للمكتبة العربية نقصها في هذا المجال عندما أصدر « نشأة الحركة النقابية وتطورها » و « التنظيم والبنيان النقابي » و « في التاريخ النقابي المقارن » و « محاضرات في الإدارة النقابية » الخ . . . انظر قائمة المؤلفات والمترجمات بالداخل .

ومما يذكر للاستاذ جمال البنا أنه كان أول من أدخل الخدمة الاجتماعية في ميدان انساني جديد عندما أسس سنة ١٩٥٣ الجمعية المصرية لرعاية المسجونين ، وخلال عامين حققت الجمعية ثورة اصلاحية في نظم السجون ولاكثر من عشر سنوات ، والاستاذ جمال البنا يحاضر بمعهد الدراسات النقابية ، ومعهد التربية العمالية بالدقي ، كما تستعين به منظمة العمل العربية كخبير استشاري . . .

المن ٨ جنيه